مقاتلون فى سبيل وطنهم السوفييتى

*

*

فكتور نيكراسوف

فى خنادق ستالينجراد

دار التقدم • موسكو

ترجمة : بكر يوسف

ВИКТОР НЕКРАСОВ
В ОКОПАХ СТАЛИНГРАДА

На арабском языке

الجزء الاول

١

على غرة يأتي الامر بالانسحاب . بالامس فقط أُرسلت الينا من اركان الفرقة خطة الاستحكامات الدفاعية : خطوط الدفاع الثانية ، واصلاح الطرق ، وبناء القناطر . وطلبوا مني ثلاثة من جنود سلاح المهندسين لبناء نادي الفرقة . وفي الصباح اتصلوا بنا من اركان الفرقة وطلبوا منا الاستعداد لاستقبال فرقة الجبهة للرقص والغناء ، فاي شيء يدل على الهدوء اكثر من ذلك ؟ حتى لقد حلقنا انا وايجور ذقوننا خصيصا ، وقصصنا شعرنا ، وغسلنا رؤوسنا ، وفي نفس الوقت ، سراويلنا وفانلاتنا ، وتمددنا على ضفة نهير شبه جاف ننتظر حتى تجف ملابسنا .

وأخذنا نراقب جنود سلاح المهندسين الذين تحت امرتي ، وهم يبنون اطوافا صغيرة لجنود الاستطلاع .

تمددنا وأخذنا ندخن ، ويضرب كل منا ظهر الآخر ليطرد عنه الذباب الاسود السمين ، ونراقب مساعد قائد الفصيلة التي أرأسها وهو يغطس ويطفو مختبرا مدى استقرار الطوف في الماء ، بينما لمعت عجيزته البيضاء وكعباه الاسودان .

وهنا يظهر لازارينكو ، جندي مراسلة الاركان . انني ألمحه وهو لا يزال بعيدا . يثبت بيده البندقية التي ترتطم بظهره ، ويركض خببا عبر الحقل . وأفهم انا على الفور من ركضه الخبب هذا ان الامر لا يبشر بحفلة . لا بد سيأتي مرة اخرى مفتش من الجيش او الجبهة ... ومرة اخرى عليك ان تذهب معه الى خط النار لتريه الاستحكامات وتسمع منه الملاحظات . لقد ضاعت الليلة اذن ، ولتتحمل ايها المهندس مسؤولية كل شيء .

لا شيء أسوأ من القبوع في خطوط الدفاع . كل ليلة يأتيك مفتش . ولكل منهم مزاجه الخاص . هذا شيء لا بد منه . لأحدهم تبدو الخنادق ضيقة للغاية

يصعب فيها نقل الجرحى وسحب الرشاشات . وللآخر تبدو واسعة للغاية من الممكن ان تصيبك فيها الشظايا . والثالث تبدو له المتاريس منخفضة ، اذ لا بد ان يكون ارتفاعها ٤٠ سم ، اما عندكم ، فانظر ، لا تبلغ حتى ٢٠ سم . والرابع يأمرك بازالتها تماما ، لأنها ، في رأيه ، تكشف الموقع . فلتحاول اذن ان تنال رضا الجميع . اما مهندس الفرقة فلا يحرك ساكنا . طوال اسبوعين لم يأت الا مرة واحدة ، وحتى في هذه المرة تفقد خط النار ركضا ، ولم يقل كلمة مفهومة . اما انا فأبدأ كل مرة من جديد ، واستمع — واقفا انتباه — الى وصايا قائد الفوج : « متى تتعلم يا حضرة الرفيق المهندس حفر الخنادق كما يجب ؟ .. »

ويقفز لازارينكو فوق السور .

— هه ؟ ماذا هناك ؟

وتلمع اسنانه البيضاء في فمه ، ويمسح بعمرته جبينه المتصبب عرقا ويقول باللهجة الاوكرانية :

— قائد الاركان يستدعيكم .

— يستدعي من ؟ يستدعيني ؟

ـ انت وقائد الكيميائيين . أمر ان تحضروا خلال خمس دقائق .

حسنا... ليس هناك مفتش اذن.

ـ وهل تعرف لماذا ؟

ـ الشيطان وحده يعلم ـ ويهز لازارينكو كتفيه المبللتين بالعرق ـ لا احد يعرف شيئا ... لقد بعث جميع جنود المراسلة . وكان النقيب قد نام لتوه عندما جاءه ضابط المراسلة ...

ونضطر الى لبس السراويل والفانلات التي لم تجف بعد ، ونذهب الى هيئة الاركان . انهم يستدعون ايضا قادة الفصائل .

مكسيموف ، رئيس الاركان ، غير موجود . انه عند قائد الفوج . وعند خندق هيئة الاركان المسقوف يتجمع قادة الوحدات الخاصة وضباط الاركان . لا يوجد هناك من قادة الكتائب الا سيرجينكو قائد الكتيبة الثالثة . لا احد يعرف شيئا على وجه الدقة . اما ضابط الاتصال الملازم زفيريف الطويل القامة ، فمشغول بمعالجة سرج حصان ، يتنفس بصوت عال ، ويسب ويشتم ، وهو لا يستطيع شد حزام السرج .

ـ هيئة اركان الفرقة سترحل . هذا كل ما هناك ...

ولا يدري شيئا اكثر من ذلك .

ويستلقي سيرجينكو على بطنه ، ويعالج بالمدية قطعة من الخشب ، وكعادته يتأفف :

ـ لم نكد نصلح جهاز التعقيم ، حتى اصبح علينا ان نلقى بكل شيء الى الشيطان . ملعونة حياة الجندية ! الجنود يحكون اجسادهم حتى تنزف دماً .

اما ساموسوف قائد المدفعية المضادة للدبابات ، ذو الشعر الاشقر الفاتح ، والعينين المائيتين ، فيبتسم باحتقار قائلا :

ـ وماذا يكون جهاز التعقيم ... ان نصف رجالي قد مرضوا ويشكون من ظهورهم بعد التطعيم . لقد صبوا في جسد كل منهم قرابة كوب من محلول ما ... وها هم يتأوهون ويزفرون ...

ويتنهد سيرجينكو :

ـ أتراهم سيرسلوننا لاعادة تشكيلنا ؟

ويبتسم ضابط الاستطلاع جوجليدزي ابتسامة شوهاء ويقول :

— ها ... اول امس سلمنا مدينة سيباستوبول ، واليوم يستعد حضرته للتشكيل ... أتحسبهم ينتظرونك على احر من الجمر في طشقند ؟ *

لا يجيب احد بشيء . ما زال صوت الانفجارات يأتي من الشمال ، وفي الافق البعيد تئز القاذفات الالمانية ازيزا متقطعا ، سابحة ببطء نحو الشمال ايضا

ويبصق ساموسوف حانقا :

— يندفعون الى فالويكي ، الاوغاد ... ست عشرة طائرة .

ويعلق جوجليدزي ، العالم دائما بكل الامور :

— يقولون ان فالويكي قد احتلت .

— ومن هؤلاء الذين « يقولون » ؟

— سمعت ذلك بالامس في الفوج ٨٥٢ .

— انهم لا يفقهون شيئا هناك ...

— يفقهون او لا يفقهون ، لكنهم يقولون ...

ويتنهد ساموسوف ويستدير ليستلقي على ظهره .

---

* كانت مدينة طشقند — عاصمة جمهورية اوزبكستان السوفييتية — احد مراكز المؤخرة التي كان يتم فيها اعادة تشكيل الوحدات لارسالها الى الجبهة . المترجم .

— على العموم ، عبثا حفرت لنفسك خندقا يا ضابط الاستطلاع .. سوف تتركه للالمان للذكرى .

ويضحك جوجليدزي .

— انها علامة لا تخيب ... ما ان أحفر خندقا حتى نتحرك للسير . هذا ثالث خندق أحفره ، ولم يتسن ان أبيت في اي منها ولا مرة .

ويخرج مكسيموف من خندق الرائد ، ويقترب منا بخطوات مستقيمة ، كأنه يسير في استعراض . ومن خطوته هذه تستطيع ان تميزه على بعد كيلومتر . يبدو جليا انه مستاء . ثم يكتشف ان ازرار سترة ايجور وجيبه غير مزررة ، اما جوجليدزي فينقصه مربع * ، فكم مرة يجب ان ينبه الى ذلك ! ثم يسأل عن المتخلفين ، فيتضح انه قد تخلف اثنان من قادة الكتائب وقائد الاتصال ، فقد استدعوهم امس الى اركان الفرقة .

لا يقول شيئا اكثر من ذلك ، ويجلس على حافة الخندق . يجلس مشدودا ، جافا ، وكما هو دائما ،

---

* كانت علامات التمييز في الجيش السوفييتي في بداية الحرب وحتى عام ١٩٤٣ هي المربعات وليس النجوم . وكانت لا توضع على الاكتاف بل على ياقة السترة . المترجم .

مزررا جميع ازراره . وينفث دخان غليونه ذي رأس الشيطان . لا ينظر الينا .

بحضوره يصمت الجميع . ولكي لا يظهروا بمظهر العاطلين عن العمل — وهذه رغبة غريزية ان تبدو امام رئيسك مشغولا — يدسون ايديهم في حوافظهم العسكرية ، ويبحثون عن شيء ما في جيوبهم .

وتعبر الافق دفعة جديدة من القاذفات الالمانية .

ثم يتوافد قادة الكتائب : قائد الكتيبة الثانية ، كابل وهو رجل ربعة ، تقدمت به السن ، يشبه كلب البولدوج الاصيل ، وقائد الكتيبة الاولى شيريايف وهو شخص مقدام ، ذو خصلة ذهبية ، وعمرته منسدلة على حاجبه الايسر بطريقة جريئة . ويسمونه في فوجنا كوزما كروتشكوف * .

ويؤدي كلاهما التحية العسكرية . كابل يؤديها بطريقة مدنية ، مقوسا راحته قليلا الى الامام . اما شيريايف فبطريقة خاصة كجندي محترف مقاتل ، فلا يفتح

---

* كوزما كروتشكوف هو البطل الرسمي للحرب الاستعمارية (١٩١٤ — ١٩١٨) . وقد اشتهر بالجرأة والتوفيق واللسان الساخر . المترجم .

اصابع يده الا عندما تصل الى عمرته تماما ، ومع آخر كلمة من كلمات التبليغ عن حضوره .

يقف مكسيموف فتقف معه .

— هل الخرائط معكم ؟

يرن صوته حادا ، منفرا . لقد انطفأ غليونه ، ولكنه يستمر في مصه بطريقة آلية .

— أرجو ان تخرجوها .

ونخرج الخرائط . وينشر مكسيموف خريطته ذات مقياس الرسم ١ سم : ٥ كيلومتر ، والتي بليت من كثرة الاستعمال ، ويمتد عبرها خط احمر سميك من اليسار الى اليمين ، اي من الغرب الى الشرق .

— سجّلوا خط السير .

ونسجل . خط السير طويل ، حوالي مائة كيلومتر . نقطة الوصول نوفو — بيلينكايا ، حيث علينا ان نتجمع خلال ستين ساعة ، اي خلال يومين ونصف .

ويدق مكسيموف غليونه على كعب حذائه ليفرغه ، ثم ينظفه بعود جاف ، ويحشوه بالتبغ مرة اخرى .

— هل الامر واضح ؟

لا يجيبه احد .

ـ اعتقد واضح . سنبدأ التحرك في الساعة الثالثة والعشرين تماما . المرحلة الاولى ستة وثلاثون كيلومترا . نقضي اليوم في دوفانكا العليا . السير في طابور مسيرة ، وبالطبع مع طليعة استكشاف ونوبات حراسة . سيخبركم كورساكوف بنظام التحرك بعد عشر دقائق . انه الآن يعده .

كلمات مكسيموف محددة المعالم ، يرن كل حرف في كل كلمة منها .. كان من الممكن ان يصبح مذيعا لا بأس به .

ـ الكتيبة الاولى ستبقي في مكانها ، مفهوم ؟ ستبقي للتغطية . وأحذركم : يجب جمع كل شيء ، والا يكون هناك اي تخلف . المرحلة الاولى طويلة ، فتأكدوا من الاحذية وشرائط الجوارب ...

يمسك غليونه باصابعه النحيلة ، وينفث سحب دخان قصيرة متلاحقة. يزر عينيه ويحدق في شيريايف :

ـ ماذا لديك يا قائد الكتيبة ؟

يقف شيريايف ويشد سترته الى اسفل .

ـ لدي سبعة وعشرون مقاتلا ... وبجنود الدواب والجرحى يصبح المجموع خمسة واربعين .

ـ والتسليح ؟

ـ رشاشا « مكسيم » وثلاثة « ديجتاريف » وثلاثة مدافع هاون عيار ٨٢ .

ـ وكم قذيفة هاون ؟

ـ حوالي مائة .

ـ وعيار ٥٠ ؟

ـ ولا واحدة . والذخيرة قليلة : شريطان لكل رشاش ثقيل ، وخمس او ست علب للرشاش الخفيف .

شيريايف يجيب بهدوء وتأن ، ويبدو قلقا ، لكنه يحاول اخفاء قلقه . هيئته تسر الناظر ، فحزامه مشدود ، وكتفاه مستقيمتان ، وسمانتا ساقيه بارزتان ، ويداه مشدودتان ، وقبضتاه مضمومتان قليلا ، ومن ياقة سترته المفتوحة يبدو مثلث فانلته الزرقاء . ومن العجيب ان مكسيموف لا يوجه اليه لفت نظر ...

ـ هكذا .. اذن ... ـ ويطوي مكسيموف الخريطة بعناية ويدسها في المحفظة . ـ واضح ... سيبقى معك المهندس كيرجينتسيف ، مفهوم ؟ دافعوا عن الموقع يومين ، ومع حلول الظلام يوم ٨ ، ابدأوا الانسحاب .

يسأل شيريايف بتحفظ :

ـ بنفس خط السير ؟

ولا يحول نظره عن مكسيموف .

ـ بنفس خط السير . واذا لم تجدونا في نقطة التجمع ... على العموم انت ادرَى بما يجب عمله ساعتها ... انتهينا !

ويخفض شيريايف رأسه مقدرا الموقف ، ويلف الصمت الجميع ، لكن واحداً ـ يبدو انه كابل ـ يتنهد بشدة .

ويستدير مكسيموف الى ناحيته بحدة :

ـ لقد قلت انتهينا .. انصراف !

وبهدوء يسأل قائد الكتيبة الثالثة المصاب بقصر النظر والذي يشبه في هيئته احد العلماء :

ـ هل نرحل الآن ؟

ويتحول لون وجه مكسيموف فجأة من الشحوب الى الحمرة :

ـ أانت في الجبهة ام اين ؟ أتريد ان تقضي على الجميع ؟ يجب ان يكون لديك عقل يفكر على الاقل ...

وينهض الجميع وهم ينفضون عنهم التراب والاعشاب .

ـ اما انتما فلتأتيا اليّ .

يوجه هذه الكلمات اليّ والى شيريايف .

الخندق المسقوف رطب ضيق ، تنبعث منه رائحة التربة ، وعلى المنضدة خرائط خطوطنا الدفاعية ، الخرائط التي رسمتها انا . جلست طول الصباح أعمل فيها وأعجّل ، لارسالها الى الاركان ، فقد كان موعد التسليم الساعة العشرين تماماً .

ويجمع مكسيموف اوراق الخرائط بعناية ، ويسويها جيدا ، ويمزقها بالعرض وبالطول ، ثم يحرق القصاصات على ذبالة المصباح الزيتي ، وينكمش الورق وهو يحترق ، ويتلوى ، ثم يتفحم .

يقول مكسيموف بصوت عميق وهو يدوس الرماد الاسود الهش بسن حذائه :

ـ لقد اقترب الالمان من مدينة فورونيج ... مساء امس .

ونبقى صامتين .

ويُخرج مكسيموف من تحت المنضدة زمزمية في كيس من اللبد بغطاء ككوب الترمس . نشرب

فيها بالتتابع فودكا منزلية قوية لا تقل درجة تركيزها عن الستين . وتغص حلوقنا بها ، فنمز بخيار مملح ، ثم نشرب كوبا آخر .

ويحك مكسيموف ارنبة انفه باصبعين فترة طويلة :

ـ هل اشتركت في الانسحاب عام ٤١ يا شيريايف ؟

ـ نعم ، انسحبت من خط الحدود ...

ـ من خط الحدود ... وانت يا كيرجينتسيف ؟

ـ كلا ، كنت في الاحتياط .

ويمضغ مكسيموف الخيار المملح وهو شارد .

ـ وضعنا في منتهى السوء ... لن نستطيع تجنب التطويق ـ وينظر مباشرة في عيني شيريايف ـ اقتصد في الذخيرة ، ولا تطلق النار كثيرا ثناء بقائك هنا هذين اليومين الا لمجرد اثبات وجودك . واياك ان تدخل في معركة .. ثم ابحث عنا .. ابحث وستجدنا في مكان ما . فاذا لم تجدنا في نوفو ـ بيلينكايا ، فستجدنا في مكان ما بالقرب منها . ولكن تذكر جيدا ، وانت ايضا يا كيرجينتسيف ، ـ ويحدق فيّ بصرامة ـ اياك ان ترحل

1-2038

من هنا قبل يوم ٨ ، مفهوم ؟ حتى لو انشقت الارض تحتكم . لقد قال لي الرائد بالحرف « دع شيريايف يبقى ، وعززه بكيرجينتسيف » .. وهذا لا بد وان يكون له مغزى ... نعم ! وما الذي قررته بشأن المؤن ؟

ويبتسم شيريايف :

ـ فلتذهب هذه المؤن الى الشيطان ! خذها ، اترك لنا فقط ثلاث عربات للذخيرة . وحتى هذا كثير ...

ـ حسنا ، سنأخذها .

وتطل في الخندق رأس كاتب الاركان . انه رقيب مترهل ، مستدير الوجه . ويسأل عما يجب عمله بشأن الصندوق الاخضر : هل يأخذه معه ام يحرقه ؟ ويرد النقيب بما يفيد انه لا يمانع في احراقه ، فليس فيه اوراق هامة :

ـ احرقه على بركة الله ! لقد حملنا معنا هذه النفاية طوال نصف عام .. احرقه .

وينصرف الكاتب .

ـ هل تؤمنون بالاحلام يا كيرجينتسيف ؟ ـ يسألني مكسيموف فجأة ، ولست ادري لماذا يخاطبني بصيغة الجمع ، مع انه في العادة يخاطبني ـ كما

يخاطب الجميع – بصيغة المفرد . ودون انتظار اجابة مني يضيف : – لقد سقط مني اليوم في المنام سنان من اسناني الامامية .

يبتسم شيريايف . ان اسنانه متلاصقة ، منضدة :

– تقول النسوة ان هذا يعني وفاة شخص قريب .

– شخص قريب ؟ – ويرسم مكسيموف شيئاً متعرجا على قصاصة صحيفة – وهل انتم متزوجون ؟

ونجيب كلانا في صوت واحد :

– كلا !

– أمر مؤسف .. انني ايضا أعزب ، ولكني الآن آسف على ذلك . ان الزوجة لا غنى عنها .. كالهواء لا غنى عنها .. خاصة الآن ...

ويتحول الرسم المتعرج الى رأس امرأة برموش طويلة وفم صغير على شكل قلب ، وشامة فوق الحاجب الايسر .

– هل انت من موسكو يا كيرجينتسيف ؟

– كلا ، هل هناك شيء ؟

– لا .. كنت أعرف واحدة باسم كيرجينتسيفا .. قبل الحرب .. كان اسمها بالكامل : زينايدا نيقولايفنا كيرجينتسيفا .. أليست من اقربائك ؟

– كلا ، ليس لي اقارب في موسكو .

ويروح مكسيموف ويجيء في الخندق .. والخندق ذو سقف منخفض ، ولكي تسير فيه ينبغي ان تحنى هامتك . يراودني احساس بانه يريد ان يفضي بشيء ما ، ولكنه اما يخجل من ذلك ، واما يتردد .

ينظر شيريايف الى ساعته الصغيرة ذات الحزام الاسود الضيق ، ويلحظه مكسيموف فيتوقف ، ويقول بعجلة :

– اذهبا ... اذهبا فالوقت امامكما ضيق .

نقف ثم نخرج من الخندق ، ويتبعنا مكسيموف. لم يعد صوت المدافع مسموعا ، لا صوت الا نقيق الضفادع .

نقف بضع دقائق نصغي الى الضفادع . لقد امتد ظل الصنوبر حتى وصل الى الخندق . وتطير فوق رؤوسنا ببطء قذيفتا هاون وهما تصفران ، الواحدة خلف الاخرى ، ثم تنفجران في مكان بعيد خلفنا ، يبدو انهما من قذائف مدفعية الكتيبة ، ويضحك شيريايف هازئا :

– لا زال الالمان يضربون الاكمة المستديرة ، مع ان بطاريتنا انسحبت منها منذ ثلاثة ايام .

ونصغى خشية ان تطير قذائف اخرى ، ولكنها انتهت .

يقول مكسيموف وهو يمد يده :

ـ حسنا .. اذهبا .. وانتبها جيدا ...

وتند عنه حركة ، كأنه يريد عناقنا ، ولكنه يعدل عن ذلك ، ويكتفي بان يشد على ايدينا بقوة .

ـ حافظ على الذخيرة يا شيريا يف ، لا تبددها عبثا .

ـ تمام ايها الرفيق النقيب !

ـ انتبه اذن ...

وينصرف بخطوات قوية نحو الاكمة المستديرة ، حيث يلوح جنود الاشارة وهم يلفون الاسلاك .

واتفق مع شيريايف على ان أحضر اليه بعد حوالي ساعتين ، بعد ان أصفي اعمالي .

٢

سوء الحظ يلازم فوجنا . لم نحارب الا حوالي شهر ونصف لا غير ، ومع ذلك لم يعد لدينا رجال او مدافع ، ولا تملك اية كتيبة الا رشاشين او ثلاثة ...

كل هذا ولم نشتبك في معركة الا منذ عهد جد قريب ، في ٢٠ مايو ، قرب تيرنوفا ، بجوار مدينة خاركوف . خضنا المعركة مباشرة ، دون تمهيد . كنا نطأ الجبهة للمرة الاولى ولم نقاتل من قبل ، واخذوا يطوحون بنا من مكان الى آخر ، يلقون بنا في خطوط الدفاع ، ثم يسحبوننا ، ثم ينقلوننا الى مكان آخر ، ويعودون يلقون بنا في خطوط الدفاع . كان ذلك في فترة الهجوم الربيعي عند خاركوف . كنا مشتتين ، مرتبكين ، وأربكنا معنا الآخرين ، ولم نستطع ابداً ان نعتاد القصف الجوي .

ثم نقلونا جنوبا في منطقة بولاتسيلوفكا ، قرب كوبيانسك ، وقبعنا حوالي اسبوعين ، وحفرنا استحكامات الشواطئ ، والاستحكامات المضادة ، وزرعنا الالغام ، وبنينا اعشاش الرشاشات . ثم بدأ الالمان هجومهم ، فدفعوا باعداد لا تحصى ولا تعد من الدبابات ، وامطرونا بالقنابل . وارتج علينا وفقدنا السيطرة على انفسنا ، فبدأنا نتقهقر . وباختصار أخرجونا من المعركة ، ووضعوا مكاننا جنود الحرس ، ثم ارسلونا الى كوبيانسك . وهناك حفرنا من جديد اعشاش الرشاشات واستحكامات الشواطئ والاستحكامات المضادة ، الى ان لحق بنا

الالمان . لم ندافع عن المدينة طويلا ، يومين فقط ، فقد جاءنا امر بالانسحاب الى الضفة اليسرى للنهر. ودمرنا جسر الخط الحديدي والجسر العائم ، وتمركزنا بين عيدان الغاب على الضفة .

وهنا خيل الينا اننا سنعسكر طويلا ، فلن ندع الالمان يتخطون نهر اوسكول مهما كان الامر .

لكنهم لم يهاجموا . فقط أطلقوا علينا بعض قذائف الهاون ، فأجبناهم بالمثل . وهذه هي كل حربنا . وكل صباح كانت تحلق طائرة استطلاع مزدوجة الهيكل من طراز « فوكي ـ فولف » ، فنطلق عليها النار من الرشاشات الخفيفة بشدة ، ودائما بلا نتيجة . اما طائرات « يونكرس » فكانت تطير نحو مؤخرتنا وهي تئز في سكينة .

كان جنود سلاح المهندسين الذين تحت امرتي يشيدون الخنادق لهيئة الاركان ، والفتيات القرويات يحفرن خط الدفاع الثاني بحذاء بتروبافلوفكا ، اما نحن ضباط الاركان ، فكنا نعد البلاغات الحربية ، ونرسم خرائط التحصينات ، ومن وقت لآخر نذهب الى اركان الفرقة لتلقى بعض الدروس التدريبية .

كانت حياتنا تمضي هادئة ، وحتى جريدة « البرافدا » كانت تصلنا ، ولم تكن هناك في صفوفنا اية خسائر .

ثم فجأة ، وكما تنقض الصاعقة ، جاءنا الامر بالانسحاب ...

في الحرب لا تعرف ابدا الا ما يحدث امام انفك مباشرة . فاذا لم يطلق عليك الالمان نيرانهم ، خيل اليك ان الهدوء والسكينة يلفان العالم كله . واذا بدأوا القصف ، أيقنت ان الجبهة كلها من بحر البلطيق حتى البحر الاسود قد تململت .

وهكذا الحال معنا الآن . عسكرنا على ضفاف نهر اوسكول الحالم ، والغارق في عيدان الغاب ، ولم نحفل بشيء ، فقد توهمنا اننا اوقفنا تقدم العدو ... والانفجارات تدوي في الشمال ، دعها تدوي ، أليست هي الحرب ؟

ثم فجأة ، وكما يدوي الرعد في سماء صافية ، صدر الامر بالانسحاب في الساعة ٢٣ ...

ننسحب دون قتال ... وهذا هو المحنق في الامر . عند بولاتسيلوفكا اضطررنا ايضا ان نترك خنادقنا التي

ألفناها ... لكننا هناك أجبرنا على ذلك بالقوة . اما هنا فالامر مختلف ... فبالامس فقط تفقدت انا وشيريايف الاستحكامات ، واني لأقسم لكم انها لا بأس بها ، بل لقد امتدحها قائد الفرقة نفسه ، وخاصة توزيع الرشاشات ، وأرسل المهندسين من الفوجين ٨٥٢ و٨٥٤ ليتعلموا كيف شيدنا اعشاش الرشاشات تحت المنازل .

أمن المعقول ان الالمان توغلوا في خطوطنا الى هذا الحد ؟ .. لو كانوا حقا وصلوا الى مدينة فورونيج ، فنحن اذن في وضع لا نحسد عليه . ويبدو انهم قد توغلوا فعلا ، والا لما صدر الينا الامر بالانسحاب دون قتال ، ومن موقع كهذا على ضفاف اوسكول . ويبدو انه لا توجد اية انهار اخرى في قطاعنا من هنا حتى نهر الدون ... فهل من المعقول اننا سننسحب حتى نهر الدون ؟ ..

ـ ايها الرفيق الملازم ، كيف سنحمل المؤن ؟

وينظر اليّ باستفهام قائد الفصيلة الجديد ، ذلك الشاب ذو الشارب الذي بدأت شعيراته تنبت . ثم يسألني :

ـ هل سنحمل الالغام ؟

ـ وهل أعطتكم اركان الفرقة سيارات ؟

ـ كلا ، لم تعطنا .

ـ اذن ادفنها . هل تبقى منها شيء على الشاطئ ؟

ـ نعم ، حوالي مائة لغم .

ـ حسناً ، خذ معك حوالي عشرين لغما ، من يدري ربما احتجنا اليها ، وادفن الباقي .

ـ مفهوم .

ـ وهل المجارف كلها موجودة ؟

ـ في الكتيبة الثالثة ثلاثون مجرفة .

ـ اذن أسرع باحضارها . هيا !

ويستدير بمهارة ويركض نحو المؤن وهو يثبت حافظته الجلدية بيده . ياله من فتى رائع ! مجتهد ، ولكن يعيبه خوفه الشديد من الرقيب الاول .

نعم ... علينا ايضا ان نستبدل الخريطة . وهكذا لم يتسنّ لنا ان نستخدم الخريطة الجديدة ذات الورق المنشي ، والتي في زاويتها اليسرى بقعة متشعبة الاطراف كالاخطبوط ، الا وهي مدينة خاركوف ...

في الساعة الثانية عشرة تنسحب آخر فصيلة في

فوجنا باتجاه بتروبافلوفكا تصحبها صلصلة اوعية طعام جنودها .

نطوف انا وشيريايف طوال الليل بالمواقع الامامية . كان علينا ان نعيد توزيع الرشاشات ، اذ انسحب حماة المواقع المحصنة وحملوا معهم رشاشاتهم . كان عددها خمسة عشر ، ولم يبق لدينا الآن الا خمسة : اثنان من طراز « مكسيم » وثلاثة من طراز « ديجتاريف » . لسنا اذن في رغد من العيش . ننصب الرشاشين « مكسيم » في الجناحين ، وبينهما الرشاشات اليدوية . ونضطر كذلك الى اعادة توزيع الجنود ، فقد اتسعت الجبهة التي تحميها الكتيبة اكثر من ثلاثة اضعافها . ونضع على امتداد كل كيلومتر من ١٠ الى ١٢ جندي ، يفصل الواحد منهم عن الآخر من ثمانين الى مائة متر ... بالطبع قليل .

يمر اليوم التالي في هدوء ، لم يتنبه العدو بعد ، فيواصل ضربه للطريق ولطرف بتروبافلوفكا الشمالي كسابق عهده ، ولكنه يضرب بخفة وبلا حماس . وتنفجر قذيفتا هاون او ثلاث في فنائنا ، حيث توجد نقطة قيادة شيريايف في قبو منزل من اربع طوابق ،

مليء بثقوب الطلقات ، ويبدو انه كان في وقت ما مسكنا جماعيا . وتجرح الشظية قطة حمراء تقطن هي واولادها معنا في القبو . فيضمدها الممرض ، بينما تموء وتنظر الى الجميع بعيون صفراء مذعورة ، ثم تدخل الى الصندوق حيث يعيش اولادها . فيصرخ هؤلاء ، ويطأ بعضهم بعضا ، ويدسون رؤوسهم في الضمادة ، وهم لا يستطيعون الوصول الى ثدي امهم .

٣

في الليل نزرع الالغام في الشاطىء . يحفر فاليجا ، جندي مراسلتي ، حفر الالغام ، ثم يزرع الرقيب بويكو الالغام ويموهها .

يساعدهم جندي صغير ، خفيف الحركة ، كان سابقا جنديا في سلاح المهندسين ، وقد أعطاه لي شيريايف .

الليل شديد الظلام ، واحيانا ينقر المطر .. مطر دافئ ولطيف ، حتى انني لا ألتحف الغطاء المشمع . وتتطاير صواريخ الاضاءة ، الواحد تلو الآخر . وتطلق الرشاشات طلقاتها في تراخ . وأرقد انا وسط نبات الارقطيون

الشائك ، وتسرى في الجو رائحة طيبة ، رائحة رطوبة الليل والارض الطرية .

لا أرى فاليجا ولا بويكو . ومن حين لآخر يمر الجندي حاملا الالغام يصحبه حفيف حذر . الالغام مكومة بجواري ، ويأخذ الجندي في كل مرة اربعة دفعة واحدة ، ويربطها بحزامه .

أنظر الى الضفة المقابلة ، الى مجموعات شجر الصفصاف المنحنية ، والتي يضيؤها ضوء الصواريخ المرتعش .

وأتذكر شارعنا وحديقته ذات اشجار القسطل الفارعة التي تشابكت قممها فصنعت قوسا فوقه . في الربيع كانت تكتسي ازهارا بيضاء ووردية كأنها الشموع . وفي الخريف كان البوابون يحرقون الاوراق الذابلة . اما الاطفال فكانوا يحشون جيوبهم بثمار القسطل . وانا ايضا جمعتها في وقت ما . وكنا نحمل الى منازلنا المئات منها ، فتمتلئ الادراج بهذه الثمار اللامعة الانيقة ، ويضيق بها الجميع ، وتبقى زمنا طويلا كلما كنسوا الغرف أخرجوا منها الكثير من تحت الخزائن والسرائر . وكانت اكبر كمية منها تختفي تحت الاريكة الكبيرة .

لقد كانت اريكة طيبة ، لينة وعريضة . كنت اتخذها فراشا لي . وكان بها الكثير من البق ، ولكني عشت معه في وفاق فلم يمسني . وكانت جدتي تستلقي دائما للراحة بعد الغداء على هذه الاريكة . فكنت أغطيها بمعطف قديم كان لا يستخدم الا لهذا الغرض ، وأدس في يدها كتاب ذكريات مؤلف ما ، او رواية تولستوي « أنّا كارينينا » . ثم ابحث لها بعد ذلك عن نظارتها ، فأجدها في « البوفيه » في درج الملاعق . وعندما أجدها تكون جدتي قد نامت ، اما القط « فراكس » ذو الشوارب المحروقة ، فكان يحدق فيّ بعينين مزرورتين من تحت ياقة المعطف الناحلة ...

يا الهي ... لقد كان ذلك منذ زمن بعيد !.. وربما لم يكن على الاطلاق ، وانما هي اوهام ...

الى اليمين صوان ملابس كبير . كنا نختبئ فيه عندما كنا نلعب لعبة « استغماية » ونحن صغار . في ذلك الوقت كان الصوان قائما في الممشى ، وبعد ذلك فتحنا بابا في جدار الممشى وأدخلناه الى الغرفة . وفوقه كانت توجد علب كرتون بها قبعات ، وتغطيها طبقة سميكة من الغبار ، لا يمسحونها الا قبيل رأس

السنة ، او اول مايو ، او عيد ميلاد امي في الرابع والعشرين من اكتوبر .

وخلف الصوان خزانة ذات ادراج وبها مرآة بيضاوية عليها عدد لا حصر له من المزهريات والقوارير . ولست أتذكر متى كان في هذه القوارير عطور ، ولكنهم في المنزل لا يتخلصون منها لست ادري لماذا . فاذا نزعت السدادة واستنشقت بقوة ، استطعت ان تشم رائحة عطر .

بعد ذلك تجد « كمودينو » الفراش ... كلا ، بل كرسي ازرق اللون رجله مكسورة ، ولكنها مشدودة اليه . لا يمكنك ان تجلس عليه ، ودائما يحذر الضيوف من ذلك . ثم بعده « كمودينو » الفراش ، وهو مليء بالاحذية اللينة المخططة ، وفي درجه علب ادوية جدتي من مساحيق وحبوب لم يعد احد يميز انواعها من زمن طويل . وهناك ايضا كأس به قطرات فاليريانة * ، وضعت هناك حتى لا يصل اليه القط .

كل ذلك الآن هناك ... لديهم .

---

* دواء لمرضى القلب يحضر من عشب طبي يسمى بنفس الاسم او بـ « نبات القط » . المترجم .

آخر بطاقة من امي وصلتني بعد ثلاثة ايام من اذاعة نبأ سقوط كييف . ولكنها كانت مؤرخة في اغسطس . وكانت امي تقول انهم طردوا الالمان ، ولم يعد صوت المدافع مسموعاً تقريبا ، وفتح السيرك ابوابه ، وكذلك مسرح الكوميديا الموسيقية وعموما « أكْثِرْ من رسائلك ، وان كنت أعلم ان الوقت لديك قليل .. لكن اكتب ، ولو ثلاث كلمات ... »

مضى منذ ذلك اليوم عشرة اشهر . واحيانا أخرج من جيبي البطاقة ، وأحدق في الحروف الدقيقة المطموسة من اثر المطر والعرق . وفي احد الاماكن ، في اسفل البطاقة تماما لم يعد ممكنا قراءة الكلمات المكتوبة هناك . لكني احفظها عن ظهر قلب .. انني أحفظ البطاقة كلها عن ظهر قلب . وفي الوجه الذي يكتب عليه العنوان ، الى اليسار اعلان عن مؤسسة للمطاط ، رسم به قدمان تنتعلان حذاء طويلا . والى اليمين طابع بريد يحمل صورة محطة مترو « مايا كوفسكايا » .

كنت مغرما في طفولتي بجمع الطوابع . وكنت أطلب من كل اصدقائنا ومعارفنا ان يلصقوا على رسائلهم

الينا طوابع جميلة جديدة ... وها هي امي الآن قد ألصقت على البطاقة طابعا جميلا ... كما في الطفولة ... كانت هذه الطوابع محفوظة هناك في علبة طويلة صغيرة على الجانب الايسر من المنضدة . ولا بد ان امي انفقت وقتا طويلا وهي تختار ، حتى استقر رأيها على هذا الطابع الاخضر الجميل . لقد وَقَفَتْ منحنية فوق المنضدة ، وخلعت عويناتها وأخذت تتفحص الطوابع بعينين مزرورتين ، مصابتين بقصر النظر ...

أمن المعقول اني لن أراها ابداً بعد ذلك ؟ تلك المخلوقة الصغيرة النشيطة ، ذات العوينات الذهبية ، والشامة الدقيقة على انفها ؟ كم كنت أحب تقبيل هذه الشامة وانا صغير !

أمن المعقول اننا لن نجلس بعد ابدا حول « السماوار » الذي يغلي ، واحد جوانبه مبطط ، لنشرب الشاي مع مربى الفراولة التي تغرم بها امي ... أن اصابعها لن تداعب بعد خصلات شعري ثم تقول : « انك اليوم لا تبدو على ما يرام يا يورا ... هلاّ نمت اليوم مبكرا ؟ » .. وانها لن تحمر لي البطاطس كل صباح على موقد الكيروسين ، بعد تقطيعها قطعا كبيرة كما أفضل ؟..

أمن المعقول انني لن أركض بعد كل صباح وأنعطف خلف ركن المنزل لأشتري الخبز ، وأتجول في شوارع كييف الغارقة في عبير اشجار الزيزفون المزهرة ، واذهب كل صيف الى المصيف في جزيرة تروخانوف؟ ..

آه يا كييف ، يا مدينتي الحبيبة ! كم أحن الى شوارعك العريضة ، الى قسطلك ، الى احجار منازلك الصفراء ، الى اعمدة جامعتك الحمراء الداكنة . كم أعشق روابيك الدنيبرية . كنا في الشتاء نتزحلق هناك على الزلاجات ، وفي الصيف نستلقى على العشب نحصي النجوم ونصغي الى الصفارات الكسلى للسفن الليلية ... ثم نعود عبر شارع كريشاتيك الساكن ، والذي أظلمت واجهات محلاته ، فتزعج الحراس النائمين في هدوء تحت البواكي ، الملتفين في معاطف من الفراء حتى في قيظ الصيف ...

وانا الآن احيانا أتنزه بخيالي في شارع كريشاتيك . التف بالمشمع الواقي من المطر ، وأغلق عيني ، وانطلق من بيسارابكا حتى أبلغ الدنيبر . وأتوقف عند سينما « شانتسير » ، وهي اعظم دار سينما في العالم . هكذا

خيل الينا في طفولتنا . حول شاشتها بعض التماثيل لاناس ينفخون في ابواق طويلة ، ومنصات للقرابين تلفها اشرطة حمراء ساطعة كاللهب . وتنتشر في جوها رائحة سينمائية خاصة مثيرة . كم من لحظات هنية قضيتها في هذه الدار !.. وتلك الافلام .. « المقبرة الهندية » و « لص بغداد » و« علامة زيرو » ... يا الهي ! انه لشيء يبهر الانفاس .. وبعدها بقليل ، وبالقرب من شارع بروريزني كانت سينما « كورسو » تعرض في صالتها الضيقة ذات المقاعد الخالية من الارقام ، افلام رعاة البقر ، حيث المطاردات ، والرمى بالرصاص ، والجاموس البري والمسدسات والنساء ذوات السراويل ، والاشقياء ذوو الشوارب الرفيعة والابتسامات التهكمية . اما في سينما « اكسبريس » — التي لست أدرى لماذا تحول اسمها الى اسم نثري هو « سينما الدولة رقم ٢ » — فقد كانت تعرض افلام الممثلات بولا نيجري ، وآستا نيلسين واولجا تشيخوفا * . ولم نكن نحب تلك الافلام كثيرا ، ولكن بائع التذاكر في سينما « اكسبريس » كان

* من مشاهير نجوم السينما في العشرينيات .

من معارفنا ، فصرنا نذهب الى هناك كل يوم جمعة .

والآن انعطف الى شارع نيقولايفسكايا . انه اكثر شوارع كييف جاذبية . اشجار الزيزفون المقصوصة بعناية تحيط بها اقفاص لحمايتها ، والمصابيح الكبيرة البيضاء كاللبن تتدلى على سلاسل سميكة تمتد من منزل الى منزل . وسيارات « لنكولن » تربض عند فندق « كونتيننتال » . وبالقرب من السيرك تتجمع جماهير الصبيان في انتظار خروج يان الغجري ، ويتراهنون حول لقاء اليوم بين دانيلا باسونكو و« قناع الموت » .

وبعد ذلك شارع اولجينسكايا ، وشارع انستيتوتسكايا ، ثم مبنى مصرف اضيفت اليه طوابق جديدة ، وفي اركانه ابراج ربما غوطية وربما رومانية . وهناك ضاحية ليبكى الناعسة ، الساكنة ، المنعشة ، حتى في اوقات القيلولة المحرقة في شهر يوليو ، بفيلاتها المريحة ذات النوافذ المتربة ... ثم اشجار الدردار العتيقة في حديقة القصر .. واوراق الاشجار التي تخشخش تحت الاقدام .. ثم .. قف ! امامك جرف .. وبعده الدنيبر والآفاق البعيدة الزرقاء ، والسماء الواسعة ، ثم منطقة بودول المسطحة ،

الغاصة بالمداخن ، ثم المبنى الانيق لكنيسة اندرييفسكايا المعلق فوق الهوة ، ثم السفن التي تضرب الماء بزعانفها ، ثم رنين ترام دارنيتسا ...

أوه .. حبيبتي .. حبيبتي كييف !

ما ابعد كل هذا عني الآن ... وكم من الزمن مر عليه ، يا الهي كم من الزمن ! في فترة ما كان هناك معهد ، ورسومات هندسية والواح ، وليال مسهدة قبل الامتحان ، قصيرة جداً ، ومقاومة المواد ومختلف نظريات الفن المعماري ، وهناك ايضا عشرون مادة اخرى ، لم أعد اذكرها الآن ...

كنا ستة اصدقاء لا نفترق : اناطولي سيرجييف ، ورودانسكي ، وفيرجون ، ولوسي ستريجيفا ، وشوركا جرابوفسكي ، ذلك الفتى الصغير المرح . ولست أدري لماذا كان الجميع يسمونه « العصفور الصغير » . كنا ندرس كلنا معا ، ومعاً نذهب الى خارج المدينة للاستجمام ، وفي جميع المباريات كنا نشترك معاً . وعندما انهينا المعهد ، ذهبنا كلنا الى ورشة واحدة ، وما ان بدأنا العمل ، واشترينا مساطر وعلب الرسم الهندسي حتى ...

استشهد العصفور الصغير قرب كييف ، في ضاحية جولوسييف ، أخبرتني بذلك امي في خطابها ، فقد كان نزيلا في المستشفى الذي تعمل به . وكان قد فقد ساقيه الاثنتين . لكني لا أعلم شيئا محدداً عن الآخرين . بالنسبة لفيرجون ، فقد وقع في التطويق على ما يبدو ، اما رودانسكي فلم يجند لأنه قصير النظر ، ويبدو انه هاجر مع المهاجرين . وعندما استدعيت للخدمة ودعني حتى محطة القطار . اما اناطولي فيبدو انه أصبح جندي اشارة ، هكذا قال لي شخص لم أعد أتذكره .

ولوسي ؟ .. ربما تكون قد هاجرت ؟ من المستبعد ... فلديها ام عجوز مريضة . وقد كتبتُ الى عمتها في موسكو ، ولكنها لا تعلم عنها شيئا . منذ عامين ، وكما أتذكر الآن ، كنت مع لوسي عند الدنيبر في الخامس من يونيو ، في عيد ميلادها . واستأجرنا قاربا سريعا خفيفا بمقاعد متحركة وذهبنا بعيداً ، أبعد من جزيرة ناتالكا والجسر الاستراتيجي . كان لدينا هناك مكان مفضل ، هو بلاج صغير ساحر ،

منعزل بين اعواد الغاب ونبات العلق . ولم يكن احد يعرف هذا المكان ، ولم يذهب اليه احد مطلقا . والماء هناك صاف كالزجاج . كما كان بوسعك ان تقفز من الشاطئ العالي الى الماء ... وبعد ذلك عدنا متعبين ، وقد ظهرت في أيدينا فقاقيع من اثر المجاديف ، فجلسنا في حديقة القصر نستمع الى السيمفونية الخامسة لتشايكوفسكي . كنا نجلس على اريكة منعزلة ، وبجوارنا كانت ازهار حمراء زاهية للزينة ، وفي عروة قائد الفرقة الموسيقية كانت هناك ايضا زهرة ما ...

ـ هل سنزرع الصف الثالث ؟

سألني صوت ما فوق اذني تماما .

فانتفضت .

انه فاليجا ، يجلس القرفصاء ، وتنظر اليّ باستفهام عيناه الصغيرتان البراقتان كعيون القطط .

ـ الصف الثالث ... كلا ، لن نزرعه . انتقلوا الى المربع الرابع ، بجوار المرفأ .

وننقل ما تبقى لدينا من الغام الى المرفأ ونبدأ في زرعها . بقي حوالي اربعين لغما .

٤

منذ الصباح تحوم فوق مواقعنا طائرة من طراز « ميسرشميت » ، لكننا لا نطلق عليها النار اقتصاداً للذخيرة . وعلى ارتفاع شاهق يسبح نحو الشمال الشرقي سربان كبيران من طائرات « هينكل » وسرب من طائرات « يونكرس ـ ٨٨ » .

في حوالي الساعة السابعة مساء يأتي الينا في نقطة القيادة ملازم شاب ، يرتدي عمرة جديدة ذات شريط احمر ، قادما من جارنا الايمن الكتيبة الثالثة من الفوج ٨٥٢ . يسألنا كيف الاحوال عندنا ، وما الذي ننوي عمله . الاحوال عندهم ايضا هادئة ، لديهم حوالي ستين مقاتلا وخمسة رشاشات ، لكن تنقصهم مدافع الهاون . يتناول معنا الغداء ثم نصرفه الى موقعه .

مع حلول الظلام يبدأ الاستعداد للرحيل . نحمّل عربتين ونترك الثالثة . لا يستطيع الرقيب الاول الاعور عند شيريايف ويدعى بيليبنكو ان يفارق حاجياته الاحتياطية ، وهي عبارة عن حذاء قديم وسروج خيل واجولة محشوة بالخرق البالية . وبينما يتذمر ويلعن

الالمان والحرب والحصان الاسود العجوز « سيرينكو » الذي يطرد عن بدنه الذباب بهدوء ، يأخذ في دس اجولته في جميع اركان العربة ، لكن شيريايف يلقى بها بعيدا . ويتصنع بيليبنكو اللامبالاة ، وهو يمضغ لفافة تبغ ، وعندما ينصرف شيريايف يدس اجولته بعناية تحت صناديق الذخيرة وهو يردد :

ـ أيرمي مثل هذا الحذاء ؟ فليتق الله ! ما زال امامنا مشوار طويل .

ثم يغطي الاجولة البارزة من تحت صناديق الذخيرة بقطعة من القماش الخشن .

في حوالي الحادية عشرة نبدأ في سحب الجنود من المواقع . يأتون فرادى ، ثم يستلقون في صمت على ارض حديقة الفناء التي كانت في وقت ما خضراء . يختلسون انفاساً من اللفائف وهم يجمعون حاجياتهم ، ويلفون الاشرطة على اقدامهم .

وفي الثانية عشرة تماما نطلق آخر دفعة رشاش من هذا الفناء ، ثم نرحل .

ويظل شبح المنزل باديا لبعض الوقت من خلال شجرة الصنوبر ، ثم يختفي عن الانظار .

لم تعد هناك خطوط دفاع منذ الآن على شاطئ نهر اوسكول . كل ما كان حتى الامس حيا ، ينفث الرصاص ، شاكيا بنادقه ورشاشاته كشوك القنفد ، كل ما رمز اليه في خريطة الموقع بانصاف اقواس حمراء صغيرة ومنعرجات وقطاعات متقاطعة ، كل ما أنفقنا عليه ثلاثة عشر يوما بلياليها ، كل ما حفرناه وسقفناه باسقف من ثلاث او اربع طبقات وموّهناه بعناية بالاعشاب والاغصان ... كل هذا لا جدوى منه الآن . وبعد عدة ايام سيتحول الى مأوى للضفادع يطفح بالطين والمياه السوداء العطنة ، ثم ينهار . وفي الربيع سيكسوه عشب اخضر نضير ، ولن يجول احد غير الاطفال في هذه الاماكن ، حيث كانت في وقت ما تنتصب رشاشات الضرب على الجناحين ، يخوضون في الماء حتى الركبة ويجمعون الطلقات الصدئة . كل هذا نتركه دون قتال ، دون طلقة واحدة ...

نسير عبر غابة صنوبر غير كثيفة ، اشجارها صغيرة ، يبدو انها غُرست من وقت قريب . ونمر بجوار خنادق هيئة الاركان . نرى خندق وحدة المشاة الذي لم نكمل حفره . وتبدو الحفرة فاغرة فاها . وفي

الظلام تلوح شاحبة جذوع اشجار الصنوبر التي شذبت منذ فترة قريبة . لقد نقلناها على اكتافنا من الغيضة القريبة الى هذا المكان لكي ندعم بها اسقف الخنادق .

بتروبافلوفكا تمتد الى ما لا نهاية ، يملؤها الغبار ، بكنيستها ذات برج الاجراس المثقوب ، وجسرها الموشك على الانهيار ، والذي كان علىّ ان أرممه اليوم بالذات ، وفقا للخطة المرسومة .

الهدوء شامل لدرجة مذهلة . حتى الكلاب لا تنبح ، ولا احد يخمن شيئا . الكل ينام ، وعندما يستيقظون غدا سيرون الالمان بينهم .

اما نحن فنسير صامتين ، شاعرين بذنبنا ، فننظر تحت اقدامنا ولا نتلفت ، لا نودع احداً او شيئا ، نسير مباشرة نحو الشرق باتجاه ٤٥ درجة .

فاليجا يسير بجواري ، يحمل على ظهره جربندية وزمزميتين وغلاية ومحفظة الخريطة وحقيبة الميدان ، بالاضافة الى حقيبة القناع الواقي من الغازات محشوة بالخبز . وقد اردت قبل الانسحاب ان اترك بعض حاجياتي لأخفف من حملي ، الا ان فاليجا لم يدعني ألمس الحقيبة ، وقال :

ـ انني اعرف احسن منك ما الذي يلزمك ايها الرفيق الملازم . في المرة الماضية رتبت الحقيبة بنفسك ، فنسيت معجون الاسنان والمرهم وكوب الحلاقة ، واضطررت الى اللجوء لوحدة الكيميائيين .

ليس لدي ما اقوله رداً عليه ، فلفاليجا طبع المدير ، وليس من المعقول ان تناقشه . وعلى العموم فهو شاب رائع . انه لا يسألك شيئا ابداً ، ولا يجلس دقيقة واحدة بلا عمل . وحيثما حللنا تجده بعد خمس دقائق فقط قد أعد خيمة مريحة ، ولا بد ان يفرشها بالعشب الطازج . وغلايته دائما تلمع كأنها جديدة ، ولا يمكن ان تفارقه زمزميتاه : واحدة بها لبن ، والاخرى بها فودكا . والذي لا أعلمه هو كيف يحصل على هذا ، لكني أعلم انهما دائما مليئتان . وهو يستطيع ان يقص الشعر ويحلق الذقن ويصلح الاحذية ويشعل النار تحت سيل من المطر . وكل اسبوع أغير ملابسي الداخلية ، ويرتق هو جواربي بمهارة امرأة . فاذا عسكرنا بجوار نهر أطعمنا كل يوم سمكا ، واما في الغابة فيأتينا بالفراولة والتوت الاسود والفطر . كل هذا يفعله في صمت وبسرعة ودون اي تنبيه من جانبي .

وخلال الاشهر التسعة التي عشناها معاً ، لم أغضب منه مرة واحدة .

وهو الآن يسير بجواري بخطوات لينة كخطوات الصياد ، وأعرف انه عندما سنتوقف للراحة فسوف يفرش المشمع على اكثر الاماكن جفافاً ، وسأجد في يدي قطعة من الخبز مدهونة بالزبد ، وكوبا نظيفا من الصاج المطلي بالمينا مملوءا باللبن . اما هو فسيكون ساعتها مستلقيا الى جواري ، صغيراً ، مستدير الرأس ، ينظر الى النجوم في صمت ، وينفث دخان غليون صغير أعجف ، يجعله شبيها برجل عجوز ، مع انه لم يتعد الثمانية عشرة .

وهو لا يحكي عن نفسه شيئا ، ولا أعرف عنه الاّ انه يتيم الابوين ، ولديه في مكان ما اخت متزوجة ، ولكنه لا يكاد يعرفها . وقد حكم عليه بالسجن لشيء ارتكبه — ولكنه لم يذكر ماذا ارتكب — ثم افرج عنه قبل نفاد المدة ، والتحق بالجيش متطوعا . واسم عائلته بالكامل فوليجوف ، ولكن الجميع يدعونه فاليجا ... هذا كل ما أعرفه عنه .

نادرا ما نتحادث ، فهو صموت ومنطو على نفسه . مرة واحدة فقط صارحني الى حد ما . وقد حدث ذلك في الربيع ، منذ حوالي ثلاثة اشهر . كنا يومها مجهدين ومبللين حتى النخاع ، وجلسنا نجفف انفسنا حول النار . أخذت انا أفك الاشرطة التي نرتديها على القدمين بدلاً من الجوارب ، اما هو فكان يطهو مسحوقا مركزا من جريش الدخن في علبة فارغة من علب الطعام المحفوظ . وكان هذا المسحوق المركز طعامنا الوحيد لمدة اسبوعين ، فلم نكن نستطيع ان ننظر اليه باعصاب باردة .

كان المكان حولنا بارداً ومظلما . والمشمع المبلل الذي افترشناه تصلب من البرد ولم يعد يدفئ مطلقا . وكنا وحدنا ، انا وهو .

وقد بدا بغليونه المتدلى من فمه ، ووجهه الذي اضاءه لهب النار ، كقزم يحضر مركّبا سحريا .

قال فاليجا :

— عندما تنتهي الحرب ، سأعود الى بلدي ، ثم أبني لي منزلاً في الغابة ، من جذوع الاشجار . انني أحب الغابة . وسوف أدعوك لزيارتي ، فتمكث

عندي ثلاثة اسابيع ، وسوف نذهب معاً لصيد الحيوانات والطيور والاسماك .

وابتسمت . وسألته :

ـ ولماذا ثلاثة اسابيع بالذات ؟

ـ واذن كم يوما ؟

ودهش فاليجا ، غير ان وجهه لم يعكس شيئا ، بل ظل كما هو ينفث دخان الغليون ، ويحرك العصيدة .

ـ لن تستطيع ان تبقى اكثر من ذلك ، فساعتها ستكون موظفا ، ولن تغيب عن العمل اكثر من ثلاثة اسابيع . انني أعرف اماكن بها دببة وغزلان ، واسماك يصل وزن الواحدة الى خمسة عشر رطلاً . لدينا اماكن طيبة في « ألطاي » ، لا تشبه هذه الاماكن . سوف ترى بنفسك ـ وأخرج الملعقة من العصيدة ولعقها ـ وسوف أقدم لك طبق « بيلميني » فانني أجيد صنعه بطريقة خاصة بنا نحن .

وانتهى حديثنا عند هذا الحد .

والآن انظر اليه وأسأله :

ـ حسنا يا فاليجا ، متى ستقدم لنا طبق « بيلميني » ؟

فلا تند عنه حتى ابتسامة .

ـ ليس لدي اللحم المطلوب ، كما لا يمكن طهوه هنا كما ينبغي .

ـ اذن فسننتظر حتى تنتهي الحرب ؟

فلا يجيب ، ويواصل السير . لا بد ان حذاءه اكبر من قدمه ، فقد تقوست مقدمته الى أعلى ، اما عمرته فصغيرة تنتصب على قمة رأسه . وأعرف ان ثلاث ابر مفروزة فيها ، واحدة بخيط ابيض ، والثانية بخيط اسود والثالثة بخيط أخضر كاكى .

في حوالي السابعة نتوقف لراحة طويلة . اسم القرية التي نتوقف عندها في الخريطة « فيرخنيايا دوفانكا » ، اما هنا فيسميها الاهالي « فيرشيلوفكا » . وهي تبعد عن بتروبافلوفكا باثنين وعشرين كيلومترا . اذن فقد سرنا ثلاثين كيلومترا ، لا بأس ، فالطريق وعر .

تعب الجنود اذ لم يعتادوا على مثل هذا السير . ألقوا بالاجولة واستلقوا في الظل في حديقة فواكه ومدوا ارجلهم . اما من كان فيهم اكثر تحملاً فقد أخذوا يحضرون اللبن والزبادي في اوعيتهم . وفاليجا ايضا حصل من مكان ما على رغيف من الخبز الابيض وعسلا في اقراصه الشمعية .

آكل وأهز رأسي علامة الرضا ، مع اني لا أشعر برغبة ، ولكن لا يجب ان أغضب فاليجا .

أشعر بطنين في قدمي . لقد تسلخ كعب قدمي اليسرى ، وعموما فحال الاحذية مقرف . انها تتفسخ تماما . وهكذا لم أحصل على الحذاء المصنوع من المشمع . والآن ليس امامي الا ان ألف سلكا على الحذاء . كان يجب ان أصغي لنصيحة فاليجا وارتدي الحذاء القصير يوماً واحداً ، حتى يصلح لي الحذاء الطويل . والآن لا أحد يعرف متى نلتقي بمخزن المهمات ، الذي يبعد في الغالب عن فوجنا كثيرا ، ربما بسبعين او ثمانين كيلومترا ... ليس اقل من ذلك ابداً اذا كانوا ظلوا يسيرون هذين اليومين . وربما عسكروا في مكان ما استعداداً للدفاع ، او انهم الآن يشقون طريقهم عبر الطوق الالماني . لقد قال الاهالي انه في صباح احد الايام مرّ جنود ، وفي المساء عبرت مدافع » — يبدو انها مدافع كتيبتنا — « ولكنهم لم يتوقفوا الا ساعة واحدة ، ثم واصلوا السير . وكم كانوا مجهدين وحزاني » .

واين الجبهة اذن ؟ أهي امامنا ام خلفنا ، على يميننا ام على يسارنا ؟ وهل هناك جبهة ؟ في العادة يرمز اليها في الخريطة بخط احمر سميك ، اما خطوط الخصم فيرمز اليها بخط أزرق . بالامس كان هذا الخط الازرق لا يزال على الجانب الآخر من نهر أوسكول ، فاين هو الآن ؟

اعتقد ان الالمان لم يقوموا باية محاولة قبل الصباح ، اما جنود الاستطلاع فلم يرسلوهم — على ما اعتقد — قبل الساعة الثانية ، عندما لاحظوا اننا صامتون . وفي الساعة الثالثة او الرابعة بدأ المشاة عبور النهر ، بل ربما بعد ذلك . فالى ان تتم الاستعدادات وتصدر الاوامر وما شابه ذلك تكون الساعة قد بلغت الخامسة . والساعة الآن الثامنة ، الثامنة الا خمس دقائق . وكان بوسع دوريات الاستطلاع الآلية بالطبع ان تلحق بنا . اذن فمن المحتمل انه ليس لديهم هذه الدوريات . اما المشاة فلن تلحق بنا . والدبابات والسيارات لن تستطيع العبور قبل المساء ، وربما قبل صباح الغد . كل شيء متعلق بما اذا كان لديهم جسور متحركة ام لا .

لقد سار الالمان نحو فورونيج ، وربما استولوا عليها بالفعل . فلماذا اذن لا نسمع قصف المدافع ؟ حتى اول امس كنا نسمع صوت المدفعية قادما من الشمال . ثم خفتت بعد ذلك وتحولت الى الشمال الشرقي . اما الآن فلا يسمع شيء على الاطلاق . صمت مطبق .

يتدافع الجنود حول قدر العصيدة ، ويتذمرون كالعادة لقلة حصتهم ، ويهزون اشجار التفاح . أقف ثم اقترب من شيريايف الجالس ينظف مسدسه . وبجواره اشرطة الحذاء قد نشرها لتجف .

ـ هل نتحرك الآن ؟

ويزر شيريايف عينيه وينظر في فوهة المسدس وقد وجهها نحو الضوء .

ـ حين ينتهي الجنود من طعامهم سنتحرك ، بعد عشرين دقيقة على الاكثر .

ـ وكم بقي حتى نصل نوفوبيلينكايا ؟

ـ حوالي ستين او سبعين كيلومترا . ها هي الخريطة بجواري .

وأقيس المسافة على الخريطة . خمسة وستون كيلومترا .

ـ لا تزال امامنا مرحلتا عبور .

ـ لو تحاملنا على انفسنا فسنصل غداً في موعد الغداء .

ـ ربما نصل ، ولكن هل سنجد هناك احداً ام لا . أخشى ان نجد هناك من لا نريد لقاءه ... ان هذا الصمت لا يطمأنني ...

ويقترب ضابط اركان الحرب الملازم سافراسوف ، وقد أحمرت بشرته بشدة لكثرة ما بها من نمش . يبدو قلقا . يجلس ويشعل سيجارة .

ـ نقص عددنا رجلين .

يضع شيريايف مسدسه على الشرائط ويلتفت نحو سافراسوف :

ـ كيف نقص عددنا ؟

ـ الشيطان وحده يعلم كيف ... اختفى سيدورينكو من الفصيلة الاولى ، وكفاست من الفصيلة الثانية . لقد كانا موجودين حتى امس ...

ـ واين اختفيا اذن ؟

ويهز سافراسوف كتفيه .

ـ ربما تسلخت أقدامهما ... أليس كذلك ؟

ـ لا أظن .

ـ اجمع قادة الفصائل هنا .

ويجمع شيريايف اجزاء مسدسه ، ويلف الشرائط على قدميه . ويحضر قادة الفصائل .

ويتضح ان سيدورينكو وكفاست ابناء قرية واحدة تقع في مكان ما قرب « دفوريتشنايا » . بل لقد جاءت الى احدهما زوجته عندما كنا نرابط في خطوط الدفاع . وكانا دائما يسيران معاً ، مع انهما في فصيلتين مختلفتين . ولم يلاحظ عليهما شيء قبل هذا .

يصغى شيريايف في صمت ، وقد أطبق شفتيه بحزم ، وينظر جانبا ، ودون ان يقف او ينظر الى قادة الفصائل يقول ببطء وبلا اي تعبير :

ـ لو فقد شخص آخر فسوف أطلق النار على المسؤول من هذا المسدس ـ ويضرب بيده على جراب مسدسه . ـ مفهوم ؟

لا يرد قادة الفصائل ، يوجهون انظارهم الى الارض وهم وقوف . يرتعش جفن احدهم .

ـ لن نجد هذين المفقودين .. انهما الآن في منزليهما .. هذان المدافعان عن الوطن ! .. هذان الهاربان ! ـ ثم يطلق سبابا ويقف ـ هيا ، اجمعوا الجنود للسير !

عيناه ضيقتان ، نظراتهما تخز كالابر . لم أره ابداً هكذا . يسوى بزته ، ويزيل الثنيات التي في السترة من امام بحركات حادة قصيرة . يضع المسدس في الجراب بعد ان ينزل ابرة الامان .

ويخرج الجنود الى الطريق العام . يسوون ملابسهم اثناء السير ، وفي ايديهم اوعيتهم مليئة باللبن . عند البوابة تقف النساء صامتات ، تتدلى ايديهن الخشنة الثقيلة بحذاء اجسادهن . يقفن امام كل منزل ، ينظرن الينا ونحن ننسحب تاركينهن . والاطفال ايضا تنظر . لا احد يجري خلفنا . الجميع واقفون وينظرون الينا .

وليس غير امرأة عجوز في آخر القرية تركض نحونا بخطوات العجائز القصيرة . وجهها كله تجاعيد كأنه مغطي بخيوط العنكبوت ، وفي يدها وعاء فخاري به زبادي . يمد اليها احد الجنود وعاءه ويقول : « شكرا يا جدتي » . وترسم عليه الجدة علامة الصليب

بسرعة ، وبنفس السرعة ترتد على اعقابها دون ان تنظر خلفها .

ونواصل سيرنا .

٥

ألتقي بايجور بمحض الصدفة . كان معه لازارينكو جندي مراسلة الاركان ، يركبان جوادين ، وينبثقان فجأة امامنا وكأنهما خرجا من بطن الارض . الجوادان يتصببان عرقا ويزفران بمنخاريهما . ايجور بلا عمرة ، وجهه اسود من الغبار ، وبخده جرح طفيف :

ـ اعطوني ماء !

ويطبق على الزمزمية . يشرب طويلا ، ملقيا برأسه الى الخلف ، بينما تعلو وتنخفض تفاحة آدم في زوره . ويسيل الماء خلف ياقته ، تاركا خطوطا بيضاء على رقبته وذقنه . لا نسأله عن شيء .

ـ ضمِّد جراح الحصان يا لازارينكو ! ..

ويسحب لازارينكو الجوادين بعيداً . الحصان الاحمر الكبير يعرج . أظن انه حصان القوميسير .

اخترقت الرصاصة رجله الخلفية اليسرى ، وتجمد الدم على الجرح فتجمع عليه الذباب .

يمسح ايجور شفتيه براحته ويجلس على جانب الطريق ، ثم يقول باقتضاب :

ـ الاحوال نيلة ... قُضي على الفوج ...

ويلفنا الصمت .

ـ قتل الرائد ، والقوميسير ايضا ...

ويعض ايجور على شفته السفلى . شفتاه سوداوان تماما من الغبار ، جافتان ، مشققتان ...

ـ لا احد يعرف اين توجد الكتيبة الثانية الآن ، ولم يبق من الكتيبة الثالثة الا العظم والجلد . المدفعية انتهت ، لم يبق منها الا مدفع واحد عيار ٤٥ مم مكسور العجلة ... اعطوني سيجارة ... لقد فقدت علبة سجائري .

وندخن ثلاثتنا . لم يكن معنا صحف نلف فيها الدخان فاستخدمنا ورق البلوكنوت .

ـ مكسيموف تولى قيادة الفوج الآن .. وهو ايضا جريح ، مصاب في يده اليسرى ... في اللحم . وقد أمرني ان أعثر عليكم وأعيدكم .

ـ الى اين ؟

— ومن يدري الآن الى اين ؟ .. هل لديكم خريطة ؟ لقد فقدت كل ما كان معي ، الخريطة ، والحافظة ، وجندي المراسلة ، فاضطررت الى أخذ لازارينكو معي .

— وهل قتل أفونكا ؟

— جرح ... وربما توفى الآن ... أصيب في بطنه .. وقد أرسلناه الى مستشفى الكتيبة الطبية ... لكنه كان قد دمر .

— مستشفى الكتيبة ايضا ؟

— مستشفى الكتيبة ، وفصيلة الاتصال بالفرقة ، والمؤخرة ... كل شيء دُمِّر .. اعطني ماء !

ويزدرد بضع جرعات ، ويمضمض فمه . الآن فقط ألاحظ كم هزل خلال هذين اليومين . غار خداه ، ولمعت عيناه الغجريتان ، والتصق شعره بجبهته على شكل لوالب .

— وباختصار لم يبق من الفوج الآن الا مائة شخص لا اكثر ، او بالاحرى كانوا مائة عندما تركتهم . بما فيهم الطهاة وجنود المهمات والتموين . اما جنودك

من سلاح المهندسين فبخير ، ويبدو ان واحداً منهم فقط جرح ... هل سيجارتك مشتعلة ؟

ويشعل سيجارته من سيجارتي وهو يمسكها باصابعه ، ويجذب نفسا عميقا ثم ينفث تياراً قويا من دخان كثيف .

— وعموما فقد أمر مكسيموف ان أعثر عليكم ، ثم نسير للاتصال به .

ويخرج شيريايف الخريطة .

— للاتصال به ؟ وفي اي مكان ؟

ويحك ايجور مؤخرة رأسه بفم السيجارة ويقول :

— الاتصال مقطوع مع اركان الفرقة . وقد اتخذ مكسيموف هذا القرار بنفسه . وعلى ما أظن فان اركان الفرقة قد عزلها الالمان عنا . وكان آخر مقر لها يبعد عشرين كيلومترا عن نوفو — بيلينكايا ، غير اننا لم نصل الى نوفو — بيلينكايا ابداً .

— واين الالمان الآن ؟

— الالمان ؟ انهم يلتهمون العجة على بعد عشرة او عشرين كيلومترا من هنا ، ويجرعون الفودكا ...

— هل عددهم كثير ؟

— بما فيه الكفاية ! لقد عددنا اربعين سيارة ، وكلها من سيارات النقل الكبيرة . فاذا ضربت عددها في ١٦ على الاقل ، لأصبح المجموع ستمائة وخمسين جنديا .

— والى اين يتجهون ؟

— لم يخبروني بذلك . لكن هناك طريقان : واحد الى هنا ، والآخر نحو الجنوب ...

— والى اين أمرنا مكسيموف ان نتجه ؟

— مكسيموف ؟ — ويدفع ايجور باصبعه الى الخريطة — أمرنا ان نتجه الى كانتيميروفكا ، وبالاصح الى قرية خوتوركي . فاذا لم نجده هناك ، فلنتجه مباشرة جنوبا نحو ستاروبياسك .

ونأمر الجنود بالنهوض .

وننعطف بعيدا عن الطريق الرئيسي ونسير عبر سكة زراعية . من حولنا على مدى البصر تمتد حقول القمح الذي تنوء عيدانه الطويلة تحت ثقل الحبوب . ويقطف الجنود السنابل ويفركونها في راحاتهم ، ثم يمضغون الحبوب الذهبية الناضجة . وعاليا في السماء

تصدح القبرات . نسير بالفانلات فقط ، فالسترات لا تطاق في هذا الحر .

يتضح ان كل ما جرى وقع فجأة . فقد وصل الفوج الى قرية ما حيث عسكر هناك . وكان ايجور مع الكتيبة الثالثة ، اما الكتيبة الثانية فكانت تتقدمهم بحوالي خمسة كيلومترات . وأخذوا يعدون الغداء . وقد ذكر الجنود الجرحى الذين مروا عبر القرية من قبل ان الالمان بعيدين ، على بعد حوالي اربعين كيلومترا ، وانهم فيما يبدو قد أوقفوا عن التقدم .

وفجأة ، ومن القرية التي عسكرت فيها الكتيبة الثانية ، ظهرت الدبابات ... حوالي عشر ، او اثنتي عشر دبابة . ولم يفهم احد شيئا ، وبدأ اطلاق النار ، ودبت الفوضى . ومن مكان ما ظهر المشاة الالمان باسلحتهم الاوتوماتيكية ، واثناء تبادل اطلاق النار قتل الرائد والقوميسار . ولكنهم تمكنوا من تحطيم ثلاث دبابات ، وأجبروا الالمان على الانسحاب من القرية ، ثم شغلوا خطوط دفاع دائرية . وهنا بعث مكسيموف بايجور للعثور علينا . وفي اللحظة التي غادر فيها القرية ، تحول الالمان الى الهجوم بحوالي عشرين دبابة ومشاة

آلية وما يقرب من الخمسين سيارة . وتعرض ايجور في الطريق لنيران الالمان فجرح حصانه . اما الخدش الذي في وجهه فانه لا يعرف مصدره ، اذ لم يشعر بشيء .

نعبر خندقا مضاداً للدبابات يمتد في تعرجات ضخمة وسط الحقل ثم يختفي في مكان ما عند الافق . التراب المستخرج ما زال طريا ، يبدو ان الخندق حُفر من وقت قريب . والخنادق الاخرى نظيفة ، مهندمة ، صنعت وفق القواعد المعروفة ، ومُوِّهت بالاعشاب بعناية . والاعشاب ما زالت خضراء ، لم تجف بعد .

كل هذا نخلفه وراء ظهورنا ، ضخماً ، لا لزوم له ، ولم يستخدمه احد .

وهكذا نسير يوما كاملاً . احيانا نجلس قليلا في ظل شجرة بلوط . ثم ننهض من جديد ونخطو فوق الطريق الرمادي الجاف . الهواء يرتعش امام العينين لشدة الحر ، والغبار ينهكنا ، اذا مسحت جبينك بيدك تجدها سوداء . نحك اجسادنا من العرق ، وسترات الجنود مبللة تماما ، وكذلك جواربهم ، ولم تعد لدينا رغبة في التدخين . اما صراصير الحقول فلا تكف عن طنينها المزعج .

تخبرنا النساء في احدى القرى ان الالمان مروا بهم منذ ساعة ، وكانوا يستقلون حوالي عشرين سيارة . اما في المساء فقد مرَّ عدد لا يحصى من راكبي الموتوسيكلات ، وقد توجهوا جميعا ناحية الغابة .

الموقف يزداد تعقيداً . ونضطر الى الاستغناء عن عربات الحمل . ننزع الرشاشات ونسلم الخرطوش لكل جندي ، ونستغني ايضا عن جزء من الاغذية ... ليس في وسعنا شيء آخر .

وفي الليل يسقط مطر خفيف بغيض .

٦

في الفجر نجد انفسنا امام حظائر شبه مهدمة . حظائر حجرية بلا اسقف الا عروق خشبية بارزة . يبدو انه كانت هنا في وقت ما مزرعة لتربية الدواجن ، اذ ان زبل الفراخ يملأ المكان . ويبدأ اليوم مكفهراً رطبا ، ونحن قد بردنا تماماً وامتلأت احذيتنا بالمياه ، وشفاهنا ازرقّت . ولكنا لا نستطيع اشعال النار ، فالحظائر تبدو للناظر واضحة ولو من بعيد .

لا أكاد أغفو تحت الخيمة المشمع التي شيدها لي فاليجا حتى يلكزني احدهم بسن حذائه قائلا :

ـ استعد للدفاع ايها المهندس ... الالمان وصلوا .

من تحت الخيمة لا أرى الا حذاء شيريايف الطويل المجعد ، الاصفر لما علق به من اوحال . والسماء تسحُّ رذاذاً خفيفاً ، وخلال عروق السقف تبدو السماء رمادية تبعث على السأم .

ـ اي المان ؟

ـ انظر وستعرف .

ويمد لي شيريايف منظاراً مكبراً . أرى مجموعة من الناس تسير بحذاء حظائرنا على بعد حوالي كيلومتر ونصف منا . ليسوا كثيرين ، حوالي العشرين شخصا ، وبدون رشاشات . يبدو انهم دورية استطلاع .

ويلف شيريايف جسده بالمشمع ويقول :

ـ وما الذي قذف بهم الى هنا ؟ هل ضاقت بهم الطرق ؟ أراهنك انهم سيأتون الى الحظائر ... سترى .

ويقترب ايجور ويسأل :

ـ هل نستعد للدفاع الصامد ، ايها القائد ؟

يبدو ان ايجور كان نائما ، فاحد خديه احمر تملؤه الخطوط . ينظر شيريايف في المنظار ويقول دون ان يلتفت :

ـ قد فعلنا ... دبرنا ذلك عندما كنت ـ سيادتك ـ نائما . وزعنا الرجال والرشاشات ... انظر ، ها هم قد توقفوا . أتناول المنظار وأنظر . الالمان يتشاورون بشأن امر ما . الرؤيا صعبة فزجاج المنظار مبلل بقطرات المطر ، وأضطر الى تنظيفه باستمرار . ينعطف الالمان نحونا ويهبطون الواحد تلو الآخر الى الوادي الضيق . ربما قرروا ان يسلكوا طريق الوادي . ولفترة ما لا يبدو احد منهم ، ثم تأخذ اشباحهم في الظهور . أصبحوا الآن اقرب . يصعدون الوادي ويسيرون عبر الحقل نحونا مباشرة .

يقول شيريايف بصوت شبه هامس :

ـ لا تطلقوا النار دون اشارة مني . لقد وضعت رشاشين في الحظيرة المجاورة ، فمن هناك ايضا يحسن الرمي ...

ينبطح الجنود على امتداد جدران الحظيرة عند النوافذ والابواب . وهناك جندي بدون سترة ، يرتدي فانلة

زرقاء ، ويتدثر بالغطاء المشمع ، قد اعتلى العروق الخشبية في السقف .

طابور الالمان يسير نحونا مباشرة . ومن الممكن الآن ان أرى بعضهم بدون منظار . بنادقهم الاوتوماتيكية على اكتافهم . لا بد انهم لا يتوقعون شيئا . في مقدمتهم يسير شخص طويل نحيف يرتدي نظارة . يبدو انه القائد . لا يحمل بندقية آلية بل مسدساً يتدلي من جنبه الايسر ، فالالمان دائما يحملونه على الجنب الايسر . يسير بخطوة متراخية قليلا اذ يبدو انه متعب وبجواره شخص صغير يحمل على ظهره جربندية وقد دس يديه في حمالتها ، وأخذ يدخن غليونا قصيراً ويهز رأسه على وقع الخطوات وكأنه ينقر بانفه كالطيور . وهناك اثنان منهم تأخرا عن الطابور ، انحنيا ، وأخذا يتفرسان شيئا ما .

ايجور يلكزني في جنبي ويقول :

ـ انظر ... هل ترى ؟

في المكان الذي ظهرت فيه المجموعة الاولى من الالمان بدأ شيء ما يتحرك من جديد ، من الصعب تبينه ، فالمطر يعوق ذلك ...

وفجأة ، تدوي فوق آذاننا تماماً :

ـ اضرب !

ويسقط الشخص الامامي ذو النظارات على الارض ، وكذلك رفيقه ، ثم عدة اشخاص . البقية تهرب وتتعثر ، فتسقط ، ثم تعود تنهض ، ويصطدم بعضهم بالبعض .

ـ أوقف الضرب !

ويخفض شيريايف بندقيته الآلية ويدفع ترباسها فيصلصل . يحاول احد الالمان ان يزحف فنرديه . يبقى جاثما على اربع ، ثم يسقط رويداً على جنبه . ولا نسمع او نرى بعد ذلك شيئا . يمتد هذا الحال عدة دقائق .

ويرد شيريايف عمرته التي انزلقت الى مؤخرة رأسه ويقول :

ـ ناولني سيجارة .

ويبحث ايجور في جيبه عن دخان .

ـ سيهجمون مرة ثانية .

ويخرج علبة دخان حمراء مستديرة . في مثل هذه العلب يحمل الالمان الزبد والمربى .

— لا بأس ، سيكون لدينا وقت لندخن ، فالسيجارة تبعث في النفس البهجة .

ويلف شيريايف سيجارة غليظة كالاصبع ثم يضيف :

— ترى هل لديهم مدافع هاون ؟ لو كان لديهم فساعتها ...

وقبل ان يتم كلامه تنفجر قذيفة هاون على بعد خطوتين من الحظيرة . وتنفجر الثانية خلف الحائط ، اما الثالثة فتنفجر في قلب الحظيرة .

ويستمر الرمى حوالي خمس دقائق . يجلس شيريايف القرفصاء معتمدا بظهره على الحائط . لا أرى ايجور . وتطير القذائف على شكل سلاسل ، كل سلسلة من خمس او ست قذائف ، ثم فترة راحة لعدة ثوان ، ثم خمس او ست قذائف اخرى . وبالقرب منا يتأوه شخص ما بصوت رفيع كصوت النساء . ثم فجأة يخيم السكون .

أنهض معتمدا على يدي وأنظر في النافذة . الالمان يركضون عبر الحقل نحونا مباشرة ...

— اسمع الامر !

ويهب شيريايف واقفا ، ثم بقفزة واحدة يصل الى الرشاش .

يطلق ثلاث دفعات قصيرة ، ثم دفعة اطول .

ويختفي الالمان في الوادي . ونخرج الجنود من الحظائر ليحفروا خنادق في الجانب الآخر من الحائط الخلفي . لا نترك في الحظائر سوى رشاشين ، فهذا يكفي للوقت الحاضر . خسائرنا بلغت اربعة جرحى وستة قتلى .

ويبدأ الرمي من جديد . يخرج الالمان من الوادي تحت حماية مدافع الهاون ، ويركضون لمسافة عشرين مترا لا اكثر . المنطقة مكشوفة تماما ، فلا يستطيعون الاحتماء بشيء يركضون فرادي نحو الوادي ، لكن معظمهم لا يغادر مكانه .. وعلى الارض الموحلة المغطاة بالاعشاب ، تلوح هنا وهناك جثثهم في زيها العسكري الاخضر .

بعد المحاولة الثالثة يكف الالمان عن الهجوم .

ويمسح شيريايف بكمه جبينه الذي بلله المطر والعرق :

— سيبدأون الآن محاصرتنا .. انني أعرف اسلوبهم .

وعبر النافذة يزحف الينا سافراسوف ، شاحبا بدرجة غريبة ، حتى ليخيل اليّ ان ركبتيه ترتعدان :

ـ في تلك الحظيرة قتل الجميع تقريبا ... ـ ويتنفس بصعوبة . ـ وأصيب الرشاش بشظية أعطبته ... أظن ... ـ ثم ينقل عينيه بارتباك من قائد الكتيبة اليّ ، ثم يحولها اليه ثانية .

ويسأله شيريايف محتدا :

ـ ماذا « تظن » ؟

ـ يجب ان ... أقصد ... ان نجد حلاً ...

ـ نجد حلاً ! نجد حلاً ! بدونك أعلم انه يجب ان نجد حلاً ... كم رجلا أصيب وقتل ؟

ـ لم ... لم أعدهم بعد .

ـ لم يعدهم ...

وينهض شيريايف ويتجه الى الحائط الخلفي للحظيرة . ومن خلال النافذة المحطمة يبدو حقل مستو كئيب ، بلا شجرة واحدة .

ـ حسنا ، وبعد ؟ هل نتحرك ؟ لن يتركونا ننعم بالحياة هنا ...

ويلتفت .. انه اكثر شحوبا من المعتاد .

ـ كم الساعة الآن ؟ ساعتي تعطلت .

ينظر ايجور الى ساعته :

ـ الحادية عشرة وعشرون دقيقة .

ـ هيا اذن ... ـ ويلمّظ شيريايف شفتيه . ـ لكننا سنضطر للتضحية برشاش لتغطية انسحابنا .

ويتضح انه لم يبق من اطقم الرشاشات الا فيلاتوف ، فقد قتل كروجليكوف ، وجُرح سيفاستيانوف .

ويجول شيريايف بنظره في الحظيرة :

ـ واين سيديخ ؟ سيديخ اين ؟

ـ ها هو هناك ، يجلس على العروق .

ـ تعال هنا !

ويتعلق الشاب ذو الفانلة بالعروق بمهارة ، ثم يقفز بخفة الى الارض .

ـ هل تفهم في الرشاشات ؟

ويجيب الشاب بصوت خفيض بينما لا تكاد شفتاه تنفرجان :

ـ نعم أفهم .

وينظر الى شيريايف مباشرة دون ان تطرف عيناه .

وجهه وردي تماما ، وعلى خديه زغب ذهبي . عيناه كعيون الاطفال : مرحة ، زرقاء ، وبها بعض الحول ، ولها رموش طويلة كرموش الفتيات . كان الاجدر بصاحب وجه كهذا ان يلهو الآن « بكش » الحمام ، والشجار مع صبية الجيران . ولا يمكنك ان توفّق بينه وبين عنقه القوي ، وكتفيه العريضتين الصلبتين اللتين تهتزان لدى كل حركة من عضلات الذراعين . يقف بدون سترة ، بينما فانلته المهترئة الباهتة تكاد تتمزق تحت ضغط عضلاته الفتية .

— اين سترتك ؟ — يسأله شيريايف وهو يكتم ابتسامة ، ولكنه مع ذلك يسأل بلهجة القائد الحازمة .

— كنت أنظفها ايها الرفيق القائد ... وفي هذا الوقت جاء هؤلاء ... أقصد الالمان ... وها هي سترتي خلف الرشاش .

ويحك بارتباك فقاعة على راحته العريضة الخشنة .

— حسنا ، وهل تفهم في الالماني ؟

— ماذا ؟ تقصد الرشاش الالماني ؟

— طبعا الرشاش ... ألسنا نتحدث الآن عن الرشاشات .

— أفهم ، ولكن اقل ... ومع ذلك أظن انه يمكنني بطريقة ما ...

ويتلجلج .

يقول ايجور :

— لا بأس ، انا أعرف ، وعلى العموم ، فلا بد ان يبقى احد القادة للتغطية .

يقف واضعا يديه في جيبيه ، ويتمايل قليلا في كلا الجانبين .

— كنت أفكر في سافراسوف ، ولكن سيان ... — لا يتم شيريايف جملته ويتحول الى سيديخ : — هل الامر واضح يا بطل ؟ ستبقى هنا مع الملازم اول ، ولازارينكو ايضا سيبقى ، وهم رجال مقاتلون يُعتمد عليهم ... ها انت ترى انه لم يبق الا فيلاتوف . ستغطون انسحابنا . مفهوم ؟

ويجيب سيديخ بصوت خفيض :

— مفهوم .

— مفهوم ماذا ؟

— سنغطي انسحابكم انا والملازم اول .

— اذن اشغلوا اماكنكم . — ويزرر شيريايف

ياقة السترة فقد أصبح الجو بارداً للغاية — اجلس الى ذلك الرشاش واسحبه الى هنا ، مكان « مكسيم » ، فهنا افضل . جهز الرجال يا سافراسوف .

وينصرف سافراسوف ، ولا أستطيع ان أحول ناظري عن ركبتيه ، فهما ترتعشان طوال الوقت رعشة خفيفة مقززة .

يقول شيريايف لايجور :

— لا تبقوا هنا طويلا ، ساعة واحدة لا اكثر ، ثم اتبعونا . سيروا مباشرة نحو الشرق ، الى كانتيميروفكا .

ويومئ ايجور برأسه موافقا في صمت وهو يتمايل على ساقيه .

— عندما تنسحبون اتركوا الرشاش . فقط انزعوا منه الترباس ، واذا بقيت شرائط طلقات خذوها معكم .

بعد خمس دقائق تخلو الحظيرة . انا وفاليجا نبقى ايضا . ينسحب شيريايف مع اربعة عشر رجلا ، من بينهم اربعة جرحى احدهم جرحه خطير . يحملونه على مشمع .

سكت المطر ، والالمان صامتون . وفي الجو

تنتشر رائحة زبل الفراخ العطنة . ننبطح انا وايجور بجوار الرشاش الايسر ، اما فاليجا فينفث دخان غليونه . وسيديخ ينظر في النافذة بعد ان نصب الرشاش . ثم يخرج فاليجا قطعا من الخبز المجفف وزمزمية بها فودكا . ونشرب بالدور من كوب الومنيوم . المطر يعود يسقط .

يسألني سيديخ :

— هل صحيح ايها الرفيق الملازم ان هتلر اعور ؟

ويتطلع الي بنظرة صافية كنظرة الاطفال .

— لا أعرف يا سيديخ ، ولكني أظن انه بعينين اثنتين .

— ولكن فيلاتوف قال انه أعور ، بل وقال انه لا يستطيع الانجاب ...

وابتسم ، وأشعر ان سيديخ يتوق ان يكون الامر كما يقول ، اما لازارينكو فيغمز بعينه غمزة الذي يمن بتواضعه ويقول بلهجتة الاوكرانيه :

— في الحرب الاولى سمموه بالغازات . وهو في الحقيقة ليس المانيا بل نمسوي ، واسمه ليس هتلر ،

بل اسم مركب يبدأ بحرف « ش » ، أليس كذلك ايها الرفيق الملازم ؟

— صحيح . اسمه شيكلجروبر ، وهو من اقليم تيرول .

— من اقليم تيرول ... — يردد سيديخ بتأمل وهو يحشر جسده في السترة — وهل يحبه الالمان ؟

واقص عليهم كيف وصل هتلر الى الحكم ولماذا . سيديخ يصغي بانتباه فاغرا فمه قليلا ودون ان يطرف ، اما لازارينكو فيصطنع هيأة من يعرف كل هذا من زمان . فاليجا يدخن .

— وهل صحيح ان هتلر مجرد شاويش ؟ لقد أخبرنا بذلك المسؤول السياسي .

— صحيح .

— وكيف يعقل هذا ... اكبرهم ، وفي نفس الوقت شاويش !

ويرتبك فيعود الى فرك الفقاعة التي في راحته . تعجبني طريقته في الارتباك .

— هل تحارب منذ مدة طويلة يا سيديخ ؟

— نعم .. من عام ٤١.. من شهر سبتمبر .

— وكم عمرك اذن ؟

ويستغرق في التفكير ويغضّن جبهته :

— عمري ؟ أظن تسعة عشر عاماً .. انني من مواليد ٢٣ .

ويتضح انه جرح في كتفه من جراء شظية أصابته قرب مدينة سمولينسك . ورقد في المستشفى ثلاثة اشهر ، ثم أرسلوه الى الجبهة الجنوبية الغربية . وقد حصل على رتبة رقيب هنا ، في فوجنا .

— حسنا ، وهل يعجبك القتال ؟

ويبتسم بارتباك ويهز كتفيه :

— حتى الآن لا بأس ... ولكن انسحابنا هذا امر ليس طريفا .

حتى فاليجا نفسه يبتسم .

— وهل تريد العودة الى داركم ؟ ألم تشتق اليها ؟

— ماذا ؟ نعم أريد ... فقط ليس الآن .

— ومتى اذن ؟

— ولماذا أعود هكذا ... اذا عدت فَـلأعُـدْ « بمربع » على ياقتي مثلكم .

وينهض فاليجا فجأة ويتطلع من النافذة .

— ماذا هناك ؟

ـ أظنهم الالمان .. انهم هناك .. خلف التبّة ..

يتحرك الالمان على يسارنا وهم يحاولون الالتفاف حولنا ، ويركضون فرادي لمسافات قصيرة . وينحني ايجور على الرشاش ، ويطلق دفعة قصيرة . ظهره ومرفقاه تهتز . يختفي الالمان .

يهمس لازارينكو :

ـ سيبدأون الآن ضربنا بالهاون .

ويزحف عائداً الى رشاشه .

بعد حوالي دقيقتين يبدأ الرمي . تنفجر القذائف حول الحظيرة ولكنها لا تصيبها في الداخل . يحاول الالمان الركض مرة اخرى . ونرى كيف يقفزون ويركضون عدة خطوات ثم ينبطحون ، ويعودون ركضا الى الخلف . ولا يثير الرشاش الا خطا ضيقاً من الغبار لا يتخطاه الالمان . وهكذا يتكرر هذا المنظر ثلاث او اربع مرات .

ويوشك شريط الطلقات على النفاد . نطلق الرصاصات الاخيرة ثم ننسحب عبر النافذة الخلفية بالترتيب : سيديخ اولا ، ثم ايجور ، ثم فاليجا ، فانا ، وخلفي لازارينكو .

اثناء هبوطي من النافذة تنفجر قذيفة هاون بجواري فألتصق بالارض . ومن الخلف يجثم عليّ شيء ما ثقيل ، ثم يتزحزح عني ببطء . لقد جُرح لازارينكو في بطنه . أرى وجهه الذي أصبح فجأة شديد البياض ، واسنانه المطبقة بقوة .

ـ يبدو انها النهاية ... ـ ويحاول الابتسام ومن تحت قميصه يندفع شيء ما احمر وهو يتلوى ، فيعصره باصابعه بعصبية . يندي جبينه بقطرات عرق كبيرة .

ـ انا ... ايها الرفيق الملا ... ـ لم يعد حديثه كلمات بل حشرجة . والتوت احدى ساقيه ولا يستطيع ان يقومها . يرتمي رأسه الى الخلف وتتلاحق انفاسه بسرعة . لا ينزع يده عن بطنه ، شفته العليا ترتعش رعشة خفيفة . يود ان يقول شيئا آخر ولكني لا أميز شيئاً . يتقلص تماماً ، يريد ان ينهض ولكنه ينهار فوراً . وتكف شفته عن الارتعاش .

ونستخرج من جيوبه مدية صغيرة وجريدة مطوية للف السجائر ، وحافظة اوراق بالية مشدودة بشريط مطاط احمر . وفي سترته بطاقة عضوية الكومسومول ، ورسالة مطوية على هيئة مثلث وحروفها مائلة .

نسجّي لازارينكو في الخندق الضيق ونهيل عليه التراب بايدينا بعد ان نغطيه بالمشمع . يرقد طاويا رجليه الى بطنه وكأنه نائم ، فهكذا ينام الجنود عادة في الخنادق الضيقة .

ثم نركض فرادى نحو تبّة صغيرة . ومنها نحو اخرى اكبر قليلا . اما الالمان فيواصلون قصفهم للحظيرة . ولبعض الوقت تلوح لنا العروق الخشبية ، ثم تختفي بعد ذلك هي الاخرى عن ناظرنا .

٧

في الليل نلتقي فجأة برجالنا . الظلمة كثيفة تلف المكان ، والمطر يسقط والارض موحلة . وصوت ما أبح ومخنوق يطغى على كل الاصوات الاخرى :

ـ حا ... يا وباء ... حا ... حا ... يا مصيبة حا ...

هذه « المصيبة » ، وهذا « الوباء » ، هذه الصرخات الرتيبة الخالية من اي تعبير ، والتي تفصل بينها فترات قصيرة ليملأ الصارخ رئتيه بالهواء ، تبدو لنا الآن أحلى من أحلى موسيقى ... اننا بين رفاقنا !

نحن عند احد الجسور ، وقد غاصت بين الواحه الخشبية عجلة احدى العربات الكبيرة المغطاة بالمشمع . والعربة تجرها فرسان بائستان عبارة عن جلد وعظم ، وجنباهما داميان ورقبتيهما معروقتان . وتنزلق ارجل الفرسين على الالواح المبتلة . وخلف العربة سيارات . وعلى ضوء فوانيس هذه السيارات الساطع تتحرك اشباح رجال . وهناك رجل ضخم الجثة يضرب الفرسين على عيونهما وفميهما :

ـ حا يا وباء ... يا مصيبة حا ... حا ...

وشخص ما يدور حول العجلات ويسب ويتأفف :

ـ دع هذه ... امسك تلك ... نعم هكذا ...

ـ ماذا تقول ... ألا ترى انها خشبة عطنة ...

ـ ارفع من المحور ...

ـ المحور ... ألا ترى ان الحمل ثقيل !

ويصطدم بكتفي شخص يرتدي قلنسوة .

ـ اقذف بهذه العربة الى الشيطان !

ـ انا الذي سأقذف بك ـ يقول الرجل الضخم وهو يستدير نحوه .

ـ بل سأقذف انا بها ... هل تتوقف السيارات بسببك ؟

ـ فلنتوقف .

ـ أدر المحرك يا سيريوجا ـ ويشير الشخص ذو القلنسوة بيده ، فيمسك به الرجل الضخم من كتفه ، ويخرج من تحت العربة ثلاثة آخرون . ويتشبع الهواء بسباب مقذع رتيب ، ولا يعود من الممكن فهم شيء مما يحدث . ويقترب سائقو السيارات وعدة اشخاص آخرين . وفي ضوء الفوانيس تتراءى ظهور مبللة ووجوه متعبة قذرة ، وعمرات مقصوعة الى الخلف . واتعرف في الشخص ذي القلنسوة على كوبيركو قائد ورش سلاح اللواء . وتنزلق القلنسوة على عينيه باستمرار وتضايقه جدا . لكن كوبيركو لا يتعرف عليّ .

ـ وماذا تريد انت ايضا ؟

ـ ألا تذكرني ؟ انا كيرجينتسيف .. المهندس .

ـ يا للشيطان ! من اين جئت ؟ هل انت بمفردك ؟

ودون ان ينتظر ردي ينقض من جديد على الرجل الضخم ذي السوط ، ويندفع الجميع نحو العربة ويخرجون العجلة المغروزة وهم يصيحون ويسبون . فاليجا وسيديخ يساهمان مساهمة فعالة في ذلك .

يقترب كوبيركو مني ويقول :

5-2038

ـ اجلس معي في السيارة وسأوصلك .

ـ والى اين تسير ؟

ـ ماذا تقصد بـ « الى اين » ؟

ـ أقصد الى اين ستوصلني ؟ انني أريد الذهاب الى كانتيميروفكا . فهناك عدة بيوت ريفية .

ـ ماذا ؟ أتريد ان تلقى نظرة على الفاشيست ؟ ـ ويبتسم كوبيركو بارهاق ـ لقد أفلتُّ بالسيارة من هناك بصعوبة .

ـ والآن اين تقصد ؟

ـ حيث يقصد الجميع . الى الجنوب ... الى ميليروفو على ما أظن . هيا اصعد الى السيارة .

ـ لست وحدي ، بل معي ثلاثة .

يتردد قليلا ثم يشيح بيده :

ـ لا بأس ، اركبوا ، فالبنزين على اي حال لن يكفي ... ولكن من معك ؟

ـ معي ايجور سفيديرسكي وجنديا مراسلة .

ـ اصعدوا الى الصندوق . في تلك الـ « فورد » . اما انا وانت فستسعنا الكابينة ... الشيطان وحده يعلم هل يتحملنا هذا الجسر ...

ويتحملنا الجسر . يصر ويتململ ، لكنه يتحملنا . السيارة تسير بصعوبة وهي تكح وتتحشرج . الموتور يعاكسنا .

وأسأل كوبيركو :

ـ ألم تقابل شيريايف ؟

ـ كلا ، واين هو ؟

ـ كان معي ، والآن لا أدري اين .

ـ هل سمعت ان الرائد والقوميسار قد قُتلا ؟

ـ نعم ، وماذا عن مكسيموف ؟

ـ لا أعرف ، لقد كنت في المؤخرة .

ويدوس كوبيركو على الفرامل فجأة . الطريق امامنا مسدود .

ـ هكذا طوال الطريق .. نسير ثلاث خطوات ونقف ساعة .. ثم هذا المطر ال ...

وأسأله عما اذا كان يوجد هنا احد آخر من الفوج .

ـ لا احد ... ولا شيء مفهوم على الاطلاق . هنا يوجد جنود من جيشنا ومن الجيش المجاور ،

واركان الفرقة انتقلت الى الشمال ، بينما الالمان هناك ، وليس معنا خرائط او بوصلة ...

ـ والالمان ؟

ـ الشيطان يعلم اين هم الآن ... منذ ساعتين كانوا في كانتيميروفكا .. البنزين يوشك على النفاد . والادهى انني أصبت ببرد ... ألا تسمع كيف صار صوتي ـ ثم يمر بيده على عينيه ـ لم أنم منذ ليلتين ، وقد اختفى السائق واسطى الورشة اثناء قصف الالمان لنا بالقنابل ، وسرقا صفيحتي بنزين ... وباختصار فالامر كما ترى ...

وتتحرك السيارة التي كانت تقف امامنا فنواصل السير . الكابينة دافئة بحرارة الراديياتير . الخدر يدب في اوصالي والنعاس يثقل رأسي ، وانا في حالة بين اليقظة والنوم . عندما تهتز السيارة استيقظ ... ثم أغفو من جديد . وأرى في الحلم اشياء خرافية .

في الصباح ينفد البنزين ، ونصل الى القرية بصعوبة .

ندخل احد المنازل ونلقى بانفسنا على الارض التي تفترشها اجساد يعلو شخيرها ، ويغطيها قشر اللب .

خلال النهار يجف الجو بعض الشيء . تطير السحب نحو الشرق في كتل مبعثرة . واحيانا تبرز الشمس على عجل ودونما رغبة . الطريق يزدحم بسيارات « فورد » و« جيب » و« زيس » و« ستوديبيكر » الضخمة المغطاة . ليست في الواقع كثيرة . ثم عدد لا نهاية له من عربات النقل . الآن تعبر كتيبة مدفعية . وعلى مواسير المدافع الطويلة يتدلى الاوز كالعناقيد ، وفي مكان ما يصرخ خنزير صغير دون كلل . تسير بعض العجلات والعربات المصنوعة يدويا ، وهناك الكثير من راكبي الخيول ، واثنان من الجنود يمتطيان ظهر بقرتين وقد لفّا مقوديهما الى قرونهما وتركا لهما العنان .

كل هذا يتحرك في صخب وصراخ مع فرقعة سياط ، يتحرك الى الامام في اتجاه الجنوب الشرقي ، الى ما بعد الافق ، ماراً بغابة وطاحونة ، وركيزة ثلاثية لجهاز مساحة تنتصب في الحقل .. يتحرك كدودة ضخمة مبرقشة تزحف وتتلوى ، تتوقف وتنتفض ، ثم تعاود الزحف .

اما نحن فنجلس على جذع شجرة طويل ملقى على جانب الطريق وندخن البقية الباقية من دخاننا .

ويحتفظ فاليجا بعلبة « ماخوركا » اخرى ، ولكنها كل ما نمتلكه نحن الاربعة من دخان . اختفى كوبيركو في مكان ما هو وسيارته ، ربما حصل على وقود فسافر دون ان ينتظرنا .. ليكن ... المهم انه أركبنا معه اثناء الليل .

تنعطف العربات نحو البئر ، ويشتد هناك الزحام ويعلو الصراخ . لم يعد هناك ماء في البئر تقريبا . وتزور الخيول عن العكر الطيني الذي يشبه لون العدس ، ومع ذلك فالجميع يتدافعون على البئر وهم يلوحون بدلائهم .

ـ حسناً ... ـ يقول ايجور وينظر جانبا نظرة تائهة .

ـ ماذا « حسنا » ؟

ـ أقول ماذا سنفعل ؟

ـ علينا ، فيما يبدو ، ان نواصل السير .

ـ والى اين ؟

ومع اني لا أدري الى اين ، فانني أجيب :

ـ نبحث عن رجالنا .

ـ من رجالنا ؟ شيريايف .. مكسيموف ؟

ـ شيريايف ، ومكسيموف ، فوجنا ، فرقتنا ، جيشنا ...

ايجور لا يرد ، بل يصفر بفمه . لقد أصابه هزال شديد خلال هذه الايام ... تسلخ انفه ، وتهدل شاربه الذي كان فيما مضى انيقا وجذابا وأصبح كشارب التتري . ليس هناك الآن ما يجمعه بذلك الشاب الانيق في الصورة التي عرضها عليّ ايجور ذات مرة . القميص الحريري وربطة العنق المخططة ذات العقدة الضخمة ، والسروال طراز « شارلي » ... كان طالباً بالسنة النهائية بمعهد الفنون .. يجلس على حافة الطاولة في وضع لامبال ، لوحة الالوان في يده ، والسيجارة بين اسنانه .. وفي الخلفية لوحة كبيرة عليها اشكال ديناميكية تنطلق في اتجاه ما ...

والصورة الاخرى لفتاة رائعة ، بعينيها بعض الحول ، وترتدي « سويترا » ابيض . وفي ظهر الصورة اهداء مؤثر ، بخط لم يرسخ بعد .

لا وجود لكل هذا الآن ... لا الفوج ، ولا الفصيلة ، ولا شيريايف ، ولا مكسيموف ... ليس الا كعبي المتسلخ ، والسترة المشبعة بالعرق وعليها خطوطه

الملحية البيضاء ، والمسدس المعلق في جنبي ، والالمان المتوغلون في قلب روسيا ، المندفعون كالاعصار نحو نهر الدون ، وطوابير السيارات ، والافكار المتقلبة الثقيلة كالرحى .

عند البئر زحام شديد وصرخات . الناس تفقد صوابها لشدة العطش . يندفع في الهواء دلو ، ويتراكض الناس من جميع الجهات نحو الصراخ . ويظل الزحام يكبر ويكبر حتى يصل الى الطريق ...

... كان من الممكن ان يصبح ايجور ، رساماً لا بأس به ، فيده رزينة وخطوطه جريئة ، ويرسم بطريقة طيبة . وقد رسمني انا ومكسيموف ذات مرة على ورقتي بلوك نوت ، ما زلت احتفظ بهما في حافظتي .

لقد بدأت معرفتي به بمشاجرة . فعندما كنا في سيرافيموفيتش اثناء التشكيل ، أمرتُ جنوده ان يتركوا مخبأ الغازات ويحفروا خنادق . وعندها هرول ايجور نحوي وسترته مفتوحة وعمرته مقصوعة ، وقد استشاط غضبا للحق . كانوا قد أرسلوه لتوه رئيسا للكيميائيين في الفوج الذي كنت أعمل فيه مهندساً

منذ اسبوعين . فوبّخته معتمدا على حق الاقدمية . وظللنا بعدها عشرة ايام لا نكلم بعضنا .

وبعد ذلك ، أظن قرب مدينة خاركوف ، رأيت بالصدفة في حافظته البوم رسومات ، وكانت تلك بداية صداقتنا .

بجوارنا تمر قافلة طويلة من السيارات تحمل مدافع صغيرة مضادة للدبابات ، تهتز عند المطبّات . تبدو السيارات بحالة جيدة غير عادية ، وتحمل على ابوابها ارقاماً مكتوبة بعناية وخط عريض : د ــ ٣ ــ ٥٤ ــ ٢٧ ، د ــ ٣ ــ ٥٤ ــ ٢٦ . انها ليست تابعة لجيشنا ، فسياراته تحمل رقم د ــ ١ . من صناديق السيارات تتدلى اقدام وتطل وجوه غير حليقة لوحتها السمرة . ونسألهم :

ــ من اي جيش انتم يا فتيان ؟

ــ واي جيش تريدون ؟

ــ الثامن والثلاثين .

ــ أخطأتم العنوان . أسألوا في مكتب الاستعلامات . ــ ويضحكون .

وتمر السيارات ، الواحدة تلو الاخرى ، صفراء وخضراء ، ورمادية ومبرقشة .. لا اول لها ولا نهاية ...

ــ حسنا ، هل نذهب ؟

وينهض ايجور ويدفن عقب السيجارة في الارض بكعب حذائه .

ــ هيا بنا .

ونندمج في التيار العام .

٨

ــ هيه ... ايها النسور !

ويلوّح لنا شخص ما يركب عربة . يبدو انه كالوجسكي ، مساعد قائد الفوج لشئون المهمات . يجلس على العربة ويلوح بيده .

ــ تعالوا .. تعالوا الى هنا .

ونذهب نحوه . بالضبط . كالوجسكي بعينه . تفوح منه رائحة الفودكا ، سترته مفتوحة ، وجهه حليق ، احمر ، ولامع .

ــ اصعدوا الى عربتي الخاصة وسأوصلكم الى منازلكم .. فلن يأتي الترام على اي حال ــ ويمد يده لنا ليساعدنا على الركوب ــ هل تريدون فودكا ؟ بوسعي ان أقدمها لكم .

ونرفض . فليست بنا رغبة .

ـ عبثا ترفضون . الفودكا جيدة ، ولدي مزّة ، اذ لم يسعفنا الوقت لتوزيع الوجبات الاضافية . لدينا زبد وبسكويت وسمك محفوظ . ـ ويغمز بعينه في مرح ويربت على اكتافنا بود . ـ اما اتباعكم فليصعدوا الى تلك العربات . مخازن المهمات كلها معي .. خمس عربات .

وأسأله :

ـ وأية وجهة تقصد ؟

ـ يالك من ساذج ! من يطرح الآن مثل هذه الاسئلة ؟ اننا نسير ، وهذا يكفي . وأية وجهة تريد ان تقصد انت ؟

ـ انني أسألك دون مزاح .

ـ وانا أجيبك دون مزاح . سنصل ستالينجراد باية طريقة .

ـ ستالينجراد ؟ !

ـ وهل هذا لا يعجبك ؟ اتريد الذهاب الى طشقند ؟ ام الى الما ـ اطا ؟

ويقهقه بصخب فتلمع اسنانه الذهبية . ضحكته

رخوة ، تغري بالضحك ، وعموما فهيئته كلها تطفح بالامتلاء ، حتى ليصعب ان تقرصه ...

ويسأله ايجور :

ـ هل قابلت رفاقنا ؟

ـ كلا . الجنود فقط ، وحتى هؤلاء قليلاً . ويقال ان القائد والقوميسار قُتلا ، ومكسيموف وقع في التطويق . مسكين لقد كان شابا نابها ... انه مهندس على اي حال ...

ـ واين « مربعاتك » ؟ ـ يقاطعه ايجور مشيرا بعينه نحو ياقة سترته .

ـ سقطت . أتعرف كيف يصنعونها الآن ؟ ـ ويغمز كالوجسكي بعينه ـ ما ان تعلقها حتى تسقط منك بعد ثلاثة ايام . صناعة مغشوشة .

ـ وكان حزامك ايضا بنجمة على ما أذكر .

ـ نعم . كان حزاماً طيبا بحامل سيف . ولكني اضطررت لاهدائه . ألح عليّ مصور الفرقة حتى أخذه . انكم تعرفونه ، ذلك الاعرج ذو العصا . وتحرجت ان أرفض فقد ألحّ بشدة ... ألا تريدون ان أصب لكم ولو مائة جرام فودكا ؟

ونرفض .

ـ امر مؤسف .. انها فودكا طيبة ، ماركة « موسكوفسكايا » .

ويجرع من الزمزمية ويمز بزبد فقط دون خبز .

ـ انها مزة رائعة .. لا تجعلك تسكر ابداً ، فهي تقوّى جدران المعدة .. طبيبنا قال لي هذا .. انه ايضا نابه .. أنهى كليتين في خاركوف . وقد رأيت بعيني شهادته .

ـ واين هو ، آلا تعرف ؟

ـ لا أعرف .. في الغالب نجا .. انه ليس احمق لكي يلقى بنفسه الى التهلكة . ـ ومرة اخرى يغمز كالوجسكي بعينه .

يتكلم مدة طويلة ، وبين الفينة والاخرى، يجرع من الزمزمية ويلعق اصابعه القصيرة التي تقطر سمنا . واحيانا يقطع روايته ليتبادل السباب مع قادة العربات المجاورة وسائقي السيارات المغروزة والتي تعطل السير ، والحوذية الذين فقدوا سياطهم او لم يتنبهوا الى سقي الخيول . كل هذا بطريقة عابرة وان كانت لا تخلو من الحماس ، بل والمهارة ايضا .

وعموما فرأيه في الوضع هو التالي : الامر كله ـ فيما يعتقد ـ يقترب من نهايته . فالجبهة كلها تتقهقر ، وهو على تمام اليقين من ذلك . وقد عرف هذا من احد الرواد الذي سمعه بدوره من احد العقداء . ويريد الالمان ان ينتهوا من الامر في سبتمبر . وهذا شيء محزن للغاية ولكنه يكاد امراً واقعاً. واذا كنا قد وفقنا في صد الالمان عن موسكو ، فانهم الآن قد استعدوا استعداداً طيبا .. ولديهم الطيران ، والطيران الآن هو كل شيء .. وعلينا ان ننظر الى الامور نظرة واقعية . والمهم الآن هو عبورنا نهر الدون . ويقال انهم قد احتلوا فيوشينسكايا بالفعل ، فبالامس عاد من هناك احد الملازمين . ولا يبقى امامنا الا تسيملانسكايا . ويقال انهم يقصفونها بوحشية . وعلى اسوأ الفروض نستطيع ترك العربات ، ثم عبور الدون في مكان ما فوق او اسفل تسيملانسكايا . وبالمناسبة ـ وهذا سر كبير ـ فقد حصل في احدى القرى على ثلاث بذلات مدنية وقمصان وسراويل واحذية ، وبوسعه ان يتنازل عن اثنين منها لي ولايجور ، فمن يعلم ماذا يمكن ان يحدث ، وعلينا ان نحافظ على

حياتنا اذ سيحتاج الوطن الينا ، وبالاضافة الى كل ذلك ، فقد رسم لنفسه خطة ...

ولكنه لم يستطع ان يحكي لنا عن خطته هذه . فايجور ، الذي كان الى هذه اللحظة يجلس بجانبي صامتاً يعبث بمدية في نعل حذائه ، رفع رأسه فجأة . وصار وجهه النحيل غير الحليق رماديا تحت طبقة من السمرة والغبار . وانزلقت عمرته الى الخلف :

ـ هل تدري يا كالوجسكي ما الذي أتمناه الآن اكثر من اي شيء آخر ؟

ـ أتراك تتمنى شطائر بالقشدة ؟ ـ ويضحك كالوجسكي .

ـ كلا ، ليس شطائر ... بل ان اضربك في سحنتك ... بملء قبضتي ألكمك في سحنتك الطافحة بالغبطة ... هل فهمت الآن ؟

ولعدة ثوان لا يعرف كالوجسكي كيف يرد ، هل يغضب ، ام يحول الامر كله الى مزحة . لكنه يسيطر على نفسه بسرعة فيضحك ضحكته المعتادة ، ويربت على ركبة ايجور .

ـ اضطراب الاعصاب يفعل اكثر من هذا .. انه مفعول الغارات !

ـ اذهب الى الشيطان انت واعصابك وغاراتك ! ـ ويغلق ايجور مديته بفرقعة ثم يضعها في جيبه . ـ أتعتبر نفسك قائداً ؟ .. انني لا استطيع ان اطمئن لحظة مما يدور حولي ، بينما تقول لي « الوطن سيحتاج الينا » ! ما حاجة الوطن الى حثالة مثلك .. ألا تستحي من السائق حتى تقول امامه ما قلت ؟ !

ويتظاهر السائق انه لا يسمع . ويقفز كالوجسكي من العربة ويركض ليتشاجر مع سائق ما . ولحسن حظه سدّت امامنا الطريق سيارة « دودج » ضخمة .

فانتقلت انا وايجور الى عربة اخرى .

٩

تخف كثافة التيار المتدفق الى حد ما ، فبعض الوحدات تتجه بالرغم من كل شيء الى فيوشينسكايا ، والبعض الآخر الى كالاتش متجنبة موروزوفسكايا . والبقية ـ وهي القسم الاعظم ـ تتجه صوب تسيملانسكايا .

السهوب قاحلة ، ومستوية الى درجة تثير الألم ، تتناثر فيها هنا وهناك بعض قمم الروابي مثل البثور على البشرة . والوديان جافة محروقة ، وطنين الصراصير رتيب كأزيز اسلاك البرق . ومن تحت اقدامنا بالضبط تفر الارانب البرية مذعورة ، فنطلق عليها النار من البنادق الاوتوماتيكية والمسدسات ولكننا لا نصيبها . تنتشر في الجو رائحة الشيح والغبار والروث وبول الخيل .

ونواصل السير . ليل نهار نواصل السير ولا نتوقف الا لكي نطعم الخيول ونعد طعامنا . لا نرى الالمان . ومرة او مرتين تحلق فوق رؤوسنا طائرة نسميها « اطار » فتلقى المنشورات . وذات مرة انكسرت في عربتنا عجلة فقضينا نصف يوم في اصلاحها . ثم نستبدل الفرس العمياء الرمادية بمهر كميت يسبب لنا آلاف المشاكل ويرفس ويشخر ولا يريد ان يجر العربة ، فنستبدله هو الآخر ببهيمة اخرى عجوز ولكنها مجتهدة ، شفتها السفلى رطبة مهدلة .

حالتنا المعنوية في غاية السوء . لو اننا استطعنا ان نحصل على بلاغ حربي فنعرف ان الحال في الجبهات الاخرى افضل مما لدينا ! لو ان الالمان ظهروا في

مكان ما ! ولكن لا المان هناك ولا حرب ، وانما كآبة مرهقة .

هناك رائد من سلاح الاشارة ساعدناه في انتشال سيارته طراز « فيليس » من مصرف جانبي ، قال لنا ان المعارك تدور الآن في مكان ما بين فوروشيلوفجراد وميليروفو . ولفترة ما تحمل لنا كلمة « معارك » بعض العزاء . اذن فالجيش يقاتل .

— وعلى العموم اذا لم تجدوا جيشكم فاتجهوا الى ستالينجراد . فهناك الآن تتشكل وحدات جديدة ... وبهذا تستطيعون ان تلتحقوا بالجبهة بطريقة اسرع ... — ويغلق باب سيارته ويختفي خلف سحابة من الغبار .

ونصعد — ونحن نسب — الى عرباتنا ... عليها الف لعنة !

ومرة ثانية السهوب والغبار والسماء الملتهبة الباهتة .

وتسألنا النسوة اين هم الالمان والى اين نحن ذاهبون ، فنشرب في صمت اللبن البارد الذي أحضرنه لنا من الاقبية ، ونشير بيدنا نحو الشرق .

الى هناك .. وراء نهر الدون ...

لا أستطيع ان أنظر الى تلك الوجوه ، الى تلك العيون المستفهمة المشدوهة ، فبماذا أجيبهم ؟ على ياقتي مربعان ، ومن خصري يتدلى مسدس ، فلماذا انا هنا ولست هناك ؟ لماذا أجرجر بدني على هذه العربة المتهالكة وأرد على جميع الاسئلة باشارة من يدي ؟ اين فصيلتي ، فوجي ، فرقتي ؟ ألست قائداً من القادة ! ..

كيف أجيب على كل هذا ؟ سأقول ان الحرب هي الحرب ، وانها تقوم كلها على الصدفة والدهاء ، وان لدى الالمان الآن طائرات ودبابات اكثر مما لدينا ، وانهم يسارعون الى انهاء الحرب قبل حلول الشتاء ، ولذلك يقذفون بانفسهم في الجحيم ، ونحن وان كنا مضطرين ان ننسحب ، الا ان الانسحاب لا يعني الهزيمة بعد . ألم ننسحب عام ٤١ ثم بعد ذلك طردنا الالمان عن موسكو ... نعم ، نعم ، نعم كل هذا مفهوم .. ولكننا الآن ، في هذه اللحظة نسير مع ذلك الى الشرق ، لا الى الغرب وانما الى الشرق ... ولذلك لا أجيب بشيء ، بل أشير بيدي نحو الشرق واقول : « الى اللقاء يا جدتي ، سنلتقي مرة اخرى ، أقسم بالله سنلتقي ... » .

انني أؤمن بما أقول ، فالشيء الوحيد الذي بقي لدينا الآن هو الايمان .

* * *

ونمر على موروزوفسكايا ، مدينة صغيرة متربة ، تتكدس فيها عربات الجر ويتصاعد الدخان من اطلال محطتها وعربات القطارات المعطوبة تمتد الى ما لا نهاية .

بعد ذلك الدون ، ويبدو الآن نهراً صغيراً اصفر ضائعا وسط العجلات والموتورات وصناديق السيارات والاجساد العارية وشبه العارية والمكسوة ، وسط الغبار والصفير وهدير السيارات الصارخة والحناجر البشرية ، هذا الهدير المتواصل الذي لا ينقطع لحظة واحدة ، وسط سحابة متصلة من الغبار ، وحفر القنابل ، وجيف منتفخة لخيول نافقة متقلصة الارجل ، واشجار مشروخة عارية ، وسيارات مقلوبة على ظهرها .

الوجوه حمراء مسعورة تتصبب عرقا ، والاصوات مبحوحة . وهناك ملازم ابيض الوجه يحمل شارات سلاح المهندسين على ياقته ، أبح ، مفكوك الازرار وبدون

عمرة ، يحاول ان ينظم شيئا ما . لكن احداً لا يستمع اليه ، بل يطرحونه ارضا ...

في الفترة ما بين غارتين نعبر الجسر بسرعة ، ونفقد كالوجسكي مع عربتين ، ويصاب سيديخ بشظية في سمانة رجله ، ويسرق شخص ما جربندية فاليجا مستغلا هذه الفوضى ، فيأخذ فاليجا في السب وحك مؤخرة رأسه ثم يجول باحثا بين حفر القنابل والعربات المحطمة ... امر مؤسف ، ففي الجربندية طاقم حلاقة رائع ...

خلف الدون نلتقي بالسهوب من جديد ... سهوب مقبضة كئيبة . يومنا كأمسنا ، وغدنا كيومنا . لا شيء غير الشمس والغبار ، والقيظ يُفقد الصواب ويصهر المخ .

وتظهر اول وحدات متجهة الى الجبهة . زيهم مهندم ، يحملون بنادق اوتوماتيكية وعلى رؤوسهم خوذات . وعلى اجساد القادة فيهم احزمة جلدية صفراء ينبعث منها صرير ، وعلى جنوبهم تصطفق محافظ جلدية جديدة . ينظرون الينا بشيء من السخرية . انهم جنود من سيبيريا .

في احدى القرى يستوقفوننا . هناك مدرسة حربية

ستذهب الى الجبهة والسلاح لا يكفي ، لذلك يستولون عليه ممن يقابلهم . وهناك ملازمان من جمهورية جورجيا يرتديان عمرتين جديدتين من عمرات سلاح المشاة يريدان الاستيلاء على بنادقنا الاوتوماتيكية ومسدساتنا . في البداية نتشاجر معهما ، وبعد ذلك ندخن معاً تبغا خفيفا .

— هل انتما ذاهبان الى الجبهة ؟

— نعم . بالامس فقط كنا ندرس ، واليوم ندخل المعركة — ثم يبتسمان معا .

— على العموم لن تدخلاها اليوم ، اذ عليكما ان تصلا اولا الى الجبهة .

— واين الالمان ؟ — يسأ لنا الملازمان بحذر ، خشية — لا قدّر الله — ان نظن انهما خائفان .

— بل نحن الذين أردنا ان نسأ لكما ، فانتم هنا تقرأون الصحف .

— وماذا تعني الصحف ... انها تقول ان المعارك تدور في منعطف الدون ، ولا شيء اكثر . معارك ضارية . وقد سلمنا مدينة فوروشيلوفجراد .

— ومدينة روستوف ؟

ـ كلا ، لم يكتبوا عنها بعد .

ـ لم يكتبوا ؟

ـ نعم لم يكتبوا .

ويتململ الملازمان ، ويسأ لنا احدهما بلا اكتراث ، وكأنه يطرح سؤالاً عابرا :

ـ حسنا ، وكيف الحال هناك ، في الجبهة ... هل يولون الادبار ؟

وتظهر الدهشة على وجه ايجور .

ـ من ذا الذي يولّى الادبار ؟

ـ من ؟ رجالنا ...

ـ لا احد يولي الادبار . ان المعارك تدور .. معارك دفاعية .

ويتطلع الينا الملازمان بعدم ثقة ، الى ملابسنا الممزقة ، ووجوهنا المتربة ، الى عرباتنا بعجلاتها المترنحة .

ـ وانتم ؟

ـ ماذا نحن ؟

ـ ألم تولوا الادبار ؟

ـ ولماذا ؟ اننا متجهون لاعادة تشكيلنا .

ويضحك الملازمان ، كما لو كانا قد سمعا نكتة بارعة ، ويصبان في اكياسنا تبغاً قوقاسيا ذهبيا .

ـ خذونا معكم يا فتيان .. هلا فعلتم ؟ ـ يقول ايجور فجأة ثم يربت بيده على جراب مسدسه ويضيف :

ـ معنا مسدساتنا ، ماذا تريدون اكثر ؟ ..

ويتبادل الملازمان النظر .

ـ اي والله يا فتيان... لقد وصلنا الى نهاية المطاف .

ـ وماذا نكون نحن ... ـ يتملص الملازمان ، ـ نحن قوم صغار الشأن . اذهبوا الى رئيس الاركان فربما أخذكم . وربما ... على كل حال اذهبوا ... اسمه الرائد سازانسكي ، وها هو الكوخ الذي يقيم فيه ، هناك ، بجوار تلك العربة ذات العجلات الخضراء .

ونزرر ازرارنا كلها ، ونشد احزمتنا ، ونترك المسدسات خشية ان يستولى عليها ، ونذهب اليه .

ـ خاطبوه حسب الاصول العسكرية تماما ـ يصيح الملازمان في اثرنا ـ انه يحفظ جميع النظم العسكرية عن ظهر قلب ، ودقوا بكعبكم بقوة ولا تبخلوا ..

يجلس الرائد في كوخ صغير للغاية، ويتناول حساء «البورش» من القدر مباشرة . وبجواره على المائدة نظارة.

ـ ماذا تريدون ؟ ـ يسأل لنا دون ان يرفع رأسه ، بينما يمضغ بعناية قطعة من لحم يبدو انه عجوز .

ونشرح له قصتنا ونحن واقفون انتباه . وينتهي هو من مضغ اللحم ، فيضع الملعقة على المائدة والنظارة على عينيه . ينظر الينا طويلا ويعبث في اسنانه بقطعة من خشب علبة الكبريت .

ـ ماذا أقول لكم يا اصدقاء ؟ ـ يخاطبنا في صوت خفيض فيه دمدمة من نوع خاص ـ لا أستطيع ان أقول لكم اي شيء طيب . هل تظنون انكم اول من توجه الي بهذا الطلب ؟ ابداً. لقد جاءني عشرة اشخاص .. اية عشرة اشخاص ؟ بل خمسة عشر شخصا مثلكم جاءوا الي ، فالى اين آخذ كل هؤلاء ؟ انكم لن تذهبوا للقتال كجنود ، بل كقادة ، وانا الآن عندي قائدان للفصيلة الواحدة ، هذا بالاضافة الى حوالي عشرة ضباط في الاحتياط . فهل فهمتم الآن ؟

ونلتزم الصمت .

ـ وهكذا .. الامر كما ترون .. وكما يقولون ، كان يسعدني لولا .. ـ ثم يتناول الملعقة من جديد .

ـ ومع ذلك ايها الرفيق الرائد ...

ـ ماذا « مع ذلك » ؟ ـ ويرتفع صوته . ـ ما معنى « مع ذلك » ؟ هل انتم في الجيش ام في مكان آخر ؟ لقد قلت لكم « لا » وانتهى الامر .. انني قائد الفوج لا رئيس عوامة للعاطلين عن العمل . مفهوم ؟ للخلف در ! معتاداً مارش ! ـ ثم يضيف بصوت اكثر لطفا : ـ اتجهوا الى ستالينجراد ، ففيها الآن ، كما يقولون ، القيادة بأسرها . من اي جيش انتم ؟

ـ من الجيش الثامن والثلاثين ايها الرفيق الرائد .

ـ الثامن والثلاثين .. الثامن ولثلاثين .. ـ ويحك باصبعه ما بين عينيه ـ لقد قال لي شخص ما ، لم أعد اذكره الآن ، ولكنه اي والله قال لي .. على العموم حاولوا ان تعثروا على جيشكم في كوتيلنيكوفو .. انها في طريقكم .. ويبدو ان جيشكم هناك .. ابحثوا .. ابحثوا ..

ونؤدي التحية العسكرية وننصرف .

في كوتيلنيكوفو يقولون لنا ان اركان الجيش في ابجانيروفو ، ولكننا لا نجدها هناك فيرسلوننا الى كاربوفكا . وهناك ايضا لا نجدها . ثم يخبرنا نقيب ما انه سمع بان جيشنا ، على ما يبدو ، في كوتلوبان . ونذهب الى كوتلوبان . ليس هناك اي اثر ، يقولون

ان رائداً من الجيش الثامن والثلاثين جاء الى القومندان ، ثم سافر الى دوبوفكا . وفي محطة لوج نقابل ثلاثة ملازمين قادمين من دوبوفكا . ونعرف ان الجيش غير موجود هناك . الجميع يتجهون صوب كليتسكو – بوتشتوفسكايا .

السيارات متجهة صوب مدينة كالاتش ، يقولون ان معارك ضارية تدور هناك . التموين سيئ للغاية . وفي احدى الوحدات المارة وزعوا علينا ، لسبب غير معلوم ، الخبز والمعلبات . وحصل فاليجا وسيديخ بطريقة ما على جوال شوفان . . .

وعلى العموم... نتوجّه الى ستالينجراد.

١٠

تستقبلنا ستالينجراد بشمس تطل من خلف اسطح المنازل ، وظلال رطبة طويلة . .

وتقرقع عربتنا في مرح على ارض الشارع الحجرية ، وتقابلنا عربات الترام الصاخبة الكالحة . وطوابير من سيارات « ستوديبيكر » المجدوعة الانوف ، وعليها صناديق طويلة كالتوابيت . انها صناديق دانات مدافع

« كاتيوشا » الصاروخية . وفي المنتزهات العارية من الحشائش والشجيرات والمليئة بالخنادق ، ترفع المدافع المضادة للطائرات فوهاتها الى اعلى في ترقب . وفي الاسواق تلال من الطماطم والخيار وقوارير ضخمة مليئة باللبن. وتمر امام ناظرنا سترات مدنية و« كابات » ، بل وحتى اربطة عنق . انني لم أرَ هذا منذ زمن طويل . والنساء ما زلن يطلين شفاههن كما كن يفعلن فيما مضى .

وعبر واجهة زجاجية متربة نرى الحلاق وهو يضع الصابون على ذقن زبون ما . وفي دار السينما يعرض فيلم « أنطون ايفانوفيتش غاضب » . مواعيد الحفلات : الثانية عشرة ، والثانية والرابعة والسادسة مساء . وهناك احد البوابين يجمع روث البهائم في جاروف . ومن راديو مركّب على عامود من اعمدة اسلاك الترام ينبعث صوت نفاذ للغاية ، لا تعرف ان كان لرجل ام لامرأة ، يحكي عن فانكا جوكوف ، ذلك الصبي ذي التسع سنوات الذي يكتب رسالة لجده في القرية في ليلة عيد الميلاد * .

---

* المقصود هنا قصة « فانكا جوكوف » للكاتب الروسي الشهير انطون تشيخوف (١٨٦٠ – ١٩٠٤) .

وفوق كل هذا سماء زرقاء وغبار . . . وشجيرات اكاسيا نحيلة ومنازل خشبية صغيرة ترتفع عليها ديوك محفورة من الخشب ولافتات : « ممنوع الدخول . احذر الكلب ! » . وبجانبها منازل حجرية كبيرة في جوانبها تماثيل لنساء يحملن اشياء ما . ودوائر مكتبية تحمل اسماء « صب الاحذية المطاط » و« تصليح مواقد الكيروسين » و« النائب العام لمنطقة مولوتوف » . . .

ينعطف الشارع الى اليمين هابطا نحو الجسر . جسر عريض على جانبيه اعمدة النور وتحته نهر لا وجود له ، لكنه يحمل اسما فخما هو « القيصرة » . ويرى جزء من الفولجا — المرفأ والصنادل واطواف الخشب بلا نهاية . وننعطف الى اليمين ثانية ونصعد الى اعلى . اننا ذاهبون الى اخت قائد سرية ايجور السابق في فوج الاحتياط . « ليست امرأة ، بل ذهب خالص . . سوف ترون بانفسكم » .

نتوقف عند منزل حجري من طابق واحد ، طلاؤه قد سقط ، وألصقت على نوافذه شرائط من

الورق متقاطعة . وقطة بيضاء واسعة العينين تجلس على الدرج وتتفحصنا بعدم رضا .

ويختفي ايجور خلف البوابة ، وبعد دقيقة يعود، مرحا ، دون عمرته ، وبالفانلة فقط .

— تعال الى هنا يا سيديخ . . هيا ! — ثم يميل على اذني ويهمس : — كل شيء على ما يرام . جئنا في وقت الافطار .

ندلف الى فناء صغير مريح ، ثم نرقى الى شرفة زجاجية بها حبال مشدودة وعليها شيء ما اخضر . وهناك برميل يقوم مقام خزان المياه ، وغسيل منشور واوزة مربوطة من ساقها الى حاجز السلم . ثم قطة اخرى . . . لكنها هذه المرة سوداء ، تمسح وجهها بقدمها وتدعونا للدخول .

نجلس في الشرفة الى مائدة مغطاة بمفرش ، ونتناول حساء من الفاصوليا ، لذيذا الى درجة غير معقولة . عددنا اربعة ، لكن ربة المنزل لا تكف عن ملء اطباقنا مرة بعد مرة . يدا ماريا كوزمينيشنا خشنتان مشققتان من جراء العمل في المطبخ ، لكن المريلة التي ترتديها ناصعة البياض ، اما موقد الكيروسين

ووعاء المربى المعلق على الحائط فيبدو انها تغسلهما كل يوم بمسحوق الطباشير . وعلى قمة رأس ماريا كوزمينيشنا تتربع لفة شعر بيضاء . ونظارتها ملفوفة بالقطن في نقطة تماسها مع الانف .

بعد انتهائنا من الحساء نتناول الشاي ، ثم نعرف ان زوجها نيقولاي نيقولايفيتش سوف يحضر ساعة الغداء ، وانه يعمل في ورشة السيارات ، وان الاوزة قد اهداها لها اخوها الذي ما زال في فوج الاحتياط ، واننا لو أردنا ان نغتسل كما ينبغي بعد عناء السفر فانه يوجد لديهم في الفناء « دوش » ، لكن فقط ينبغي ملء البرميل بالمياه ، اما ملابسنا الداخلية فسوف تتولى هي غسلها ، ولن يكلفها ذلك شيئا .

يشرب كل منا ثلاث اكواب من الشاي ، ثم نملأ البرميل بالمياه ، ونظل فترة طويلة نطرطش بالماء ونحن نقهقه ، في كوخ ضيق تستره بعض الواح خشبية . انه لمن الصعب ان أصور لكم مدى سعادتنا .

ساعة الغداء يحضر نيقولاي نيقولايفيتش ، صغير

الحجم ، اصلع ، يرتدي سترة عتيقة من الحرير ، وجهه نابض بالحياة بشكل فائق ، وطوال الوقت ينقر على المائدة باصابعه ، او يتحسس بها شيئا ما .

انه يهتم بكل شيء . يسألنا عن الوضع في الجبهة وكيف يطعموننا هناك ، وفيم يفكر تشرشل بشأن عدم فتحه الجبهة الثانية — « ان هذا كلام فارغ ، ولتحكموا انتم » — وهل تظنون ان الالمان سيصلون الى ستالينجراد ، واذا وصلوا ، فهل ستكون لدينا القوة الكافية للدفاع عنها . في هذه الايام يذهب الجميع لحفر الخنادق ، وقد ذهب هو يومين ، وهناك قال له نقيب ما انه توجد حول ستالينجراد ثلاثة خطوط دفاعية او كما سماها هو ثلاثة احزمة . وهذا على ما يبدو امر رائع . وقد احتفظ بانطباع طيب للغاية عن هذا النقيب ، فمثله لن « يثرثر » عبثا كما يقولون الآن .

بعد ان فرغنا من تناول الشاي أخذ نيقولاي نيقولايفيتش يطلعنا على خريطته التي يضع عليها اعلاما صغيرة ليحدد بها الجبهة . ثم يقيس بمسطرة حديدية المسافة بين كالاتش وكوتيلنيكوفو وبين

ستالينجراد ثم يزفر ويهز رأسه . الحوادث الاخيرة لا تعجبه . انه يقرأ الصحف بكل اهتمام ، وهو لا يتلقى صحيفة « ستالينجرادسكايا برافدا » فحسب ، بل « البرافدا » من موسكو ايضا . وقد صفهما صفين فوق صوان الملابس . واذا ما أرادت ماريا كوزمينيشنا ان تلف شيئا ما في صحيفة ، ذهبت تسأل الجيران ، فهذه الصحف لا تُمس .

ثم ننام في الفناء في ظل الاكاسيا ونغطي وجوهنا بالمناشف اتقاء للذباب .

في المساء نستعد للذهاب الى اوبريت « حمالة بورجيا » ، فننظف احذيتنا في الفناء ، غير باخلين عليها بلعابنا .

على الدرج المقابل تجلس فتاة تشرب لبنا من كوب زجاجي مضلع سميك . اسمها لوسي ، وهي طبيبة . ونحن نعلم ذلك لأن ماريا كوزمينيشنا أخبرتنا به . عينا الفتاة سوداوان الى درجة لا تصدق ، براقتان كحبتي عقد . وحاجباها اسودان ، وشعرها ذهبي خالص ، قصير ، مقصوص بطريقة رجالي . ترتدي فستانا خفيفا من الشيت . . . يداها ورقبتها

برونزية لوحتها الشمس . ويستدير ايجور حتى تصبح الفتاة في مجال نظره :

ـ ساقاها لا بأس بهما ابدا يا يورا ؟ اه ؟ وعلى العموم . . .

ويبصق على الفرشاة بحدة .

والفتاة تشرب اللبن وتنظر الينا ونحن ننظف احذيتنا ، ثم تضع الكوب على الدرج وتذهب الى غرفتها ، وتعود ومعها طلاء احذية .

ـ انه طلاء طيب ، صنع استونيا ، اعتقد انه افضل من اللعاب ـ ثم تمد يدها الينا بالعلبة .

نأخذ منها الطلاء ونحن نشكرها . وبالفعل ، فانه افضل من اللعاب . تلمع احذيتنا كأنها جديدة . الآن لا يخجل المرء من الظهور بها في المسرح . ماذا ، هل نحن ذاهبون الى المسرح ؟ نعم ، الى المسرح . لنشهد اوبريت « حمالة بورجيا » . ولكن ربما تأتي معنا ؟ كلا انها لا تحب الاوبريت ، اما الاوبرا فلا توجد في ستالينجراد . أحقا لا توجد ؟ حقا . وهل هي تحب الاوبرا ؟ نعم ، وخاصة اوبرا « يفجيني اونيجين » و« لا ترافياتا » و « البنت البستوني » .

ايجور مبهور . ويتضح ان لوسي قد درست في مدرسة للموسيقى — قبل معهد الطب — ولديها بيانو . وتؤجل الاوبريت الى مرة اخرى .

— تفضلوا عندنا ، وستعد امي الشاي .

— بكل سرور ، فقد كدنا ننسى هذه الامور لبعدنا عنها .

جلسنا في غرفة الاستقبال على كراسي من القطيفة ذات ارجل مقوسة ، وتملكنا الخوف من ان تتحطم تحت ثقلنا ، فقد كانت مرهفة وانيقة ، وكنا نحن اجلافا مضطربين . وعلى الحائط كانت صورة « جزيرة الموتى » للفنان بيوكلين . وعلى البيانو تمثال نصفي صغير لبتهوفن . وتعزف لوسي مقطوعة « كامبانيللا » للموسيقار ليست .

شمعتان سميكتان في الشمعدان تنصهران ببطء والاريكة لينة ومريحة ظهرها مطروح الى الخلف . أضع خلف ظهري وسادة مطرزة بالخرز ، وأمد ساقيّ .

قفا لوسي محلوق بطريقة منمقة . واصابعها تجري مسرعة فوق مفاتيح البيانو . لا بد انها كانت تحصل على اعلى الدرجات في المدرسة الموسيقية لسرعتها

هذه . استمع الى « كامبانيللا » وانظر الى صورة بيوكلين وتمثال بيتهوفن الجبسي والى طابور الافيال المصنوعة من احجار الاورال والموضوعة على « البوفيه » وكل منها يدس رأسه في مؤخرة صاحبه . ولكني لسبب لا أدريه أشعر ان كل هذا غريب عليّ ، بعيد عني ، وكأنما يغلفه الضباب .

كم من مرة حلمت وانا في الجبهة بلحظات كهذه : ان تجلس على اريكة فلا تسمع حولك صوت طلقة او انفجار ، بل تصغي الى موسيقى وبجوارك فتاة جميلة . . . وها أنذا الآن اجلس على اريكة وأصغي الى الموسيقى . . . ولسبب ما أشعر بالضيق . لماذا ؟ لست ادري . كل ما أدريه انه منذ تلك اللحظة التي انسحبنا فيها من على ضفاف اوسكول . . . كلا . . . بل فيما بعد . . بعد معركة الحظائر . . أشعر طوال الوقت ان شيئا ما كريها قد ترسب على قلبي . انني لست هاربا من الخدمة ، لست جبانا ، ولا متعصبا ، ومع ذلك فانني أشعر كأنني كل هؤلاء جميعا . . .

منذ عدة ايام ، وفي مكان ما ، قرب كاربوفكا على ما اعتقد ، جلست انا وايجور على جانب الطريق

ندخن . وكان فاليجا وسيديخ يطهوان الطعام على النار .
ومرت بالقرب منا وحدة مدفعية جديدة ، متجهة الى الجبهة . كان الجنود شبانا مرحين ذوي وجوه حمراء من صهد الشمس ، وقد اعتلوا المقاعد الامامية ومضوا يتأرجحون فوق الطريق المترب وهم يضحكون ويتبادلون النكات . وصرخ واحد منهم ، لست أدري ان كان رقيبا ام جنديا عاديا ، وكان يركب حصانا اشهب يبدو عليه الشبع ، صرخ بمرح وبصوت رنان كصوت مغني ، موجها كلامه لنا :

— ما اعظم الخنادق التي حفرتموها ايها السادة المحاربون . لا رصاصة ، ولا قذيفة هاون تستطيع ان تمسّكم . . .

وقهقه الجميع حوله ، اما هو ، ذلك المهرج المرح ، فأضاف :

— لا ينقصكم الا سماوار ومربى . . .

وضج الجميع بالضحك من جديد .

وانا أدرك انه لا هو ، ولا الجنود الذين ضحكوا ، قد قصدوا اهانتنا ، ولكن من الواضح ان هذه الدعابة لم تجلب لنا اي قدر من المتعة . بل ان فاليجا سب

ودمدم بشيء ما وكأنه يقول : « سوف نرى ماذا ستقولون بعد اسبوعين . . . » .

نعم ، ان افظع ما في الحرب ليس القذائف او القنابل ، فكل هذا يمكنك التعود عليه . ان افظع ما فيها هو البطالة ، والغموض ، وغياب الهدف المباشر . ولان تجلس في خندق في فضاء مكشوف تحت وابل القنابل ، لاكثر رعبا من ان تتقدم في صفوف المهاجمين . مع ان احتمالات الموت في الخندق اقل بكثير منها اثناء الهجوم . ولكن الهجوم يعني ان امامك هدفا ، مهمة ، اما في الخندق فليس امامك الا ان تحصى القنابل ، ايها ستسقط فوقك وايها لن تسقط .

وتنهض لوسي من امام البيانو :

— هيا نشرب الشاي . اعتقد ان السماوار قد غلى .

المائدة مغطاة بمفرش ابيض منشي ، وقد قسمته خطوط الكي الى مربعات . وفي اطباق صغيرة من البللور وضعت مربى الكريز الخالية من البذور ، وهي المربى المفضلة عندي . نشرب الشاي من اكواب رقيقة ، ولا ندري اين نخفي ايدينا التي اخشوشنت

واصبح لا يمكن تنظيفها تماما ، مليئة بالكدمات والخدوش ، واساور اكمامنا البالية ، ونخشى ان نسقط قطرات المربى على المفرش .

أم لوسي ، وهي امرأة فاترة ، ترتدي عوينات اطارها من عظم السلحفاة ، وياقة منتصبة كتلك التي كانت المدرسات المربيات يرتدينها في الماضي ، تضع لنا المزيد من المربى ولا تكف عن التنهد :

— كلوا ، كلوا . . لا احد يدللكم في الجبهة . الحياة سيئة هناك ، انا أعرف هذا . . فقد خاض زوجي الحرب الاولى وحكى لي — ثم تتنهد مرة اخرى — ياله من جيل يائس . . ياله من جيل بائس !

ونعتذر عن تناول كوب الشاي الثالث . ومراعاة للاصول نجلس خمس دقائق اخرى ثم نستأذن في الانصراف .

— زورونا ، زورونا يا أعزاء ، مرحبا بكم دائما .

نتمدد في الفناء تحت اشجار الاكاسيا المغبرة ، ولمدة طويلة لا يطرق جفوننا النوم . بجواري ينام سيديخ ، ويمضغ اثناء نومه شيئا ما ويطوح يده فوقي . ايجور يتقلب من جنب الى جنب .

— هل انتم نائم يا يورا ؟

— لا .

— فيم تفكر ؟

— هكذا . . . لا شيء .

ويبحث ايجور في الظلام عن تبغ .

— هل لديك دخان ؟

— ابحث في الحذاء . . كيس الدخان هناك .

ويفتش ايجور في الحذاء ثم يخرج الكيس ويلف سيجارة .

— لقد سئمت كل هذا يا يورا .

— وما هو الـ « هذا » ؟

— هذا التأرجح . . كورقة شجرة في حفرة بها ماء .

— حسنا ، سنكف غدا عن التأرجح . سنتوجه الى قسم شئون الافراد منذ الصباح ، قبل الافطار .

— يالها من سعادة قسم شئون الافراد هذا ! سيلقون بنا في الاحتياط لكي نتعلم الخطوة العسكرية والتحية العسكرية ، او في فوج الطواريء ، وهذا ادهى وامر .

ـ لن أذهب الى لواء الطواريْ .

ـ لن تذهب ؟ وللتعليم ايضا لن تذهب ؟ ولن تذهب ايضا الى الما ـ اطا او فرونزه ؟ يقولون انهم يرسلون الآن جميع الملازمين والملازمين الاوائل الى المدارس .

ـ فليرسلوني . . لن أذهب .

نصمت بضع دقائق ، وتومض سيجارة ايجور .

ـ وماذا سنفعل بالفتيان ؟

ـ اي فتيان ؟ فاليجا وسيديخ ؟

ـ نعم ، يجب علينا ان نرسلهم الى مركز التوزيع .

ـ لن يذهبا الى اي مركز توزيع . سأقوم انا وانت بتسليم العربة والخيول ، لكني لن أسلمهما . انني أحارب وفاليجا تسعة اشهر ، وسنبقى معا حتى نهاية الحرب او يُقتل احدنا .

ويضحك ايجور :

ـ مضحك فاليجا صاحبك . لقد اختلف بالامس مع سيديخ بسبب طريقة اعداد البطاطس . كان سيديخ يريد طهوها كما هي ، بقشرها ، وفاليجا

يرفض رفضا باتا ويقول ان الملازم ـ اي انت ـ لا يحب سلخ القشرة ، بل يحب البطاطس نظيفة . واستمرا يتجادلان حوالي عشر دقائق .

ـ حسنا ، انه اذن جندي مراسلة حقيقي . . ـ أقول وأتحول الى الجنب الآخر ـ نم ، فغدا نستيقظ مبكرا .

ويتثاءب ايجور طويلا ، ويبصق على السيجارة ويطفؤها في الارض .

في مكان بعيد جدا تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها ، وتجول الكشافات في السماء ، ويتنهد فاليجا اثناء نومه . انه ينام على بعد خطوتين مني وقد تكور حول نفسه وغطى وجهه بيده . هكذا ينام دائما .

يا فاليجا ، يا صغيري ذا الرأس المستدير ! كم قطعنا معا خلال هذه الشهور ، وكم أكلنا من وعاء واحد ، وكم ليال قضيناها معا تحت غطاء واحد . وكم كنت لا ترغب في ان تصبح جندي مراسلة عندي . وقد تحتم عليَّ ان انفق ثلاثة ايام في اقناعك . كنت تقف منكس الرأس وتموء بشيء ما غير مفهوم

وتقول : لا أجيد هذا . . . لم أتعود . كنت تحس بالخجل لأنك فارقت رفاقك . لقد كنت تزحف معهم في خطوط النار ، ومعا شربتم المر ، ثم فجأة يختارونك لكي تصبح جندي مراسلة عند الرئاسة . لكي تجلس في مكان دافئ . . . فهل انا لا أجيد القتال ؟ وهل انا اقل من الآخرين ؟ هكذا قلت .

لقد تعودتُ عليك يا اخطل الاذنين . . تعودت عليك بصورة شيطانية . . كلا . . لم أتعود . ان هذا ليس عادة ، بل هو شيء آخر ، اكبر من ذلك بكثير . انني لم أفكر في ذلك ابدا ، ببساطة لم يكن لدي وقت .

لقد كان لدي فيما مضى اصدقاء . كان لدي الكثير من الاصدقاء . درسنا معا ، وعملنا معا ، وشربنا الفودكا معا ، وتناقشنا في الفن وغيره من الامور السامية . . . ولكن هل هذا يكفي ؟ الشراب والنقاش وما يسمى بالاهتمامات المشتركة ، والثقافة المشتركة ؟

فاديم كاستريتسكي ، شاب ذكي موهوب ومرهف . أشعر معه دائما بالمتعة ، وقد تعلمت منه الكثير . ولكن ، هل كان يحملني وانا جريح من

قلب المعركة ؟ لم يكن هذا الامر يعنيني من قبل ، لكنه أصبح الآن يعنيني . اما فاليجا فيحملني . . انا أعرف ذلك . . . او سيرجي فيليدنيتسكي . . هل كنت لأذهب معه في دورية استطلاع ؟ لست أدري . اما فاليجا فأذهب معه ولو الى آخر الدنيا .

في الحرب تعرف الناس عن حق . لقد أصبح هذا الامر واضحا لي الآن . انها مثل ورق عباد الشمس الكيميائي ، مثل محلول « مُظْهِر » من نوع خاص . ففاليجا مثلا يقرأ الكلمة حرفا حرفا ، ويرتبك في عملية قسمة بسيطة ولا يعرف حاصل ضرب سبعة في ثمانية ، ولو سألته ما هي الاشتراكية ، او ما هو الوطن ، فانه — وأقسم — لن يوضح لك شيئا . فالمفاهيم التي تحددها الكلمات جد صعبة عليه . ولكنه في سبيل هذا الوطن ، في سبيلي ، في سبيل ايجور ، في سبيل رفاقه في الفوج ، في سبيل كوخه المائل في مكان ما في منطقة الطاي ، في سبيل ستالين الذي لم يره ابدا ، لكنه يعتبر بالنسبة له رمزا لكل ما هو طيب وخيِّر ، سوف يقاتل حتى آخر رصاصة ، فاذا فرغت الرصاصات فبقبضتيه ، باسنانه . . .

هذا هو الشخص الروسي . فاذا ما كان جالسا في الخندق ، فسوف يسب الرقيب اكثر من سبه الالمان ، ولكن عندما تشتد الامور فانه يكشف عن معدنه . اما القسمة والضرب والقراءة الصحيحة فسوف يتعلمها ان عاجلا ام آجلا ، اذا ما وجد الوقت والرغبة . . .

فاليجا يدمدم بشيء ما وهو نائم ، وينقلب على الجنب الآخر ، ثم يعود فيتكور حول نفسه مرة ثانية ، قابضا ركبتيه تحت ذقنه .

نم . . . نم يا اخطل الاذنين . . فعما قريب سنعود الى الخنادق ، الى ليالي السهاد ، الى : « فاليجا ، اذهب الى هناك ! فاليجا ، تعال هنا ! » . غط الآن في النوم . فاذا ما انتهت الحرب وبقينا على قيد الحياة فسوف نجد حلا ما .

١١

في الصباح ، في قسم شئون الافراد ، نجد انفسنا وجها لوجه امام كالوجسكي . . . حليق الذقن ، منتعش الوجه ، بل ويبدو وكأنه ازداد وزنا . ويمد لنا يده الدافئة الرطبة ويسألنا :

— آه يا اولادي . . . انتم احياء ، بخير ؟ الى اين تقصدون ؟

— الى المكان الذي خرجت انت منه .

— لحظة واحدة . . لا تستعجلوا . . هل معكم تبغ ؟

— معنا .

— لا بد ان ندخن وفي نفس الوقت نشغّل عقولنا . ها هي اريكة لطيفة .

ويسحبنا نحو اريكة ذات ثلاث ارجل في حديقة صغيرة متربة .

— لا داعي لأن تلقوا بانفسكم الى التهلكة . . هل تفهمونني ؟ الامر هنا بسيط : فاما الى الاحتياط ، واما الى الجبهة . وهناك — طاخ طيخ — وتصبحون في خبر كان .

— وبعد ؟

— هل هذا يعجبكم ؟ — ويرتفع باندهاش حاجباه المنمقان — أتعرفون ماذا يحدث الآن في الجبهة ؟ الافضل ألا تسألوا . . . ان فيها من كل غابة شجرة * . .

* مثل روسي معناه هنا : لم يبق من الرجال الا القليل . المترجم .

لقد تحدثت اليوم مع ملازم جريح جاء بالامس فقط من كالاتش . الطاقم القيادي في الجيش انتهى تقريبا . ويضعون الشخص الآن في اول مكان يقابلهم ويقولون له : خذ ، هؤلاء هم الجنود ، وهذا هو الخط الدفاعي فاثبت هنا . هل تفهمون ؟ وطائرات « مسرشميت » تحلق فوق الرؤوس تماما . وباختصار . . .

وباصبعه الغليظ القصير يرسم في الهواء صليبا .

— وتسألون عن الاحتياط ؟ هناك العصيدة والخبز كالطين ، وربما أعطوكم سمكا مملحا . اما التدريب فمن الصباح الى المساء . . حفظ القواعد والرشاش اليدوي و . . . هل تريدون لبّا ؟

ودون ان ينتظر ردنا يصب في راحاتنا لبا صغيرا محمصا .

— والآن نواصل الحديث . . . — وينحني الى الامام قليلا ويقول بصوت غامض شبه هامس : — لقد قابلت هنا احد النقباء ، سوف أعرفكم به . انه شاب طيب . كان يعمل مساعدا لشئون الاستطلاع في هيئة اركان احدى الفرق . وقد جرى بيننا حديث ، فاتضح انه يعرف بعض معارفي . وباختصار ، بعد

خمسة او ستة او على الاكثر عشرة ايام سيحضر الى هنا المقدم شورانسكي . هل تعرفونه ؟ انه ليس رجلا بل كنز من ذهب . انني اتحدث معه بصيغة المفرد ، كما اننا شربنا معا . وهكذا فان شورانسكي هذا سيرتب كل شيء . انه الآن في موسكو ، في مهمة . وسوف يكون هنا بعد اسبوع . وعلى العموم فنصيحتي لكم ان تعودوا الآن ادراجكم . هل لديكم مأوي ؟ اما انا فسوف أخبركم بما يجد .

وفجأة يقفز من مجلسه ويدس اللب في جيبه .

— لحظة واحدة . . انتظراني . سوف أقول لذلك الرائد كلمتين لا اكثر . . .

ويسوّى عمرته على رأسه ويختفي خلف الزاوية .

وندخل نحن منزلا ذا نوافذ قذرة . يخبرنا ملازم اشقر يرتدي حذاء نظيفا جدا ان قسم المهندسين في شارع توركستانسكايا ، هناك يسجلون جميع رجال سلاح المهندسين . اما التخصصات الاخرى : الرماة ورجال الهاون والمدفعية ففي الحجرة رقم خمسة من الساعة الحادية عشرة الى الخامسة .

نتوجه الى توركستانسكايا . ويقرر ايجور ان يقدم نفسه على انه من رجال الهندسة .

ـ فلتذهب الى الشيطان اقنعة الغازات هذه . لقد سئمتها . فلتعلمني انت خلال ثلاثة ايام كل ما في مهنتك من افانين .

في شارع توركستانسكايا نقابل مرة ثانية ملازما ، لكنه هذه المرة اسود ، يرتدي حذاء من المشمع ، ثم نلتقي برائد ، ثم نملأ خمس استمارات و « تعالوا غدا في العاشرة » .

في العاشرة صباح اليوم التالى نملأ بطاقات اخرى ، ثم نتوجه الى شارع اوزبكسكايا رقم ١٦ ومعنا ورقة مكتوب عليها « الى الرائد زابافنيكوف لضمهم الى الاحتياط » .

هناك نلتقي بحوالي عشرين ضابطا من رجال سلاح المهندسين يشربون الشاي وهم يجلسون على رفوف النوافذ ، يدخنون ويلعنون الاحتياط . الرائد غير موجود ، ثم يأتي بعد ذلك . . . رجل قصير ، صفراوي المزاج ، أخضر اللون ، عيناه تدمعان . ومن جديد نفس الاسئلة : مَنْ ، ماذا ، من اين .

ثم يعرفنا بالنظام : من التاسعة الى الواحدة دراسة ثم غداء . من الثالثة الى الثامنة دراسة ايضا . ونسجل اسماءنا في قائمة الطعام لاحدى السرايا المائية . ثم ننصرف الى المنزل .

° ° °

في المساء أتجول مع لوسي على الكورنيش . السماء حمراء مكفهرة ، والسحب فوق الافق كأنها دخان اسود كثيف . والفولجا سطحه مضطرب بفعل الريح ، وبلا اي بريق . وهناك اطواف واطواف بلا نهاية . والقاطرات النهرية ملفوفة بالغصون الخضراء وكأن اليوم عيد العنصرة . وعلى الشاطئ الآخر منازل صغيرة وكنيسة وروافع الآبار المنتصبة في كل فناء .

نسير متشابكي الايدي . احيانا نتوقف قرب الحاجز الحجري ، نعتمد عليه ، وننظر الى الامام . لوسي تقول شيئا ما . . يبدو انها تتحدث عن الشاعرين بلوك ويسينين ، وتسألني عن امر ما ، فأجيبها اجابة ما ، ولست أدري لماذا أشعر بالضيق ، ولا أريد ان أتحدث لا عن بلوك ولا عن يسينين .

كل هذا أثار اهتمامي وحرّك مشاعري في وقت ما ، اما الآن فقد انزوى بعيدا ، بعيدا . . . المعمار والرسم والادب . . انني لم أقرأ كتابا واحدا طوال فترة الحرب ، ولا أشعر برغبة في القراءة . لا أحس بميل الى ذلك .

كل هذا فيما بعد . . فيما بعد .

اما غدا فنعود الى هذا الاحتياط لنفك ونركّب رشاش « ديجتاريف » عشرين مرة . . وهكذا بعد غد ، وبعد بعد غد . ومرة اخرى سيقول لنا هذا الرائد العصبي الدامع العينين زابافنيكوف انه يجب علينا ان ننتظر ، وانه عندما يصدر الامر فسيرسلوننا الى الجبهة ، وانه يوجد هناك اناس يفكرون في هذا الموضوع ، ثم ينطلق يصيح فلا يتوقف . . .

نمر بجوار تمثال خولزونوف ، بطل الاتحاد السوفييتي . وأشعر بالخجل لأني لا أعرف ما هي البطولة التي قام بها . انه ينتصب شامخا ، برونزيا ثقيلا ، في سترة جلدية ، معتدا بنفسه ولا ينظر الى احد . ونقرأ ما كتب على التمثال ونتفحص النقوش على قاعدته .

نصل الى الميدان المركزي . تُعرض هناك طائرة المانية من طراز « هينكل » اسقطتها المدفعية المضادة . . . طائرة رمادية عليها صلبان سوداء مرسومة بعناية ، واسد من اسود العصور الوسطى على درع عريق . انها تشبه طائرا شريرا جريحا ، سقط على الارض وغرز مخالبه فيها . ويزحف الاطفال على اجنحتها المكسورة ويدخلون الى غرفة القيادة فيعبثون في المفاتيح . اما الكبار فينظرون بتجهم واهتمام الى محركاتها المحطمة ، ورشاشاتها البارزة وهم واقفون خلف الحبل المشدود المحيط بها .

ـ كلها محصنة بالدروع ، هذه الافعى . . .

ـ نعم ، انهم لا يبخلون بالمعدن .

ـ وعلينا ان نقاتلهم بطائراتنا الخشبية !

ـ وكم رشاشا فيها ؟

ـ اثنان . بالاضافة الى مدفعين .

ـ وكم قنبلة تحمل ؟

ـ ما وزنه طنان .

ـ طنان ؟

وتشدني لوسي من ذراعي :

— هيا بنا ، لقد ملات النظر اليها . فلنذهب الى تل ماماي .

— الى اين؟

— الى تل ماماي . من هناك ترى ستالينجراد كلها وكأنها فوق راحة يدك ، والفولجا ايضا ، وما بعد الفولجا بكثير . المكان هناك طيب . اقسم لك .

ونتوجه الى تل ماماي . تل مسطح وغير جميل . به اشجار فتية غرست صفوفا . لوسي تقول انه كان من المقرر ان تُقام هنا حديقة عامة للراحة والثقافة . من المحتمل ان يصبح هذا المكان في يوم ما جميلا ، لكنه الآن غير جذاب . وهناك بعض ابراج المياه ، وعشب جاف ، وخمائل شائكة متباعدة .

لكن المنظر من هذا المكان فعلا رائع .

المدينة الكبيرة التصقت بالنهر تماما . والكتل الحجرية للمنازل الجديدة قد سمت فوق المنازل الخشبية التي تحيط بالمدينة من كل جانب . وتعشش هذه المنازل الخشبية المتهدمة وتمتد بحذاء الوديان ثم تزحف نحو النهر وتصعد الى اعلى وتنحشر بين ابنية المصانع الخرسانية . المصانع كبيرة يتصاعد منها الدخان ،

وتضج بالاوناش وصفارات القاطرات البخارية . انها مصانع « اكتوبر الاحمر » و « المتاريس » ، وهناك بعيدا عند الافق تماما تشمخ مباني مصنع الجرارات . وهناك بيوت خاصة بهذا المصنع : مباني كبيرة متناسقة بيضاء ومنازل صغيرة جميلة تلمع اسقفها القرميدية .

وخلف كل هذا يمتد الفولجا ، هادئا ، أملس ، عريضا ومسالما ، ثم الخضرة المتعرجة على الشاطئ المقابل ، والمنازل التي تبرز من وسطها ، ثم الآفاق التي أصبحت بنفسجية تماما ، وصاروخ اشارة أطلقه احد الحمقى فانفجر وسقط مطرا جميلا من الاضواء الخضراء والحمراء .

نجلس على حافة الوادي المتعرج العاري وننظر الى القطار وهو يزحف في اسفل التل . انه طويل لدرجة مخيفة ، وعلى عرباته اشياء ما ملفوفة بالمشمع ، لا بد انها دبابات . وتئن القاطرة ذات المدخنة القصيرة بسخط وكأنها غاضبة ، ولا تبخل بالدخان وتجر العربات ببطء وتجلُّد كحصان تعود على نقل الاثقال .

وتسألني لوسي :

— فيم تفكر ؟

ـ أفكر في الرشاش . هذا المكان جد مناسب لينصب فيه رشاش .

ـ يورا . . كيف يمكنك ان تتحدث هكذا ؟

ـ اما الآخر فيوضع هناك . وسوف تغطى نيرانه جيدا ذلك الجانب من الوادي .

ـ ألم تملّ كل هذا ؟

ـ ما هو الـ « هذا » ؟

ـ الحرب . . الرشاشات . .

ـ مللته حتى الموت .

ـ ولماذا اذن تتحدث عنه ؟ اذا كانت هناك فرصة لعدم الحديث عنه ، فلماذا اذن . . .

ـ مجرد عادة . أصبحت ، حتى عندما أنظر الى القمر ، أنظر اليه من وجهه نظر مدى جدواه ونفعه . لقد قالت لي طبيبة اسنان انه عندما يحدثونها عن شخص ما ، فانها تتذكر اول ما تتذكر اسنانه والثقوب فيها والحشو . .

ـ اما انا فعندما اكون خارج المستشفى أحاول ألا أفكر في كل هذه الاعضاء المبتورة والجماجم المفتوحة وغيرها من الاشياء الفظيعة .

ـ انت تعملين في المستشفى منذ عهد قريب . . وهذا كل ما هنالك .

ـ بل أعمل اكثر من شهر .

ـ وانا اكثر من سنة ، وسنة الحرب تساوي ثلاث سنوات سلم كاملة ، بل ربما خمس .

وتعتمد لوسي بيدها على ركبتي وتنظر في عينيّ . لديها شامة صغيرة قرب عينها اليسرى ، ورموشها مثل رموش سيديخ طويلة مقوسة الى اعلى .

ـ كيف كنت قبل الحرب يا يورا ؟

بم أجيبها ؟ مثلما انا الآن ، مع بعض الاختلاف . كنت أحب التطلع الى القمر وأكل الشوكولاتة ، والجلوس في الصف الثالث في المسرح ، أحب زهور البنفسج والشرب مع الخلاّن .

نظل صامتين لبعض الوقت نتطلع الى الضفة المقابلة .

وتقول لوسي :

ـ المنظر جميل ، أليس كذلك ؟

فأقول :

ـ جميل .

— هل تحب الجلوس هكذا والتطلع ؟

— أحب .

— أتراك في كييف كنت تجلس مع شخص ما على شاطئ الدنيبر في المساء وتتطلع ؟

— كنا نجلس ونتطلع .

— ألديك هناك زوجة ، في كييف ؟

— كلا ، لست متزوجا .

— ومع مَنْ اذن كنت تجلس ؟

— كنت أجلس مع لوسي .

— مع لوسي ؟ ياله من امر مضحك . . هي ايضا لوسي ؟

— ايضا لوسي . وكانت مثلك قصيرة الشعر . لكنها في الحقيقة لم تكن تعزف على البيانو .

— واين هي الآن ؟

— لا ادري . لقد بقيت في الاراضي المحتلة . كثيرون بقيوا في الاراضي المحتلة . والداي بقيا هناك .

— وهل لديك صورتها ؟

— نعم .

— أيمكنني ان ألقى نظرة ؟

أخرج الصورة من المحفظة . صورة تجمعني ولوسي . صورة رديئة من صور الهواة على ورق رديء ، وقد أوشكت ان تبهت تماما . تتناولها لوسي ، وتنحنى عليها بشدة حتى يمس شعرها وجهي . تفوح منه رائحة صابون معطر منعش .

— وجه لوسي صاحبتك ليس متناسقا . . ألم تلاحظ ذلك ؟

— كلا ، لم ألاحظ .

— وهل تحبها ، ام هي نزوة عابرة ؟

— يخيل اليّ انني أحبها . . وعلى اي حال فانني مشتاق اليها .

— جدا ؟

— اعتقد جدا .

— ولماذا « اعتقد » ؟

— حسنا . . فليكن « جدا » فحسب .

وتغض لوسي طرفها .

ثم فجأة تحمر تماما ، حتى اذناها الصغيرتان المثقوبتان ثقبين للحلق ، تصبحان حمراوين .

وهناك في الاسفل يزحف قطار آخر ، ايضا طويل ، وايضا يئن . ويقرقع في مكان ما ترام ولكنه لا يرى . وفي السماء تظهر نجوم صغيرة شاحبة وخجولة .

اتطلع الى السماء ، والى الاذن الوردية الصغيرة المثقوبة ، الى ذراع لوسي الدقيقة والخاتم ذي الفص الاخضر في خنصرها . ما الطفها واروعها — لوسي ! انني أشعر معها الآن بالسرور ، لكن بعد عدة ايام سنفترق ، ولن نلتقي بعد ذلك ابدا . وسوف التقى بـ « لوسيات » كثيرات غيرها خلال الحرب ، وربما سأجلس معهن ايضا كما أجلس الآن ، وبعد ذلك يختفين في مكان وأنسى اسماءهن ووجوههن ، ثم تتحد صورهن كلها في شيء ما موحّد ، كبير وضبابي ولطيف ، يترك وهما بان كان ثمة شيء ما مضى وأصبح بعيدا ، مغريا . . .

على اي حال أعطيها عنوان صديق لي في موسكو لتراسلني بواسطته عندما تنتهي الحرب ، طبعا اذ أرادت . وتدون العنوان في مفكرة صغيرة ، وتقول انها لا بد ستكتب .

بعد ساعة ننصرف . لوسي صامتة تمسك بي بقوة وبكلتي يديها ، وأشعر كيف يدق قلبها . يداها دافئتان طريتان ، وهي كلها بشكل عام مريحة ومؤثرة .

١٢

يعهد الينا انا وايجور وملازمين آخرين من الاحتياط بعمل ، ويطلق علينا اسم « فرقة ذات مهمة خاصة » . رئيسنا الرائد جولدشتاب شخص مهذب لدرجة فظيعة ، اصلع ، مصاب بقصر النظر . اما قائد الفرقة النقيب ساموبلينكو ، فهو شخص متجهم ، انفه يرتعش ، وهو ايضا من الاحتياط .

عملنا بسيط . فالاهداف الصناعية في المدينة يجب اعدادها للتدمير توقعا لاي احتمال . وعلينا ان نعد خرائط توزيع شحنات المتفجرات واحصاء العدد اللازم منها وتحديد طريقة التفجير ، وتدريب مجموعات خاصة تفردها المصانع لتقوم بالتفجير . وهذا كل ما هنالك .

ويقع من نصيبي مصنع اللحوم ، والثلاجة ، والمطحنة الرابعة ومصنع الخبز . اما ايجور فيخصه مصنع البيرة والمطحنة الاخرى ومعمل الادوات المعدنية .

ننتقل الى شقة جديدة ، كبيرة ، خالية وغير مريحة ، بها شرفة تطل على ميدان المحطة . ليس فيها اثاث تقريبا . مجرد منضدة واربعة كراسي وثلاثة اسرة محطمة ، ولولب كهربائي لغلى الماء نسيه شخص ما هنا .

نستولى انا وايجور على سريرين ونضع عليهما معطفينا ، اما الثالث فيشغله ملازم اول اسمه غريب : « بنجاونيس » ، لا بد انه من جمهورية لاتفيا . اما رابعنا واسمه شابيرو فينام على الكراسي . فاليجا وسيديخ يرقدان في الغرفة المجاورة على الارض . اما النقيب المتجهم فيقطن في شقة خاصة . يأتينا مرة كل يوم ، فيرعش انفه ويسألنا عما نفعل ، ثم يدخن سيجارة وينصرف .

في المصانع يتهرب منا المديرون ويشيحون بايديهم ويقولون انه ليس لديهم احد يخصصونه لفرق التفجير ، فلم يبق لديهم الا النساء . اما العمال فينظرون شزرا :

لماذا كثر تردد العسكريين على المصنع . فأتظاهر بانني اخصائي مطافئ ، وافتش على حنفيات الحريق .

في الثلاجة يقدمون لي جيلاتي في طبق ، وفي مصنع اللحوم يقدمون اللحم المجفف والسجق .

الطقس صحو حار اثناء النهار ، خانق في الليل .

تشكو ماريا كوزمينيشنا من ارتفاع الاسعار في السوق ، لم يعد من الممكن ابدا ان تحصل على لبن او زبد . اما نيقولاي نيقولاييفيتش فيتنهد بجوار خريطته . الانباء غير مطمئنة . سلمنا مدينتي مايكوب وكراسنودار .

الجرحى كثيرون في المدينة ، ويزداد عددهم يوما بعد يوم . غير حليقي الوجوه ، شاحبون ، تلمع ضماداتهم البيضاء على ملابسهم المتربة الملوثة بالدم ، يسيرون في طوابير نحو الفولجا . المستشفيات تُرَحَّل . وهناك دوريات تمر في المدينة وتصعد الى الشقق لفحص الهويات . الطرق المؤدية الى كالاتش وكوتيلنيكوفو غاصة بالسيارات . في الافنية تجري على قدم وساق

اعمال حفر الخنادق ، كما يحفرون ايضا حفرا عميقة يقولون انها احواض للمياه لاستخدامها في حالة الحريق . في بعض الاحيان تحلق طائرات « يونكرس » فتلقي قنبلتين او ثلاث على اطراف المدينة ثم تعود . المدافع المضادة للطائرات تملأ المدينة .

يصل تشيرشل الى موسكو . البيان المشترك عن الزيارة غامض تماما .

لا نعرف ايضا اين تدور المعارك على وجه الدقة . فنشرة الانباء تقول بتعميم : « في شمال شرق كوتيلنيكوفو » او « عند منحنى الدون » . . . يقولون ان الالمان استولوا على ابجانيروفو . انها على بعد خمسة وستين كيلومترا من هنا . في السوق ، وهو المركز الرئيسي لانتشار الاشاعات ، سمعت ماريا كوزمينيشنا ان رجالنا سلموا كالاتش وانسحبوا الى كاربوفكا . الجرحى غالبيتهم من كالاتش ، يلوحون بايديهم ويقولون : « الدبابات . . . الطائرات . . . ماذا نفعل . . . »

لم يصدر بعد الامر بالتهجير ، لكن جيران لوسي ، وهم طبيب اسنان وزوجته وطفلاهما ، قد رحلوا بالامس الى لينينسك « لزيارة اختهم » .

في مسرح الاوبريت تعرض اوبريتات « سيلفا » و « ماريتسا » و « روزماري » . بوفيهات المسرح خاوية الا من مياه الفولجا التي تباع الكأس منها بخمسة كوبيكات . على خشبة المسرح تتحرك قبعات مستطيلة وصدور قمصان ، وابتسامات ساحرة ودعابات مريبة .

في حديقة الحيوان ما زال الفيل غارقا في حزنه ، والقردة تقفز دون كلل ، والثعبان الغليظ الكسول ينام في زاوية حوضه على قش قديم .

امينة مكتبة المدينة ذات الشرفة المطلة على الفولجا مباشرة ، امرأة عجوز لطيفة ، تصفف شعرها على طريقة ثمانينات القرن الماضي ، تعير كتابا لبلزاك ، وتطلب من المستعير ألا يثني زوايا صفحات الكتاب . الاولاد يطلقون الاحجار من « النبلة » على العصافير ويلعبون لعبة الحرب بين « الفاشيست » وبين « رجالنا » . الفتيات يلعبن « الحجلة » ويقفزن على ساق واحدة .

عند دار الجيش الاحمر تعلق بصورة منتظمة جريدة « ازفيستيا » و « ستالينجرادسكايا برافدا » في واجهات شدت عليها شبكة معدنية .

وهكذا يمضي اغسطس بطيئا خانقا ، صحوا ، متربا .

ذات مرة أقابل كالوجسكي مرتديا بزة جديدة وعمرة ذات شريط بنفسجي . لقد عمل في احدى المستشفيات مديرا للتغذية . والآن يرحّلون المستشفى الى استراخان ، ولذا فهو غارق في العمل لاذنيه ، فالجرحى بالملايين ، وليس هناك مواصلات ، وباختصار اقسم لك ان الجبهة افضل . . . وبالمناسبة ، اذا كان يلزمني سكر فانه يستطيع ان يتنازل لي عن عشرة كيلوجرامات ، فعلى اي حال لن يتمكنوا من نقل كل شيء ، وسيضطر الى تسليمها للجبهة .

ومع انني أعلم ان فاليجا سوف يغضب مني ، الا انني أقول لكالوجسكي انه ليس لدي وقت . وبهذا ينتهي حديثنا . يلوح لي بيده بنشاط ، ويرحل في عربة « جيب » محملة لآخرها بلحوم اغنام ، متجها ناحية الفولجا . وأشيعه بنظرة ، ثم اذهب الى البريد لعلّ وعسى أجد رسالة معنونة « الى شباك البريد » .

١٣

استيقظ يوم الاحد مبكرا عن المعتاد . لقد ظهرت البراغيث لست أدري من اين ، ولم أعد قادرا على النوم اكثر من ذلك . ايجور والآخران ما زالوا نائمين .

انهض واذهب الى المطبخ . سيديخ يعد شطائر على موقد الكيروسين ، اما فاليجا فيعبث بجهاز سماعة راديو . . . انه يحلم منذ امد بعيد بجهاز راديو .

خلال النافذة يلمع الحائط المقابل الذي تغطيه الشمس وتبدو قطعة من سماء شاحبة وكأنها فقدت لونها من الحرارة .

لن أذهب اليوم الى المصنع ، فقد سلمت الخرائط ، وأحصيت عدد شحنات المتفجرات ، اما تدريب العمال فيتأجل من يوم لآخر ، ولم تجهز حتى الآن مجموعات التفجير .

وأسحب المعطف من على ايجور :

— انهض ، هيا نذهب لنستحم في الفولجا .

ويكشر وجهه بامتعاض ويحاول سحب المعطف على وجهه ويزمجر ، ومع ذلك يستيقظ ، وتطرف عيناه الناعستان .

ويدخل سيديخ حاملا الشطائر وهي تطشطش على المقلاة :

ـ اليوم صباحا اسقطنا واحدة ـ ويضع المقلاة على قالب طوب ـ رأيت ذلك بعيني . في البداية دخنت ، واندفع منها ذيل دخان طويل اسود ، ثم أخذت تترنح اكثر فاكثر . . . ثم سقطت في مكان ما قرب المدينة . لا بد انها اصيبت في المحرك .

ـ في المدينة كثير من المدافع المضادة للطائرات ـ يقول شابيرو وهو يهبط من على الكراسي التي يفترشها ـ حوالي خمس وعشرين بطارية .

انه مولع بالارقام ، وبكافة انواع الحسابات .

ـ فلو فتحت نيرانها في وقت واحد فانها ستطلق في الدقيقة الواحدة سبعمائة وخمسين قذيفة على الاقل .

ـ وكم طائرة لدى الالمان ؟ ـ يسأل ايجور الذي يسخر دائما من شابيرو ، فلا يعبأ هذا بسخريته ويجيب :

ـ في بداية الحرب كان لديهم حوالي عشرة آلاف طائرة . اما الآن فلديهم اكثر من ذلك على ما يبدو .

ـ لماذا ؟

ـ عملية حسابية بسيطة . لو حسبت ان لديهم مائة مصنع طائرات ، وكل مصنع ينتج طائرة واحدة في اليوم ـ وانا أخذ حدا ادنى غير معقول ـ ففي الشهر سينتجون ثلاثة آلاف طائرة . . وليس من المعقول ان خسائرهم تبلغ هذا الرقم . اذن . . .

ـ هل تذهب للاستحمام ؟ ـ يقاطعه ايجور .

ـ كلا ، لقد أصبت بدمل . انه سادس دمل يصيبني خلال هذا الشهر ، وفي موضع حرج للغاية .

ليس في ستالينجراد بلاج . نقفز من فوق الاطواف مباشرة في الامواج الدهنية التي جعلها النفط تلمع كاللؤلؤ . المياه دافئة كأن احدا ما سخّنها .

ثم نستلقي على الاطواف ونزر عيوننا وننظر الى الفولجا . انه يلمع الى درجة تغشى النظر ، وهو لا يشبه الدنيبر ، لا يشبهه بالمرة . آخر مرة رأيت فيها الدنيبر كانت قبل الحرب ببضعة ايام . انه اكثر

استهتارا ومرحا من الفولجا . البلاج هناك قوس ضخم غاص بالاجساد العارية التي لوحتها الشمس . وهناك شماسي واكشاك ومحطات نهرية مزينة بطريقة لعوب . وعدد لا حصر له من القوارب المختلفة الاشكال والاحجام والانواع ، واليخوت البيضاء السريعة . وكل هذا يروح هنا وهناك ويلمع بالوان بيضاء وصفراء وزرقاء ، ويرتعش تحت شمس منتصف النهار المحرقة .

اما هنا فالامر مختلف . هنا اكثر جدية وعملية ، هنا الاطواف والعوامات والزوارق البخارية السوداء المشغولة البال التي تصفر بصوت أبح ، والقاطرات التي تضرب حبالها في الماء . ربما كان هنا ايضا قبل الحرب زوارق ويخوت ، لكني لم اكن هنا قبل الحرب . اما الآن فان فيض المياه العريض البراق هذا ، المغطى بالاطواف والذي تملأ ضفتيه الروافع والحظائر الطويلة المملة ، هذا الفيض يذكرك بورشة في مصنع من نوع خاص ، لا يشبه غيره من المصانع .

ومع ذلك يظل هو الفولجا . بوسعك ان تستلقي بالساعات على بطنك وتظل تنظر كيف تسبح الاطواف الى اسفل النهر متجهة الى مكان ما ، وكيف تلمع

وتتألق بقع الزيت ، وكيف تئن سفينة صغيرة متهالكة وهي تسبح ضد التيار . وهكذا استلقي انا وأتطلع ، بينما ايجور يتحدث بكلمات ما ، ويقول انه ملّ هذا الفراغ ، كما ملّ شابيرو ودمامله ، وكذلك بنجاونيس الذي يغسل كل يوم ياقات قمصانه وينشرها في الشرفة ، ملّ مديري المصانع وكل هذا العمل البيروقراطي .

أصغي اليه باذن واحدة ، وانظر الى السفينة التي كانت تئن ، وقد رست الى ذلك الشاطئ ، وأحاول ان اطرد من ذهني انه بعد اسبوع او اسبوعين ستنتقل الجبهة الى هنا ، الى هذا المكان الذي نستلقي فيه ، وسيحل به الالمان ، اما نحن فسنكون هناك ، في الخضرة الملتفة على الضفة المقابلة ، وسوف تثير القنابل نافورات مائية بيضاء ، وتعوم الجثث المنتفخة على ذلك السطح المائي اللامع متجهة الى اسفل ، الى استراخان او بحر قزوين .

ويضربني ايجور بقوة على ظهري ويقول :

ـ لننزل الى الماء . . هناك سفينة تسبح .

ويجري فوق الطوف ثم يدفع بقدمه جذعا سميكا زلجا ، ثم يغوص في الماء ويختفي بضع ثوان . وتظهر رأسه وهي تزفر بعيدا عن الشاطئ . وبضربات قوية وقصيرة من ذراعيه يعوم قاطعا الطريق على السفينة . ظهره كله تقريبا فوق الماء ، اما رأسه ففيه ، يبرزه احيانا من تحت ذراعه لكي يستنشق الهواء . انه يسبح جيدا . لوسي ايضا كانت تسبح هكذا ، ليس بهذه القوة والحدة ، ولكن بنفس المهارة .

هذه الطريقة في السباحة تسمى « كرول » ، ولم أستطع بعد ان أجيدها ، فلا يمكنني ان أتنفس جيدا ، وساقاي تتعبان ، اذ عليهما ان تظلا تعملان طوال الوقت بسرعة وانتظام كالمقص .

وتمر السفينة . . . قصيرة ، ذات مدخنة طويلة ، تسحب خلفها ذيلا طويلا من العوامات . يعود ايجور لاهثا .

ـ قلبي ضعف . . لقد بدأت أهرم . . هذا ليس نهرا ، بل خزان نفط .

ويلمع جسده ويبرق من جراء النفط العالق به . ثم يضيف :

ـ الافضل ان نذهب الى المكتبة .

لا أمانع ، فقد آلمني ظهري من الرقاد على الجذوع الخشبية .

في المكتبة يستمتع ايجور بمجلة « ابوللو » عن عام ١٩١١ ، اما انا فأقرأ بعض القصص من بيرو ، والمنشورة في مجلة « الادب الاممي » . الكراسي هنا مريحة ومصنوعة من حبائل مجدولة . والغرفة هادئة ومريحة ، بها صور تورجينيف وتوتشيف وشخص آخر ذي شارب ودبوس في ربطة عنقه . وساعة الحائط الكبيرة تدق دقة موسيقية كل ربع ساعة . هناك صبيّان يغصان بالضحك من رسومات الفنان دوريه في كتاب « مغامرات البارون مونهاوزن » . كان هذا الكتاب لدي ايضا في وقت ما ، بغلافه الاحمر المذهب وبهذه الرسوم نفسها . كان بوسعي ان اتفرج عليه عشرين مرة في اليوم ولا أملّه . وكان اكثر ما يعجبني فيها هو انتشال البارون لنفسه من المستنقع وذلك بشد ضفيرته الى اعلى . ولوحة اخرى كانت تعجبني تصور البوابة وقد شقت الحصان نصفين بينما يقف هو ويشرب الماء من النافورة بهدوء ، ومن خلفه يندفع شلال .

نظل جالسين حتى تذكرنا الامينة بان المكتبة تغلق ابوابها في الساعة السادسة مساء ، فهم لا يعملون الآن الا نوبة عمل واحدة ، من الثانية عشرة الى السادسة مساء .

— تعالوا غدا . . من الثانية عشرة الى السادسة نفتح دائما . . اما مجلة « ابوللو » فيوجد منها اعداد عن سنة ١٢ وسنة ١٧ .

نودعها وننصرف . لا بد ان فاليجا يزمجر فقد برد الطعام .

الراديو الاسود المربع ، المعلق على مدخل المحطة ينادي بصوت أبح كأنه أصيب بالبرد :

— ايها المواطنون ، غارة جوية على المدينة . . انتبهوا ايها المواطنون . . غارة جوية . . .

في الايام الاخيرة يعلنون عن الغارات كل يوم ثلاث او اربع مرات . لم يعد احد يعير الامر اهتماما . تطلق بعض الطلقات بينما لا ترى اية طائرات ، ثم يعلنون انتهاء الغارة .

يقابلنا فاليجا بنظرة غاضبة يرسلها من تحت حاجبيه :

— ألا تعرفون انه ليس لدينا فرن ؟ لقد سخنت الطعام مرتين ، البطاطس ذابت تماما ، وحساء « البورش » . . . — ثم يشيح بيده يائسا ، ويفك المعطف الملفوف حول وعاء « البورش » . في مكان ما خلف المحطة تفرقع طلقات المدفعية المضادة للطائرات .

حساء « البورش » رائع بالفعل . باللحم والقشدة . بل ويوجد ايضا اطباق ، جميلة ، منقوش عليها زهور وردية .

ويضحك ايجور قائلا :

— كأننا بالضبط في مطعم . . . لا ينقصنا الا حمالات للسكاكين ومناديل ورقية مثلثة موضوعة في كوب .

فجأة يطير كل شيء . . . الاطباق والملاعق والزجاج والراديو السماعة المعلق على الحائط .

يا للشيطان ، ما هذا ؟ !

من خلف المحطة تطير الطائرات الالمانية بتؤدة ومهابة ، وكأنها في استعراض . لم أر في حياتي مثل هذا العدد . انها من الكثرة بحيث لا تعرف من اين

تأتي . تطير اسرابا ، سوداء ، كريهة ، هادئة ، على ارتفاعات مختلفة . والسماء مغطاة ببصقات المدافع المضادة .

نقف في الشرفة ونتطلع الى السماء . انا وايجور وفاليجا وسيديخ . لا نستطيع ان ننزع ابصارنا عنها .

تطير الطائرات الالمانية نحونا مباشرة على هيئة مثلث ، كالاوز المهاجر ، على ارتفاع منخفض بحيث نرى اطراف الاجنحة الصفراء وعليها الصلبان المحاطة بخطوط بيضاء ، والعجلات وكأنها مخالب بارزة . عشر . . اثنتا عشرة . . خمس عشرة . . ثماني عشرة طائرة تنتظم في سلسلة مقابلنا تماما . وتنقلب الطائرة المتقدمة على ظهرها وتنقض . لا أحوّل بصري عنها . عجلات الطائرة حمراء ، وكذلك مقدمة المحرك . وتطلق « السيرينا » من تحت جناحيها تسقط نقط سوداء . . . واحدة . . . اثنتان . . . ثلاث . . اربع . . . عشر . . . اثنتا عشرة . . آخر واحدة كبيرة وبيضاء . أغلق عيني وأتشبث بحاجز الشرفة . انها حركة غريزية ، ليس امامي ارض حتى أغوص فيها ، ولكني محتاج

لأن أفعل شيئا . أسمع الطائرة « المغنّية » وهي تخرج من الانقضاض ، ثم لا أعود بعد ذلك أميز شيئا . دوي متصل . كل شيء يرتعش ارتعاشة خفيفة كريهة . افتح عيني لمدة ثانية ، لا أرى شيئا ، أهذا تراب ام دخان . كل شيء مغطى بستارة سميكة ومعتمة . وتعود القنابل تصفر ويعود الدوي. وانا اتشبث بالحاجز . شخص ما يطبق على يدي فوق المرفق وكأنه يعصرها بكماشة . وجه فاليجا وقد جمد وكأنه ساعة وميض البرق ، ابيض ، عيناه مستديرتان وفمه مفتوح . يختفي .

كم من الزمن يمتد هذا ؟ ساعة ، ساعتان ، ام خمس عشرة دقيقة ؟ لا زمان ولا مكان ، لا شيء الا الظلام والحاجز الخشن البارد .

ويختفي الحاجز . أجدني راقدا على شيء ما لين ودافئ وغير مريح ويتحرك تحتي فأتشبث به . انه يزحف .

ليس هناك في رأسي افكار . لقد كف العقل عن العمل ، ولم يبق غير الغريزة ، والرغبة الحيوانية في الحياة والانتظار ، لا ليس الانتظار بل الرغبة في

تعجل الامور ، ليحدث ما يحدث ، بشرط ان يحدث بسرعة ، بسرعة . .

ثم نجلس على الاسرة وندخن . كيف حدث هذا ، لا أتذكر . الغبار يملأ الجو وكأنه ضباب ، وتنتشر رائحة المتفجرات . التراب في كل مكان : على اسناننا ، في آذاننا ، خلف ياقاتنا . على الارض ينتشر حطام الاطباق وبرك الحساء واوراق الكرنب وقطع اللحم . كتلة ضخمة من الاسفلت في قلب الغرفة ، والزجاج سقط كله . عنقي يؤلمني ، كأن احدا ضربني عليه بعصى .

نجلس وندخن . ارى اصابع فاليجا وهي ترتعش . اعتقد ان اصابعي ايضا ترتعش . سيديخ يدلك قدمه . على جبهة ايجور كدمة زرقاء كبيرة ، انه يحاول ان يبتسم .

أخرج الى الشرفة . المحطة تحترق ، والمنزل الواقع الى يمينها ايضا يحترق . كان هذا المنزل على ما أظن مقرا لهيئة تحرير احدى الصحف او مقرا لقسم سياسي . . لم أعد أذكر . والى اليسار قليلا ، ناحية صومعة الغلال كان الافق مشتعلا كالفجر . الميدان

خال من المارة وبه عدة حفر واسفلت نزع من مكانه . هناك شخص ما ملقى خلف النافورة ، وعربة مقلوبة كأنها أقعت على قدميها الخلفيتين . وحصان في النزع الاخير ، بطنه مفتوح واحشاؤه الحمراء ملقاة على الاسفلت . الدخان يزداد كثافة وسوادا ويزحف فوق الميدان سحابة كثيفة .

يسألنا فاليجا بصوت هادئ متقطع . . ليس صوته .

— هل ستتناولون الطعام ؟

لست أدري ان كنت أريد ان آكل ام لا ، لكني أجيب بالايجاب . ونأكل بطاطس باردة من المقلاة مباشرة . ايجور يجلس قبالتي . وجهه رمادي من التراب الذي يغطيه فهو اشبه بتمثال . وانتشرت الكدمة في جبينه كله ، وأصبح لونها بنفسجيا قاتما .

ويشيح بيديه :

— دعونا منها . . انها لا تنزل من حلقي .

ثم يخرج الى الشرفة .

يأتي الينا شابيرو وبنجاونيس شاحبين معفرين ، لقد أدركتهم الغارة وهم في الميدان المركزي فاختبآ في خندق ضيق حتى انتهت . وقد أصابت القنابل

دار الجيش الاحمر والمنزل المقابل في الناصية ، والذي كان عبارة عن مستشفى . الجزء الجنوبي من المدينة كله مشتعل . وقد أصيبت سيارة محملة بالذخيرة وما زالت تنفجر الى الآن . وأطارت شظية رأس امرأة كانت خارجة لتوها من السينما . وهناك قتل حوالي عشرين شخصا بعد انتهاء الحفلة مباشرة .

أسأل عن الوقت فينظر بنجاونيس الى ساعته . التاسعة الاّ ربعا . لقد جئنا من المكتبة في حوالي السابعة . اذن فقد استمرت الغارة حوالي ساعتين .

يعود ايجور من الشرفة .

— واين يعيش نقيبنا ؟

لا احد يعرف . وضعنا في منتهى السخف . هل نذهب الى جولدشتاب ؟ ولكنه يعرف عنواننا ويستطيع ان يتصل بنا اذا احتاج الامر . كلا ، من الافضل مع ذلك ان نذهب اليه . لا نستطيع الجلوس هكذا . والطريق الى هناك لا يستغرق اكثر من نصف ساعة على القدمين .

يسير الناس في الشوارع حاملين لفائفهم ومنهم من معه عربات ، يركضون ويتعثرون فيسقط متاعهم

من فوق العربات ، فيتوقفون لكي يجمعوه ويضعوه عليها من جديد في صمت ، ودون سباب وبعيون جاحظة ، متحجرة . الدخان مر يلهب الحلق ، يتصاعد من المنازل وينتشر في الشوارع ، والزجاج يصر تحت اقدامنا . يصادفنا قوالب طوب وكتل من الخرسانة المسلحة ومناضد ودولاب مقلوب . هناك شخص ما محمول في بطانية . وامرأة عجوز بمنديل مربعات تجر كرسيا بلا مسند ، ولفة ضخمة .

— يا الهي . . أيتها العذراء . .

وتنحدر منها اللفة ، وينزلق المنديل من على رأسها ويتجرجر على الارض .

في زاوية شارع جوجول حفرة قنبلة تتسع لمنزل كامل . ويجمع الجنود كتل الاسفلت المتناثرة في جميع الجهات . والهواء يرتعش من صرخات سيارات الاطفاء الحادة التي تخرق الآذان .

والناس تركض وتركض وتركض . . .

ينتشر الدخان في المدينة كلها ويحجب السماء ، وتدمع العين بسببه ويلتهب الحلق . والسنة صفراء طويلة من النيران تندلع من النوافذ فتلعق جدران المنزل

القائم في الناصية . رجال الاطفاء يمدون خراطيم المياه .

نُمنع من الدخول الى المنزل . ونظل مدة طويلة نطلب جولدشتاب بالتليفون من الشارع ولا نستطيع ان نتصل به بسبب حديث تلفوني آخر . ثم نسمع صوت فحيح وخرير ، ويصلنا صوت جولدشتاب قادما من بعيد وكأنه من العالم الآخر .

ـ عودوا الى المنزل . . . انتظروا .

نعود ادراجنا الى المنزل ، والناس ما تزال تركض وتركض وتركض . . . ومن الشقة السفلى تحتنا يخرجون صوانا كبيرا بمرايا .

نحاول النوم . لكنا نتقلب من جنب الى جنب ، لسبب ما نشعر بالفراش جامدا وغير مريح . ليس هناك كهرباء ، والراديو ايضا صامت . الحرائق تستعر طوال الليل .

١٤

يأتي الينا النقيب في الفجر . يرعش بأنفه . بعد خمس دقائق ستأتينا سيارة شحن وستحملنا الى مصنع الجرارات .

ـ الى مصنع الجرارات ؟ لماذا ؟

ـ لا أدري . هكذا الاوامر ؟

ـ اوامر مَنْ ؟

ـ جولدشتاب . هو ايضا ذاهب الى هناك .

ـ وماذا سنفعل هناك ؟

ـ قلت لا أدري . لقد قال لي : اجمع فرقتك وانتظروا السيارة .

ـ ولا شيء اكثر؟

ـ لا شيء . كان قد خرج من مكتبه للحظة ، وقال لي ما قال بخصوص السيارة ، ثم دخل مرة ثانية .

ـ وماذا يدور هناك ؟

ويهز النقيب كتفيه وكأنه يقول : وهل يمكن فهم شيء ؟ . .

يشير اليّ سيديخ وينتحى بي جانبا :

ـ لقد ضُرب مخزن المحطة ، فهلا سمحت لي بالذهاب اليه ؟

ـ اخرس !

ـ يقولون فيه فودكا .

ـ ألم تسمع ما قلته ؟

— سمعت .

— اذهب واجمع متاعك .

وألف أفرخ الورق الازرق وادسه في الحقيبة .

اما شابيرو فيتصنت قليلا ثم يقول :

— عادوا مرة ثانية . . .

الصمت مطبق . فاليجا يقف ممسكا سكينا في يد ، وفي اليد الاخرى علبة محفوظات . نسمع دوي المحركات المعروف ، منخفضا وما زال بعيدا . انه لا بد عدد كبير من الطائرات .

— فلنذهب الى القبو — يقول النقيب ويرعش انفه ويتجه الى الباب . وهناك يصطدم برجل في سترة جلدية ، احمر الوجه ، مبلل بالعرق . يسأل بصوت أبح :

— هل انت ساموبلينكو ؟

— انا .

— اين رجالك ؟ لقد جئت بالسيارة . . هيا بسرعة . . ها هي الطائرات الالمانية قادمة . . .

وينظر فاليجا اليّ باستفهام وهو ما زال ممسكا بالسكين وعلبة المحفوظات .

— هيا الى السيارة . . ألم تسمع ؟

وعندما نصعد الى السيارة تسقط القنابل الاولى خلفنا في منطقة السكك الحديدية . وتحلق الطائرات فوق رؤوسنا وتنعطف الى اليمين ببطء .

اخلع العمرة حتى لا يطوح بها الهواء . نسافر خارج المدينة . الآن نرى بوضوح كيف تنقض الطائرات على المحطة ومركز المدينة والمرفأ . فوق المدينة سحابة كثيفة من الغبار . ومن مكان ما على الشاطئ يرتفع عامود عال متصاعد مثل نبات الفطر ، من الدخان الاسود الكثيف . لا بد انها صهاريج النفط قد اشتعلت .

الطريق غاص بالناس ، وكلهم سائرون الى مكان ما ، يسيرون ولا يتوقفون عن السير ، شبه عراة ، وفي معاطف من الفراء ، سود من الدخان ، كلهم يتلفتون صوب المدينة .

جولدشتاب جالس في قبو مزدحم . لا موضع لقدم . هناك صناديق ولفائف ومعاطف مكومة . وشخص ما يصرخ في التليفون بصوت أبح . جولدشتاب شاحب ، غير حليق ، يزر عينيه وينظر الينا لكنه لا يعرفنا .

— من تقصدون ؟

— نقصدك . . نحن من سلاح المهندسين .

— أها . . من سلاح المهندسين . . رائع . ضعوا معاطفكم هنا على الصندوق . هل جئتم بالسيارة ؟ حسنا . تعالوا هنا .

يتحدث باقتضاب وبسرعة وهو يفرك يديه الصغيرتين المغطاتين بشعر اسود :

— الوقت ضيق للغاية . الالمان في الجانب الآخر من الوادي — ويبحث عن شيء ما في جيوبه فلا يجده ، فيشيح بيده — على بعد خمسين مترا لا اكثر . يرمون مصنع الجرارات بالهاون . وقد أنزلوا وحدة مظلات لكنها على ما يبدو ليست كبيرة . قواتنا النظامية لم تصل بعد . العمال وحدهم يقاومون الهجوم — وينظر الى ساعته الصغيرة الذهبية الانيقة ذات الاسورة . — الساعة الآن السادسة وخمس عشرة دقيقة . حتى الثامنة تماما يجب ان تجهزوا المصنع للتفجير . مفهوم ؟ ستجدون هناك جنودا من سلاح المهندسين من احدى كتائب الجيش ، لكن عددهم قليل . ستجدون كذلك الشحنات والاسلاك والكبسولات وكل

شيء . عليكم ان تساعدوهم . أتصلوا بالملازم بلشوف ، ستجدونه هناك ، انه يرتدي عمرة زرقاء ومعطفا ازرق . راجعوا معه الامر ، وفي الثامنة تماما سأكون هناك .

ويفكر قليلا ، ثم يقول وهو يعض على شفته :

— لا بأس .

ويخرج من جيبه مفكرة صغيرة غلافها من المخمل وبها قلم رصاص . ثم يسجل :

— كيرجينتسيف : محطة توليد الكهرباء ، سفيديرسكي : ورشة السبك ، ساموبلينكو : ورشة التجميع ، الخ . . — ثم يضع المفكرة في جيبه ويزرر زرار الجيب — لن أستبقيكم اكثر من ذلك . يمكنكم ان تتركوا حاجياتكم ومعاطفكم هنا موقتا .

ونواصل السير بالسيارة .

نعثر على بلشوف بسرعة بفضل معطفه وعمرته الزرقاوين . شخص نحيل ، شاحب ، عيناه بارزتان قليلا من محجريهما ، ساخرتان ، ذكيتان ، يمسك بعقب سيجارة في ركن فمه ويضع يديه في جيوبه .

— مساعدون اذن ؟ — ويبتسم بركن فمه .

— نعم مساعدون .

— حسنا ، مرحبا بكم . كان افضل لو جئتم قبل ساعتين ، اما الآن . . . — ويتثاءب ويبصق عقب السيجارة — لقد انتهينا من العمل الاساسي . هل معكم جهاز اوميتر * ؟

— كلا ، ولِمَ ؟

— الكبسولات غير مصنَّفة . وعلى العموم لو أمرونا ان نفجِّر اليوم فانني أشك كثيرا اننا نستطيع . وماذا هناك في المدينة ، هل يقصفونها ؟

— نعم . ولكن لماذا لا نستطيع ان نفجِّر ؟

— لماذا ؟ — ويبتسم بلشوف بتراخ — لأن المواد المتفجرة سيئة للغاية ، الـ « ت . ن . ت » كدموع الهر ** ، اما الباقي فملح النشادر ، وهو رطب متكلس . ثم ان الكبسولات غير مصنفة . ولا نستطيع اختبار الدائرة الكهربائية ، فليس لدينا اومتر .

— وفتيل التفجير ؟

* الاوميتر — جهاز لقياس قوة المقاومة الكهربائية . المترجم .

** كدموع الهر — مثل روسي معناه « قليل للغاية » . المترجم .

— وعدونا ان يسلموه لنا غدا ، وكذلك الاوميتر ، كل شيء غدا ، لكن التفجير مطلوب اليوم .

— اليوم ؟

— يقولون اذا لم نطرد الالمان فسننسف المصنع اليوم .

ويخرج من جيبه ورقة صحيفة مطوية بعناية ويقطع منها مستطيلا متساويا ، ويسألنا :

— هل لديكم تبغ ؟

وندخن . ومن جوارنا ، على درب واسع معبد بالاسفلت ، تحف به الاشجار تمر وحدة من العمال المسلحين . يحملون رشاشات نزعت من الدبابات . بعضهم ليس معه حتى بنادق . لا شيء على الاطلاق . يسيرون غارقين في التفكير ، صامتين .

وأسأل بلشوف :

— واين الالمان ؟

— هناك ، خلف الورشة . هناك واد اسمه ميتشوتكا او نيتشوتكا ، الشيطان يعلم . يضربون بالهاون ومعهم حوالي عشر دبابات ، او بالاحرى عربات

مصفحة وليس دبابات . يمكنك ان تراهم بوضوح من اعلى البرج .

— واين هي اهدافنا ؟

— وما الهدف الذي كُلّفتَ به ؟

فأرد عليه :

— محطة توليد الكهرباء الحرارية .

— محطة توليد الكهرباء ؟ انها على بعد خطوتين ، بعد هذا المبنى الى اليسار . هناك اربع مداخن كبيرة . ستجد هناك الرقيب فيديرنيكوف التابع لي . ستجده نائما في مكان ما بالمكتب . كان يعمل طوال الليل . أنصحك ان تنام انت ايضا ولو قليلا .

الرقيب فعلا نائم . دس رأسه في ركن الكنبة وقد مد رجليه على الارض . يبدو انه ارتمى على الكنبة فأغفى في الحال .

— هيه . . يا اخ !

وينقلب الرقيب مستديرا نحوي ويفرك عينيه طويلا . عيناه صغيرتان ، غائرتان ، لا تكاد تلحظهما على صفحة وجهه البارز العظام . يجاهد لكي يستيقظ فلا يستطيع .

— ماذا ، هل أرسلك الملازم ؟

— نعم ، بلشوف .

— هل ستتسلم النوبة ؟

— اطلعني اولا على ما تم عمله .

— مرة اخرى « اطلعني » ؟ لقد اطلع واحد منكم بالفعل ، نقيب ، اسمه لفوفيتش . . .

— والآن جاء دوري .

ويتمطى الرقيب ثم ينهض :

— حسنا . . هيا بنا . . . — ويبحث في جيبه عن تبغ . — طوال الليل ونحن ننقل الاجولة ، عليها اللعنة . . لم أعد أشعر بظهري . . وكلها مصنوعة من الورق . . الملعونة . . فكانت تتمزق . .

— وهل وضعتم منها الكثير ؟

— حوالي المائة ، ان لم يكن اكثر . الواحد زنته خمسون كيلوجراما . لن يبقى من المحطة الا الرماد .

— وهل الدائرة جاهزة ؟

— جاهزة . الدائرة الكهربائية فقط . لقد جئنا بعدد هائل من البطاريات ، ولكن ليس لدينا

اوميتر ، وقد ساعدني احد الكهربائيين هنا ، وقال بان لديهم جهازا من هذا القبيل ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يجدوه . وفيما عدا ذلك فكل شيء جاهز . وكبسولات التفجير معلقة ، ليس الا ان تركبها ثم تضغط على اليد .

— واين محطة التفجير ؟

ويشير الرقيب بيده تجاه النافذة :

— هناك خندق صغير على بعد ٣٠٠ متراً من هنا . كل شيء هناك . والتقيب ايضا هناك ، وربما الكهربائي كذلك .

ونفتش المحطة . انها نظيفة وكبيرة ، بها عشرة مولدات تحت كل منها شحنة متفجرات من ثلاثة او اربعة اجولة . وبالاضافة الى ذلك وضعت شحنات تحت الغلايات بمحولات زيتية وكذلك في محطة المحولات الواقعة على بعد ٣٠٠ متراً من المحطة نفسها . الدائرة طويلة للغاية ، حوالي كيلومترين . وقد رُكبت بعناية ، ولفت اطراف الاسلاك باحكام بواسطة الشريط العازل ، ووضع في كل شحنة كبسولتان . وبالفعل فقد انجزوا الكثير من العمل اثناء الليل .

في مكان ما من الجانب الآخر للمحطة تسمع انفجارات قذائف الهاون .

— يضربون الاطراف — يقول الرقيب — يضربون بمدافع الهاون . . هذا هراء . هل تذهب الى الخندق ؟

— واين التلفون ؟

— في الخندق . كل شيء هناك . . كأنه مركز قيادة .

١٥

الخندق غاص بالناس . ايجور وسيديخ وشاب اسمر طويل مجعد الشعر في لباس عسكري وله فودان صغيران ، وعمال ما يرتدون لباسا خاصا ، وشخص ما نحيف ، يبدو كالمسلول ، في سترة لامعة لكثرة استعمالها ، وعمرته بزرار . ويتضح ان الشخص العسكري هو لفوفيتش ، اما الذي يرتدي العمرة ذات الزرار فهو المهندس الكهربائي بمحطة توليد الكهرباء ، ويخاطبه الجميع بـ « جيورجي اكيموفيتش » .

الجميع جالسون يدخنون على ضوء مصباح الفتيل .
الخندق لا بأس به ، مغلف بالالواح ومسقوف ، ذو ابواب محكمة والواح مثبتة في الجدران للنوم عليها .
خندق من الطراز الذي تصفه تعليمات هندسة الميدان ، على شكل حرف H ذو مدخلين .

وأتساءل :

ـ ماذا سنفعل بدون الاوميتر ؟

وينظر الىّ جيورجي اكيموفيتش بجانب عينه :

ـ لدينا جهاز « ويتستون » .

ـ ولماذا ظللت صامتا ؟

ـ ها أنذا أتكلم . ولكنه في الخزنة ، والمفتاح لدى بوتشكوف كبير المهندسين . وهو منذ مساء امس في هيئة الاركان .

ـ اذن يجب ان نرسل في طلبه .

ـ قد فعلنا . لكنه رحل الى مصنع « اكتوبر الاحمر » . وقد اتصلوا بنا منذ ثلاث ساعات وأخبرونا انهم في الطريق . . وما زالوا الى الآن في الطريق .

وجه جيورجي اكيموفيتش ينبض بالحركة ، فاذا تكلم لم يتحرك فمه وحده ، بل انفه وجبهته

وخداه الغائران بوجنتيهما المحمرتين . فمه تنقصه سن ، السن الامامية بالذات ، لذا تراه يصفر اثناء كلامه . من الصعب تحديد عمره ، ربما في حوالي الثلاثين .

ـ لم أنم ليلتين متتاليتين ولم نفعل شيئا .

ويدفن عقب السيجارة بعصبية ويسحقه بكعبه .

ـ سيتصلون الآن مثلا بالتلفون ويقولون : اعملوا . . حسنا ، وماذا بعد ذلك ؟

فأجيبه :

ـ نعمل .

ـ هل نضغط زر التفجير؟ نعم ؟ أهذا هو رأيك ؟

وتثقبني نظرة عينيه الواسعتين بجفنيهما الداكنين .

ـ اعتقد ذلك .

ـ والعمال في المحطة ؟ هل تنسفهم مع الآلات الى الشيطان ؟ من سينذرهم ؟ انا وانت ؟ ان لدينا عملا الى هذا الحد ـ ويمر بحد يده على حلقه بسرعة ـ وعموما ليس هناك خطة او تنظيم . . .

ـ يا جيورجي اكيموفيتش . . ـ يقاطعه لفوفيتش الجالس جانبا بجوار البطاريات الاحتياطية ، ممسكا بقطعة سلك يثنيها ويمدها .

— ماذا تريد من جيورجي اكيموفيتش ؟ لا بد ان نحرك عقولنا ولو قليلا . الآن يعمل في المحطة ستون شخصا ، فاين يذهبون اذا ما . . . اذا ما تحتم علينا مع ذلك ان ننسف . . . اين ؟ هل يتفرقون ؟ هل يركضون الى ما شاء الله ؟ ثم . . . هل هناك اولوية معينة بالنسبة لنسف الورش ؟ كلا . هل عندما تنسف ورشة السبك سنبقى نحن ننتظر ام العكس . . وعموما . . . . — ويشيح بيده ويفرك السيجارة باصابعه الطويلة الجافة . — الالمان الآن يضربون بالهاون ، ولو أصابت السلك شظية لانتهى الامر وذهبت كل دائرتنا الكهربائية الى الشيطان . كم مرة قلت انه من الحماقة ان يظل جهاز « ويتستون » في الخزنة . لكنهم يخشون اللصوص ، لأنه الجهاز الوحيد في ستالينجراد . والآن فلننتظر ما تأتي به الرياح .

ويجذب عدة انفاس قصيرة سريعة ثم يطفئ السيجارة في الجدار وينهض .

— ربما يكون قد وصل . . لا يمكن الاتصال به بالتلفون . . هذا ليس تلفونا بل مصيبة .

وينهض ايجور ايضا :

— ألا تأتي معي الى ورشة السبك ؟ هيا تفرّج . ونذهب الى ورشة السبك .

ويسألني ايجور :

— ما رأيك في ذلك « البني آدم » ؟

— ماذا أقول . . لا أغبط زوجته عليه . انه مصدور ، بالاضافة الى عسر هضم على ما اعتقد . وعلى العموم فان كل ما قاله حقيقة خالصة .

— لكنه يثيرني .

— لقد أصبحتَ عصبيا ، اي والله ، كل شيء يثيرك . شابيرو يثيرك ، بنجاونيس يغسل الياقات فيثيرك ، وهذا الشخص ايضا لم يسلم منك . قل لي بحق الشيطان ماذا تريد ؟

— خلُقت لا أحب المتأففين . وهذا الشخص تتدفق منه العواطف حتى لأخشى ان يصاب باسهال .

— مَنْ يعش ير ، اما الآن فيجب ان ندرّب سيديخ وفاليجا على تركيب الكبسولات حتى يركبوها بدقة وبلا خوف .

ويبتسم سيديخ :

— وماذا أخافه فيها . عندما كنت في كوبيانسك

كنت اصطاد السمك بمتفجرات الـ « ت . ن . ت » . هل تعرفون كم من السمك هناك ؟ اذا لم ننسف المحطة غدا فسوف أحضر لكم حفشا لا تستطيعون رفع الواحد منه بكلتي اليدين . لقد رأيت هنا خلف السور قاربا صغيرا .

عند مدخل ورشة السبك أحاطت مجموعة من العمال بشاب ضخم ، يده مربوطة بضمادة . كمه منزوع من الكتف وعلى الرباط بقع حمراء .

— لقد وصل الاوغاد حتى المعهد . هم يرمون من البنادق الاوتوماتيكية : تررر . . . تررا . . . اما نحن فليس لدينا الا بنادق عادية . وما ان نقترب من المدخل حتى تنطلق من مخابئهم : تررا . . . تررا . . . ولحسن الحظ اقتربت دبابة « ك ف » * وضربت المنزل مباشرة فتساقطوا منه كالصراصير . وهم الآن في الجانب الآخر من وادي ميتشيتكا .

عينا الشاب تلمعان، يروقه ان الواقفين يصغون اليه

---

* ك ف : هما الحرفان الاولان من اسم كليم فوروشيلوف . المترجم .

وانه أصبح جريحا ، وانه أطلق النار على الالمان ، ولذلك لا يريد ان ينهى قصته :

— لم تطلق الدبابة « ك ف » الا طلقة واحدة ، أصابت الطابق الثاني فطارت الاحجار . اما الالمان فهربوا من الباب الخلفي وركضوا وهم يحتمون بالاشجار .

ويسأله واحد من الجمع :

— وهل عددهم كبير ؟

— يكفيني واياك . . فرقتان . . وربما اكثر .

— وهل انت أحصيتهم ؟

— أحصيتهم . . . — ويبصق الشاب باحتقار ثم ينهض وهو يسند يده اليمنى بيده اليسرى — اذهب وعدهم انت اذا استطعت . أتظن نفسك ساعتها ستعني بالحساب ؟ — ويشيح بيده السليمة — اين المركز الطبي يا اخوة ؟ الحديث معكم لا ينتهي .

في طريق العودة نقابل جرحى مرة اخرى . شيخ عجوز وصبي . احدهما جرح في يده والآخر في رأسه ، ولكن اصابتهما خفيفة . ما زال الالمان وراء الوادي يطلقون الهاون ولا يتقدمون . ورجالنا ايضا .

امر سيء ألاّ يكون لدينا هنا قادة حربيون . يقال ان وحدات المشاة والمدفعية ستأتي غدا . الدبابات الالمانية وصلت مرتين الى الوادي فأطلقت النار قليلا ، ثم انصرفت . رجالنا ايضا يطلقون النار قليلا ، يبدو انه ليس لديهم ذخيرة . وعلى العموم الحال لا بأس به ، فحتى الآن بوسعنا ان نعيش . وسيتمكن عمال مصنع الجرارات من الدفاع عن مصنعهم — ويغمز لنا الشيخ بعينه وكأنه شاب ، ويواصل سيره مع الصبي بحثا عن المركز الطبي . اللوح الصغير المثبت على عامود النور وقد رسم عليه بسرعة صليب احمر بشير الى ناحية الفولجا . عندما كنا ذاهبين الى الورشة لم يكن هذا اللوح موجودا بعد .

في الخندق نجد جيورجي اكيموفيتش يعبث بجهاز « ويتستون » . انه جهاز كبير ، جميل ، لامع ، به عدد ضخم من التوصيلات . جيورجي اكيموفيتش في حالة معنوية طيبة . الدائرة سليمة .

— انظروا كيف يرقص المؤشر ؟ هذا ليس جهازا بل اسطورة ! ليس له مثيل في ستالينجراد كلها . لقد كانوا في محطة الكهرباء المركزية يرسلون

في طلبه منا ، وهو حساس كالشيطان . سوف نصنف الآن جميع كبسولات التفجير . هل لديكم احتياطي ؟

— على قفا من يشيل — يجيبه فيديرنيكوف — حوالي مائتين او ثلاثمائة .

ما ان ننتهي من التصنيف — اختيار الكبسولات ذات المقاومة المتساوية — وتغيير الكبسولات في الشحنات ، حتى يبدأ القصف . ويستمر حوالي ساعة . قذيفة كل دقيقتين او ثلاث . معظمها يسقط حول المحطة ، وبعضها في غرفة الآلات ، واثنتان في الغلايات . يطلقون على هذه القذائف « قذائف هاون » ولكنها في الحقيقة ليست كذلك . فقذائف الهاون ليس لها قدرة على اختراق الجدران ، بينما في غرفة الآلات ثقوب كبيرة في السقف .

ويسقط مؤشر جهازنا بضعف على الصفر . الدائرة انفصلت . ويبحث جيورجي اكيموفيتش عن عمرته ذات الزرار .

— لا بد من دفن الاسلاك ، والا سنذوق الويل من الشظايا .

ويخرج من الخندق دون ان ينتظر انتهاء القصف .

ليس من السهل ان تجد المكان الذي انقطع فيه السلك فالدائرة موصلة على التوالي واي انقطاع في اي جزء منها يوقفها كلها . اما في حالة التوصيل على التوازي فان اكتشاف السلك المقطوع اسهل ، اذ يمكنك تقسيم الدائرة الى قطاعات ، ثم اختبار كل قطاع على حدة .

وندور على الاسلاك كلها ، ونجسها باصابعنا ، ومعنا فاليجا يحمل جهاز « ويتستون » بين يديه . جيورجي اكيموفيتش يصرخ فيه طوال الوقت بان يكون اكثر حذرا ، فليس هناك جهاز آخر مثل هذا الآن . ونعثر على قطعين بسرعة ، اما الثالث فنبحث عنه مدة طويلة حتى نعثر عليه اخيرا . ويغطي جيورجي اكيموفيتش المكان المقطوع بشريط عازل وهو يعمل بسرعة ومهارة .

نعمل حتى المساء في دفن الاسلاك وتحويل الدائرة الى توصيل على التوازي ، ويكرر الالمان قصفهم مرتين . وجيورجي اكيموفيتش لا يحول عينيه عن الجهاز ، لكن كل شيء على ما يرام فليس هناك قطع في الاسلاك .

في حوالي الثامنة يحضر جولدشتاب ومعه جهاز اوميتر فيخفف علينا اختبار الاسلاك الى حد كبير . يسألنا عن احوالنا . علينا ان ننقل اجولة المتفجرات من صالة الآلات الى غرف القبو ونضعها تحت جميع المولدات ، فهذا اكثر امانا ولا يثير اعصاب العمال . ولا بد ايضا ان يقوم واحد منا او من الجنود بالمناوبة في المحطة ذاتها . وعلى العموم علينا ان نكون مستعدين في الليل .

ثم ينتحي جولدشتاب بي وبلفوفيتش جانبا ويفرك يديه :

— تذكروا انه بعد الامر التمهيدي لن يكون لديكم اكثر من نصف ساعة ، في خلاله لا بد ان تنتهوا من كل شيء وتجهزوه . انت يا لفوفيتش مسؤول عن اخلاء المكان من العمال . وكيرجينتسيف مسؤول عن التفجير .

— واضح . والاولويات ؟

— ليس هناك اولويات . الامر الاول والثاني يبلغ الى جميع الورش في وقت واحد ، والتفجير اذن في وقت واحد . بعد التفجير تجمعوا عند المرفأ . انت

تعرف مكانه يا لفوفيتش . هناك سينتظركم قارب بمحرك .

— واضح .

— كل شيء واضح ؟

— كل شيء .

ويرحل جولدشتاب . وفي مكان قريب تماما ، خلف ورشة السبك تنطلق صواريخ الانارة وتقرقع البنادق الاوتوماتيكية ، واحيانا الرشاشات .

بقرب الباب ، وفي الحائط مباشرة ثبت جهاز التفجير . . جهاز صغير عادي ، ذو ذراع سوداء مثل تلك المركبة في عدادات الكهرباء في الشقق . اتطلع اليه . يمتد منه سلكان : واحد الى البطاريات ، وهي عبارة عن ثمانية صناديق سوداء مدفونة في حفرة ، والآخر الى شحنات التفجير ، الثمانين جوالا المملوءة بالنشادر وزنة الواحد منها خمسون كيلوجراما . احد السلكين مفصول عن الجهاز فتراه ممتدا في الهواء . ذراع الجهاز مطروحة ومربوطة بخيط زيادة في الحيطة . وبعد ساعة او ساعتين ، وربما اقل ، يتصلون بنا تلفونيا ، فأصل السلكين ، وأفك الخيط ، واختبر

الدائرة للمرة الاخيرة ، ثم باصبعين اثنين افتح الجهاز بحذر ، وعندئذ . . . لا مولدات ، ولا غلايات ، ولا صالة الآلات بجدرانها البيضاء المغطاة بالقيشاني وكأنها غرفة العمليات . . لا شيء على الاطلاق . . .

نجلس وندخن . فاليجا يرتق سرواله ، اما سيديخ فمع الرقيب في المحطة . التلفون يلمع في زاوية الخندق . جيورجي اكيموفيتش يفتح جهاز « ويتستون » كل لحظة . ايجور يرقد على احد الالواح المثبتة في الحائط ويتطلع الى السقف .

في الثانية عشرة يتصل بنا جولدشتاب : اختبروا الدائرة ولا تناموا .

الخندق معبأ بالدخان لدرجة يصعب معها تمييز الوجوه كفيلم تصوير حُمِّض بطريقة سيئة . في الساعة الثالثة يدق جرس التلفون مرة ثانية ، فننتفض كلنا . انه بلشوف هذه المرة يسأل ان كان لدينا حوالي عشرين كبسولة من الغيار المحدد . نعم لدينا . في هذه الحال سيرسل الينا الرقيب . حسنا ، فليرسل .

— وعموما كيف الاحوال ؟ هادئة ؟

— هادئة . وعندكم ؟

ـ يبدو كذلك . يتبادلون اطلاق الرصاص خلف الوادي ، وفيما عدا ذلك لا بأس .

ندخن من جديد . نخرج الى الفناء ونتطلع الى النجوم والصواريخ والى هيكل المحطة الضخم ذي المداخن الاربع ، ثم نعود . نجلس وندخن . نفتح جهاز « ويتستون » ثم نغلقه . نصمت .

في الساعة الخامسة يدق التلفون . يخاطبنا جولدشتاب ، يمكننا الآن ان ننام .

الحمد لك يا رب . . .

نستلقي مباشرة على الالواح العارية ، نزحزح مسدساتنا فنجعلها فوق بطوننا .

عبثا تركنا معاطفنا عند جولدشتاب .

١٦

نفس الامر يتكرر يوم الثلاثاء والاربعاء والخميس : قصف ، وقطع اسلاك ، ومناوبة ، وانتظار جرس التلفون . . . ثم في الساعة الخامسة : « يمكنكم ان تناموا » .

ويهدأ الجو.

تمر الايام متتابعة ، صحوة ، زرقاء ، وخيوط العنكبوت تتطاير في الجو .

لم يصلنا الامر حتى الآن .

لم يبق من المدينة شيء على ما يبدو ، فالالمان يقصفونها بالطائرات من الصباح حتى المساء . وفوقها سحابة من الدخان والتراب لا تنقشع . صهاريج النفط مشتعلة . والدخان الاسود كالهباب يحجب الشمس احيانا ، وساعتها يمكنك ان تنظر اليها دون ان تزر عينيك ، كما تنظر اليها عبر زجاج معتم اثناء ظاهرة الكسوف .

المعارك تدور في الجزء الجنوبي من المدينة عند صومعة الغلال ، وفي الجزء الشمالي على تل ماماي .

لا تغير في وادينا . ذات ليلة مرّت من هنا فرقتان . كان الجنود يمرون بلا انقطاع ولفترة طويلة ، طوال الليل ، كتيبة وراء كتيبة ، بالمدفعية والمؤن المحمولة على عربات . وقد حاول الالمان مرتين ان يعبروا الوادي ، وعندئذ يبدأ تبادل النيران ـ وعادة ليلا ـ فيتصل بنا جولدشتاب : « كونوا على اهبة

الاستعداد » ، وفي الصباح يهدأ كل شيء ، فنخلد الى النوم .

بدأنا نتعود الحياة في خندقنا . وصلّنا اليه الكهرباء ، ونعد الآن طعامنا على السخّان الكهربائي . غطينا الجدران بورق رسم هندسي رائع ، جئنا به من القسم التكنيكي في المصنع . عند فاليجا وسيديخ في الركن الخاص بهما صورة ستالين وبطاقتا بريد : واحدة تمثل مبنى مسرح الاوبرا في مدينة اوديسا ، والاخرى مستنسخ لصورة الفنان ريبين : « قوزاق اقليم زابوروجيه » .

يحصل سيديخ من مكان ما على كتاب جغرافيا مدرسي تأليف كروبر ، وكتاب « رسائل تشيخوف » وعدد من مجلة « نيفا » عن سنة ١٩١٢ .

كل مساء يجلس ويبلل اصبعه بريقه بعناية ويقرأ ، يجعد جبينه ويحرك شفتيه ، واحيانا يسأل عن معنى كلمة « جنرال انفانتيري » . او من اين للامير الكسي بكل هذه النياشين والاوسمة بينما عمره لم يتعد السابعة . سيديخ يعجبني . يعجبني وجهه الطفولي بانفه الافطس وعينيه الضاحكتين المشوبتين

ببعض الحول ، والصبا الطافح من جسده . وحتى تلك العادة المضحكة وهي حكة لراحتيه عند الخجل ، حتى هذه العادة تعجبني .

انه يصنع كل شيء باستمتاع وشهية . يغتسل بطريقة تجعلك اذا كنت تنظر اليه تود من فورك ان تغتسل . فتراه يزفر ويشهق بشدة ، وينشر الرذاذ على بعد فرسخ ، ويضرب كتفيه وبطنه في صخب . فاذا قلت له : هات قليلا من الحطب ، فسوف يأتيك بما لا يقل عن متر مكعب منه . عضلاته الفتية تتلهف للمعركة ، وهو يفك الصواميل باصابعه المجردة . احيانا يتصارع هو وايجور وبعدها لا يستطيع ايجور ان يحرك رقبته لمدة يومين ، مع انه يعتبر نفسه استاذا في المصارعة الفرنسية ، ويعرف معرفة دقيقة كل ما فيها من « تور — دي — برا » و « تور — دي — تيت » وما الى ذلك .

وسيديخ محب للمعرفة الى درجة مضحكة . تراه يجلس ويلف ذراعيه حول ركبتيه ويصغي فاتحا فمه قليلا كما يصغي الاطفال الى حكاية . اسئلته مفاجئة وساذجة كاسئلة الاطفال . لماذا لا يستطيع الالمان

التوصل الى سر « كاتيوشا » * ، او لماذا تتجه ابرة البوصلة دائما الى الشمال ، وهل صحيح ان قدمي روزفلت مشلولتان .

ذات مساء يدور الحديث عن الابطال والنياشين . سيديخ يصغي باهتمام وتركيز ، مطوقا ركبتيه بذراعيه في وضعه المفضل . ويسأل :

ـ وما المطلوب عمله ليحصل الانسان على وسام لينين ؟

فيضحك الجميع .

ـ حسنا ، ليس وسام لينين ، بل وسام آخر اقل منه .

واشرح له الامر قائلا انه ليس بهذه البساطة ، فيصغي الي صامتا ، محولا بصره الى احد الاركان ، بينما عقب السيجارة ملتصق بشفته . ثم يقول بهدوء :

ـ اذن انتهينا .

ـ ماذا « انتهينا » ؟

---

* « كاتيوشا » اسم اطلق على المدفعية الصاروخية التي اخترعها العلماء العسكريون السوفييت اثناء الحرب الوطنية العظمى . المترجم .

ـ سأحصل على وسام .

يقولها ببساطة وايمان مذهلين . وكأنه يتحدث عن امر قد حدث بالفعل . ثم يقف ويذهب لاحضار قش لاشعال النار . وأنظر الى ظهره العريض الذي لا يتفق ابدا والزغب الاصفر في خديه ، واتذكر كيف كان يمسح بندقيته الاوتوماتيكية بالخرقة قبل الهجوم ، يمسح كل مسمار وكل قنطرة فيها ، فأومن بما قاله .

فاليجا يغار منه . وهذا واضح تمام الوضوح .

ـ الملازم اول سفيدرسكي ليس له جندي مراسلة ، اذهب اليه ـ يقول له فاليجا بتجهم ويأخذ من يده الكوب الذي يصب لي منه .

ويحضر سيديخ حزمة من القش من مكان ما ، فيتحسسها فاليجا ويمتعض : « لن ينام الملازم على هذه القاذورات » ويذهب فيحضر حزمة اخرى لا تختلف عن الاولى في شيء .

ولكنهما ، بشكل عام ، يعيشان في وفاق ، ويطهوان الغداء معا ، ويصرخ فاليجا قليلا وينتقد

العصيدة التي لم تنضج ، اما سيديخ فيضحك بمرح ويستفز فاليجا ، ولسبب ما يسميه « شنابس » * .

في الامسيات يقوم فاليجا وسيديخ بأعداد شحنات متفجرات صغيرة ، اذ يوجد لدينا خمسة صناديق احتياطي من مادة « ت . ن . ت » ، وفي الصباح يفجرانها في النهر لصيد السمك ، ثم يعودان بدلاء مليئة بسمك الحفش وهو يتلوى .

ينقل الرقيب فيديرنيكوف الى ورشة اخرى فلا نعود نراه ، كذلك نادرا ما نقابل شابيرو وبنجاونيس ، واحيانا يأتي لزيارتنا بلشوف ، فنفرش مجلة « نيفا » وننهمك في لعب « الكومي » او « ٢١ » . ولا يحتمل جيورجي اكيموفيتش هذا الهذر ، فيلتقط « رسائل تشيخوف » ويتوجه الى ركنه بطريقة استعراضية . وهو ينام على باب موضوع بين لوحين من الواح النوم .

لقد بدأت أعجب به بالرغم من طبعه السليط وسخطه الدائم على شيء ما . ولكنه يعمل بجد ولا يبخل بجهده . يختبر الدائرة ويصلحها دائما بنفسه ،

* « شنابس » ماركة فودكا المانية . المترجم.

مع انها تنقطع ثلاث او اربع مرات في اليوم . يتذمر ويسب ويغلي ويتهم الجميع بالبطالة ، لكنه يعشق المحطة بكل آلة فيها وكل مسمار ، وكأنها مخلوق حي . وعموما فشخصيته تجمع بين التشاؤم والاحتقار وبين الحيوية والطاقة غير المعقولة ، فيتعايش فيها هذا وذاك في سلام .

— ليس في طاقتنا ان نحارب الالمان — يقول وهو يشد ربطة عنقه بعصبية ويملأ جبينه بالتجاعيد — لقد جاء الالمان من برلين حتى ستالينجراد على متن السيارات ، اما نحن فنرتدي سترات مدنية وملابس العمل ونرقد في خنادق مع بنادق قديمة من طراز عام ١٨٩١ .

وينفجر فيه ايجور . انه دائما يشتبك مع جيورجي اكيموفيتش .

— ماذا تريد ان تقول ؟

— اننا لا نجيد القتال .

— وما معنى « نجيد » يا جيورجي اكيموفيتش ؟

— « نجيد » ؟ . . هو ان تأتي من برلين حتى الفولجا . . هذا هو معنى « ان تجيد » .

— وعليك ايضا ان تجيد كيف تنسحب من الحدود حتى الفولجا . . .

ويضحك جيورجي اكيموفيتش ضحكة رفيعة ، جافة . ويبدأ ايجور يغضب :

— ما الذي يضحكك ؟ ليس هناك ما يستدعي الضحك . لقد سقطت فرنسا في اسبوعين . ضغطوا عليها فانهارت وتبعثرت كحبات الرمل . اما نحن فنحارب للسنة الثانية وحدنا ، وحدنا تماما .

— ولِمَ تقارننا بفرنسا ؟ هناك اربعون مليون وهنا مائتا مليون . . هناك ستمائة كيلومتر وهنا عشرة آلاف . . ثم مَنْ الذي كان هناك في الحكم ؟ امثال لافال وبيتين ، الذين يعملون الآن مع الالمان في هدوء . . . كلا . . نحن لا نجيد القتال . . هذه حقيقة .

— بالضبط . . بالضبط . . — ويحتد ايجور — امثال لافال وبيتين بالذات . هم السبب . اما نحن فليس لدينا من صنفهم . وهذا اهم شيء . هل تفهم ان هذا اهم شيء ؟ الناس هنا من نوع مختلف بعض الشيء . ولذلك فنحن نحارب . حتى هذه اللحظة نحارب . حتى هنا ، على الفولجا ، وبعد ان

فقدنا اوكرانيا وبيلوروسيا ، نحارب ، فاي بلد — قل لي — اي بلد واي شعب كان يتحمل هذا ؟

ويبتسم جيورجي اكيموفيتش من طرف شفتيه :

— لا يوجد .

— أها ! لا يوجد ، ها انت بنفسك تعترف .

— اعترف . ولكن هل هذا يهوّن علينا ؟ هل اذا قلنا ان البلاد الاخرى اقل منا قدرة على المقاومة ، هل اذا قلنا هذا خف الوطء علينا ؟ ان هذا اسمه هدهدة النفس . ونحن لسنا بحاجة اليها . علينا ان ننظر الى كل شيء نظرة واقعية ، فالبطولة وحدها لن تصنع شيئا . البطولة شيء ، والدبابات شيء آخر .

— ليست دباباتنا بأسوأ من الالمانية . انها احسن . . لقد قال لي احد قادة الدبابات . . .

— لا أنكر ، لا أنكر ، لا أنكر ، ربما تكون احسن . . انا لا أفهم في هذا الامر . ولكنك بدبابة طيبة واحدة لن تحطم عشر دبابات متوسطة . ما رأيك ؟

— انتظر . . وسوف يصبح لدينا الكثير منها .

— متى ؟ عندما نصل انا وانت الى الاورال ؟

ويقفز ايجور كالملدوغ :

— من الذي سينسحب الى الاورال ؟ انا ، ام انت ، ام هو ؟ نعم ؟ كلا والف كلا . وانت نفسك تعرف هذا تمام المعرفة . ولكنك تقول ذلك من قبيل العناد ، لرغبة حمقاء في النقاش ، النقاش مهما كان . .

ويرتعش انف جيورجي اكيموفيتش وحاجباه وخداه :

— لماذا تغضب ؟ اجلس ، اجلس لحظة واحدة . يمكننا ان نتحدث عن كل شيء بهدوء — ويجلس ايجور — ها انت تقول انه يجب ان يجيد المرء الانسحاب . هذا صحيح ، فلقد انسحبنا ايضا امام نابليون حتى موسكو . ولكن في تلك الحرب لم تكن نخسر الا ارضا ، وحتى هذه الارض كانت مجرد شريط ضيق ، ولم يحصل نابليون على شيء غير الثلوج والقرى المحروقة . اما الآن ؟ فقدنا اوكرانيا وكوبان يعني فقدنا القمح . فقدنا الدونباس يعني فقدنا الفحم ، مدينة باكو مركز النفط معزولة ، محطة الدنيبر الكهرمائية دمرت ، آلاف المصانع في ايدي الالمان . فما هي الآفاق امامنا ؟ الاقتصاد الآن هو

كل شيء . فالجيش لا بد ان يلبس وينتعل ويأكل ويتزود بالسلاح ، هذا اذا لم نتكلم عن السكان المدنيين ، أضف الى ذلك ان عددنا نقص خمسين مليونا هم الآن تحت اقدام الفاشيست . فهل نحن قادرون على التغلب على كل هذا ؟ ما رأيك . . هل نحن قادرون ؟

— قادرون . . في العام الماضي كانت الاحوال أسوأ . وصل الالمان الى موسكو ، ومع ذلك طردناهم .

— اما انا فلست متأكدا من ان الاحوال كانت أسوأ . لقد كان الدونباس وروستوف وكوبان ومايكوب ملكنا ، والآن فقدناها . وطريق الفولجا النهري واقعيا مقطوع ، فهل تتصور الطريق الذي يجب ان يسلكه نفط باكو الآن ؟ سترد عليَّ بان كوزباس والاورال في ايدينا . هذا صحيح . انها مراكز صناعية ضخمة . ولكن قبل الحرب كان لدينا بالاضافة اليها كريفوي روج ، ونيكوبول ، وزابوروجيه ، وماريوبول ، وكيرتش ، وخاركوف ، ومع ذلك لم نصد الالمان . لقد رحّلنا جزءا من المصانع ، ولكن الترحيل لا

يعني انها بدأت تنتج ، والى ذلك الحين انظر ماذا يحدث . . .

وفي هذه اللحظة يمر فوق رؤوسنا سرب من الطائرات الالمانية « يو – ٨٨ » فرغ من القصف ويستدير ببطء ويعود لانقضاض جديد .

– يطيرون حتى بدون حماية المقاتلات . . أمنوا العقاب ، هؤلاء الاوغاد . كأنهم يحلقون في سمائهم هم .

نظل صامتين بعض الوقت نتابع الطائرات السوداء البغيضة ذات الاجنحة الصفراء المحلقة في السماء بهدوء وثقة في قوتها . جيورجي اكيموفيتش يشعل السيجارة تلو السيجارة ، وبالقرب منه تناثرت اكثر من عشرة اعقاب سجائر . يحدق في نقطة واحدة ، حيث اختفت الطائرات .

ايجور جالس يرمى بالحصى علبة محفوظات فارغة ملقاة على مسافة قريبة . ويقع الحصى بالقرب منها تماما ، ولكنه لا يصيبها . يبدو وكأنه انهمك تماما في هذه التسلية .

ثم ينهض فجأة :

– كلا ، لا يمكن ان يحدث هذا . لن يتقدموا اكثر من ذلك . انني أعرف انهم لن يتقدموا . وينصرف .

° ° °

لا يمكن . . . هذا هو كل ما نستطيع الآن ان نقوله .

لا يمكن . . .

ألم يمر بنا في الماضي عام ١٧ . وعام ١٨ و ١٩ . ألم يكن الحال ايامها أسوأ ؟ نعم ، التيفود والخراب والجوع . لم يكن لدينا غير « مكسيم » والمدفع من عيار ٣ بوصة . . ومع ذلك تغلبنا على كل هذا . ثم شيدنا فيما بعد محطة الدنيبر الكهرمائية ، ومدينة « ماجنيتوجورسك » في الاورال ، وهذا المصنع الذي عليَّ الآن ان أنسفه .

وردا على هذا يبتسم جيورجي اكيموفيتش ، انني أعرف ذلك . يبتسم ابتسامة مَنْ يمن بتواضعه . وعندما يتحدث معنا عن هذا ، فانه دائما يتحدث وكأنه يخاطب اطفالا صغارا . تراه يبتسم ويقول شيئا

ما مؤداه ان ما حدث ايامها كان في السنة الرابعة من الحرب الاولى التي لم ترهقنا فحسب ، بل وأرهقت معنا الجميع ، وان الجنود الفرنسيين والانجليز والالمان لم يكونوا راغبين في القتال ، ويقول اشياء اخرى من هذا القبيل .

وذات مرة قال :

— سنحارب حتى آخر جندي ، فالروس دائما يحاربون بهذه الصورة . ولكن الفرصة امامنا مع ذلك ضئيلة . ولن ينقذنا الا معجزة ، والا فسيسحقوننا . . . سيسحقوننا بالتنظيم والدبابات .

معجزة ؟ . .

من عهد قريب ، وذات ليلة ، مر من هنا جنود . كنت ساعتها مناوبا على التلفون وخرجت لأدخن سيجارة . كانوا يسيرون وهم يغنون ، بصوت منخفض شبه هامس . لم أرهم وانما كنت أسمع وقع خطواتهم على الاسفلت واغنيتهم الهادئة ، بل والحزينة الى حد ما ، والتي كانت تحكي عن الدنيبر وطيور البجع . واقتربت منهم . كانوا قد توقفوا للراحة على امتداد الطريق ، فوق العشب المهروس ، وتحت

اشجار الاكاسيا . كانت نيران سجائرهم تومض في الظلام . ومن تحت الاشجار ترامى صوت شاب خفيض :

— كلا يا فاسيا . . . دعك من هذا الكلام . . انك لن تجد ارضا احسن من ارضنا . ارضنا اصيلة ، دسمة كالزبد — وهنا مصمص بشفتيه بطريقة خاصة — وعندما ينمو فيها القمح يغطيك حتى الرأس . . .

وكانت المدينة ساعتها تشتعل ، وظلال النار الحمراء تتراقص على جدران الورش ، وفي مكان غير بعيد كانت البنادق الاوتوماتيكية تقرقع ، تزداد قرقعتها تارة ، وتارة تقل ، وصواريخ الانارة تنطلق ، وفي الامام كان هناك المجهول والموت الذي لا محيد عنه تقريبا .

ولم أر صاحب ذلك الصوت الذي قال تلك الكلمات ، فقد صاح واحد منهم : « استعد للسير » ، فتقلقل كل شيء ، ورنت قدور الطعام . وساروا . ساروا بخطوة الجند البطيئة الثقيلة ، ساروا الى ذلك المكان المجهول الذي أُشير اليه في خريطة قائدهم بعلامة حمراء .

ووقفت مدة طويلة أصغي الى وقع خطوات الجنود المبتعدة حتى خفتت تماما .

هناك تفاصيل صغيرة تبقى في الذاكرة مدى الحياة . انها لا تبقى فقط في الذاكرة . فهي وان بدت صغيرة ، تافهة ، الا انها تتسرب اليك ، وتذوب فيك ، ثم تأخذ تنمو حتى تصبح شيئا ما كبيرا وهاما ، وتستوعب في داخلها كل جوهر الاحداث ، فتتحول الى ما يشبه الرمز .

انني أذكر احد القتلى من الجنود . كان يرقد على ظهره وقد مد ذراعيه ، وبشفته التصق عقب سيجارة . . عقب سيجارة صغير ما زال يدخّن . وكان هذا افظع ما رأيت من قبل ومن بعد في الحرب . افظع من المدن المدمّرة ، والبطون المبقورة والايدي والاذرع المبتورة . يدان ممدودتان وعقب سيجارة على الشفة . منذ دقيقة واحدة كان هنا حياة ، افكار ، آمال . والآن ليس غير الموت .

وكذلك في تلك الاغنية ، في تلك الكلمات البسيطة عن الارض الدسمة كالزبد ، والقمح الذي يغطيك حتى رأسك ، كان ثمة شيء . . . انني لا

أدري حتى كيف اسميه . لقد سماه تولستوي « دفء الوطنية الخافي » . ربما كان هذا التعريف اصح تعريف . وربما كان تلك المعجزة التي يتوق اليها جيورجي اكيموفيتش ، المعجزة التي ستكون اقوى من التنظيم الالماني والدبابات ذات الصلبان السوداء .

أنظر الآن الى جيورجي اكيموفيتش . انه صغير ، حاد الطبع ، في سترته اللامعة ، يجلس منطويا على نفسه فوق الدرج وقد ضم ركبتيه الناحلتين الحادتين . يداه شاحبتان رفيعتان بهما عروق زرقاء ، ونفس هذه العروق في صدغيه . من المحتمل انه انسان منزله في غاية الفوضى ، والاطفال يثيرون اعصابه ، ويتشاجر مع زوجته . ومن المحتمل انه حتى قبل الحرب كان يجد كثيرا من الامور سيئة ، وكل شيء يثير اعصابه .

ولكن بالامس شاهدت بعيني كيف انفجرت دانة مدفع بجواره ، على بعد عشرين خطوة لا اكثر . ولم يفعل الا ان انحنى قليلا ثم واصل بحثه عن مكان القطع في الدائرة . ثم لف المكان المصاب بالعازل ، واختبر مرة ثانية السلك في القطاع المحيط بمكان القطع .

ثم قال لي فيما بعد :

— أتعلم . . ان حياتي كلها مرتبطة بهذا المصنع . لقد جئت الى هنا للتدريب عندما كانوا يسيرون في هذا المكان باجهزة المساحة والقياس . وامام عيني نما بناء المحطة الحرارية ثم بقية الورش . ولم أنم خمس ليال عندما ركبنا المولد رقم ٦ ، انك تعرفه ، الثاني من جهة النافذة . انني أعرفهم حق المعرفة ، أعرف طبع وعادات كل واحد منهم . هل تفهم ما معنى النسف بالنسبة لي ؟ كلا ، انك لا تفهم . انتم العسكريون لا تشعرون الا بالاسف على المصنع — اما بالنسبة لي . . .

ولم يتم كلامه وانصرف الى جهازه .

منذ شهر ونصف كنت أجلس انا وايجور على جذع شجرة خشن على حافة الطريق ، وننظر الى قواتنا وهي تنسحب . لم تكن هناك جبهة . كان هناك فقط طرق تسير عليها سيارات الى وجهة ما . . . والناس ايضا كانت تسير ، وايضا الى وجهة ما . . .

كان ذلك منذ شهر ونصف . . في يوليو .

ونحن الآن في سبتمبر . لليوم العاشر في هذا

المصنع . ولليوم العاشر يقصف الالمان المدينة . وهذا يعني ان رجالنا ما زالوا فيها . يعني ان المعارك ما زالت دائرة ، يعني انه توجد جبهة ، يعني ان الحال الآن افضل مما كانت عليه في يوليو .

تنفجر دانة بجوار المحطة . لقد بدأ رمي فترة الغداء . ويمتد من الثالثة حتى الثالثة والنصف بدقة « الكرونومتر » . بعد نصف ساعة علينا ان نتوجه لاصلاح الدائرة . يركض فاليجا وسيديخ بالاوعية لاحضار الغداء .

١٧

بعد يومين ، وفي الصباح الباكر يدخل خندقنا جولدشتاب ومعه ما لا يقل عن عشرة من القادة .

نجلس على الدرج المفضي الى الخندق ونحاول ان نصنع علبا للسجائر من مادة السيلولويد . ففي معمل المصنع عشرات الاطنان من السيلولويد المتنوع الاشكال ، وخلاصة عطر الكمثري وهي تترقرق في زجاجات ضخمة كتلك التي تراها في الصيدليات . ولذا أخذنا نصنع علب سجائر . . ننشر ونقطع ونبرد

ونلصق ، ولا نترك هذا الا لاصلاح الدائرة او لتناول الغداء .

ـ حسنا ، فلنودع بعضنا ـ يقول جولدشتاب وهو يقلب في يديه علبة سجائر ايجور الصغيرة ذات الغطاء المتحرك ـ لقد جاء من يحل محلكم . انهم رجال الهندسة من الكتيبة ٢١٧ من سلاح المهندسين .

ـ والى اين سنذهب نحن ؟

ـ الى الجانب الآخر من النهر . الى اركان الجبهة ، القسم الهندسي .

لا بأس ، هذا افضل . ونسلم الاهداف وبعد نصف ساعة نخطو على الالواح المهترئة للجسر المعلق فوق رافد الفولجا ممتدا الى احدى الجزر .

لسبب لا أدريه نتبادل القبل مع جيورجي اكيموفيتش ساعة الوداع . ويهز يدي بشدة ويقول وهو يطرف بعينه ويجعد جبينه :

ـ سوف أتذكر كثيرا احاديثنا على هذا السلم . آمل ألا يتحقق كل ما كنت أحاول ان أثبته لك . ولسوف نلتقي بعد الحرب وستسألني : « هيه ، من فينا كان على حق ؟ » وسأجيبك : « انت » .

ويرافقنا حتى الدرب الذي يتسلل عبر الوديان الحمراء حتى الفولجا ، ويقف مدة طويلة وهو يلوح لنا بعمرته ذات الزرار .

ها هو شخص آخر قد مر عبر الحياة وترك خلفه اثرا صغيرا ، لا ينسى ، ثم اختفى ، يبدو ، الى الابد .

ثم نجلس على الشاطئ الايسر فوق قارب جاف مقلوب ونتطلع الى مداخن مصنع الجرارات وهي تنفث الدخان . لم يتوقف هذا المصنع دقيقة واحدة . ويحكي لنا شابيرو ان المصنع كان ينتج في شهر يوليو ثلاثين دبابة يوميا ، اما في اغسطس فقد وصل الانتاج الى خمسين دبابة في اليوم . اما الآن فيعمل فقط لاصلاح الدبابات المعطوبة . وقد رُحِّل جزء من المعدات الى الاورال والجزء الآخر يزمعون ترحيله لو أمكن طرد الالمان من احد الامكنة التي بها جسر او مرفأ ما .

نقضي ليلتنا في منزل خشبي صغير في الغابة . واليوم التالي نمضيه في البحث عن منزل الحطاب فهو العلامة التي نستطيع بواسطتها ان نجد القسم الهندسي في الجبهة .

هيئات الاركان واقسام المؤخرة منتشرة في كل غيضة وكل غابة صغيرة ، وهي من الكثرة بحيث لا يصبح من السهل ان نعثر على القسم الذي نريده . وفي كل مكان حراس ، واسلاك شائكة ولافتات مكتوب عليها : « ممنوع المرور » .

وفي المساء نعثر عليه مع ذلك . صحيح انه قسم ولكنه ليس في منزل . فالمنزل قد انتهى منذ امد بعيد ، ولم يعد موجودا الا على الخريطة ، يرمز اليه مستطيل اسود فيه شرطة مائلة من الجانب . ويتكون القسم من اربعة خنادق مسقوفة . واحد منها قد احسن تمويهه لدرجة اننا ندور حوله لمدة عشر دقائق ولا نتبينه ، وفيه يجلس رائد يرتدي نظارة سميكة للغاية بدون برواز ، وياقة من السيلولويد . يمر بعينيه بسرعة على محتوى المظروف الذي نقدمه له وفي الحال ينتشى :

— رائع . . رائع جدا ! لقد كنت جالسا ولا أدري ماذا أفعل . . اجلسوا يا اصدقاء . . . لا ، بل من الافضل ان نخرج ، فالمكان هنا لا يتسع حتى لواحد .

ويتضح انه قد جاء اليه قبلنا مباشرة نقيب من القسم الهندسي في الجيش الثاني والستين (« ألم تقابلوه في الطريق ؟ ») . فلديهم هناك نقص في مهندسي الافواج . اليوم مساء ستعبر النهر الفرقة ١٨٤ ، ولكن المهندس وقائد فصيلة الهندسة جرح في النهار اثناء الغارة . والفرق المحاربة تعاني من نقص شديد ، والرقباء يحلون محل مهندسي الافواج ، وليس هناك اي شخص في الاحتياط . ومنذ ان انشغلوا في مصنع الجرارات كرروا الطلب مرتين .

— وباختصار . . . فانتم بالطبع جوعى ، أليس كذلك ؟ اذهبوا الى مطعمنا ، اسلكوا هذا الدرب مباشرة ، ثم عودوا من فضلكم الى هنا . اما انا فساعد لكم المستندات . سيكون بامكانكم ان تلحقوا بالفرقة وهي بعد على هذه الضفة .

بعد ان نأكل عصيدة بالمربى نعود الى الرائد . ويوقع على المظاريف بخط نسائي دقيق .

— من منكم كيرجينتسيف ؟

— انا .

— انت ستذهب لوحدك . الى الفرقة ١٨٤ . انصحك ان تلحق بها هنا ، ولكنهم سيبدأون التحرك

للعبور في الساعة الثامنة تقريبا من مركز بوركوفسكي ، والا فانك غدا ستبحث في خطوط النار عنها ولن تجدها — ويمد لي مظروفا صنع من خريطة طوبوغرافية .

— حاول ان تقابل مهندس الفرقة ، ثم اذهب بعد ذلك الى الفوج ، وعلى العموم انت أدري . .

اما الآخرون فيتلقون اوامر التعيين في هيئة اركان سلاح المهندسين التابع للجيش الثاني والستين .

— هيئة الاركان في الضفة الاخرى . بالامس كانت في وادي « بانّي » . اما الآن فيبدو انها انتقلت الى مكان آخر ، ولكن في نفس المنطقة . ابحثوا عنها .

ويسأل ايجور :

— ألا تحتاج الفرقة ١٨٤ الى مهندس اخر ؟ لقد قلت ان قائد فصيلة الهندسة هناك قد جرح .

ينظر الرائد الى ايجور من خلال زجاج نظارته السميك ، فتبدو عيناه كبيرتين مستديرتين كعيون الطيور .

— انك ملازم اول وقد عيناك مهندسا لا قائدا لفصيلة ، فنحن بحاجة شديدة الى المهندسين . —

ثم يحك ما بين عينيه بالقلم الرصاص ويضيف :

— من الافضل لكم جميعا ، ما عدا الرفيق المتوجه الى الفرقة ١٨٤ ، ان تنتظروا هنا فسوف يأتينا اثناء الليل مندوب من الجيش الثاني والستين لاستلام المجاريف ويمكنكم ان تعودوا معه . اما الآن فاستريحوا هنا تحت اشجار الحور .

نخرج ونقف تحت اشجار الحور . ويسألني ايجور :

— هل ستذهب سيرا على الاقدام ؟

— سأذهب الى جندي المرور ثم أقرر .

— اذن سأوصلك .

وأودع شابيرو وبنجاونيس وساموبلينكو . اما سيديخ فيشد براحته الخشنة على راحتي مدة طويلة ويقول :

— سنلتقي مرة اخرى ايها الرفيق الملازم .

— اكيد — اقول بمرح مفتعل كما هو الحال دائما اثناء الوداع . لو كان بيدي لأخذته الى فصيلتي بمنتهى السرور .

وبعد عدة دقائق يلحق بنا :

ـ خذ علبة سجائري ايها الرفيق الملازم ، فانك لم تكمل صنع علبتك . وهذه العلبة طيبة ، مزدوجة .

ويدس في يدي علبة سجائر صفراء شفافة ، حجمها كبير حتى أخشى ألا يتسع لها جيبي . يمكنها ان تستوعب نصف رطل دخان باكمله . ثم يشد على يدي مرة اخرى ، وعلى يد فاليجا ، ثم من جديد على يدي .

ونسير صامتين حتى نصل الى جندي المرور .

ـ لم تعبر الفرقة ١٨٤ . لم يمر من هنا الا كتيبة مهندسين ، اما الباقي فكله سيارات ـ يقول لنا جندي المرور ، وهو شخص تخطى الشباب ، ذو شوارب حمراء خفيفة واذنين كبيرتين بارزتين يعلوهما الغبار .

نجلس في صندوق سيارة محطمة وندخن . لقد غربت الشمس ولكن الجو ما زال مضيئا . وهناك في الغرب ، فوق ستالينجراد ، تبدو السماء حمراء تماما . ومن الصعب ان تحكم : هل هذا بسبب شفق الشمس الغاربة ، ام بسبب الحرائق . وثلاثة

اعمدة دخان سوداء تتصاعد في الهواء ببطء . وهي من الاسفل رفيعة ، غزيرة وسوداء كالهباب ، وكلما ارتفعت ، انتشرت وانبسطت حتى تصب كلها في سحابة واحدة طويلة هناك في اعلى السماء ، سحابة مسطحة وثابتة . ومع ان دفعات جديدة متزايدة من الدخان تصب فيها ، الاّ انها لا تستطيل ولا تزداد سمكا . وقد مر عليها اكثر من اسبوعين وهي على حالها هادئة وثابتة فوق المدينة المشتعلة .

حولنا اشجار الحور الذهبية تبدو نحيفة رقيقة على خلفية سوداء . وعلى الطريق تسير السيارات ، تتوقف ليسأل سائقوها عن الطريق المؤدي الى المعدية رقم ٦٢ او الى قرية « ريباتشي » ، ثم تواصل سيرها . الطريق واسع ، عبدته كثرة المرور فيه ، نقشت عليه عجلات السيارات معينات ومثلثات . ومن العسير ان تعرف اين حدوده والى اين ينعطف . ولا بد ان عامود اشارة المرور المنتصب كان في وقت ما على جانب الطريق ، اما الآن فهو في وسطه ، وقد مرَّ عليه احدهم بسيارته ، فانحنى وتقوس ، وأصبحت اللوحة

التي المكتوب عليها : « ستالينجراد — ٦ كيلومتر » تشير الآن الى كبد السماء .

يقول فاليجا عابسا :

— طريق الى الجنة انه اذن لا يخلو من روح الفكاهة . لم اكن أعرف عنك هذا ، يا فاليجا .

ويقترب منا جندي المرور ويقول :

— انظروا ، ها هو البجع يطير — ويشير باصبع قذر مقوس نحو السماء — انه لا يعرف ما هي الحرب ولا يأبه بها . أليس معكم دخان ايها الرفاق الضباط ؟

نعطيه دخانا ثم ننظر طويلا الى مثلث البجع المتجه الى الجنوب ، وكأنه حبات عقد نظمت في صفحة السماء . بل ان صياحه يصل الى اسماعنا .

— يشبه طائرات « اليونكرس » تماما — يقول جندي المرور وهو يبصق ، — منظر يبعث على القرف .

يبدو ان هذا الاحساس راود الجميع ، ولذلك نضحك كلنا .

— ماذا . . أقادمون من هناك ام ذاهبون الى هناك ؟ — يسألنا جندي المرور ويمسك بيدي ليشعل سيجارته .

— الى هناك .

فيهز رأسه ويجذب عدة انفاس .

— نعم . . . الحال هناك لا تسر . . فعلا . — ثم يبتعد .

يمر الجرحى ، فرادي وازواجا . لونهم رمادي ، يعلوهم الغبار ، وجوههم يكسوها الارهاق . ويجلس احدهم ويسألنا شرابا . ويقدم له فاليجا لبنا من الزمزمية ، فيشرب ببطء ولمدة طويلة وينسكب اللبن عليه . انه مصاب في صدره . ومن خلال بزته العسكرية الممزقة تلوح الضمادة رمادية قذرة ملوثة بالدم فوق صدر نحيل مغطي بالشعر الاسود .

— وكيف الحال هناك ، في خط النار ؟

— في منتهى السوء — يجيب بلا مبالاة وهو يمسح بصعوبة شفتيه المتورمتين بيده القذرة الملوثة بالدم . وليس في عينيه الرماديتين ، مثله تماما ، شيء غير الارهاق الفظيع .

— هل يضغط العدو بقوة ؟

— بقوة ما بعدها قوة ، لا تستطيع حتى رفع رأسك .

يحاول النهوض ولكنه يسعل فتظهر على شفتيه رغوة حمراء . يعاود الجلوس وهو يتنفس بصعوبة . هناك شيء ما في حلقه او في صدره يخرخش .

— الجنود قليلون . . . هذا هو المقرف في الامر . . .

— ومَنْ الآن في المدينة ؟ . . هم ام نحن ؟

— ومن ذا يدري اين المدينة . . . كل شيء مشتعل . . . يقصفون من الجو منذ الصباح حتى الآن . . . أعطني جرعة اخرى يا بني . .

ويلصق شفتيه بالزمزمية بوهن وكأنه لا يرغب في الشرب ، ويسيل من زاوية فمه لبن وردي اللون من اختلاطه بالدم . ثم ينهض وينصرف وهو يجر ساقيه جرا ، متوكئا على عصا مقوسة خشنة .

يقترب ثلاثة فرسان يتجهون الى جندي المرور ، فأرسل فاليجا ليعرف هل هم من الفرقة التي نريدها . يذهب فاليجا اليهم ويسألهم وهو ممسك بمقود احد الخيول . ثم يعود .

— يقولون ان الفرقة ١٨٤ قد توجهت في خط مباشر نحو المعدية . وهم ليسوا منها ولكنهم رأوا الجنود وهم يتحركون .

ويركض الفرسان مواصلين طريقهم ، ويثيرون خلفهم سحابة من الغبار .

— حسنا ، سأذهب انا — يقول ايجور .

— حسنا ، فلتذهب — أجيبه مادا يدي اليه .

يبدو انه يجب ان نقول شيئا ما آخر ولكنا لا نستطيع .

ويقول ايجور :

— لن أقول الوداع .

— وانا كذلك .

ونهز ايدي بعضنا البعض .

— سلام يا فاليجا . . اعتن بالملازم جيدا .

— أكيد . . طبعا .

— حسنا ، اني ذاهب .

— الى اللقاء يا ايجور .

— نعم . . لقد نسيتَ معي مديتك الصغيرة .

— حقا ؟

— أخذتها منك بالامس ، عندما أردنا تقطيع الخبز — ثم يفتش في جيوبه — ها هي . . اندستْ خلف البطانة .

ويمد ايجور يده بالمدية ، مدية المانية رائعة

غنمها فاليجا ، بها سلاحان ويد لفتح الزجاجات ومخرزة ومفك ومجموعة ضخمة من الادوات الغامضة .

ـ حسنا ، الآن انتهينا . . سلام .

ـ سلام . .

ويبتعد بخطوته العادية البطيئة غير المتكلفة ، وقد أزاح العمرة الى مؤخرة رأسه ودس يديه في جيوبه .

أمن المعقول انني لن أراه بعد ذلك ابدا ؟

١٨

عند المعدية يصعب ان تفهم شيئا مما يجري ، كما هي العادة . فهناك الخيول والعربات والمدافع بدروعها الامامية والسيارات وهي تتراجع الى الخلف في الظلام . . . ثم الناس . والناس اكثر من اي شيء آخر . ناس تتشاجر وتتصادم وينتزع كل منهم من الآخر شيئا ما . وهناك شخص ما داس على آخر ، ومجموعة نسيت بعض الصناديق . وفريق يبحث عمن يدعى ستيتسينكو . وينتظرون وصول القارب البخاري ، ويلعنونه لانه لم يأت مع انه من المفروض ان يكون قد أتى منذ فترة طويلة .

هناك فرقتان تعبران معا . الفرقة ١٨٤ وفرقة اخرى ، يبدو انها الفرقة ٢٩ .

وفي هذا الهرج الهائل عليك ان تجد شخصا مثل مهندس الفرقة او قائدها او رئيس الاركان لكي تسلمه المظروف وتنتظر الأوامر التالية . بينما ايس هناك اية أوامر في الغالب ، فالجميع رؤوسهم تدور ، اذ يجب شحن المدافع كلها ، والذخيرة ، والخيل ، وعدم نسيان احد من الجنود ، وعلى العموم ما الذي قذف بك هنا لتسأل ، في حين ترى ما يدور .

واعثر على المهندس ، ولكنه ليس المهندس المطلوب ، ثم على قائد الفرقة ، وايضا غير المطلوب . يشدني احدهم من كمي :

ـ أليس معك كشاف يدوي يا صديقي ؟

ـ معي .

ـ اذن اشعله يا عزيزي . لقد تعبت تماما . اعطوني خريطة ، ولكن كيف يمكنك ان ترى شيئا في هذا الظلام . . .

ولا اميز غير جسد ضخم في سترة ثقيلة وبندقية آلية تتدلى على صدره .

— هيا بنا نختبئ تحت القارب . دقيقتين لا غير . . . اقسم لك .

المكان تحت القارب ضيق وتنتشر فيه رائحة الخشب العطن . واشعل الكشاف فيضيء بنور خافت لان البطارية اوشكت على النفاد . ويتضح ان وجه هذا الشخص ضخم ، ثقيل ، وعينيه متباعدتان ، وشفتيه غليظتان . وعلى ياقته « فلنكة » * . ويخرج بصعوبة خريطة من الحافظة الجلدية المحشوة بالاوراق والملفوفة بشريط من المطاط .

ويشير بظفره القذر الى مثلث احمر غير متساو في الخريطة ويقول :

— حاول ان تفهم شيئا . يا لها من خريطة ! مربع ابيض بدلا من مصنع ، فماذا تستطيع فهمه هنا ! — ثم يطلق سبابا طويلا مقذعا — من المفروض ان نبدل الفرقة بأخرى . وقد قالوا سينتظركم مندوب عند

* « فلنكة » — مستطيل احمر على الياقة ، وكان نيشان الضباط في الجيش الاحمر حتى عام ١٩٤٣ . مستطيل واحد على كل من الياقتين يعني رتبة النقيب ، ومستطيلان — رتبة الرائد ، و٣ — رتبة المقدم ، و٤ — رتبة العقيد . المترجم .

المعدية . ولم يأت أحد . والآن حاول ان تجد هذا المثلث في المدينة . انه نقطة قيادة فرقتهم . وليس هناك من علامة مميزة ، او اي شيء آخر .

واسأله من اية فرقة هو فيتضح انه قائد كتيبة من الفوج ١١٤٧ في الفرقة ١٨٤ . واسأله :

— ألم يستشهد المهندس عندكم اليوم ؟ . .

— نعم ، عندنا . المهندس تسيجيكا . ما الخبر ؟

— لقد عينت مكانه .

— حقاً ؟ . . — ويندهش هذا النقيب ذو الوجه الضخم . — عظيم . سترحل اذن معنا . لقد بقيت هنا وحيدا ، فالقوميسير في مستشفى الكتيبة ، ورئيس الاركان لا يرى شيئا اثناء الليل .

ونخرج من تحت القارب .

— انتظر قليلا . سأتفقد الخيل ، فأنت تعرف هؤلاء الرقباء .

ويختفي وكأنه قد ذاب في الحشد والضجيج . وابحث عن فاليجا فأجده قد استقر بجوار بعض الصناديق يغط في نوم هادئ وقد طوى ساقيه حتى لا يدوس

عليهما احد . ان لديه موهبة خارقة على النوم في اية ظروف . واجلس بجواره . ويهب من جهة النهر نسيم بارد رقيق يهدئ الاعصاب ، وتفوح رائحة السمك والنفط . وبجواري تقف الخيول وتدق الارض بارجلها فترن اسراجها . وفي مكان ما اصبح الآن بعيدا عن هنا ، ما زالوا يبحثون عن ستيتسينكو .

المدينة مشتعلة ، بل ليس المدينة وانما الشاطئ كله على مرمى البصر . ومن الصعب حتى ان تسمى هذا حريقا ، انه شيء اكبر من ذلك . هكذا في الغالب تحترق غابات التايجا ، تظل مشتعلة اسابيع ، واشهرا على امتداد عشرات ، بل مئات الكيلومترات . السماء كتلة حمراء . وهيكل المدينة المشتعلة يبدو كأنه نُشر بمنشار دقيق . الأحمر والأسود ، ولا لون غيرهما . المدينة سوداء ، والسماء حمراء ، ونهر الفولجا أحمر ، « كأنه من دم » ، — يومض هذا التشبيه في مخيلتي .

اللهب لا يرى تقريبا . فقط في مكان واحد ، أسفل النهر ، تلمح ألسنة قصيرة متراقصة . وفي الجهة المقابلة لنا صهاريج النفط الملتوية وكأنها من الورق

وقد انهارت وسحقها الغاز ، وتنفصل عنها ألسنة مهولة من النيران ثم تختفي في طيات سحب خرافية ثقيلة من الدخان الرصاصي الأحمر ، تتصاعد ببطء .

كنت في طفولتي أهوى تصفح مجلة انجليزية قديمة من ايام الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ . وكانت الصفحات الاولى والاخيرة من هذه المجلة مفقودة ، ولكنها كانت تحوي صورا رائعة كبيرة بمساحة الصفحة كلها للجنود الانجليز في الخنادق واثناء الهجمات ، وللمعارك البحرية والامواج المزبدة وزوارق الطوربيد وهي تصطدم ببعضها ، ولطائرات « بليريو » و« فارمان » و « تاوبي » المضحكة والتي تشبه أرفف الكتب . وكان من الصعب ان تحول عينيك عن هذه الصور .

ولكن أفظع صورة كانت تلك الموجودة على صفحتين وسط المجلة . صورة قاتمة تبعث الرعدة في البدن لمدينة لوفين المشتعلة من الغارات الالمانية . كانت تصور اللهب وأعمدة الدخان التي تشبه القطن والناس الراكضين ، والمنازل المهدمة والكشافات الموجهة الى السماء اللعينة . وباختصار ، كانت صورة رهيبة وآسرة لدرجة انني كنت لا اجد القوة على قلب الصفحة .

وأعدت رسم هذه الصفحة مرات لا حصر لها ، وكنت ألونها بالاقلام الملونة والالوان المائية والطباشير الملون ، ثم اعلق تلك الصور على الجدران .

وكان يبدو لي مستحيلا ان يكون هناك شيء آخر اكثر فظاعة وعظمة .

والآن تذكرت تلك الصورة . كانت مرسومة بدرجة لا بأس بها . ولا زلت حتى الآن اذكر كل تفاصيلها ، كل حلقة من حلقات دخانها المتصاعد ، وفجأة يتضح لي تماما مدى ضعف الفن وعجزه . فلن تستطيع باية أعمدة دخان ، او اية ألسنة نيران تلعق السماء او اية اضواء رهيبة ان تنقل ذلك الشعور الذي يتملكني الآن وانا اجلس على الشاطئ وامامي ستالينجراد المشتعلة .

في الضفة الاخرى تدور المعركة . وتصل طلقات المدافع الرشاشة والبنادق الآلية الى الضفة نفسها . فهل من المعقول ان يكون الالمان قد وصلوا الى حافة النهر ؟ وتطير بعض الدفعات الطويلة عبر الفولجا ثم تتفرق على هذه الضفة .

ومن مكان ما خلفنا تطلق المدفعية الصاروخية

« كاتيوشا » نيرانها . لقد رأينا حوالي ثماني سيارات منها عندما كنا قادمين الى هنا . وتطير قذائفها المتوهجة على مهل ويسبق بعضها بعضا في السماء المرتعشة باللهيب ثم تنقض في مكان ما بالضفة المقابلة . لا ترى الانفجارات بل فقط لهبها ، ثم يصل الى سمعنا بعد ذلك دويها .

يبصق بالقرب مني شخص ما ويتنهد برضى . الآن فقط الاحظ ان الجنود قد استلقوا بجوارنا .

ويسأل شخص ما :

— هل ركبت الحدوات للخيل ؟

— نعم ، وانت ؟

— ركبتها لـ « لوتيك » ، اما الحصان الأسود فلم يسعفني الوقت الا لتركيب الحدوات في قدميه الاماميتين . وهو جريح ، ولا يستسلم لك ابدا .

ويقبل قائد الكتيبة وهو يتنفس بصعوبة :

— اقسم بالله ان عمليات العبور هذه ستصيبني بالجنون ، سأكبر خمس سنوات . — ثم يتمخط بصوت مرتفع . — الجنرال كان هنا وقال بوضوح : الآن سنعبر نحن ، وبعدنا الفرقة ٢٩ . وما ان ابتعد

عن المرسى حتى دفعوا بصناديقهم للشحن . يقولون انهم نقلوا المدفعية للشاطئ الآخر بينما بقيت الذخيرة هنا ، فمن ذا عاقهم عن نقلها ؟ انا مثلا ارسل مع كل مدفع ذخيرته . يا إلهي ، هذا الشيطان مرة ثانية .

ويختفي قائد الكتيبة . ثم نسمعه يسب شخصا ما . ويعود .

— حسنا ، كل هذا هراء . سنعبر النهر باية طريقة . انما المهم هناك . . .

ويتضح ان الفوج تلقى أمرا بالانتهاء من عملية العبور في الساعة الثانية صباحا بالضبط ؛ وفي الرابعة تماما يحل محل الفرقة التي لم تعد تقريبا موجودة في الضفة الاخرى في منطقة مصنع المنتجات المعدنية وتل ماماي . والساعة الآن الواحدة ولم تعبر النهر ولا حتى كتيبة واحدة ، وعلى الضفة الاخرى لا يوجد غير جنود سلاح المهندسين وجنود الاستطلاع وفريق عمليات الاركان . ويبدو ان قائد الفوج ورئيس الاركان ايضا هناك . والمهم نقل المدفعية المعطاة للكتيبة من عيار ٤٥ ، و٧٦ ، وجرها حتى المواقع الامامية قبل الفجر ، استعدادا للضرب المباشر .

واقول له :

— حسنا . اعطني فصيلتين وجنود المدافع المضادة للدبابات ، اما انت فخذ فصيلة واحدة وتفرغ للمدفعية . كم شخصا في الفصيلة لديك ؟

— حوالي مائة .

— ممتاز . اذن اتفقنا . فقط حدد لي مكان التجمع بالضبط .

— انه ذلك المثلث الملعون في الخريطة . واذا شئت الصراحة فاني اعتقد انه لم يعد هناك احد في ذلك المكان . ففي تلك الفرقة لا يوجد اكثر من مائة شخص ، وهم يحاربون في تلك الضفة منذ اسبوعين .

ويركض مبتعدا مرة اخرى ليسب شخصا ما . وصوته عال حتى لربما يسمع في الضفة الاخرى .

ويأتي الزورق البخاري . صغير ومنخفض ، وكأنه اختفى في الماء عن عمد ، حتى لا يُرى . ويقطر خلفه صندلا مفرطحاً قبيح الشكل ، ذا دفة طويلة بارزة .

ولفترة طويلة لا يستطيع الزورق ان يرسو ،

فيتحرك الى الخلف ، ويزفر ، ويرش الماء بمروحته . واخيرا يلقى بسقالة الركوب . ويهبط منه الجرحى بحذر في سلسلة طويلة . عددهم كبير . كبير جدا . يهبط اولا من يستطيعون السير ، ثم يتبعهم المحمولون على النقالات . ويحملونهم الى مكان ما خلف اغصان الشجيرات . ونسمع ابواق السيارات .

بعد ذلك تشحن الصناديق ، وتتقدم المدافع المجرورة . تدق الخيول باقدامها على خشب السقالة ، وينهار احدها بين الالواح فيسحبونه من الماء ويدفعون به من جديد . وعلى عكس المتوقع ، يجري كل شيء بهدوء ونظام . حتى انني لا اسمع صوت قائد الكتيبة .

ونبحر وضوء الفجر يلوح . ويتحول المنظر خلفنا والذي كان يبدو لنا من قبل كتلة متلاحمة لشيء ما غير محدد الى نسيج من الدانتلا الخفيفة من اوراق شجر الحور الرجّاج . ونقف ملتصقين الواحد بالآخر . وشخص ما ينفث في وجهي تماماً رائحة الثوم ، وتحت اقدامنا نسمع صوت المحرك مكتوما . وشخص آخر يقزقز اللب ويبصق قشره بصخب . وينظر

فاليجا الى المدينة المشتعلة مرتكزا الى معطفه الملقى فوق حاجز القارب .

واسمع صوتا خلف رأسي يقول :

ـ انها مدينة كبيرة ، مثل موسكو .

ويرد عليه صوت آخر كصوت الاطفال :

ـ ليست كبيرة ، بل طويلة . طولها خمسون كيلومترا . كنت فيها قبل الحرب .

ـ خمسون ؟

ـ لا اكثر ولا أقل . من ساريبتا حتى مصنع الجرارات .

ـ اوهوه !

ـ ماذا « اوهوه » ؟

ـ ضروري قوات كبيرة للدفاع عنها . حوالي عشر فرق ، وربما خمس عشرة .

ـ وهل تظن انه يوجد هنا اقل مما ذكرت ؟ كل ليلة تعبر القوات الى هنا .

ويتفادى القارب نتوءا حادا غير ملحوظ تقريبا ، وتطير فوق رؤوسنا قذائف الهاون وهي تصفر ثم تنفجر في الماء خلفنا .

— الالمان لا يعجبهم اننا قادمون ، يريدون الالقاء بنا في الفولجا .

ويضحك ذو الصوت الطفولي ويقول :

— وماذا يريدون غير ذلك ؟ طبعا يريدون القاءنا في النهر . روسي اغرق ! — ويضحك من جديد .

وينضم الى الحديث شخص ثالث ، يبدو من صوته انه متقدم في السن :

— الالمان يريدون الكثير ، ونحن لا نستطيع الانسحاب اكثر من ذلك . . . انسحبنا حتى النهاية . حتى آخر الدنيا . لا مجال بعد ذلك . . .

ويسمع صوت خبطة على كتف شخص ما :

— اصبت يا عمي . هذا على طريقتنا ، نحن البحارة . لن نستحم بارادتنا في مياه الفولجا . فهي باردة جدا . . . أليس كذلك ؟

ويقهقه الجميع .

واحاول ان ادير رأسي . صعب جدا فانا محاصر من جميع الجهات ، ولا أرى بعيني المتحولة جانبا الا بقعا بيضاء لوجوه من حولي واذن شخص ما . نقترب من الشاطئ .

لا يستطيع القارب مرة اخرى ان يلتصق بالشاطئ ، فنقفز في الماء مباشرة . . . ماء عكر بارد .

على الشاطئ يسحبون بعض الصناديق . وهي تزحم الشاطئ كله . وتتعثر اقدامنا بسلاسل وحبال حديدية . والجرحى يستلقون على الصناديق وعلى الارض مباشرة . . . صامتين متجهمين ، يلتصق الواحد منهم بالآخر .

الشاطئ قرب الماء منبسط ورملي ، وبعده يصبح منحدرا بشدة ، وبشكل عمودي تقريبا . وفوق كل هذا سماء حمراء ملبدة بالدخان . الضرب بقربنا تماما ، كأنه خلف ظهورنا . الجو يميل الى البرودة فأرتدي معطفي .

ويصيح قائد الكتيبة — الذي يتضح ان اسمه كليشينتسوف — بأحد الجنود الذي ادار المدفع في اتجاه خاطئ :

— كيف تدفع بمؤخرته الى الامام ؟ أليس لديك مخ ، يا رأس العجل ؟ . .

ويخوض الجنود في الماء وهم يحملون المدافع الرشاشة ومدافع الهاون والقذائف المتدلية على صدورهم وخلف ظهورهم . ويتجمعون في مجموعات على الشاطئ . وبالطبع يدخنون . ويجري كليشينتسوف قادما نحوي . لقد بحّ صوته تماما .

ـ خذ الفصيلتين الرابعة والخامسة وتحرك ! اما انا فسأفرغ المدافع على الشاطئ ، ثم ألحق بكم فورا . . . فقط ارسل جندي اتصال لكيلا أتعب عبثا في البحث عنكم . ارسل الجندي سيدوركو . . . فسيجد كل شيء . اسأل عنه فاربر ، قائد الفصيلة الخامسة ـ وجذبني اليه من ياقة معطفي ثم همس ـ يقولون لم يبق احد من تلك الفرقة . حاول ان تعثر على جنود الاستطلاع التابعين لنا . انهم في مكان ما هناك . . . لا تدخل المعركة بدوني ـ ويدس في يدي زمزمية فودكا ـ خذ لك جرعة تعينك على الطريق .

وتلسعني الفودكا بلذة في حلقي ، وتنساب الى الداخل تيارا ساخنا .

يجمع القادة جنودهم . أحدهم طويل القامة ، محنى الظهر ، يرتدي معطفا قصيرا حتى ركبتيه

ونظارة . اسمه فاربر . يبدو انه من المثقفين ، اذ تسمع في حديثه عبارات مثل : « أترى » ، « في الواقع » ، « اميل الى الظن » . . . والآخر اسمه بتروف ، نحيل ، ضعيف ، تماما كطفل . ولا يسرني هذا كثيرا .

نسير بحذاء الشاطئ نحو المدينة . وتغوص اقدامنا في الرمال . واحيانا ننحني عندما نسمع ازيز قذائف الهاون . يسير الجنود صامتين ، يحركون اقدامهم بصعوبة ، انفاسهم ثقيلة ، ويثبتون بأيديهم قذائف الهاون المتأرجحة على اجنابهم . لقد ساروا اليوم على اقدامهم حوالي ٤٠ كيلومترا .

تقابلنا طوابير الجرحى ، يسيرون ازواجا او ثلاثات او وحدانا ، معتمدين على بنادقهم . ويسألوننا عن مكان العبور .

الطلقات تئز فوق رؤوسنا تماما ، ثم تسقط في الماء . اما الطلقات المضيئة فتتصاء عاليا وتنطفئ في الجو .

ويسأل الجنود من يقابلونهم : أين الالمان ؟ فيشير هؤلاء بأيديهم الى الجهة التي نسير نحوها :

ـ ليس بعيدا عن هنا . . . اقرب من المسافة الى بيوتكم . . .

ونمر بجوار بناية بيضاء ، يبدو انها طلمبة مياه ، تتفرع منها انابيب . ثم يمتد الطريق صاعدا الى اعلى . ومجموعة من الجنود يسحبون مدفعا بأيديهم هابطين على هذا الطريق .

وأسألهم : ـ الى أين ؟

ولا يرد منهم أحد .

ـ الى أين تسحبون المدفع ؟

ـ ومن تكون انت ؟ ألا ترى ما يجري ؟ أنتركه للألمان ؟

واسحب مسدسي .

ـ عودوا الى الوراء !

ـ الى أين ؟

ويدفعني في صدري أحدهم ، معطفه مفتوح ، وعمرته منسدلة الى الخلف .

ـ لقد رأينا امثالك . . . يا له من بطل ! . . لا تلق اليه بالا يا كاتسورا ! اسحب !

واشعر فجأة انني اختنق ، وان شيئا ما يطبق على رقبتي .

الرصاص يضرب الآن في الشاطئ تماما .

لا نرى من هذا المكان الا مزلقانا مرفوعاً وعامودا منهارا وحلقات من الاسلاك المقطوعة في اعلى الطريق ، بينما يظهر هناك بعض الاشخاص . يحتمون بالعامود ويطلقون النار ثم يركضون الى اسفل .

ويدفعني احدهم بكتفه وهو يسب .

فألتفت واضرب وجها ابيض يقفز امامي .

واصيح بأعلى صوتي حتى لأسمع طنينا في اذني :

ـ ارجع !

وأركض في الطريق الى أعلى .

يظهر الالمان خلف الخط الحديدي مباشرة . وهذا الخط يكاد يمتد على حافة الشاطئ المرتفع . وهناك طوابير عربات نقل الوقود تقف جامدة وخلفها يشتعل شيء ما . ويطلق مدفعنا الرشاشة طلقاته من مكان ما في الجانب الايمن تحت عجلات العربات .

وادخل تحت عربة ، ويشتبك معطفي بشيء ما ويطقطق . ويعوقني بشدة عن الحركة ، وتتعثر فيه

قدماي . ألتصق بالقضيب الحديدي الذي يبدو باردا ومنعشا – واحاول ان اعرف مكان الالمان . هناك شارع عمودي على القضبان ذو طوار حجري ومستقيم الى حد مزعج . الى اليسار صهاريج النفط ، ينطلق الدخان من احدها . في جداره ثلاث فتحات كبيرة ذات حواف مشرشرة من اصابات المدافع . كأنها جروح . الى اليمين حظائر محترقة تحيط بها الاسلاك الشائكة .

يبدو ان الالمان يجلسون داخل الصهاريج ، اذ تنطلق من هناك نقط حمراء وبيضاء وخضراء . وترن وهي تصطدم بجدران العربات .

رأسي يعمل بصورة واضحة لدرجة لا تعقل . يبدو ان لديهم رشاشين ، وهما على ما اظن ، رشاشان يدويان . وليس لديهم مدافع هاون . هذا شيء طيب . على فاربر ان ينقض من اليسار على الصهاريج مباشرة . اما انا فعبر الطريق مطوقا الصهاريج من اليمين . مدافعهم الرشاشة تطلق نيرانها مباشرة ، ويجب ان اركض عبر الطريق ، وبعده بحذاء الجدار الحجري .

ويزحف فاربر مبتعدا عني ، بطريقة سيئة ، على جنبه ، ويتحامل على الجانب الأيمن .

تصطدم بعض الطلقات بعربة القنطاس فوق رأسي تماما . وينساب خيط دقيق مقوس من الكيروسين فوق القضيب أمامي ، واشعر على وجهي بقطرات دقيقة كرذاذ رشاشة العطور . وينطلق صاروخ اضاءة . فيضيئ الصهاريج والحظائر والجدار الحجري . ترقص الظلال بصورة غير طبيعية وهي تقصر وتستطيل . ويسقط الصاروخ في مكان ما خلفنا ، واسمع حفيفه اثناء احتراقه .

آن الأوان . . . أدس اصابعي في فمي ، فقد فقدت صفارتي قرب كوبيانسك . لست ادري لماذا يبدو لي ان أحدا غيري بجواري هو الذي يصفر .

أركض نحو الصهريج ذي الفتحات الثلاث مباشرة . أسمع صياحا عن يميني ويساري ، وتطلق البنادق الآلية . وتصطدم بركبتي خزانة البندقية التي دسستها في جيبي . ويركض أمامي شخص ما يرتدي قبعة البحارة التي يهفهف شريطاها في الهواء . ولا استطيع اللحاق به . وتختفي عن ناظري الصهاريج ،

ولا أرى غير الشريطين . انهما طويلان جدا ، وربما يصلان الى الوسط .

وأصرخ انا بدوري بكلام ما . يبدو انني اصيح «آ ـ آ ـ آ» فقط . لست أدري لماذا أشعر بسهولة وسرور في الركض ، ورعشة خفيفة في بطني من اصطكاك البندقية الآلية به . واصبع السبابة يضغط على الزناد لدرجة اشعر معها بالألم في مفاصله .

وتظهر الصهاريج من جديد ، لكنها صهاريج اخرى ، اصغر من تلك ، بها انابيب ملتوية كأنها الثعابين . الانابيب كثيرة ، ويجب ان أقفز فوقها .

الالمان خلف الصهاريج . يركضون نحونا ويصرخون ايضا . ويختفي الشريطان الاسودان . ويظهر مكانهما معطف رمادي وفم مفتوح . ثم يختفي ايضا . صدغاي يدقان ، ولسبب ما أشعر بألم في فكي .

لم اعد أرى الالمان .

امامي بوابة بيضاء بشبكة حديدية . سأركض حتى أبلغها فأجلس ، ثم أتابع بعد ذلك . . . ولكنني لا أستطيع التوقف . البوابة اصبحت خلفي ، وامامي طريق مسفلت وابنية ما .

ثم أرقد على بطني ولا أستطيع ان أركب خزانة جديدة للبندقية . يداي ترتعشان . هناك شيء انحشر في خانة الخزانة .

— البندقية تلفت . . . خذ هذه . . .

يبدو انه فاليجا ، ولكن ليس لدي وقت لألتفت .

أرقد بجوار حائط حجري منخفض تمتد فوقه شبكة صغيرة الفتحات كشبكات حظائر الدواجن ، وأنظر من خلالها فأرى من جديد المانا يركضون . عددهم كبير . يركضون عبر فناء المصنع ويطلقون النار من بنادقهم الآلية السوداء وهم يثبتون مؤخراتها في بطونهم ، ويبدو هذا كمهرجان اضواء سخيف . والالمان يطلقون الرصاص المضيئ حتى اثناء النهار .

أطلق رصاص خزانة كاملة ، ثم واحدة اخرى . ويتلاشى المهرجان . ويحل الصمت فجأة . أشرب ماء من زمزمية شخص ما ، ولا أستطيع التوقف عن الشرب .

— أتراك أكلت سمكا مملحا ايها الرفيق الملازم ؟

— يقول الشخص الذي قدم لي الزمزمية ولا يزال ممسكا

بها ، وعلى جبينه تتدلى خصلة ويرتدي قميص البحارة وقبعتهم ، غير انها صغيرة ومجعدة .

وأشرب حتى النهاية . يخيل اليّ انني لم أشرب ابدا ماء لذيذا وباردا مثل هذا . أبحث عن فاليجا ، فأجده بجواري يركّب خزانة جديدة للبندقية . والى جانبه تكدست الطلقات ككومة صغيرة من الذهب . وبالقرب منه شاب مستدير الوجه يجذب بعجلة أنفاسا من عقب لفافة تبغ . ثم يبصق عليه ويدفنه في الارض .

امامنا فناء المصنع . فناء مسفلت ، املس تماما . ومن بعده كومة من الحديد وقاطرة بخارية خلفها عربات محطمة ، ثم كوخ يبدو انه كشك تحويل الخطوط ، وبه شرفة صغيرة . ووراءنا ايضا فناء — خال وكبير .

المكان سيئ جدا ، لا تستطيع ان تحفر فيه خندقا او تختبئ ، ليس هناك غير سور حجري منخفض .

من الضروري ان نحتل الكشك وكوم الحديد . هذا شيء واضح . فلن نستطيع الصمود هنا . وأصدر امري الى فاربر وبتروف اللذين يقبعان ايضا خلف الحائط عن يميني ويساري . ويضع الشاب ذو

القميص البحاري كبسولات في قنابل يدوية مستديرة ذات ضلوع كبيرة ويقول وهو يغمز بعينه السوداء المزرورة :

— نعم . . . هذا سليم . . . انني أعرف هذا الكشك . كشك ممتاز . وتحته قبو عظيم !

— أكنت هناك ؟

— جلسنا هناك طوال الليل ، حتى جاء الالمان وطردونا . كنا قد اتينا في المساء . دورية استطلاع . نبحث عن نقطة قيادة .

ويدس قنبلة في جيبه ، والاخرى يعلقها في وسطه.

ويصدر فاربر اشارة دليلا على استعداده ، ثم بعد فترة قصيرة تتبعه اشارة من بتروف . ويبدأ الالمان في اطلاق الرصاص من مدفع رشاش في مكان ما عن يسارنا . اذن فقد حفروا الخنادق ، الاوغاد ! علينا ان نسرع قبل ان ينضم اليهم الباقون .

وينحني الشاب ذو القميص البحاري كأنه في بداية سباق عدو : قدم مشدودة واخرى مثنية ، وينظر اليّ بطرف عين متوترة لا تطرف . وألمح على ذراعه ، أسفل مرفقه بقليل وشما ، يبدو انه اسمه .

وأعطى الاشارة .

ويمرق شيء ما اسود خاطف يدفع الهواء . وينهار الملاط من على الجدار . ويركض الشاب ذو القميص البحاري نحو الكشك مباشرة ملوحا ببندقيته الآلية . المسافة حتى الكشك حوالي ستين مترا ، عبر فناء أملس تماما .

وفجأة يمتلئ الفناء باناس تركض . وتصرخ . اناس خضراء وسوداء ومخططة . والشاب ذو القميص البحاري اصبح عند الكشك ، ثم يختفي خلف بابه . الالمان يطلقون النار بشكل فوضوي . ثم يكفون . ونراهم وهم يركضون خلف الكشك . من السهل التعرف عليهم من معاطفهم الواسعة ، دون حزام .

يحدث كل هذا بسرعة مذهلة حتى انني لا أستطيع ان أفهم شيئا . المكان حولي خاو ، ليس هناك الا انا وفاليجا . وعمرة ملقاة على الأسفلت .

ونمر خلال الشبكة ، ونركض نحو الكشك محنيين ظهورنا . هناك ثلاثة او اربعة قتلى في الفناء ، كلهم منكفئون ، لا ترى وجوههم .

بجوار الكشك خندق طويل تضيع نهايته بين اكوام الحديد . أقفز فيه ، وأجد شخصا ينقب في جيوب جثة جندي الماني :

— ماذا تفعل ؟

ودون ان يعتدل يستدير الجندي برأسه نحوي . عينان رماديتان صغيرتان في وجه اسمر تكسوه البثور ، تحدقان فيّ بدهشة :

— ماذا أفعل ؟ . . أجمع الغنائم . . . — ويدس شيئا ما في جيبه بعجلة ، وتتعثر اصابعه في سلسلة . يبدو انها ساعة .

— انصرف ، واياك ان أرى وجهك هنا !

ويدفعني احدهم في كتفي قائلا :

— انه جندي استطلاع من جنودي ايها الملازم . ترفق قليلا .

ألتفت فأجد الشاب ذا القميص البحاري يضع لفافة في فمه . عيناه ضيقتان خبيثتان ، تلمعان من تحت الخصلة .

— ومن تكون انت ؟

— انا ؟ — وتزداد عيناه ضيقا وتقفز على خديه

الاسمرين الخشنين كرتان منتفختان ـ انا قائد جنود الاستطلاع المشاة واسمي تشوماك .

وبحركة من شفتيه لا تلحظ انتقلت اللفافة من احد طرفي فمه الى طرفه الآخر .

ـ اوقف هذه الفوضى حالا . مفهوم ؟

أقول هذا ببطء وبهدوء مفتعل . وأتابع :

ـ اجمع رجالك وعين الحراس . بعد ربع ساعة بلغني . واضح ؟

ـ ومن انت حتى تصدر الأوامر ؟

ـ هل سمعت ما قلته ؟ انا ملازم وانت رقيب . وكفى . وأمنع جنودك من جمع الغنائم حتى آذن لكم .

ولا يرد، بل يحدق فيّ . وجهه ضيق وشفتاه رقيقتان مضمومتان بقوة . وخصلته المائلة تكاد تمس عينيه . يقف مباعدا بين قدميه ، داسا يديه في جيبيه ويتمايل قليلا الى الامام والى الخلف .

وهكذا نقف ويحدق كل منا في الآخر .

اذا لم يستدر وينصرف فسأسحب مسدسي .

تسيك ـ تسيك . . . رصاصتان تصطدمان بجدار الخندق بيني وبينه فأجلس بسرعة على اطراف

قدميّ . احدى الرصاصتين تدور تحت قدميّ ، اذ يبدو انها ارتدت بعد اصطدامها بجسم صلب . اما الرقيب فلم يتحرك من مكانه . شفتاه الرقيقتان ترتعشان قليلا وتلوح في عينيه سخرية ويقول :

ـ الاحوال لا تروقك ايها الملازم ، هه ؟

ويدفع عمرته الصغيرة من مؤخرة رأسه فيسدلها على عينيه بحركة كسولة معتادة ، ويستدير ببطء وتمهل ثم يبتعد وهو يتمايل قليلا . عجيزته بارزة قليلا ومحشورة في السروال .

يسحب جنديان مدفعا رشاشا في الخندق بصعوبة لضيقه فأصرخ فيهما :

ـ ماذا تفعلان هنا سوى سد الطريق ! ـ ويغيظني انهما صامتان ، يطرفان بأعينهما .

ولكي يخليا لي طريقا للمرور يقفان ويلتصقان بالجدار .

ـ لماذا تقفان ؟ واصلا سحبه .

وينقضان على الرشاش فورا ويحاولان دفعه الى الامام ، اما انا فأقفز من فوقه وأواصل سيري في الخندق .

ويصل الى سمعي صوت أحدهما يقول :

ـ كأنه وحش اطلق سراحه . . .

وأنعطف الى اليمين . لقد بدأ الجنود في حفر الخنادق . بتروف يتململ ويصيح بالجنود ولا يستطيع نصب الرشاش ، فهو ينزلق كل مرة .

بتروف شاب صغير ، يبدو انه تخرج حديثا من المدرسة الحربية ، رقبته نحيلة ، يرتدي حذاء طويلا فضفاضا ينزلق على ساقيه .

ويسألني بعد ان وضع تحت الرشاش صندوقا :

ـ ما رأيك ايها الرفيق الملازم : هل هذا حسن ؟ ـ وينظر اليّ بعينين متسائلتين ، زرقاوين الى درجة لا تحتمل .

ـ لا بأس .

ـ والرشاش الثاني هناك ، خلف ذلك المنعطف . أتريد ان تراه ؟ من ذلك الموقع تستطيع ان ترى المتراس كله .

ونتوجه الى هناك . فعلا ، الرؤية جيدة . الالمان قابعون خلف المتراس ، احيانا نلمح خوذاتهم .

أجلس القرفصاء وأكتب بلاغا حربيا : السرية

الرابعة والخامسة وفصيلة الاستطلاع المشاة شغلت مواقعها الدفاعية في الضاحية الغربية لمصنع المنتجات المعدنية . عدد الرجال : كذا ، والذخيرة : كذا ، والرقم الثاني أكتبه في البلاغ اقل من حقيقته ، مع انه من الصعب ان نتوقع امدادات اليوم .

ولا يكاد الجندي سيدوركو الذي حدثني عنه كليشينتسوف ـ وهو شخص نشيط ضيق العينين يشبه صبيا صينيا ـ يدس البلاغ في عمرته حتى يبدأ الالمان هجومهم .

تظهر الدبابات الالمانية من مكان ما . ست دبابات تزحف من الناحية اليمنى ، من وراء متراس الخط الحديدي . يبدو ان هناك جسرا لا يرى من ناحيتنا . ليس لدينا سوى اربع بنادق مضادة للدبابات وحوالي عشرين قنبلة يدوية . وهذا كل ما هنالك . أين اختفى المدفع ؟ لقد نسيته تماما . أمن المعقول ان الجنود هربوا به مرة اخرى . . . الأمل كله الآن في كوم الحديد ، ربما لا تستطيع الدبابات عبوره .

بجواري مدفعجي دبابات اسمر الوجه ، ذو شوارب شقراء مبرومة ، تضفي عليه مظهر الشجاعة .

يشعر بالحر فيخلع ملابسه تدريجيا : السترة الثقيلة ، ثم البزة العسكرية ، ثم القميص ، ويبقى عاريا ، يلمع ظهره الاملس الابيض لدرجة مذهلة .

الخندق ضيق وغير مريح ، والجنود لا تكف عن الزحف فيه ، وتصطدم ركب بعضهم باجساد البعض الآخر فينهال السباب .

الدبابات تتجه نحونا مباشرة . . .

ليس لدينا تليفون ، وهذا أمر سيئ ، فمن الصعب معرفة ما يدور في الاماكن الاخرى .

تقف الدبابات عند كوم الحديد وتطلق نيرانها ، فتسقط قذائفها في مكان ما خلفنا . يبدو انها تطلق قذائف غير متفجرة لاننا لا نسمع صوت انفجارات . أسمع صوت تشوماك من جهة اليمين يأتي حادا ، من حلقه . يصرخ لمن يدعى بـ « فانيوشكا » لكي يرسلوا له قذائف مضادة للدبابات .

— تجدها هناك في القبو ، في الركن ، بجوار غلاية الشاي . . .

احدى الدبابات تتمكن من عبور الكوم الحديدي وهي تقرقع بجنازيرها وتميل على كلا جانبيها ثم تزحف

نحونا مباشرة . ويبدو الصليب الاسود الكريه واضحا . ويصوب مدفعجي الدبابات شبه العاري بندقيته ، وقد باعد بين قدميه وثبت مؤخرته في جدار الخندق . وانزلقت عمرته من فوق رأسه فبدت في رأسه الحليق دائرة بيضاء لم تلوحها الشمس كظهره .

أترى سيصيب الدبابة ام لا ؟

الصليب يقترب اكثر فاكثر . . .

يصرخ احدهم في اذني تماما ، ولكني لا أميز شيئا .

— ماذا هناك ؟

— الالمان يلتفون حولنا من الجانب الأيسر . مشاتهم توجهت من جانب القاطرة الأيسر . . .

لماذا تصمت الرشاشات ؟ لدينا هناك اثنان . وأجري في الخندق . بتروف وشخص ما بجوار الرشاش . الرشاش تعطل وشريط الطلقات لا يمر .

— ولماذا يصمت الرشاش الآخر ؟

وتكاد عيناه الزرقاوان كعيني طفل تذرفان الدمع :

— والله ، لا اعرف . منذ خمس دقائق . . .

— القنابل ! هات القنابل !

الرصاص يصفر فوق رؤوسنا تماما .

ألقى بالقنابل الواحدة تلو الاخرى . انها قنابل المانية الصنع ذات مقابض طويلة . انزع الكبسولة ثم ألقى بها عبر حاجز الخندق . الالمان قرب الخنادق بالذات . اسمع صراخا . . .

لماذا لا يعمل الرشاش ؟

ـ آ ـ آ ـ آ ـ آ . . .

ويسقط فوقي شيء ما . . . أدفعه عني جانبا وأضربه بالقنبلة فليس في يدي شيء آخر . ويتكوم شيء ما ثقيل على ارض الخندق . ثم أقذف بأربع قنابل ، آخر ما لديّ . ليس هناك غيرها . أين بندقيتي الآلية ؟ يا للشيطان !

أريد ان أخرج المسدس من القراب فيشتبك بالحزام ، ولا يخرج ابدا . . . يا للشيطان !

وفجأة . . . يسود الهدوء . . .

عند قدمي يتمدد شخص ما في معطف رمادي وقد انكفأ على وجهه في ركن الخندق . لا أحد امام الخندق . أترانا نجحنا في صد الهجوم ؟

أركض عبر الخندق عائدا . الجنود يحركون

ترابيس البنادق . كل شيء كما كان عليه . بتروف يقف بجوار الرشاش .

ـ كله تمام ايها الرفيق الملازم . الرشاش يعمل .

وتضحك عيناه الزرقاوان بمرح الأطفال .

ـ أرأيت كيف حصدناهم ؟ هربوا فورا .

ويستدير نحو الرشاش ويطلق دفعة ، فتهتز رقبته النحيلة . يا لها من رقبة نحيلة تستدر الشفقة ! وبها غور عميق في المؤخرة ، وياقة المعطف فضفاضة فتتأرجح داخلها رقبته كعود جاف . وربما كان يقف هكذا من عهد قريب امام السبورة يطرف بعينيه الطيبتين الزرقاوين ، ولا يدري بم يجيب على سؤال المدرس .

ـ ولماذا لم يعمل الرشاش الآخر ؟ أليس تابعا لك على ما أظن ؟

ويخفض بصره خجلا :

ـ سأذهب الآن لأعرف الخبر ايها الرفيق الملازم .

وينهض معتمدا على ماسورة الرشاش . ذراعاه ايضا نحيلتان ، يغطيهما النمش كأذرع الاطفال .

— يبدو لي . . .

وتتوقف نظرته فجأة كمن رأى شيئا طريفا للغاية ، ثم يتراخى ببطء ويميل جانبا ويجلس على ارض الخندق .

لم نسمع حتى صوت الطلقة . لقد اصابته الرصاصة في جبينه ، بين عينيه مباشرة .

ويسحبه الجنود ، وتصطدم رجلاه بالارض بوهن ، نحيلتان ، تتأرجحان داخل الحذاء الواسع . الآن يقف الى الرشاش جندي آخر . رقبته غليظة وحمراء . وأعين المسؤول السياسي قائدا للسرية . أتوجه نحو الكشك الابيض .

الالمان صامتون . يبدو انهم يستعدون لهجوم جديد . جنودنا يسحبون القتلى من الخندق ، فهم الآن يعوقون الأحياء . يضعونهم في خندق ضيق جانبي . يسير جنديان محنيا الظهر ويحملان شخصا ما . وأفسح لهما الطريق . ذراعاه البيضاوان الأملسان ، بكفيهما السمراوين كأنهما في قفاز ، تنسحبان على الارض . وجهه لا يرى ، يغطيه الدم . ورأسه يتمايل . على قمة رأسه دائرة بيضاء كالطاقية من أثر العمرة .

انه مدفعجي الدبابات . نعم هو بعينه . يضعونه ايضا في الخندق الجانبي فوق جندي ما في سروال ملطخ بالدم وملعقة من الألومنيوم تمتد من طرف الحذاء الطويل على ساقه .

لم أتمكن من الوصول الى الكشك الابيض ، لقد بدأ الالمان هجومهم . نصدهم . ثم يعودون من جديد . . .

وهكذا يستمر الحال حتى وقت الغداء . نستريح عشرين او ثلاثين دقيقة ، فندخن ونعمر البنادق وندس كسرة من الخبز في أفواهنا ، ونعود ثانية . نعود الى المعاطف الرمادية ، والصراخ ، وصوت الرصاص ، والهرج والمرج .

وتحلق طائرات من طراز « هينكل » ذات مرة فوقنا عاليا في كبد السماء — حتى اننا لا نلاحظها — وتقصفنا . ولكن القنابل تسقط فوق الالمان . ويضحك جنودنا .

سيدوركو لم يعد حتى الآن ، كذلك لم يعد الجنديان اللذان ارسلتهما بعده . ربما تعرضوا للقصف . ازيز المحركات لا يخفت في السماء ، ويبدو من

البرج واضحا كيف تنتشر سحابة بيضاء فوق الشاطئ .

بعد الغداء بدأت مدفعيتنا قصفها من مكان ما . وركزت ضربها على المتراس . وتسقط بعض القذائف الطائشة فوق خنادقنا . ولكن الالمان لا يتراجعون . بيد انهم لا يهاجمون بالدبابات . وتلك الدبابة ذات الصليب وقفت فوق كوم الحديد ، فقد اصبناها . مدافع الهاون الالمانية تؤذينا . في صفوفنا قتلى وجرحى كثيرون . ارسلنا ذوي الاصابات الخفيفة الى الشاطئ ، اما ذوو الاصابات البالغة فقد نقلناهم الى القبو اسفل الكشك ، وهو قبو فسيح مسقوف بالخرسانة المسلحة .

في حوالي الساعة التاسعة مساء تخور قوى الالمان . وفي العاشرة يعم السكون . وفي بعض الاحيان فقط تزمجر الرشاشات .

٢٠

الجو في القبو مشبع بالدخان الى درجة لا تحتمل . الدخان يمتد طبقات فوق بعضها ، والفتيل المشتعل في طبق به زيت يرسل ايضا دخانه . الجرحى

مكدسون في القبو ، يطلبون ماء ، وليس لدينا ماء ، فنضطر الى جلبه من الفولجا ، لكن الجنود يشربونه في الطريق .

فاليجا يقدم لي قطعة من الخبز والشحم . ألوكهما دون اية شهية .

يحضر تشوماك في قميصه البحاري الممزق ، ويبدو مشعثا . يجلس على الطاولة دون ان ينظر اليّ . ثم يخلع القميص . يبدو على صدره الأسمر ذي العضلات وشم ازرق يمثل نسرا يمسك في مخلبيه بامرأة ، وتحت ثديه الايسر قلب مطعون بخنجر ، وعلى كتفه جمجمة وعظام واسفل مرفقه فتحة صغيرة نافذة الى الجانب الآخر من ذراعه تكاد تخلو من الدم . لكن عظمة الذراع فيما يبدو سليمة ، فكفه تعمل . وماروسا الممرضة ذات الوجنتين المتوردتين والخدين المنتفخين ، والجديلتين الشقراوين المعقوصتين الى الخلف ، تضمد له جرحه .

لقد دمر جنود الاستطلاع دبابتين اليوم . واحدة اصابها تشوماك ، والاخرى اصابها ذلك الجندي ذو البثور ، الذي تشاجرنا بسببه .

وأسأل تشوماك لماذا لا يقدم لي بلاغه .

— وعم أبلغك ؟

— عن اليوم . عن الخسائر . لدينا في الجيش نظام التبليغ بعد المعركة .

و يستدير تشوماك ببطء . لا أرى وجهه . يلمع ظهره المبلل بالعرق ذو التجويف الغائر الممتد بطول عموده الفقري .

— كان اليوم كما رأيت بنفسك صحوا . اما عن الخسائر — فأية خسائر ؟ فقدت اليوم عمرتي . هذا كل ما هنالك . ألديك اسئلة اخرى ؟

— نعم . فقط ليس هنا . فلنخرج دقيقة .

— في الخارج رصاص ، وربما نقتل .

وأبتلع هذه الغمزة وأتوجه الى باب الخروج . ويتبعني .

ويرتكز بكتفه على قائم الباب الأعلى ويمضغ لفافة التبغ ويقول :

— اسمع ايها الرفيق الملازم . تعال نتكلم بسلام . لا تمس جنود الاستطلاع . أقسم لك ان هذا سيكون أفضل .

— أفضل أم أسوأ ، تلك مسألة أخرى . كم رجلا لديك ؟

— اربعة وعشرون . كانوا هكذا ، وظلوا هكذا . وأنصحك ألا تمس . . .

— من الذي دمر الدبابة ؟

— أليس الأمر سيان ؟

— انت دمرتها ؟

— حسنا ، انا . . . ليس انت على كل حال . . .

— قل لي كيف دمرتها .

— أقسم لك اني أريد ان أنام . فلنتحدث عن الدبابات بعد الحرب .

— أنصحك ان تتذكر انني هنا في محل قائد الكتيبة .

— ومن أين لي ان أعرف ؟

— ها أنذا أقول لك .

— قائد الكتيبة هو كليشينتسوف ، وبالاضافة الى ذلك فانني تحت إمرة قائد الفوج ورئيس جنود الاستطلاع فقط .

ـ ليسا الآن هنا ، ولذلك فعليك ان تتلقى مني الأوامر . انني نائب قائد الفوج لشؤون الهندسة .

ويتطلع تشوماك اليّ بجانب عينه الحادة .

ـ أأنت بدلا من تسيجيكين ؟

ـ نعم ، بدلا من تسيجيكين .

فترة صمت . ثم يبصق .

ـ حسنا . . . نحن دائما متجاوبون مع رجال سلاح المهندسين .

ـ آمل ان يكون الأمر كذلك في المستقبل .

ـ آمل .

ـ والآن حدثني عن الدبابات . ما اسم ذلك المقاتل الذي حطم الدبابة الثانية ؟

ـ كورف .

ـ أهو جندي عادي ؟

ـ عادي .

ـ هل هذه اول دبابة يحطمها ؟

ـ كلا رابع دبابة . الثلاث الاولى حطمها قرب كاستورنايا .

ـ هل أُنعم عليه بنيشان ؟

ـ كلا .

ـ ولماذا ؟

ـ الشيطان يعرف لماذا . لقد رفعنا تقريرا بذلك . . .

ـ سلمني بعد ساعة تقريرا عنه ، وعن الآخرين ايضا . مفهوم ؟

وينتهي حديثنا عند هذا الحد . كان يدور بنبرة تحفظ شديد .

ـ أتسمح لي بالانصراف ايها الرفيق نائب قائد الفوج لشؤون الهندسة ؟

لا أرد وأهبط الى اسفل . جسدي كله مضعضع ، وعينايّ تؤلماني ، ربما بسبب الدخان . دخان السجائر يملأ القبو بصورة رهيبة .

اكتب بلاغا . فاربر ينام بجواري وقد توسد ذراعه . كان قد أتى للحظة واحدة ليأخذ تبغا ويبلغني بالخسائر ، فنام بجوار علبة السجائر وفي يده لفافة لم يدخنها للنهاية . شخص ما يتحدث بصوت منخفض

في الركن ويجذب انفاس لفافة ، لا تصلني من حديثه الا عبارات متفرقة .

ـ وفي هذا الوقت انحشرت رصاصة في بندقيتي ، فأخرجتها بضربة من كعب حذائي . ثم طلبت من بافلنكو رصاصا ، واذا به ممدد ، وجهه في الارض ، وشيء ما رمادي يسيل منه . . .

وفجأة يظهر إيجور . يقف امامي وهو يضحك . شاربه ليس صغيرا ، أسود كما كان ، بل مبروم على جانبي فمه بطريقة متهورة كشارب مدفعجي الدبابات اياه . واسأله كيف جاء الى هنا . فلا يجيبني بل يضحك ، وعلى صدره نسر ازرق يمسك في مخلبيه بامرأة ، وهذا الوشم ليس على جلده بل على السترة مباشرة . والنسر يزر عينيه ويضحك هو الآخر . لا بد ان يكف عن ضحكه هذا ، يجب نزعه من على السترة ، وأمد يدي ، لكن شخصا ما يمسكني من كتفي ، ويهزني :

ـ ايها الملازم . . . ايها الملازم . . .

وأفتح عيني .

أرى وجها غير حليق ، وعينين رماديتين باردتين ،

وانفا مستقيما بارزا . شعره مطوى تحت العمرة . وجه عادي مرهق . لكن برودة عينيه شديدة بعض الشيء .

ـ أستيقظ ايها الملازم ، ستحرق شعرك .

الطبق ذو الفتيل المشتعل بجوار رأسي تماما يرسل دخانا لا يحتمل .

ـ ماذا تريد ؟

ويخلع الشخص ذو العينين الرماديتين عمرته ويضعها بجواره على الطاولة .

ـ اسمي ابروسيموف . انا رئيس هيئة اركان الفوج .

أقف .

ـ اجلس . هل انت الملازم كيرجينتسيف ؟ المهندس الجديد الذي حل محل تسيجيكين كما فهمت من بلاغك ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ويمسح وجهه وعينيه بيديه ، ويظل فترة لا يطرف يحدق في الفتيل المتصاعد منه الدخان . وأحس انه مرهق للغاية مثلنا .

وأقدم له تقريرا عن الحالة . يصغي اليّ باهتمام دون مقاطعة وينقب بظفره في سطح الطاولة .

— تقول ان بتروف قد قتل ؟

— نعم . يبدو ان قناصا اصابه ، في جبينه مباشرة .

— هكذا . . . — ويعض شفته العليا باسنانه السفلى .

— الخسائر بشكل عام كثيرة للغاية . خمسة وعشرون قتيلا ، والجرحى حوالي خمسين . تعطل احد الرشاشات بعد اصابة ماسورته بشظية .

— ومن جيرانكم ؟

— عن يسارنا الكتيبة الثانية من فوجنا . اما عن يميننا . . .

أحاول التذكر . لقد اخبرني فاربر ، لكنني نسيت .

— عن يميننا الفوج الخامس والاربعون ايها الرفيق النقيب . — يرد تشوماك . انه يقف قريبا منا وقد دس يديه في جيبه . — لقد جاءنا مندوب منهم ، وقمت معه بتحديد نقطة الالتحام بيننا .

— الخامس والاربعون . . . — يقول ابروسيموف شاردا ، ثم يقف ويزرر ازرار السترة الثقيلة :

— حسنا يا كيرجينتسيف . هيا بنا نتفقد خطوط الدفاع وبعد ذلك ، بعد ذلك سيتعين عليك ان تتسلم قيادة الكتيبة .

ويحدق فيّ باهتمام ، كأنه يريد ان يعرف قيمتي . ويزرر ازراره ، وهي كبيرة لا تدخل في الفتحات .

— قائد الكتيبة كليشينتسوف قتل . اصابته قنبلة اصابة مباشرة . سيكون عليك ان تتولى القيادة موقتا . ما العمل ؟ . .

ثم يستدير نحو تشوماك :

— قطعت ساق الكيميائي ونقلناه الى الضفة الاخرى . هيا بنا يا المهندس ، او بالأحرى ، يا قائد الكتيبة .

وفقط عندما نخرج ألاحظ جنديين من جنود الاشارة يعملان في الركن، وفي عمراتهم نجوم مصنوعة من صفيح علب المأكولات المحفوظة .

نصعد الى أعلى . عند مدخل القبو حارس . انني الآن أعرفه . اسمه كالابين . على خده خال كبير . وهو قناص جيد . قتل اربعة امامي . اصله من مكان قرب كوستروما . وزوجته تنتظر مولودا .

الجو في الفناء بارد قليلا . واملأ رئتي بهواء الليل المنعش . السماء صافية مليئة بالنجوم . نجوم الدب الاكبر ساطعة ، تميل فوق تل ماماي . وفوق رؤوسنا تئز طائرة خفيفة من طراز « او — ٢ » برتابة مثل ازيز الموتوسيكل وكأنها ثابتة في مكانها . وأحدق فألمح هيكلها . انها تتجه نحو تل ماماي . وعن يميننا ، يبدو فوق مصنع « اكتوبر الاحمر » ، ترتفع صواريخ الإنارة ، حوالي عشرة صواريخ ، ويسقط منها الشرار كالمطر الذهبي . ليس هناك اي ضرب . الجو هادئ .

نسير عبر الخندق . اشباح ملتفة بالمعاطف ، والبنادق على حواجز الخندق . الطائرة « او — ٢ » تقصف مكانا ما وراء تل ماماي ، ونرى لهيب الانفجارات . الكشافات الالمانية تتحسس السماء . الدبابات الالمانية المحطمة ما زالت تحترق (لقد

حطمنا ثلاث دبابات هذا اليوم) ويترسب فوق خنادقنا دخان كريه خانق ، فالهواء يهب في اتجاهنا .

أودع النقيب عند طرف جناحنا الايسر بجوار فتحة في الجدار ، بعدها تأتي مواقع الكتيبة الثانية .

— خذ حذرك ايها القائد ولا تخيّب ظننا . غدا « مهرجان » آخر . . . لكننا سنرسل لك الذخيرة . وفي الصباح تكون المدفعية قد وصلت . فالقتال ، والمدافع الى جانبك ، يصبح مبهجا مع ذلك .

وينصرف مع جندي الاتصال قاصدا المباني المهدمة . يبدو ان مركز قيادة جارنا هناك .

نراهما بعض الوقت وهما يقفزان فوق كوم الحديد ، ثم يختفيان عن انظارنا .

أميل على حاجز الخندق وأنظر ناحية الالمان . السكون والظلام يخيم عندهم . في موضع واحد فقط يلوح شيء يشبه ضوءا ، يومض ثم ينطفئ . يبدو انه مراقب غير حذر يدخن . وربما كانت مجرد نار تحترق .

يا له من هدوء !

وغدا « مهرجان » جديد . الطائرات ، والصراخ ، والرصاص .

لقد صمدنا اليوم مع ذلك . لم يستطع الالمان زحزحتنا إلا في موضع واحد ، عند فاربر . في اقصى جناحنا الأيمن . زحزحونا حوالي اربعين مترا . سأضطر الى ارسال الملازم ذي الانف الاحدب مع فصيلته الى هناك . يبدو ان اسمه راموف على ما أظن ، ويخيل اليّ انه شاب مقاتل . لقد اعجبني اليوم . وفي حوالي الثالثة نقوم بهجوم مضاد . . .

أتوجه الى القبو .

عند الكشك حارس آخر ، صغير الحجم ، يرتدي مشمعا طويلا يلامس الارض . لا أعرف هذا الجندي .

جنود الاشارة يسبون في التليفون :

— يا مرمر ! انا الجرانيت . هل تسمعني ؟ يا مرمر ، يا مرمر ! ابن الكلب ، لقد خرج ليدخن مرة ثانية . يا مرمر ، يا مرمر ، يلعن ابوك . . .

ألمح قشا اصفر في الركن . هذا بالطبع من

صنع فاليجا . سأتكوم فوقه الآن . سأنام ساعتين ، ساعتين كاملتين . سأنام كقتيل .

— ايقظني يا فاليجا في الثانية . في الثانية والربع .

لا أسمع اجابة . أدس وجهي في بطن شخص ما ، طري ، دافئ ، تفوح منه رائحة العرق وأغيب في سبات عميق .

الجزء الثاني

١

لا أذكر خريفا مر بي طوال حياتي مثل هذا الخريف . لقد كان شهر سبتمبر صحوا سماويا ، دافئا كشهر مايو ، اوقات الصباح خلابة ، واوقات المغيب بنفسجية حزينة . كل صباح تلهو الاسماك في الفولجا ، مخلفة دوائر كبيرة تتلاشى رويدا على سطح النهر الأملس . وفي كبد السماء تحلق اسراب البجع التي تأخرت عن موسم الهجرة ، مرسلة صياحها . ويتحول الشاطئ الأيسر من اللون الاخضر الى الاصفر ، ثم يميل الى اللون الأحمر الذهبي . وفي الفجر ، وقبل ان تدوي اولى طلقات مدافعنا ، يبدو هذا الشاطئ وقد غطاه ضباب الفجر الشفاف هادئا وعريضا

تلوح فيه خطوط الغابات البعيدة ، كلوحة رقيقة مرسومة بالألوان المائية .

ويذوب الضباب ببطء وتراخ ، ويظل فترة من الزمن ساكنا فوق النهر كتلك الغلالة التي تكسو سطح اللبن ، ثم يختفي ويذوب في هواء الصباح الشفاف .

وقبل ظهور اشعة الشمس بكثير تدوي اولى طلقات المدافع الثقيلة ، ويندلح صداها في ايقاع منغم فوق الفولجا الذي لم يستيقظ بعد . ثم تتبعها الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، واخيرا تختلط كلها في هدير أصم مهيب ، هو لحن المدفعية الصباحي .

هكذا يبدأ يومنا . ومع بدايته . . .

في السابعة تماما ، تظهر طائرة المانية من طراز « الاطار » وتحلق على ارتفاع شاهق حتى أن العين تدركها للوهلة الاولى . ويلمع زجاج كابينة طيارها في اشعة الصباح المائلة وهي تحلق فوقنا طويلا ، وبعناية . ويثر محركها ذو الصوت الخاص المتقطع بملل ، ثم تطير ببطء عائدة الى قواعدها في الغرب وكأنها سمكة خرافية بذيلين .

هذه هي البداية .

بعدها يأتي « المغنون » . و « المغنون » او « الموسيقيون » كما نسميها نحن ، او « شتوكاس » كما يسميها الالمان ، هي طائرات حمراء الأنوف ذات مخالب ، كأنها طيور تستعد للانقضاض . وتطير بطريقة مائلة في سلسلة منحنية عبر سماء الخريف الذهبية بين انفجارات قذائف المدافع المضادة للطائرات .

ونفرك عيوننا بعد الاستيقاظ ونسعل بعد سيجارة الصباح ، ثم نخرج من خنادقنا المسقوفة ونتطلع وعيوننا مزرورة الى اول سرب الماني . فهو الذي يحدد مسار المعركة طوال اليوم ، ومنه نعرف اي مربع حدده الالمان لتترجرج اليوم ارضه كقطعة من « الجيلي » ولا ترى منه الشمس عبر الدخان والغبار ، ذلك المربع الذي سيعملون فيه طوال الليل في دفن القتلى واصلاح الرشاشات والمدافع المعطوبة وحفر خنادق جديدة بدلا من تلك التي تهدمت وانمحت من على وجه الارض .

وعندما يمر السرب فوق رؤوسنا مواصلا طيرانه نتنفس الصعداء ، ونخلع قمصاننا ويصب كل منا لزميله الماء في راحتيه .

اما عندما تبدأ طائرة المقدمة بالميل على جانبها الأيمن قبل ان تصل الى مواقعنا ، نسارع بدخول الخنادق الضيقة ، ونسب ونتطلع الى ساعاتنا — يا إلهي ، يا ربي ! ما زال امامنا اربع عشرة ساعة كاملة حتى يجيء المساء ! ونزر اعيننا ونحصى القنابل المتساقطة فوق رؤوسنا . نحن نعرف ان كل « مغنية » تحمل تحت بطنها من ١١ الى ١٨ قنبلة ، وانها لن تلقى بها دفعة واحدة ، بل ستقوم بدورتين او ثلاث ، وتوزع جرعاتها بطريقة اللعب على الاعصاب ، وفي الدورة الأخيرة ستعوى « السيرينة » بطريقة مرعبة ، ولن تلقى القنابل سوى طائرة واحدة ، وربما لا تلقى شيئا ، بل تلوح بقبضتها مهددة .

ويستمر الحال على هذا المنوال طول النهار ، حتى تغيب الشمس خلف تل ماماي . إما يضربوننا ، وإما يضربون جيراننا ، فاذا لم يضربوا جيراننا فمعناه ان علينا الدور . واذا لم يضربوا ، هاجموا بالجنود ، واذا لم يهاجموا بالجنود ضربوا بالقنابل .

ومن وقت لآخر تحلق في اتجاهنا القاذفات الثقيلة من طراز « يونكرس » و « هينكل » . نميزها باجنحتها

وشكل محركاتها . اجنحة طائرات « هينكل » مدورة ، اما « يونكرس » فأجنحتها مبتورة ومحركاتها على خط واحد مع المقدمة مثل عرف الديك .

تطير عاليا ، على شكل مثلث ، وتلقى بقنابلها الساطعة الثقيلة في تراخ ، وتبعثرها دون ان تكلف نفسها عناء الانقضاض . ولذلك لا نحب هذه القاذفات الثقيلة « يونكرس » ، فانك لا تعرف ابدا اين ستلقى بقنابلها . وهي تطير دائما مولية ظهرها للشمس حتى يغشى بصر من ينظر اليها .

طائرات « مسرشميت » تئز طول النهار في الجو ، وتطوف ازواجا فوق الشاطئ للاستكشاف . وتطلق النار من مدافعها . واحيانا تلقى اربع قنابل صغيرة انيقة ، تحت كل جناح اثنتان ، او تلقى صناديق طويلة كالسجائر بها قنابل مضادة للمشاة . وتسقط هذه القنابل وتتفرق ، اما الوعاء الذي يحويها فيظل يتقلب في الجو مدة طويلة ثم يسقط فنستعمله وعاء للغسيل ، فهو مكون من شقين كل منهما مثل طست الغسيل تماما .

وكل صباح ، ومع اشعة الشمس الاولى تمرق

فوق رؤوسنا طائراتنا من طراز « ايليوشن » المنقضة وهي تعوي بلا انقطاع ، ثم تعود قافلة على الفور وقد امتلأت بالثقوب وطارت ذيولها ، تكاد عجلاتها تلمس رؤوسنا . يعود نصفها ، واحيانا اقل من النصف . وتحوم طائرات « مسرشميت » الالمانية طويلا فوق الفولجا . وفي مكان ابعد ، خلف اخطوبا يتصاعد عامود حزين من الدخان الأسود يشبه نبات الفطر لطائرة محترقة .

نرفع رؤوسنا حتى نشعر بألم في عمودنا الفقري ونتابع المعارك الجوية . ولا أستطيع ان أميز ابدا طائراتنا من الطائرة الالمانية ، ولا ارى غير طائرات صغيرة سوداء تحوم في كبد السماء كالمجانين ، وحاول عندئذ ان تعرف شيئا . لكن فاليجا لا يخطئ ابدا ، فعينه حادة النظر كعين الصياد ، ويستطيع ان يميز « الميج » من « المسرشميت » على أي ارتفاع .

تمر الايام ، كل يوم اجمل من السابق ، سماوية ، صحوة ، كأنها ايام الصيف . لو تظهر سحابة على الأقل ، او يسقط مطر ! اننا نمقت هذه الايام الصحوة المشمسة ، وهذا الهواء الغارق في

الزرقة . ونحلم بالوحول والسحب السوداء والمطر وبسماء الخريف المكفهرة . ولكننا لم نر طوال شهري سبتمبر واكتوبر سوى سحابة واحدة . وتحدثنا عنها طويلا ورفعنا اصابعنا المبللة باللعاب الى السماء ، واخذنا نخمن الى اين ستتجه ، لكنها مرت جانبا ، هذه السحابة الملعونة ، وجاء اليوم التالي كسابقه صحوا مشمسا يضج بأزيز الطائرات .

ولم يعطنا الالمان فرصة للراحة الا مرة واحدة ، في بداية اكتوبر . توقفوا عن القتال يومين ، يبدو انهم كانوا ينظفون خلالهما الاسلحة والعتاد . ولم تحلّق طائراتهم فيما عدا المقاتلات من طراز « مسرشميت » . وخلال هذين اليومين غيرنا ملابسنا الداخلية ، واستحم الجنود في الطسوت . ثم بَدأ القتال من جديد .

الالمان يريدون احتلال الفولجا باي ثمن ، فيندفعون نحوه سكارى وقد ركبتهم الابالسة ، عمراتهم مائلة جانبا واكمامهم مشمرة . يقال ان القوات التي تجابهنا هم جنود الـ « اس ـ اس » من فرق الـ « فيكينج » او « الرأس الميت » او شيئا اكثر رعبا من ذلك .

يصرخون كأنهم مجانين ، ويمطروننا بوابل من الرصاص ويتقهقرون ، ثم يعاودون الهجوم من جديد .

كادوا يطردوننا مرتين من مصنع المنتجات المعدنية ، لكن دباباتهم تتعثر في نفايات الحديد المبعثرة حول المصنع ، وينقذنا هذا منهم .

ويستمر الحال هكذا لمدة . . . من يدري كم من الزمن . . . ربما خمسة ، او ستة ، او سبعة ، وربما ثمانية ايام .

وفجأة يتوقف كل شيء . الهدوء شامل . لقد تحولوا الى يميننا ، الى مصنع « اكتوبر الأحمر » ، يدكونه من الجو والارض . اما نحن فنتطلع مطلين برؤوسنا من الخنادق . ليس غير الشظايا تتطاير . والشظايا هنا هي قضبان من الحديد يزن الواحد منها عشرة اطنان وعوارض وآلات خراطة وماكينات وغلايات ضخمة . ولليوم الثالث لا تنقشع عن المصنع سحابة من الغبار برتقالية ذهبية . وعندما تهب ريح شمالية تهبط هذه السحابة فوقنا ، فنسارع الى اخراج الجنود من الخنادق المسقوفة ، لأن خط النار الالماني لا

يمكن رؤيته ، وربما استغلوا – اولاد الكلب – هذه الفرصة وانزلوا بنا ضربة .

ولكن الامور هادئة بشكل عام ، وليس هناك الا مدافع الهاون الالمانية تضربنا ، ومدفعيتنا تضربهم من الشاطئ الآخر . ونجلس بجوار خنادقنا المسقوفة ندخن ونسب الالمان والحرب والطيران ومن اخترع الطائرات . « كان بودي ان أجعل الاخوين رايت يجلسان في الخندق الضيق المجاور لأرى كيف يصرخان » . ثم نخمن متى ستسقط آخر مدخنة في مصنع « اكتوبر الأحمر » . اول امس كانوا ست مداخن ، وبالامس صاروا ثلاث ، واليوم بقيت واحدة ، مليئة بالثقوب ، مجدوعة القمة . تقف غير عابئة بشيء ولا تسقط كيدا في الكل . . .

هكذا يمر سبتمبر ؟

والآن اكتوبر ؟

٢

يستدعيني « مرمر » لمخاطبة « رقم ٣١ » اي قائد الفوج الرائد بورودين . لم أره من قبل . مقره

هناك على الشاطئ ، حيث هيئة الاركان . في ساعة الانزال مر مدفع على قدمه فأصيب بالتواء فيها ، ولذلك لم يزر بعد الخطوط الامامية .

كل ما أعرفه ان صوته غليظ خفيض ، ولست أدري لماذا يسمى الالمان اتراكا . ويرن في اذني صوته عبر سماعة التليفون : « اصمد يا كيرجينتسيف ، اصمد ، لا تسلم المصنع للأتراك . تحامل على نفسك ولا تسلم المصنع » . وأتحامل على نفسي بكل ما أستطيع وأصمد ، وأصمد ، وأصمد . واحيانا لا أفهم لماذا انا صامد حتى الآن ، ومع كل يوم يتناقص عدد الجنود .

لكن كل هذا تركناه الآن خلف ظهورنا . اليوم هو ثالث يوم نرتاح فيه ، حتى اننا نخلع احذيتنا قبل ان ننام . ولكن ، أيستمر ذلك لفترة طويلة ؟

وعلى العموم لا داعي للتخمين . آخذ معي فاليجا ونتوجه نحو الشاطئ .

الرائد يقطن خندقا مسقوفا ضيقا كعشة الفراخ ، عرته الريح . وهو متقدم في السن ، صدغاه اشيبان ، هيئته طيبة كأب . يرتدي في احدى قدميه حذاء

طويلا ، وفي الاخرى خفا من المطاط ويتناول الشاي مع الخبز والثوم . ويتنهد . الناس من طرازه يحبون الاطفال ، والاطفال يحبونهم ايضا ، وتعوقهم عن العمل وتدغدغهم وتجبرهم على ان يؤرجحوهم على ركبهم .

يصغي اليّ الرائد باهتمام وهو يشرب الشاي في صخب من كوب كبير منقوش ، ويزحزح الكرسي القائم بجواره بقدمه السليمة ، ويمد لي كفا كبيرة طرية .

— اذن فهكذا تبدو . لست أدري لماذا كنت أتخيلك كبيرا ، عريض المنكبين . — وصوته بعيد تماما عن ذلك الصوت المرعد الثقيل الذي يدوي في سماعة التليفون . — هل تريد شايا ؟

وأقبل الدعوة ، فلم أشرب شايا حقيقيا منذ زمن طويل .

يحمل جندي المراسلة الغلاية وكوبا كبيرا ومنقوشا ايضا . ويقطع شريحة من الليمون بموسى يدوية . ويجري لعابي . ويغمز لي الرائد بعين صغيرة غائرة :

— أترى كيف نعيش ، لا مثلكم هناك في الخطوط الامامية . نقدم الليمون للضيوف .

ونشرب الشاي صامتين بعض الوقت ، ونجرش السكر فيئز تحت اسناننا . ثم يقلب الرائد كوبه فيجعل قعره الى اعلى ويضع عليه قطعة السكر الضئيلة المتبقية ثم ينحيه جانبا وينظف الطاولة بعناية من فتات الخبز .

— حسنا ، كيف الاحوال لديك ، يا قائد الكتيبة ، هه ؟

— لا بأس ايها الرفيق الرائد ، ما زلنا حتى الآن صامدين .

— حتى الآن ؟

— حتى الآن .

— او تظن ان «حتى الآن» هذه ستستمر طويلا ؟

وتلوح في صوته نبرة اخرى ، ليست ابوية خالصة . وأقول :

— ما دام لدينا رجال وذخيرة ، فأعتقد اننا سنصمد .

— أعتقد ، ما دام ... هذه كلمات ليست

طيبة . كلمات غير عسكرية . أتعرف قصة الطائر الذي كان يفكر كثيرا ؟

— قصة الديك الرومي ، أليس كذلك ؟

— تماما ، الديك الرومي . — ويبتسم بطرف عينه . — أتدخن ؟ دخن . انه تبغ جيد ، ماركة « الحرس » على ما أظن .

ويزحزح نحوي علبة التبغ الموضوعة فوق المائدة ، ويتطلع الى الصورة المرسومة عليها ، وتمثل جنودا حمرا يرتدون الخوذات ويركضون اسفل حروف حمراء مائلة ، وخلفهم دبابات حمراء ، وفوق رؤوسهم طائرات حمراء .

— هل تهاجمون بهذه الصورة ، هه ؟

— اننا نصد الهجمات اكثر منا نهاجم ايها الرفيق الرائد .

ويبتسم الرائد ، ثم ترتسم على وجهه فجأة ملامح الجد ، وتصبح شفتاه الطريتان والذابلتان قليلا جامدتين حادتين .

— كم عدد المحاربين لديك ؟

— ستة وثلاثون .

— أهم المحاربون العاملون ؟

— نعم ، بالاضافة الى جنود الاشارة والاتصال وفصيلة الامدادات على الشاطئ . حوالي ستة اشخاص على الشاطئ الآخر مع الخيول . والمجموع حوالي خمسين ، وهناك ايضا جنود مدافع الهاون . فيصبح المجموع الكلي حوالي سبعين .

— ستة وثلاثون وسبعون . عجيب حقا ! النصف بالنصف . هذا أمر سيئ .

وأوافقه :

— سيئ . لقد أردت ان أضم الى اولئك الستة وأسلم خيولهم لمستشفى الكتيبة ، لكن مساعدك لم يسمح لي ، وقال انهم ذاهبون لجلب القش .

ويقضم الرائد طرف الغليون . غليونه كبير ، مقوس ، مليء بالعضات .

— انت مهندس ؟ نعم ؟

— مهندس معماري .

— مهندس معماري . . . تبني القصور اذن ، ومختلف المتاحف والمسارح . . . أليس كذلك ؟

— نعم .

— ستبني لي قصرا اذن . . . مهندسنا ليساجور . . . ألا تعرفه ؟ سأعرفك به . بنى لي قصرا ، لكن تشويكوف ، القائد ، احتله . ولذلك أعيش في هذا الجحر ، انفض التراب خلف رقبتي بعد كل قنبلة . — ويبتسم الرائد من جديد فتتجمع التجاعيد حول عينيه . — وبالطبع فانت تعرف الالغام وما الى ذلك من لوالب برونو ؟

— أعرفها .

— سنبحث الآن هذه الاشياء ، عندما يأتي قادة الكتائب ، اما الآن فدخن . — ويدفع نحوي العلبة بنقرة من اصبعه . — لقد طلبنا قائدا للكتيبة ليحل محلك ، لكنهم لم يبعثوا الينا به حتى الآن ، اولاد الكلب . والفوج بدون مهندس كمن فقد ذراعه . ليساجور شاب لا بأس به ، لكنه لا يفقه شيئا في الرسوم الهندسية والجداول .

في مكان ما تنفجر القنابل . لا نسمع صوتها ، لكن شيئا كريها يضغط على الآذان ، ويهتز لهب المصباح بقلق .

ثم يأتي قادة الكتائب وغيرهم من القادة .

يستمر الاجتماع فترة قصيرة ، حوالي العشرين دقيقة لا اكثر . بورودين يتحدث ونحن ننصت وننظر الى الخريطة .

ويتضح ان القطاع الذي تحتله فرقتنا هو اعمق قطاع ، عمقه حوالي كيلومترين . وعن يسارنا شريط ضيق بحذاء النهر تحتله الفرقة رقم ١٣ الحائزة على لقب فرقة الحرس ، بقيادة روديمتسيف . وتمتد حتى المدينة تقريبا ، حتى المرفأ ، على شريط متعرج ضيق لا يزيد اتساعه عن مائتي متر . والى يميننا الفرقة ٣٩ الحائزة على لقب فرقة الحرس والفرقة ٤٥ ، تحتلان قطاع مصنع « اكتوبر الأحمر » ، اذن فهما الآن تعانيان الضرب . وخط الجبهة الأحمر يمر بالضبط في البقعة البيضاء على الخريطة والتي تمثل المصنع . والى اليمين فرقتان او ثلاث . . . وهذا كل ما هنالك . كل ما تبقى على هذه الضفة . على مساحة طولها خمسة او ستة كيلومترات وعرضها حوالي كيلومتر ونصف . والكيلومتر ونصف هو اعرض مكان في القطاع . الالمان في وسط المدينة . مصنع الجرارات لا يبدو في الخريطة ، لكنه يقال ان لنا هناك

فرقة ما زالت معسكرة ، هي فرقة جوروخوف على ما أظن .

ستعبر النهر مساء اليوم اللواء ٩٢ . وهي قد حاربت من قبل في ستالينجراد . وتعود بعد ان قضت عشرة ايام في اعادة التشكيل . مواقعها بيننا وبين روديمتسيف . علينا اذن ان نتزحزح قليلا الى اليمين ونلم اطرافنا بعض الشيء . هذا شيء طيب .

لكنني سأضطر الى ان أودع مصنع المنتجات المعدنية ، فستتوجه الى هناك الكتيبة الثالثة ، وسأذهب انا الى القطاع الواقع بين مصنع المنتجات المعدنية والطرف الشرقي لوادٍ متعرج كحرف «S» في تل ماماي . اسوأ قطاع . مستوٍ ويكاد يخلو من الخنادق ، وجميع المنافذ المؤدية اليه واقعة تحت نار العدو . ولا يمكن ان يكون هناك كلام عن الاتصال بالشاطئ اثناء النهار . وكانت المنافذ المؤدية الى قطاعي السابق واقعة هي الاخرى تحت نار العدو ، لكنه كان لدينا هناك الكثير من الخنادق ومختلف انواع الصهاريج والمباني ، وكان هذا يسهل الاتصال .

نعم ، لقد حالف الحظ كانديدي قائد الكتيبة الاولى ، سيتسلم موقعا جاهزا ، اما انا . . . فلا أدري

حتى اين أقيم مركز القيادة . فليس هناك شيء يشبه كشكنا الابيض المحبب ، ذا القبو .

يتحدث الرائد ببطء وهدوء ، وزمجرة خفيفة ، ولا ينزع الغليون من فمه . ويطوف على الخريطة باصبعه القصير ذي الظفر المقصوص للنهاية .

— المهمة بسيطة ، وهي ان تحفروا الخنادق وتضربوا نطاقا من الاسلاك الشائكة وتزرعوا حولكم الالغام ، ثم تصمدوا . شهرا او شهرين او ثلاثة ، حتى يقال لكم ما يجب عمله بعد ذلك . مفهوم ؟ ليس لدينا القدرة على احتلال تل ماماي كله . لكننا لا يجب ان نسلم ما نملكه هناك .

ويرفع الرائد بصره عن الخريطة ويصوب نحوي عينيه الصغيرتين الغائرتين .

— موقفك اصعب من الآخرين يا كيرجينتسيف ، فمركز التل بين يديك . اما الجانب الآخر فبين يدي الفوج الخامس والاربعين . وسوف يحاول الالمان التقدم من هذين الموقعين ليطوقوا الكتيبة الاولى ، وكتيبتين من الفوج الخامس والاربعين دفعة واحدة . وهم ايضا على تل ماماي . ليس لدينا جنود اكثر

من ذلك ، فاعملوا حساباتكم وفقا لما هو موجود ، والتعزيزات لن تكون اكثر من ترقيع ، ويا لها من تعزيزات – مجرد صبيان صغار .

ينزع الغليون من فمه ويبصق على الارض .

– كم محاربا قديما بقي لديك يا كيرجينتسيف ؟

– حوالي خمسة عشر لا اكثر . من بينهم عشرة بحارة .

– لا بأس ، حالك افضل من سينيتسين وكانديدي . هؤلاء المحاربون القدماء هم عصب تشكيلتكم . تذكروا هذا ولا تلقوا بهم الى التهلكة . هل لديكم مجاريف ؟

بالنسبة للمجاريف فالاحوال سيئة للغاية . فعندما رحلت الفرقة بعد اعادة تشكيلها لم تتمكن من استلام المعدات الهندسية ، اما المجاريف الصدئة ، البالية التي اخذتها في الطريق من القرى فقد تحطمت في اول يومين . ليس لدينا معاول وفؤوس على الاطلاق ، وننتظر كل يوم وصول مخزن المعدات الهندسية المتنقل ، لكنه بقي على الشاطئ الآخر ، اما نحن فنحفر بما نجده وسط الانقاض من ادوات بالية .

– وعدونا اليوم بامدادات من الالغام ، ايها الرفيق الرائد . – يتكلم واقفا في احد الاركان ملازم ذقنه غير حليق ، وسترته الثقيلة مفكوكة الازرار – لقد تحدثت بهذا الشأن مع رئيس مخازن الجيش . وسوف يرسلون لنا حوالي ألف لغم مضاد للمشاة ، اما المضادة للدبابات فلن ترسل قبل اسبوع .

ويشيح الرائد له بيده – اجلس ، فانا أعرف كل ذلك .

– احفروا الخنادق الآن ، استخدموا مجاريف المشاة ما دمتم لا تملكون المجاريف الهندسية ، فما العمل ؟ لديك يا سينيتسين اكثر مما لدى الآخرين . انا أذكر ذلك ، كما ان قطاعك اسهل من قطاعاتهم . اعط نصف ما لديك لكيرجينتسيف . انتهينا . اسمع يا ليساجور . – ويقف الملازم ذو السترة الثقيلة . – سلمني اليوم مساء خريطة الاستحكامات الدفاعية . ساعده في ذلك يا كيرجينتسيف . بعد يومين سأطلب منك نفس الشيء .

ويقف ، مشيرا بذلك الى انه لم يعد هناك مبرر لازدحامنا عنده ، ويكفي اننا ملأنا الخندق دخانا حتى ليصعب التنفس .

٣

يقترب مني ليساجور على الشاطئ قائلا :

ـ اسمح لي بتقديم نفسي : انا الملازم ليساجور قائد فصيلة سلاح المهندسين من الفوج رقم ١١٤٧ ، الفرقة ١٨٤ مشاة .

صوته جهوري ، معتاد على طريقة التبليغ ، يؤدي التحية العسكرية طبق الاصول : اصابعه متجمعة ، مقدمة كتفه وراحته على خط واحد ، ويسقط يده بشدة الى اسفل في نهاية التحية . وجهه متعب قليلا ، غير حليق . عيناه تدلان على الذكاء المقرون بالمكر . اما هو نفسه فربعة ، قوي البنيان ، يبدو في حوالي الثلاثين .

ـ هل تهتم بما أبنيه ؟ انني أبني انفاق مترو حقيقية . وما زلنا نحفر لليوم الخامس .

ويمسك بمرفقي .

على بعد حوالي عشرين خطوة من خندق الرائد يحفر جنود المهندسين نفقا طويلا ، لا يقل طوله عن عشرة امتار ، في شاطئ الفولجا المنحدر . والنفق على شكل حرف T .

ويقول ليساجور شارحا :

ـ الجهة اليمنى للرائد ، واليسرى لرئيس الاركان . ثلاثة امتار في اربعة ، أتتصور ؟ والى اقصى اليسار خندق آخر لمجموعة العمليات وللقوميسير . وكان ما لدي من رجال لهذا العمل ثمانية عشر بما فيهم الرقباء . ويجب الانتهاء من كل ذلك بعد غد . أرأيت ؟

الجنود يحفرون بالمعاول في تربة الشاطئ الصلبة كالصخر . اثنان يحفران واثنان ينقلان التربة بالدلاء واثنان يدعمان السقف بالجذوع . وعلى الارض مصباح ذو فتيل . تنتشر رائحة الهباب والعرق والارض الرطبة .

يجلس ليساجور على اطراف قدميه ويسند ظهره على القوائم الخشبية ، ويشعل لفافة :

ـ لقد حفرنا غرفة مثل هذه وغطينا ارضها وسقفها بالالواح ، وجدرانها بالخشب المضغوط ، ووضعنا في الركن مدفأة صغيرة : وهذا الجندي ذو الشارب الضخم ، مساعدي في قيادة الفصيلة هو الذي صنع بيده كل شيء ـ المدفأة ومدخنتها : وهو كما يقال يجيد سبع صنع . ثم حصلنا على مصباح سعة لترين وعليه اباجورة خضراء . وعين الرائد المكان

الذي سيوضع فيه سريره . ولكن تشويكوف جاء ، وجلس على الكرسي وسأل عن سمك الارض فوق السقف ، وسمكها حوالي ١٢ مترا ، ومن ثم كان على رائدنا ان يقول الوداع لهذه الغرفة . وكان على جنود الهندسة ان يبدأوا من جديد . تلك هي الحال اثناء الحرب يا رفيقي الملازم ، اما الجنود فقليلون او كما يقال مثل دموع الهر .

ـ لقد اردت ان أستعير منك حوالي خمسة اشخاص .

ويبدو الحذر على ليساجور ، ويقول :

ـ لماذا ؟

ـ ألم تسمع ما قاله الرائد بخصوص الالغام ؟

ـ فليقم بهذا العمل رجال هندسة الفرقة ، فهم موجودون لهذا الغرض . اما اختصاصنا نحن فهو بناء مراكز القيادة ونقط المراقبة . هم مائة ونحن ثمانية عشر ، ألا يكفي اننا لا ننام الليل . ثم ، ان هذه الالغام لن ترسل الا بعد وقت طويل . . .

ـ لقد قلت بلسانك انهم عرضوا ارسال ألف لغم .

ـ ليكن انني قلت . . . وهل يعني الانسان كل ما يقوله . ان رئيس المخزن كذاب ، والا لما كان رئيس مخزن . ألا تعرف مثل هؤلاء الناس ؟

ـ حسنا ، دعنا من الجدال . جهز لي خمسة رجال لليلة الغد ، سواء كانوا من رجالك او من غير رجالك ، والباقي لا يهمني في شيء .

ويتنفس ليساجور عاليا ويعبث في الارض تحت قدميه بسكين :

ـ هكذا دائما : جهّزْ ، نظّمْ ، لصباح الغد ، لمساء اليوم . . . اما كيف أفعل ذلك ـ فلا يهم احدا . لن أستطيع خلال ليلة واحدة ان ألد لك فصيلة . انظر الى ظهور الرجال السابحة في العرق . وأنهض .

ـ حسنا ، سأضطر الى تبليغ الرائد ان جنود الهندسة مشغولون ببناء الخنادق ، وليس هناك من يستطيع التفرغ لتدعيم الاستحكامات .

وينهض ليساجور ايضا .

ـ يا لك من عنيد . . . حسنا ، لا تذهب الى الرائد . سأرسل لك الرجال . لكنهم سيبقون هناك بلا

عمل ، فأمامك اسبوعان على الاقل حتى تحفر الخنادق .

— الخنادق شيء والالغام شيء آخر . غدا مساء سأبعث بالرجال .

— لماذا ؟ ليحضروا الالغام ؟

— طبعا ، والا فلماذا أرسلهم ؟

ليساجور لا يرد . ينحني ويخرج من النفق .

— هيا بنا الى الهواء الطلق ، ما دام الجو هادئا .

الشمس تعمي الابصار . الشاطئ يبدو كعش النمل ، اناس تحفر ، واناس تسحب ، واناس تبني ، والمطابخ الملتصقة بجدار الشاطئ المنحدر ترسل دخانها ، وقمصان وسراويل داخلية نشرت لتجف ، وتلمع في الشمس جبال قذائف المدفعية النحاسية — قذائف صغيرة ، ومتوسطة ، وكبيرة ، ذات رؤوس حمراء وزرقاء وصفراء . وصناديق الذخيرة ، وأكياس ، ثم صناديق ، ومدفع محطم فقد ماسورته ، وجثة حصان منتفخة تكاثر عليها الذباب ، واختفت رجلاه الخلفيتان .

والى اليسار صندل جانح ، اختفى معظمه تحت الماء ولا تظهر الا ضلوعه ، فقد نزعت الواحه واستخدمت

في التدفئة . وعلى هذه الضلوع يجلس اربعة من الجنود يغسلون قمصانهم ، وكأنهم فراخ تقف على مجثم الطيور . يضحكون في مرح ، ويتراشون بالماء ، بينما تلمع ظهورهم العارية .

اما السماء فزرقاء ساطعة ، دون سحابة واحدة . وعلى الشاطئ الآخر تبدو كنيسة صغيرة بيضاء ذات قبة خضراء مدببة بين اوراق شجر الحور الرجّاج الذهبية . الناس هناك ايضا كثيرون ، يزحفون ويصنعون اشياء ما على الشاطئ الابيض تماما من وهج الشمس . ومن حين لآخر تنبثق دون صوت باقات بيضاء من قذائف الهاون المتفجرة ، ثم يصل بعد ذلك صوت الانفجار ، فيركض الناس في شتى الاتجاهات ، وينتظرون بضع دقائق ، ثم يعودون بعدها ليزحفوا على الشاطئ ويصنعوا اشياء ما .

قارب صغير يتأرجح قرب الشاطئ كأنه صرصار الماء . التيار شديد ، يجرفه قليلا الى اليمين ، وتضرب المجاذيف بسرعة في الماء .

يقول ليساجور :

— سيبدأ الضرب حالا . — ويخرج من جيبه

علبة كانت تحوي من قبل مسحوقا لتنظيف الاسنان ، ويلف لفافة تبغ .

بعد حوالي دقيقتين ، ترتفع بالقرب من القارب نافورة مياه بيضاء كأنها فوارة ماء حار .

ـ انظر الى هؤلاء المجانين ، يندفعون بالقارب في خط مستقيم . ـ يقول ليساجور وهو يلصق اللفافة بفمه بعد ان سكب فيها الدخان المتبعثر في راحته .

ـ انهم بهذا يرهقون انفسهم ويسهلون عمل الالمان . لو ساروا مع التيار ، لكان على الالمان ان يغيروا التصويب في كل مرة .

ويقول شخص ما خلف ظهري :

ـ اذا ساروا مع التيار فسيقعون في قبضة الالمان : ـ جنود الهندسة يستندون الى المعاول ويتابعون بعيونهم القارب هم ايضا .

تتزايد النافورات اكثر فاكثر ، اما القارب فيضرب بمجاديفيه دون كلل .

ـ مدفعجي سيئ ، ـ يقول جندي نحيل ، ضيق المنكبين يقف الى جانبي ، بلهجة الخبير . ـ بالأمس حول الزورق الى شظايا من ثالث ضربة .

ويجيبه شخص آخر أبح ، صوته منخفض ، ويتحدث ببطء :

ـ بالأمس كان الزورق اكبر من هذا خمس مرات ، حمله ثقيل ، لا يكاد يتحرك .

تنفجر قذيفة بجوار القارب مباشرة ، ويقفز القارب فوق الامواج فحسب ، وتقف حركة المجاذيف بضع ثوان ، اذ يبدو ان الركاب اختبأوا مترقبين .

ـ أليس هذا قاربنا ؟ هه ؟ أليس قارب كوروبكوف ؟ لقد ذهب الى هناك منذ حوالي ساعتين .

ـ ربما قاربنا ، من يعرف ؟ انه ايضا بأربعة مجاذيف .

ـ قارب كوروبكوف ممدد على الشاطئ منذ مدة طويلة . ثم ان قارب كوروبكوف ذو قاع مستو . يا لكم من بحارة !

ـ سيبدأ الرشاش حالا ، ـ يقول ليساجور بهدوء وهو يجذب انفاس اللفافة ويرسل حلقات من الدخان .

ـ أراهن انه سيبدأ الضرب .

وفي الحظة ذاتها تقريبا تظهر حول القارب سلسلة من النافورات الصغيرة التي تختلط ببعضها احيانا .

ويستولى الصمت على الجميع ، ويكف القارب عن التلويح بمجاذيفه .

ويتردد صوت لشخص ما خلفي :

ـ يا لهم من اوغاد . . . سيقضون عليهم . . .

على الشاطئ كله ، وحولنا ، يتابع الجميع تقريبا الزورق بانظارهم . تعود المجاذيف الى التلويح ، لا تعمل كلها ، بل مجذافان فقط ، يبدو ان احد الركاب اصيب او قتل .

وصل القارب الى منتصف النهر . وهو الآن في مقابلنا تماما . عادت مدافع الهاون الى ضربه .

ـ بقي حوالي خمسين مترا ، ثم لا يعودون يرونه من تل ماماي .

ـ هيا يا رفاق ، جاهدوا ، جاهدوا !

تبلغ كثافة الانفجارات ذروتها . حتى ليبدو غريبا وغير مفهوم انّ الزورق ما زال سليما . صحيح ان التيار يجرفه بشدة ، ولذلك لا تلاحقه الانفجارات .

شخص على الشاطئ قرب الماء يصيح بأعلى صوته :

ـ هيا ، هيا ، هيا ! . .

ويلوح بعمرته عاليا فوق رأسه .

وفجأة تختفي النافورات كأنها تلقت بذلك أمرا . تنفجر قذيفتان او ثلاث في الماء لكن القارب اصبح بعيدا عنها . ويتفرق الجنود وهم يسبون بسرور ومرح .

ويطوح ليساجور بعقب اللفافة قائلا :

ـ هكذا يجلبون لنا الطعام والذخيرة ، أرأيت ؟ بينما انتم في الخط الأمامي تصيحون : هات ، هات الذخيرة . . .

ويتضح ان الشاطئ الأيمن كله لا يملك سوى معدية واحدة ، رقم ٦٢ ، وتعمل فيها زورقان بخاريان وصندلان . وخلال الليل لا يستطيعان القيام الا بست دورات ، وعلى اقصى حد سبع دورات ، فماذا يعني ذلك بالنسبة لثمان او عشر فرق مرابطة على هذا الشاطئ ، ليس الا قطرة في بحر . ولهذا تلجأ الوحدات الى الاعتماد على جهودها الذاتية .

ويقول ليساجور :

ـ ان فوجنا يملك اسطولا كاملا : خمسة قوارب صغيرة ، وثلاثة ذات قاع مسطح ، وطوف عائم . وكانوا من قبل حوالي ١٥ قطعة ، لكن تلف جزء منها ، فهي بالية ، يتسرب اليها الماء ، والشظايا

تشطرها . اما الطوف فأصبح مثل الغربال . وثلاثة من جنودي لا عمل لهم طوال الوقت الا ترقيع القوارب .

ـ ثم ينظر اليّ بطرف عينه ـ بينما تقول لي يجب زرع الالغام . عليّ اليوم ان أرسل جنودا الى الفوج الخامس والاربعين ، فقد سرق رجاله قاربين من قواربنا . أف ! لشد ما مللت كل هذا . . . تعال معي الى مقري . . .

ونزحف على اربع كي ندخل خندق ليساجور الذي يشبه حظيرة الكلب .

ـ أترى كيف أعيش . كما يقال اسكافي بلا حذاء . لقد حفرته بنفسي .

شعاع شمس مائل ينغرز كسهم صغير في المعطف ، ويضيء الاوعية وعلب الطعام المحفوظ التي يعلوها الهباب وصورة مثبتة في الحائط لفتاة ممتلئة الوجه ترتدي بيريه .

يخرج ليساجور زجاجة فودكا صغيرة من تحت طاولة مثبتة في الحائط كتلك التي تستخدم في القطارات .

ويغمز بعينه قائلا :

ـ حسناً ، هيا نقرع الكؤوس نخب تعارفنا .

واقرع كوبي بالزجاجة ، فليساجور يشرب منها مباشرة .

وأقول :

ـ في الخطوط الامامية لم نحصل على الفودكا الا مرة واحدة .

ويضحك ليساجور بمكر ويمسح براحته ذقنه غير الحليق .

ـ المسافة الى الخطوط الامامية كيلومتر ونصف ، اما انا فبجوار المخزن . بالاضافة الى أن خمسة من جنودي لا يشربون . وعلى العموم انفض يديك بسرعة من الكتيبة وتفرغ للاعمال الهندسية ، وسترى كيف ستتمتع بالحياة . فمن يعتمد عليّ يربح . انني أعرف رائدنا تمام المعرفة ، أفهمه من مجرد اشارة . يا له من عجوز عظيم ، صحيح انه يثور احياناً ، لكنه يهدأ بعد نصف ساعة . عيبه انه يحب الخنادق المريحة ، ولا مانع لديه لو فرشتها له بالسجاد . وبخلاف ذلك ، فالعيشة معه ممكنة . هل تريد مزيداً من الفودكا ؟

ويخرج زجاجة اخرى .

— ما ان أنتهي من هذين النفقين ، حتى أحفر لنفسي خندقاً ؛ فهل يمكن العيش في هذا الجحر ؟ الناس تنام على الشاطئ المكشوف ، ولكن بعد شهر يحل الشتاء . عندما تأتي ثانية سترى أية قصور شيدناها . ستلعق ساعتها اصابعك . . .

وانظر الى الساعة المعلقة على الحائط ويتدلى منها قفل بدلا من قرص البندول .

— أهي مضبوطة ؟

— مضبوطة . لا تتعجل ايها الرفيق الملازم . سيكون لديك المزيد من الوقت لتتمتع بالخطوط الامامية . — ويربت على ركبتي . — لا تغضب اذا كنت اخاطبك « بصيغة المفرد » ، فهذه عادة اكتسبتها في الجبهة . حتى ابروسيموف أخاطبه بصيغة المفرد ، مع انه نقيب . وبالمناسبة . — ويخفض ليساجور صوته ويميل نحوي ويزفر في وجهي مباشرة . — انه شخص خطير ، لا يرأف بالجنود ، يبدو لك هادئا ، لكنه ساعة العمل يغلي ، ويفقد صوابه تماما . يغلي ويتصرف دون روية . اياك ان تنقاد له ، واعرف كيف تضبط نفسك .

ويميل الى الخلف مادا ساقيه الى الامام . ويطقطق اصابعه ، كل اصبع على حدة . اوجه اليه بعض الاسئلة المهنية فيجيب دون اضطراب ، ويضحك ، فتبدو سناه الاماميتان المكسورتان .

— أتمتحنني ؟ نعم ؟ حسنا ، انني استاذ في هذه المسائل . كادر فني . اشتركت في معارك خالخين-جول بمونغوليا ، والحرب الفنلندية . . . ايه ايها الملازم ، انك لا تعرفني بعد . أستحلفك ان تأتي بسرعة الى الشاطئ ، وسترى كيف ستتمتع بالحياة معي . أتريد برتقالا ؟ لدي منه صندوق كامل . وبسكويت ايضا . . . كل ما تطلبه تجده عندي .

وأقاطعه :

— تقول كم جنديا في فصيلتك ؟

— في فصيلتي ١٨ ، وانا التاسع عشر . كلهم جنود ممتازون : نجارون وبناة اطواف وافران ، بل وبينهم خياط وحلاق . واسكافي ليس له في موسكو نفسها مثيل . انظر الى حذائي ، ما رأيك ؟ كعبه ومقدمته وقنطرته . . . تسحر الالباب . ولدي ايضا

ساعاتي ، ذلك الرقيب ذو الشوارب ، ولديّ ايضا صانع اثاث .

— وما مدى علمهم بزرع الالغام ؟

— طبعا على علم به ، وان كان زرع الالغام ليس من اختصاصنا بشكل عام . عملنا هو بناء مراكز القيادة ونقط المراقبة ، اما الالغام فلتزرعها الكتيبة . اما فصيلتي فعلى ما يرام . عندما نعمل معا سترى . لقد انتقيتها بنفسي اثناء اعادة التشكيل . لن تجد مثلها في الجيش كله . أقسم لك بشرفي . . .

وأنهض .

— حسنا ، سأنتظر رجالك غدا .

وينهض ليساجور هو الآخر ، ويتمايل قليلا .

— يا لك من عنيد ايها الملازم . لماذا تتمسك بحقول الالغام هذه ؟ سوف ينفجر فيها جنودنا فقط . حسنا ، ليكن ، سأرسل لك الرجال .

— ولا بأس ايضا لو جئت انت .

— لا أستطيع ان أعدك بذلك ، لا أستطيع . ها انت ترى بنفسك حجم العمل . الانفاق والقوارب . . . وعلينا ايضا ان نحضر الالغام اليوم . سأرسل لك مساعدي

حاركوشا . انه فتى عظيم . سيزرع لك الالغام وهو مغمض العينين .

— انا لست بحاجة اليه ، ولكن الكتيبة الاولى والثالثة بلا جنود هندسة . . .

ويقف ليساجور بضع ثوان معتمدا على الطاولة ، يحملق فيّ بعينين لعبت بهما الخمر قليلا :

— أتدري ماذا سأقول لك ايها الرفيق الملازم ؟ لكل قائد كتيبة مخ ، فليفكر به ، اما انا فما عليّ الا تنفيذ الاوامر . كأنهم اطفال صغار . اذا رابطوا للدفاع قالوا : ازرع الالغام ، واذا هاجموا قالوا : انزع الالغام ، واذا ذهبوا للاستطلاع ، قالوا : تقدم يا جندي الهندسة ، ابحث عن الالغام ! فليذهبوا جميعا الى الشيطان . . .

— الامر متروك لك . انت لم تزل بعد مهندسا ، فابحث عن الحال الذي يناسبك . وداعا .

— وداعا . . . خذ معك زوجا من الفيتامينات .

ويدس في جيب سترتي الثقيلة برتقالتين باردتين خشنتين ، لونهما فاتح لدرجة تعمى البصر . ويقول :

— اذن فسأنتظر قدومك قريبا .

ويطلق ضحكات صغيرة مبعثرة .

٤

نغير مواقعنا اثناء الليل ، وأعجل للانتهاء قبل الساعة الثانية عشرة ، اي قبل ظهور القمر . لكن الالمان يشعلون النار في حظيرتين ، فيصبح قطاعي مضاء كأن الوقت نهار . ويؤخر هذا عملية التغيير فتستمر طوال الليل . والرشاش المنصوب تحت الجسر يطلق ناره دون انقطاع . وأشعر اننا سنعاني الامرين من هذا الرشاش ، فهو يقطع جميع خطوط مواصلاتي . وفي الصباح يظهر الى جواره مدفع ، بينما لا أستطيع الرد على النار ، فالذخائر تكفي بالكاد للقتال مدة النهار . وهكذا انتقل تحت حماية هاونات السرية . المدافع من عيار ٨٢ مليمترا ليس لديها قذائف ، فأطلب تدعيما من مدفعية فوجنا ، ولكنها ايضا تعاني من نقص الذخيرة ، فلا تطلق النار الا مرتين او ثلاث طوال الليل .

قطاعي سيئ للغاية ، يقطعه متراس الخط الحديدي العالي الذي يسير متعرجا بحذاء سفح التل ، وتتراكم فوقه العربات . من الجناح الايسر لا يمكن رؤية الجناح الايمن تقريبا ، لا ترى الا قمة الوادي .

ليس هناك اية خنادق . ويختبئ جنود الكتيبة الاولى وهم يسلمون لنا مواقعهم في حفرات القنابل ، ويحتمون بمخلفات الحديد المختلفة . وفي الجهة الاخرى من متراس الخط الحديدي ، يوجد على امتداد الوادي ما يشبه الخنادق وان كان لا يبدو اي دليل على وجود ممرات موصلة بينها .

نعم ، هذا القطاع لا يشبه قطاعنا عند مصنع المنتجات المعدنية ، فهناك يمكنك ان تنتقل من طرف الى طرف دون ان تحني قامتك تقريبا .

والقطاع بحد ذاته ليس كبيرا بالنسبة لكتيبة عادية ، فهو لا يتجاوز الستمائة متر ، ولكن ما عندي من رجال لا يزيد على الستة والثلاثين رجلا . كانوا اربعمائة فاصبحوا ستة وثلاثين . وهذا المتراس اللعين يشطر القطاع قسمين غير متساويين : الجناح الايمن على التل اطول من الايسر حوالي مرتين . ولديّ سريتان كل منهما تضم ثمانية عشر جنديا ، اي في الواقع مفرزتان لا سريتان ، بالاضافة الى قائدي سرايا وثلاثة قادة فصائل . اما جنود الرشاشات والهاونات فلا يدخلون في الحساب . فحاول اذن ان تقود هؤلاء

جميعا دون ممرات توصيل . سيتحول كل جندي اثناء النهار الى نقطة نار منعزلة غير مرتبطة بغيرها . والقطاع تحت مرمى الالمان عرضا وطويلا .

أبحث عن مركز قيادة ، ولو موقتا ، لكي أركب فيه التليفون . لا أجد غير انقاض وحظائر محترقة ، وليس هناك اية اقبية . ويسعفني فاليجا ، اذ يعثر على ماسورة كبيرة من الخرسانة المسلحة تحت المتراس ، مموهة بعناية ، ويجلس فيها بعض جنود المدفعية .

بعداء شديد يقابلني ملازم طويل القامة ذو لحية صغيرة تتناثر شعيراتها الخفيفة في كل اتجاه :

— لن أدعك تدخل ، ولتفعل ما بدا لك . نحن هنا خمسة ، وتريد ان تحضر معك هيئة اركان بأكملها .

ولكني غير مستعد لمفاوضات ديبلوماسية ، فآمر بتركيب التليفون وأكلف معاوني بكتابة البلاغ الحربي . ويطلق جنود المدفعية السباب ولا يريدون زحزحة صناديقهم ، ويهددون بالشكوة لبوجارسكي قائد المدفعية .

— فلتشتكوا ما وسعكم ! عسكروا هنا يا اصحاب ولا تلقوا بالا لأحد . . . لا تتحركوا من هنا حتى آمركم .

لم يكن جنود الاشارة ينتظرون اكثر من ذلك ، فمدوا السلك وجلسوا على الارض الحجرية مباشرة واخذوا ينادون في الجهاز على ازهار ما مثل « لا تنسني » وسوسن .

معاوني واسمه خارلاموف ، المصاب بقصر النظر ، فقد بالطبع اهم مظروف ، والآن يزعج الجميع وهو يدور تحت الاقدام باحثا عنه .

— يبدو انني نسيته هناك ، في مركز القيادة السابق — يدمدم وهو يلقي نظرات زائغة حواليه :

هذا الانسان فيه خصيصة غريبة ، فهو لا بد ان ينسى دائما شيئا ما في كل مكان ينزل به . وخلال الفترة التي عرفته فيها فقد معطفه وثلاث خوذات ، ومحفظته الخاصة . اما عن الاقلام والريش فحدث ولا حرج .

في حوالي الخامسة صباحا يفد قائدا السريتين . فأسألهما :

— كيف الاحوال ؟

ويهز كارنأوخوف قائد السرية الرابعة الذي حل محل بتروف الراحل كتفيه العريضتين جدا :

— وزعتهم موقتا . بالنسبة للرشاشات لا بأس ، اما عن الجنود . . . سنضطر الى قضاء النهار باية صورة ، فقد اوشكنا على الفجر ، وفي الليل نمسك بالمجاريف . ففي هذه الخنادق لا يمكن البقاء طويلا .

صوت كارنأوخوف خفيض ، مكتوم قليلا . وعندما يتحدث يتلعثم الى حد ما . ربما لكي يختار الكلمات المناسبة . وبشكل عام فهو يعجبني .

لقد جاءنا منذ حوالي عشرة ايام . ضخم الجسم ، مقوس الساقين ، حاجباه كثيفان متصلان أعلى انفه ، عيناه رماديتان ، وكان عند ذاك يحمل كيسا على ظهره . وانحنى لكي يمر خلال الباب الضيق المنخفض .

وكنا ساعتها نتناول الغداء . حساء من البطاطس المجففة والخبز المحمر ، واعتذر عن مشاركتنا الطعام وطلب جرعة ماء فقط ، وعب بشهية كوبا ضخما يكاد يقارب الدلو في حجمه ، ثم مسح شفتيه وابتسم .

— يبدو انني شربت كل مخزونكم من الماء .

ثم استفهم عن مكان سريته .

— اجلس قليلا . استرد انفاسك اولا .

وابتسم من جديد وكأنه يعتذر ومسح براحة يده جبينه المبلل الذي يعلوه خط أحمر بسبب ضغط العمرة عليه .

— لقد قضيت شهرا كاملا أسترد انفاسي في المستشفى ، حتى زاد وزني ثلاثة كيلوجرام . ولم يعطوني تبغا ، وانتم طبعا تعرفون انه بدون التبغ . . .

وأعطاه خارلاموف صندوق تبغه ، فلف لفافة ذات حجم خرافي وجلس يدخنها .

وألقيت عليه عدة اسئلة عادية مما يلقي اثناء اول تعارف . فأجاب بهدوء واقتضاب وهو جالس في الزاوية على كيس حاجياته . ثم نهض وبحث بنظراته عن مكان يلقي فيه عقب اللفافة ، ولما لم يجد المنفضة الملائمة ألقى به خارج الخندق .

— حسنا ، من منكم سيوصلني ؟

وفي المساء تلقيت منه بلاغا منمقا مرفقا به بطاقات عمل كل رشاش وخريطة توزيع اسلحة العدو .

وفي اليوم التالي استرد من الالمان قطاع الخنادق الذي كنا قد خسرناه من قبل ، ولم يفقد في هذه المعركة سوى جندي واحد . وعندما ذهبت اليه في

المساء ودخلت خندقه المسقوف ، الذي كان نظيفا على غير المألوف في الجبهة ، وبه مرآة صغيرة وماكينة حلاقة وفرشة اسنان فوق رف صغير ، وجدته جالسا يكتب شيئا ما في دفتر موضوع على ركبتيه .

— أهي رسالة الى الأهل ؟

— كلا : مجرد هراء . . . — واعتراه الخجل وحاول النهوض ورأسه منحن ، ودس الدفتر في جيبه بسرعة .

« لا بد انها اشعار » — قلت لنفسي ، ولم أعد أسأله عن ذلك .

وفي الليلة نفسها سرقت سريته من الالمان رشاشا وستة صناديق ذخيرة . وقال الجنود انه هو الذي سرق الرشاش ، وعندما سألته انا ، ابتسم فقط ، وقال دون ان ينظر في عينيّ ، ان الجنود هم الذين اخترعوا هذه الاقوال ، وانه لا يسمح لنفسه ابدا بارتكاب مثل هذا ، وان قائد السرية لا يسرق الرشاشات .

والآن يقف أمامي ، محنيا قليلا ، غير حليق . وادرك انه ، مثلي ، يود قبل كل شيء ان ينام الآن ، ولكنه سيظل جالسا يرسم خريطة خطوط دفاعه وقد

اخرج طرف لسانه ، او يركض ليعرف ان كان الرقباء قد احضروا العشاء ام لا .

يجلس فاربر ، قائد السرية الخامسة ، على طرف صندوق ذخيرة فارغ . يبدو متعبا ، وكالعادة لامباليا وشاردا . يحدق في نقطة واحدة بينما يلمع زجاج نظارته السميك . عيناه منتفختان من السهد ، وخداه الغائران بطبيعتهما ازدادا انطباقا .

لم أستطع حتى الآن ان أدرك كنهه ، واذا نظرت اليه خيل لك انه لا يهتم باي شيء يجري في هذا العالم . وهو طويل القامة ، مقوس قليلا ، كتفه الايمن اعلى من الايسر ، شاحب لحد المرض كغالبية ذوي الشعر الأحمر ، ومصاب بقصر نظر شديد ، ولا يتبادل الحديث مع احد تقريبا . قبل الحرب كان دارسا بقسم الدراسات العليا في كلية الرياضيات بجامعة موسكو . وقد عرفت هذا من الاستمارة ، اما هو فلم يخبرني بذلك ابدا .

وقد حاولت اكثر من مرة ان أتحدث معه عن الماضي او الحاضر او المستقبل ، وبذلت جهدي كي أحركه وأثير فيه ذكريات ما . فكان يسمعني

شاردا ، واحيانا يجيب بكلمة او اثنتين ، ثم يقف عند هذا الحد . كل شيء يمر عليه جانبا دون ان يجد فيه ما يستقر عليه . ولم أره مبتسما ولو مرة واحدة ، بل انني لا أعرف حتى شكل اسنانه .

وحب الاستطلاع والخوف هي مشاعر لا وجود لها لديه . فذات مرة ، عندما كنا مرابطين عند مصنع المنتجات المعدنية وجدته واقفا في أحد الخنادق ، بمعطفه القصير الى الركبة ، مرتكزا الى حافة الخندق ، موليا ظهره للعدو ، ويعبث بطرف حذائه في جدار الخندق المنهار ، شارد الذهن ورنّت رصاصتان او ثلاث بالقرب منه ، ثم انفجرت قذيفة هاون ، وظل يعبث في التربة .

ـ ماذا تفعل هنا يا فاربر ؟

والتفت ببطء ، وكأنما بلا رغبة ، وتوقفت نظرة عينيه برموشهما الباهتة وجفنيهما الثقيلين المنتفخين قليلا ، وحدقت فيّ باستفهام :

ـ هكذا ... لا شيء ...

ـ الالمان سيصطادونك بكل بساطة .

ـ معك حق ... ـ وافقني بهدوء وجلس على اطراف قدميه .

ومن الصعب ان أصفه بالاهمال ، فهو حليق دائما ، وبطانة ياقته دائما نظيفة ، ولكن هذا على ما يبدو عادة او تربية ، فهو لا يبدي اي اهتمام بمظهره . معطفه اصغر من مقاسه بنمرتين ، لذلك فالحزام الخلفي للمعطف يصل الى ما تحت اكتافه بقليل ، وعمرته مبططة ، يلف قدميه بالخرق ، وليس على ياقته علامات التمييز .

قلت له ذات مرة :

ـ هلا علّقت المربعات على ياقتك يا فاربر ؟

فنظر اليّ بدهشة كعادته وقال :

ـ لكي أكتسب مزيدا من الاحترام ، أليس كذلك ؟

ـ بل من المفروض في الجيش ان يحمل كل فرد علامات التمييز .

فنهض في صمت وانصرف . وفي اليوم التالي لمحت على ياقة معطفه مربعين من القماش قد حيكا بميل بخيوط بيضاء .

ـ لقد اخترت جندي اتصال سيئا يا فاربر ، لم يستطع ان يحيك حتى المربعات .

— ليس لدي جندي اتصال . لقد حكتها بنفسي .

— ولماذا لا يوجد لديك جندي اتصال ؟

— السرية بها ١٨ جنديا وليس ١٥٠ .

— حسنا ، فليكن واحد منهم جندي اتصالك بالانتداب .

— أعتقد ان هذا ترف لا داعي له .

— ليس ترفا ، وليس لا داعي له . انت قائد سرية .

ولم يعارض . وعموما فهو لا يعارض ابدا ولا يسخط ، ولكنه ، على ما أظن ، لم يعين جندي اتصال .

يا له من انسان غريب . انني دائما أشعر في صحبته بالتوتر ، ولذلك لا أستبقيه ابدا ، أعطيه الأمر — ووداعا ، اذهب ونفذه . يستمع اليّ في صمت وينظر جانبا ويهز رأسه او يقول « سأبذل جهدي » ثم ينصرف .

والآن يجلس شاردا ، متكوما ، تبرز يداه النحيلتان الشاحبتان من كمي معطفه القصيرين وينقر بأصابعه على الطاولة .

وأقول له :

— تذكر يا فاربر ان قطاعك سيئ . لا تعوّل على المدفعية ، كل شيء متوقف على الرشاشات . لا تنسق وراء النيران الجبهية ، فلا نفع منها سوى دويها .

ويهز رأسه في صمت . وتنقر اصابعه الطويلة على المائدة برتابة وبلا انقطاع .

خلال شق ضيق نرى ضوء الفجر ، فأصرف قائدي السريتين وأتصل تليفونيا بالاركان لأبلغ ان اعادة توزيع القوات قد تمت وان وثائق التسليم والاستلام سوف أرسلها مع جندي اتصال .

رضخ جنود المدفعية لوجودنا معهم في الخندق ، وجلسوا في الطرف الآخر يصيحون في التليفون بارقام ما . يبدو ان مدافعنا ستنطلق عما قريب .

٥

نتوقع هجوما في الصباح ، فلا يمكن الا أن يكون الالمان قد لاحظوا تحركاتنا اثناء الليل . وعلى خلاف ما توقعنا يمر اليوم هادئا لدرجة اننا تمكنا من احضار الغداء من الشاطئ في وضح النهار .

بعد الضجيج والهرج اليومي ، والهجمات اللانهائية والغارات وقصف المدافع يصعب علينا ان نصدق بوجود مثل هذا الهدوء ، ونتوقع بين لحظة واخرى خديعة ما . لكن الجو حتى الآن هادئ ، ليس هناك الا تبادل النيران العادي ، بصورة ضعيفة وقليلة . وفي السابعة كالعادة تحلق فوق مصنع « اكتوبر الاحمر » طائرة من طراز « الاطار » وقوافل من « المغنيين » .

ويجلب فاليجا دلوين من مياه الفولجا ويسخنهما فوق موقد الكيروسين ، ثم يحك لي ظهري بقطعة من الليف ويسيل من على جسدي ماء أسود كالحبر . اما انا فأحمر ، أشعر بقرصات في جسمي ، ويضحك فاليجا :

ـ سأعطيك الآن ملابس داخلية المانية ، حريرية . لن يعشش فيها القمل ، فهي ناعمة لا يستطيع ان يمسك بها .

وأرتدي سروالا وقميصا رقيقين شفافين ، ثم أحلق ذقني واتوجه الى كارنأوخوف ، فأجده جالسا القرفصاء ينظر بطرف عينه الى قطعة من مرآة مثبتة الى جدار شبه مهدم ويحلق ذقنه بشدة .

ـ حسنا ، كيف احوالك ؟

ويبتسم كارنأوخوف وسط الرغوة ثم ينهض .

ـ على هذه الصورة يمكننا ان نعيش حتى نهاية الحرب . . . يبدو ان الالمان اعلنوا الاضراب .

وأجلس الى جانبه .

لا شيء حولنا سوى المداخن ، ليس هناك منازل ، بل عروق خشبية يتصاعد منها الدخان ، ثم مداخن ، مداخن لا نهاية لها ، سوداء فظيعة وخلفها سماء شفافة في صفاء سماء القرم . ولست أدري لماذا تتبقى المداخن دائما ، وكأن شخصا ما يتركها عن عمد لكي تذكرك بان منزلا ما كان هنا ، او قرية او مدينة ، وهذا كل ما تبقى منه الآن .

أجلس فوق عامود ، يبدو انه كانت هنا بوابة في وقت ما ، فقد بقي رقم منزل يعلوه مصباح ، مصباح مثلث ازرق وحروف مكتوبة : « حارة الاحوال الثانية ، رقم ٢٤ . منزل ملك إ . ن . اجاركوفا » . وعلى جزء من الجدار بقيت لسبب غير معلوم لافتة تقول : « الخياط افيربوخ ـ رجالي وحريمي . مستعد لتلقى الطلبات » . وهناك شخص احمر الخدين يرتدي

سروالا مكويا وقبعة مستديرة يركز عليّ نظره من اعلى بلا مبالاة ، وكأنه يريد تنويمي مغناطيسيا . ان لدى هؤلاء الاشخاص المرسومين على الاعلانات مثل هذه النظرة دائما ، اينما ذهبت تجدها مصوّبة اليك .

وأقول : — الحال هادئ عندكم .

— الآن فقط . ولكنه بشكل عام ليس هادئا جدا ، لقد خرجت فقط للحلاقة ، ففي ذلك الجحر لا يمكنك حتى ان تستدير ، واذا حلقت امتلأت جروحا .

ويحلق كارنأوخوف شفته العليا وهو يقطب وجهه من الألم ، وأحلق له قفاه ، ثم نأخذ عدة الحلاقة ونزحف الى الحفرة الضيقة . هناك موقد وطاولة أرجلها مقصوصة وكرسيان . وهناك ايضا جنديان ، وفي الركن جندي اشارة شد الى رأسه سماعة التليفون . ومصباح مصنوع من قذيفة مدفع فارغة يرسل دخانه . وعلى الجدار نتيجة حائط عليها ايام مشطوبة وقائمة باشارات الاتصال وصورة ستالين مقصوصة من جريدة ، وصورة اخرى لشاب مجعد الشعر ذي وجه مكشوف وسيم .

— من هذا ؟

ويلمح كارنأوخوف نظرتي ويقول في خجل :

— جاك لندن .

— جاك لندن ؟

يقف كارنأوخوف وظهره الى النور فلا أميز وجهه ، ولكني أرى من اذنيه الشفافتين انه احمر خجلا .

— ولماذا تعلق جاك لندن ؟

— هكذا . . . انني أحترمه . . . ولذلك . . . هل ترغب في شيء من اللبن ؟

— لبن ؟ هنا ؟ من أين ؟

— لبن مركز . . . امريكي . حصل عليه الجنود .

وألعق بسرور ملعقة من اللبن المركز الغليظ المسكّر ، الذي يشبه العسل .

— ولكن خبرني ، من أين لك بهذه الصورة ؟

— من أين ؟ — ويضحك كارنأوخوف . — من المستشفى طبعا . لقد قرأت هناك كل ما في المكتبة من كتب ، ولكني لم أجد الوقت لقراءة قصة « مارتن ايدن » ولذلك . . . أخذتها معي موقتا .

— هل تحب جاك لندن ؟

ـ نعم ، لقد قرأت مؤلفاته عدة مرات .

ـ وانا ايضا أحبه .

ـ الكل يحبونه . لا يمكنك الا ان تحبه .

ـ ولماذا ؟

ـ لانه يبدو انسانا بمعنى الكلمة ... حتى لينين كان يحبه . كانت كروبسكايا * تقرأ له مؤلفاته .

ـ هل تعيرني اياه فيما بعد ؟

ـ حسنا :

ـ ومَنْ مِنْ الكتاب تحبه غيره ؟

ويخجل مرة ثانية :

ـ لقد قرأت قليلا . لم يكن لدى معلمتنا سوى كتب جاك لندن ، لست أدري من اين جاءت بها . كانت طبعة على شكل ملحق في غلاف بني ، أظنك رأيتها . وكان لديها ايضا كتب تافهة لمؤلف يدعى ميلنيكوف-بيتشيرسكي ، وكاتب اجنبي آخر . لم أعد أذكر اسمه :

---

* ناديجدا كروبسكايا زوجة لينين ورفيقته في النضال . المترجم .

ـ هذا في المدرسة . وفيما بعد ؟

ـ فيما بعد ؟ لم يكن لديّ وقت . كنت أعمل في منجم ، بمنطقة سوتشان . أتعرفها ؟ انها بالقرب من فلاديفستوك .

ـ أعرفها .

ـ عندما كنت صبيا قررت الهرب الى امريكا ، لأبحث عن الذهب في كلوندايك ، فسرقت بندقية أبي وجمعت خبزا مجففا ، وتسللت الى سفينة نرويجية ، فقد كنا ايامها نسكن في فلاديفستوك ، وكان ابي يعمل حمالا في الميناء .

ـ ثم ؟

ويبتسم كارنأوخوف وينظر الى اظفاره .

ـ ها انا أمامك . سحبوني من قفاي كالجرو وعادوا بي الى المنزل . ورقدت طريحا عدة ايام . فيد ابي كانت ثقيلة .

ويضحك من جديد .

ثم يحضر الجنود فونوغرافا حصلوا عليه من مكان ما . قديم ، مرتعش ، ونجلس حوله لا نستمتع بالغناء بقدر ما نخمن مَن المغني . ونكتشف انه المغني

كوزلوفسكي والمغنية دافيدوفا . ثم نستمع الى ثنائي من أوبرا « قوزاق زاباروجيه وراء نهر الدانوب » . ليس هناك الا ابرة واحدة ، فنشحذها باستمرار على طبق مكسور .

ويقول كارنأوخوف وهو يحك قفاه :

ـ هذا كل ما أستطيع ان أقدمه لك . اللهم الا اذا أردت ان أعرض عليك الخطوط الامامية . . . ولكننا لن نستطع الذهاب الآن الى الخنادق نفسها ، وعليك ان تكتفي بالنظر من هذا المكان .

ونجلس بجوار جدار حجري منخفض . كانت هنا شقة فيما يبدو فحولنا سرير حديدي ملتو بفعل النار ، وماكينة خياطة ، ومفرمة لحوم .

امامنا واد ، يبدأ عن يسارنا بقليل ويمتد متعرجا الى أعلى نحو أعلى قمة في التل . وقبالتنا مدفع محطم ، ماسورته ممزقة والتوت حوافها الى الخلف كأنها زهرة خرافية ، مما يضفى على المدفع طابع الدهشة والحيرة . وبالقرب منه درعه وقد تمزق إربا . في الجانب الآخر من الوادي الخنادق الالمانية ، قريبة للغاية ، تكاد تطال باليد .

ويهمس كارنأوخوف :

ـ جنودنا لا يرون خلف المنحدر . انهم يرابطون على بعد حوالي سبعين مترا من العدو . انظر الى الالمان الاوغاد وهم يحفرون الخنادق في وضح النهار .

وألمح بالفعل شيئا أحمر اللون يطير من باطن الارض في احد المواقع ، واحيانا يلمع الجاروف .

ـ آه ، ليس لدينا قذائف ، والا لعلمتهم كيف يحفرون الخنادق امام انوفنا . لقد حاولت انا اليوم ان أحفر فبدأوا على الفور يرمونني بالهاون ، فمن أين لهم كل هذه الذخائر ؟

ونظل منبطحين فترة طويلة نراقب الالمان ونحاول ان نرصد نقط نارهم . لا نستطيع ان نكتشفها على الفور ، فهي مموهة بعناية . هناك رشاشان او ثلاثة منصوبة فوق احدى القمم التي تشبه سنام الجمل ، في مقابلنا تماما . وهناك ايضا رشاش آخر أعلى قليلا ، ونيرانه تغطي الوادي على امتداده ، اما الرشاش الذي تئز رصاصاته بالقرب منا وحولنا فلا نستطيع الاهتداء الى موضعه .

نعم . . . لم أكن قبل الحرب أتصور الخطوط الامامية بهذه الصورة . كنت أظنها عبارة عن خطوط متعرجة من الاسلاك الشائكة في ثلاثة او اربعة صفوف ، ومجموعة لا حصر لها من الخنادق كبيت العنكبوت ، وشباك تمويه ومزاغل * . اما هنا ؟ شيء غير واضح الملامح محفور امامنا مباشرة ، ومدفع محطم ، وشيء ما يشبه برميل وقود فارغا ، مليئا بثقوب الرصاص .

كان لديّ في وقت ما كتاب بعنوان « ابطال تل مالاخوف » . وبه صور بالطبع . صورة للحصن الرابع وبه متاريس الاستحكامات وكوى هلالية ، وجبال من اجولة الرمل وسلال مملوءة بالرمل ، ومدافع مضحكة ذات خيوط فتيل طويلة ، تقف فوق قواعد خشبية خضراء وكرات قنابل مستديرة لامعة تنبثق منها خيوط رفيعة من الدخان .

وقد مرّ على ذلك حوالي تسعين سنة . اخترعت خلالها الدبابات والطائرات . ومع ذلك نجلس الآن في حفر صغيرة ونسمى ذلك خطوط دفاع .

* المزغل هو فتحة ضيقة في الخندق المسقوف لتطل منها فوهة المدفع او الرشاش . المترجم .

سأشرع الليلة على الفور في زرع الالغام ، وسأكتفي في المرحلة الاولى بحوالي ثلاثمائة لغم . لا داعي هنا لزرع الالغام المضادة للدبابات ، فلن تستطيع المرور من هنا ، اما هناك خلف الجسر ، لدى فاربر . . .

كارنأوخوف منبطح وقد عقد حاجبيه الاسودين المتصلين واللذين يبدوان كأنهما خُطا صدفة على وجهه البشوش ذي العينين الرماديتين .

— يا للشيطان ، ان نظامهم في توزيع النار جيد مع ذلك . انظر بالله عليك . من فوق سنام الجمل ذلك يغطون بنيرانهم كتيبتنا الثالثة كلها . ومن تحت الجسر يضربوننا في ظهورنا ، اما من فوق الوادي فيغطون الخطوط الامامية كلها . . .

وفي نفس اللحظة تنطلق الرشاشات الثلاثة وكأنها على اتفاق فيما بينها لتؤمن على ما قاله .

— لو نستطيع الاستيلاء على ذلك السنام لأذقناهم الويل . ولكن ماذا تستطيع ان تعمل بثمانية عشر جنديا .

كارنأوخوف على حق . لو كانت تلك التبة

في ايدينا لأمكننا ان نخفف العبء عن الكتيبة الثالثة ، ولشللنا الحركة على الجسر وغطينا جناحي الكتيبة الاولى .

ولكن كيف نفعل ذلك ؟

٦

في المساء أبعث بكل الجنود غير المرابطين على الخطوط الامامية ليحضروا الالغام . ومن حسن الحظ ان لدينا عربة ، فبوسعنا ان ننقل عليها الالغام الى المتراس مباشرة تحت جنح الظلام ، وهذه بالطبع مغامرة ، ولكنها ممكنة . وليس من العسير بعد ذلك ان ننقل الالغام الى هنا .

في حوالي الساعة العاشرة نكون قد احضرنا حوالي ثلاثمائة لغم ، وكومناها بالقرب من الماسورة . وفي هذا الوقت يحضر جنود سلاح المهندسين ، اربعة جنود ورقيب ، وهو ذلك الرقيب ذو الشارب واسمه جاركوشا .

يجلسون في الركن يقشرون لبا ، احيانا يتبادلون كلمات قليلة . يبدو عليهم الارهاق .

— قضينا النهار كله نحفر في الانفاق ، وفي الصباح امسكنا بالمعاول من جديد . لم يعد الواحد يشعر بظهره او يديه .

ويمد جاركوشا يدا خشنة وكأنها قرن .

ويقشر الجنود اللب وتبدو عليهم الجدية والانهماك ، يصوبون نظراتهم الى نقطة ثابتة دون ان تطرف عيونهم .

وعندما تبلغنا السرية الرابعة بأنها نقلت حوالي مائة لغم ينهض جاركوشا وينفض عن ركبتيه قشر اللب .

— حسنا ، فلنذهب قبل ان يظهر القمر . من سيرشدنا الى المكان ؟

ونهبط نحو الخطوط الامامية ونحن نتشبث بالشجيرات الصغيرة والعشب الجاف الشائك .

وتمتد الخنادق متقطعة ، كل خندق حوالي مترين او ثلاثة ، على طول المنحدر وفي منتصفه تماما .

اي احمق هداه تفكيره الى هذا ؟ لماذا لم تحفر هذه الخنادق الى الوراء بحوالي عشرين مترا ، وفي مكان أعلى من هذا ؟ عندئذ يكون الضرب مؤثرا ، والاتصال أسهل ، ويصعب على الالمان الوصول اليها .

ولكن الجنود يواصلون الحفر ، لا نراهم في الظلام ، ولكنا نسمع صليل المجاريف .

— اي شيطان جعلك تحفر هنا يا كارنأوخوف ؟ ألا ترى ان المكان منبسط كراحة اليد . . .

أصبح عصبيا رغما عني . وتنتابني هذه الحالة عندما أشعر انني مسؤول مع الآخرين عن الخطأ الذي حدث ، حتى انني أنسى ان الكلام هنا ممنوع الا همسا .

كارنأوخوف لا يرد . ثم أعرف بعد ذلك ان الذي بدأ الحفر هو قائد الفصيلة سيديتسكي بمبادرة شخصية لان « الجنود شعروا بالبرد فأمرتهم ان يحفروا ليشعروا بالدفء » .

وأصدر أمري بنقل الموقع الى أعلى ، وليحفروا هناك ، فهذه الخنادق على كل حال لا تساوي مليما . وليبق هنا جنديان او ثلاثة للحراسة .

ويزحف الجنود الى أعلى وهم يزفرون ويسبون سبابا فاحشا في همس ، يجرون خلفهم مجاريفهم واكياسهم ومعاطفهم . . .

— يتصورون انهم رؤساء . . .

هذه العبارة موجهة اليّ ، ولكني أتظاهر بانني لم أسمع شيئا . من حسن الحظ ان القمر غائب ، والا لما بقي منهم الآن نصفهم . . .

ونهبط اكثر . المنحدر شديد الانحدار والتربة الطينية الصلبة التي بدأت تتجمد من البرد تتفتت تحت اقدامنا وتنهار دون انقطاع . يحمل كل جندي من سلاح المهندسين حوالي عشرين لغما موضوعة في كيس . ومن حين لآخر يهدر الرشاش الالماني المناوب ، ذلك الرشاش نفسه المنصوب فوق الوادي ، لكن دفعات الرصاص تمرق عاليا فوق رؤوسنا وهي توصوص . انه رصاص متفجر .

وقعنا في وحل ، يبدو انه جدول صغير فالامطار لم تسقط منذ فترة طويلة . تخوض اقدامنا في الوحل فيصدر عنها صوت . وينطلق صاروخ إنارة فنرتمي على وجوهنا وبطوننا وايدينا في الوحل البارد العكر . وأتابع بطرف عيني من فوق مرفقي هذا الصاروخ الذي يسبح ببطء في السماء السوداء كأنه نجمة ساطعة مرتعشة .

— حسنا ، اين سنضع الالغام ؟

يزفر الرقيب انفاسه في اذني تماما وقد ارتكز عليّ بكتفه . لا نرى حولنا شيئا على الاطلاق بعد ذلك الضوء الساطع ، لا يرى أحدنا حتى وجه الآخر . لا شيء سوى زفير دافئ تفوح منه رائحة اللب .

ـ عندما يشتعل الصاروخ التالي انظر الى يسارك . . . ـ صوتي يرتعش قليلا بسبب التوتر . ـ سترى برميلا من الحديد . ابدأ من عنده ثم الى اليمين لمسافة حوالي خمسين مترا . . . في ثلاثة خطوط . . . مثل مربعات الشطرنج . . . كما اتفقنا .

الكلمات تخرج بصعوبة حتى لأكاد أشد كل كلمة شدا .

جاركوشا لا يرد . يزحف مبتعدا عني ، ولا أرى ذلك بل أسمعه . بعد دقيقة أحس من جديد بزفيره على وجهي .

ـ أأنت الرفيق الملازم ؟ . .

ـ ماذا تريد ؟

ـ سأزرعها أعلى قليلا ، اذ ربما يتجمد الماء وعندئذ .

صاروخ آخر . جاركوشا يرتمي فوقي مباشرة ، فينغرز وجهي في الطين . أحاول الا أتنفس . فمي وانفي واذنايّ مليئة بالماء والطين . ينطفئ الصاروخ فأرفع رأسي وأقول :

ـ حسنا .

والآن أشعر بالاطمئنان على حقل الالغام .

وأمسح وجهي بكمي .

يا له عمل شاق هذا الذي يقوم به جنود سلاح المهندسين . في الظلام والوحل ، على بعد ثلاثين خطوة من الالمان ، اما رفاقك فهناك ، فوق . . . وعليك ان تحفر لكل لغم حفرة ، وتضع فيه الزناد ، وهو عبارة عن انبوبة ذات زنبرك ، وسن حادة كالمسمار وكبسولة وبعد ذلك تجربه ، ثم تضعه في الحفرة ، وتهيل عليه التراب ثم تموهه . وعليك طوال الوقت ان تسترق السمع لتعرف هل يزحف الالمان نحوك ، وتنغرز في الوحل دون ان تند عنك حركة كلما انطلق صاروخ .

أسمع الجنود وهم يخرجون الالغام من الاكياس بحذر .

أعتقد انهم سينتهون من العملية في ظرف ساعة .

وعليّ الآن حالا ، قبل ان يغيب هذا عن بالي ، ان ابدأ في رسم خرائط الالغام . وستشغلني هذه الاعمال الكتابية كل ليلة ، وعليّ ان أكتبها من ثلاث صور ، بالاضافة الى خريطة بها سمت السموت وجداول اضافية ، وليس هناك استمارات خاصة مما سيضطرني الى عمل كل شيء بنفسي .

أصعد الى أعلى ، وأكاد أهوي مرتين او ثلاث . لا أرى شيئا على الاطلاق ، وجرحت يديّ اشواك النباتات الصغيرة الشائكة .

الجنود يحفرون في صمت ، لا يسمع الا صوت ارتطام المجاريف بالارض . هناك شخص بالقرب مني تماما ، ولكني لا أراه لشدة الظلام ، يسب بصوت أبح الارض الصلبة كالحجر وكأنه يسب حصانا عنيدا .

ـ لو كانوا قد اعطوا للكتيبة معولين على الاقل . فهذه المجاريف لا تصلح الا لتقطيع الزبد .

المعاول . . . المعاول . . . من اين تحصل عليها ! انني مستعد ان أعطي أي شيء مقابل عشرين معولا ! يخيل اليّ انني لم أحلم بشيء في حياتي مثلما أحلم

بها الآن ، هذه المعاول . وما كان اكثرها في محطة موروزفسكايا . جبال مكدسة ، ولم يلق عليها أحد نظرة ، فقد كانوا يبحثون عن الزبد والفودكا فقط .

بهذه الصورة لن ننتهي من الحفر ولو بعد شهر .

في بداية الساعة الواحدة يظهر القمر . احد خديه أعلى من الآخر ، برتقالي اللون ، يبزغ من مكان ما ناحية الفولجا . ويطل على الوادي . بعد نصف ساعة لن يكون بامكانهم ان يعملوا هناك فهم اربعة والالغام مائة . . .

بينما القمر يعلو ويعلو ويصبح لونه أصفر ، ثم ابيض . فهو لا يعبأ بأحد ، بل انه اليوم على ما أعتقد يعلو اسرع من المعتاد وكأنه على عجلة من أمره ، او تأخر عن موعده . ولحظنا السيئ يقع الجانب الالماني في الظل ، اما مواقعنا فتحت ضوئه ، ومع كل دقيقة تمر تزداد نورا . بقايا الظل الأخيرة تتراجع ببطء كأنما دون رغبة منها ، وتهبط الى اسفل منسحبة من خميلة الى خميلة وتنكمش نحو قاع الوادي .

شخص ما يبحث عني ، صوته شاب كصوت

المراهقين الذي يتحشرج احيانا . يبدو انه جندي الاتصال لدى كارنأوخوف . ويسأل :

ـ ألم تروا الملازم ، ألم تروا قائد الكتيبة ؟

ـ أي ملازم ؟ الذي يحمل منظارا ؟ ـ يرد عليه صوت آت من أسفل ، من الخندق فيما يبدو ، لشخص اوكراني .

ـ كلا ، ليس الذي يحمل منظارا . أريد قائد الكتيبة ، الذي يرتدي عمرة زرقاء .

ـ آه . عمرة زرقاء ... هلا قلت ذلك من البداية بدلا من قولك قائد الكتيبة ... أتظن انه من السهل تذكر جميع القادة الذين تراهم طوال النهار...

ـ حسنا ، أين هو ؟

ويرد الصوت ببشاشة :

ـ لم أره ، لم يمر من هنا ، اي والله لم أره .

ـ يا لك من أحمق .

ـ ربما يكون فيسينكو قد رآه ... يا فيسينكو ، يا فيسينكو ...

أتجه نحو مصدر الحديث . ويرد فيسينكو بنفس البشاشة والبطء وباللهجة الاوكرانية من الخندق

المجاور بان « أحد الرؤساء كان هنا ، وصاح بقائد السرية اننا نحفر غلط ، اما الى اين ذهب ، فالشيطان وحده يعلم ... » .

ـ من يبحث عني ؟

ـ أ أنت الرفيق الملازم ؟ ـ وأرى شبحا صغيرا يقف أمامي مشدود القامة .

ـ نعم ، انا ... ولا تشد قامتك ، انبطح . ويجلس على اطراف قدميه .

ـ حسنا ، ما الأمر ؟

ـ مركز قيادتكم اتصل بنا لاستدعائك فورا .

ـ لاستدعائي انا ؟ فورا ؟ من الذي اتصل ؟

ـ لا أدري ... عقيد ما على ما أظن .

أي عقيد ، من أين جاء ؟ لا افهم شيئا .

ـ امر ان تحضر فورا ، خلال ثلاث دقائق .

وقبل ان أبلغ خندق كارنأوخوف أصطدم بفاليجا . يركض بسرعة غير عابئ بشيء ، متقطع الانفاس .

ـ العقيد في انتظارك ، قائد الفرقة على ما أظن ... على صدره وسام ... ومعه اشخاص آخرون ... الملازم ثان خارلاموف يقول كلاما ما . اما هو فيسب ...

دائما خارلاموف اللعين . انه مصيبة حلت بي . ويعتبر نفسه وكيلا ، ورئيسا للاركان ... ان مكانه في المطبخ لا في الاركان .

الالمان يفتحون النار فجأة ، فنضطر الى الانبطاح ربع ساعة كاملة ، وانوفنا مدفونة في الارض .

٧

عقيد ، قصير القامة نحيف كأنه صبي ، خداه غائران حتى ليخيل اليك ان أحدا شدهما الى الدخل عمدا وبين حاجبيه تجاعيد عمودية متوترة ، يجلس واضعا رأسه بين ذراعيه . معطفه ذو الازرار الذهبية مفتوح ، وبجواره رائدنا وبين ركبتيه عصا . وهناك ايضا شخصان آخران لا أعرفهما .

خارلاموف مشدود القامة ، جميع ازراره مزررة . لأول مرة أراه على هذه الصورة . عيناه تطرفان .

يدي ترتفع بالتحية ، وأبلغ بأن الكتيبة تحفر الخنادق ، ونضع الالغام . عينان سوداوان لا تطرفان تحدقان فيّ من الوجه النحيل ، واصابعه الدقيقة الجافة تدق على الطاولة بخفة .

الجميع صامتون .

أخفض يدي .

فترة الصمت تمتد اكثر قليلا من اللازم . أسمع انفاس فاليجا تردد بسرعة خلفي .

فجأة تضيق العينان السوداوان ويخيل اليّ ان شفتيه الغائضتين الرقيقتين كفتلة تبتسمان .

— ماذا بك ؟ هل تشاجرت مع أحد ؟ هه ؟

ألتزم الصمت .

— اعطوه مرآة ، فليتأمل جماله .

ويمد لي أحدهم قطعة من مرآة مشققة . لا أكاد أعرف وجهي ، لا يبدو منه شيء غير العينين والاسنان . يداي ، وسترتي وحذائي الطويل ، كلها ملطخة بالوحل .

— حسنا . — يضحك العقيد ، ويتضح ان ضحكه مرح وفتي على غير المتوقع . — ما اكثر ما يقع للانسان ... انا نفسي وقفت ذات مرة امام قائد المنطقة أبلغه تقريري ولم أكن أرتدي سوى السروال ، ومر الأمر ، لم أعاقب الا بالحبس عشرة ايام — ورفعت يدي بالتحية الى رأسي العارية .

وتختفي الابتسامة كأن شخصا مسحها من على وجهه . وتعود عيناه السوداوان الكبيرتان تحدقان بي . عينان ذكيتان ، مرهقتان بعض الشيء ، تحتهما اكياس منتفخة .

ـ حسنا ، فلتتفاخر ايها القائد بما فعلته طوال اليوم . اذا كان الوضع في الخطوط الامامية كما هو في الاوراق ، فانني لا أحسدك على ذلك .

ـ ما فعلناه قليل ايها الرفيق العقيد .

ـ قليل ؟ لماذا ؟ ـ عيناه لا تطرفان .

ـ الرجال قليل ، والمعدات ايضا .

ـ كم رجلا لديك ؟

ـ المحاربون ستة وثلاثون .

ـ وكم عدد العاطلين من جنود الاتصال وما شابه ؟

ـ المجموع حوالي سبعين .

ـ او تعرف كم رجلا في الفوج الثالث والاربعين ؟ في الكتيبة الواحدة من خمسة عشر الى عشرين رجلا ، ومع ذلك ـ يحاربون .

ـ انا ايضا أحارب ايها الرفيق العقيد .

ـ لقد صمد في مصنع المنتجات المعدنية ايها الرفيق العقيد ـ يقول الرائد . ـ وبالامس نقلناه الى اليمين .

ـ لا تدافع عنه يا بورودين . انه الآن ليس في مصنع المنتجات المعدنية ، والالمان لن يطردوه من ذلك المصنع ، بل من هذا المكان ... ـ ثم يعود يحدق بي ـ هل لديكم خنادق ؟

ـ الجنود يحفرونها ايها الرفيق العقيد .

ـ حسنا ، هيا ارني .

وقبل أن أرد أجده عند الباب يزرر معطفه بسرعة وعصبية .

أحاول ان أقول ان الرمي هناك شديد وانه من المستحسن ألا يذهب .

ـ لا تعلمني ، انا نفسي أعرف .

ويعتمد بورودين على العصا وينهض بصعوبة .

ـ لا داعي لذهابك معنا ، والا ستفقد رجلك الاخيرة . فماذا أفعل عندئذ ؟ هيا يا قائد الكتيبة .

انا وفاليجا وياور قائد الفرقة وهو شاب ذو وجه مستدير ومسطح الى درجة لا تعقل لا نكاد نلحق بالقائد ، وهو يسير بخطوات قصيرة ليست عسكرية على الاطلاق

ويتمايل قليلا ، ولكنه يسير بسرعة وثقة كأنه سار في هذا المكان اكثر من مرة .

أتوقف عند خندق كارنأوخوف ، فيلتفت العقيد نحوي وقد نفد صبره :

ـ لماذا توقفت ؟

ـ مركز قيادة السرية هنا .

ـ فليكن هنا ... اين الخنادق ؟

ـ في المقدمة . خلف تلك المداخن .

ـ ارشدنا !

الخنادق تبدو الآن واضحة . خنادقنا وخنادق الالمان ، فالقمر يسطع بكل طاقته .

ـ انبطح .

وننبطح . العقيد بجواري . أشرح له اين موقع الخنادق السابق واين نحفر الآن . لا يقول شيئا . يسألني عن مواقع الرشاشات فأشير اليها . وعن مواقع الهاونات فأشير اليها . يلتزم الصمت . احيانا يسعل بتحفظ وهو يحاول كتم السعال .

ـ واين تزرع الالغام ؟

ـ هناك ، الى اليسار قليلا ، في الوادي .

ـ لا تفعل ، اسحب الجنود .

لا أفهم شيئا على الاطلاق .

ـ هل سمعت ما قلته ؟ اسحب الجنود ...

أرسل فاليجا اليهم ، ليحددوا الجناح السابق باوتاد صغيرة ، ثم يعودوا . ويهبط فاليجا زاحفا على بطنه دون ان يصدر عنه صوت .

نظل صامتين ، ويتناهى الى اسماعنا تردد انفاس الجنود وهم يحفرون . وفي مكان ما خلف التل يهدر بغيضا صوت « الحمار » وهو مدفع الهاون ذو المواسير الست . وتطير فوق رؤوسنا ببطء ست قذائف هاون بذيول حمراء وكأنها نجوم مذنبة ثم تنفجر بصوت يصم الآذان في مكان ما خلفنا يقع في منطقة مصنع اللحوم . حتى ان الموجة الهوائية التي ولدها الانفجار تصل الينا . اما العقيد فلا يرفع حتى رأسه . يسعل .

ـ أترى رشاشات العدو ؟ على التبة .

ـ أراها .

ـ وهل تعجبك ؟

ـ كلا .

ـ ولا انا .

فترة صمت . لا أفهم القصد من تلميحه هذا .

ـ لا تعجبني ابدا هذه الرشاشات يا قائد الكتيبة ، لا تعجبني على الاطلاق .

لا أقول شيئا . انها ايضا لا تعجبني ، ولكني لا أملك مدفعية ، فكيف أخمدها ؟

ـ حسنا ... غدا لا بد ان تكون هناك .

ـ أين هناك ؟

ـ هناك حيث توجد هذه الرشاشات . مفهوم ؟

ـ مفهوم . ـ أجيب مع اني لا أفهم مطلقا كيف أصل الى هناك .

وبدفعة من يده يقفز العقيد واقفا بخفة كأنه طفل .

ـ هيا بنا .

وبنفس الخفة والسرعة يسير عائدا عبر الحطام دون ان يعتمد على شيء او يتعثر . وفي مركز قيادة السرية يدخن سيجارة غليظة ذات نكهة عطرة من نوع « ماركتنا » على ما أظن . ويقلب صفحات كتاب « مارتن ايدن » الموضوع على المائدة ، ويتطلع الى النهاية ويقطب حاجبيه ساخطا :

ـ انه أحمق ، اي والله أحمق .

ويرفع عينيه نحوي :

ـ أهو كتابك ؟

ـ كتاب قائد السرية الرابعة .

ـ هل قرأته ؟

ـ ليس عندي وقت ايها الرفيق العقيد .

ـ بعد ان تنتهي منه اعطه لي . لقد قرأته في وقت ما ولكني نسيته . لا أذكر الا ان الشاب كان عنيدا . الخاتمة فقط لا تعجبني . نهاية سيئة . أليس كذلك يا بورودين ؟

وتفتر شفتا بورودين الممتلئتان عن ابتسامة خجلي :

ـ لا أذكر ... قرأته منذ أمد بعيد ايها الرفيق العقيد .

ـ كذاب ، لم تقرأه أبدا . ستأخذه بعد ان أنتهي منه ، ربما أفرغ من قراءته قبل حلول العام الجديد . وبعدها أمتحنك كما نمتحن في اللوائح العسكرية . علينا ان نتعلم الكثير من الشاب مارتن هذا . العناد والالحاح .

ويغلق الكتاب بشدة ثم يحول بصره نحوي . يبدو انه يفكر في أمر ما وقد عقد حاجبيه :

— لن يكون هناك قصف تمهيدي بالمدفعية . ما ان يهبط الظلام حتى ترسل مجموعة استطلاع . جنودك على ما يبدو لا بأس بهم . — ويدير رأسه قليلا ناحية الرائد .

— انهم شجعان ايها الرفيق العقيد .

— حسنا . ارسل مجموعة استطلاع بمجرد هبوط الظلام . وبعد ذلك ... متى يبزغ القمر ؟

— في بداية الساعة الواحدة .

— حسنا . في حوالي العاشرة والنصف سنطلق بعض طائرات « او — ٢ » . لقد وعدني تشويكوف بالمساعدة في ذلك اذا استدعى الأمر . وفي الحادية عشرة تبدأ الهجوم . مفهوم ؟

أقول بنبرة عدم ثقة :

— مفهوم .

— لا تصيحوا « هورا ! » ولا تأتوا بأي صوت . ازحفوا على بطونكم ، فلن تستطيع الاستيلاء عليها الا بالمفاجأة . أتفهمني ؟ هل لديك بحارة ؟

— نعم ، حوالي عشرة .

— اذن ستستولى عليها .

ويخيل الي ان شفتيه الدقيقتين الغائضتين عادتا الى الابتسام .

لا أستطيع ابدا ان أفهم كيف أستطيع بستة وثلاثين رجلا ، كلا ، بل بعشرين رجلا على الاكثر الاستيلاء على تبة محصنة بثلاثة رشاشات اساسية ناهيك عن الرشاشات المساعدة ، هذا اذا لم تكن محاطة بالالغام ايضا . أضف الى ذلك ان الاستيلاء عليها هو انجاز نصف العمل ، فعلينا ان نحتفظ بها .

ولكني لا أقول شيئا . أقف بانتباه وأصمت ، ولو ابتلعتني الارض لكان افضل من ان ...

— اعطه حوالي عشرة رجال من الشاطئ يا بورودين ، من الخياطين والاسكافية وما شابه . دعهم يعتادون على الجبهة . وبعد ذلك خذهم .

ويهز الرائد رأسه موافقا في صمت ويمصمص طوال الوقت غليونا يتحشرج ويبقلل . العقيد يدق باصابعه المعروقة على الطاولة . وينظر الى ساعته التي تبدو كبيرة لا تتناسب مع يده النحيلة الجافة . الساعة تشير الى الثانية والربع ... ينهض بحركة حادة قصيرة .

ـ حسنا يا قائد الكتيبة ... ـ ويمد لي يده . ـ اسمك كيرجينتسيف على ما أظن ؟

ـ كيرجينتسيف .

يده ساخنة وجافة .

وعند الباب يلتفت :

ـ اما ذلك الـ ... ما اسمه ؟ .. الذي انتحر غرقا في النهاية ... مارتن ايدن ... لا تعطه لأحد ... اذا لم تأت به فسأذهب اليك بنفسي فوق التبة .

ويخرج الرائد في إثره ، ويربت على كتفي برفق قائلا :

ـ قائد فرقتنا حازم ، ولكنه ذكي ، ابن الكلب ...

ـ ويبتسم هو نفسه لهذا التعبير غير الموفق تماما الذي اطلقه . ـ تعال الي غدا لنبحث الأمر .

° ° °

يعود جنود سلاح المهندسين ، يسحبون الى داخل الخندق شيئا ثقيلا مشوها . ويمسح جاركوشا جبينه ويتنفس بصعوبة .

ـ بوياديجيف جُرِحَ . ـ ويلقى بنفسه على السرير . ـ قطعت شظية فكه .

ويضع الجنود زميلهم الجريح على السرير المقابل في صمت وهم يتنفسون بصعوبة . وينهار هو فوقه كأنه قد فارق الحياة ، غارقا في الدم . ويداه مسدلتان على ركبتيه بضعف ورأسه مائل معصوب بشيء احمر . سترته غارقة في الدم .

ـ اثناء عودتنا ... لمحونا ... واخذوا يضربوننا بالهاونات . كلتسوف قُتل ... ولم نجد له اثرا . اما هذا فقطع فكه .

الجندي الجريح يئن ، يهز رأسه ، وتحت قدميه تكونت بركة صغيرة من الدماء . الممرضة ماروسا تنزع عنه الضمادة . ومن خلال يديها اللتين تتحركان بسرعة ألمح انفه وعينيه وخديه وجبينه وقد التصقت به خصلة من شعره الاسود . اما الجزء الاسفل من وجهه فلا وجود له ، لا شيء سوى اللونين الأسود والأحمر ، يداه تتشبثان بركبتي الممرضة وجونلتها في وهن . ويئن ، يئن ، يئن ...

يقول جاركوشا باعياء وقد سقطت من على رأسه العمرة وبقيت ملقاة على الارض .

ـ كان أفضل جنودنا . زرع اليوم خمسين لغما . ولم يتفوه بكلمة واحدة ...

ثم يصمت قليلا ويقول :

ـ اذن فقد زرعناها عبثا ؟

لا أرد بشيء .

يحملون الجريح .

ويدخن كل جندي من سلاح المهندسين سيجارة ، ثم ينصرفون .

لمدة طويلة لا يراودني النوم .

٨

لست ادري لماذا أُستفز لأقل سبب منذ الصباح . ربما اكون قد هبطت من الفراش على قدمي اليسرى * . في جوربي برغوث يتجول ولا أستطيع طرده . خارلاموف فقد نشرة العمليات العسكرية مرة ثانية . يقف امامي ويطرف بعينيه السوداوين اللتين تشبهان عيون الأرمن ويشيح بيديه : « لقد وضعتها في الدرج ، ولكني لم اجدها هناك الآن ... » . وسئمت الحساء العفن من

* هو تعبير روسي شائع يقال للشخص اذا كان مزاجه عكرا منذ الصباح دون سبب معلوم . المترجم .

بذور الشوفان الذي يقدم الينا كل يوم في الصباح والمساء . والتبغ رطب لا تستطيع جذب انفاس اللفافة . ولم نتلق من موسكو جرائد منذ ثلاثة ايام. ولم يرسلوا لنا من الشاطئ سوى ثمانية من الجنود المشوهين .

كل شيء يستفزني .

قتل جنديان من جنود فاربر باصابة مباشرة في الخندق . لقد قلت له من قبل ان يضع في سقف الخنادق قضبانا حديدية اذ يوجد منها كوم كبير في مصنع المنتجات المعدنية ، ولكنه تباطأ حتى فقد الجنديين . ويستفزني هذا حتى انني اصيح به ، وعندما يستدير في صمت لينصرف أعيده وأجعله يكرر على مسمعي الأمر .

أرسل خارلاموف الى الشاطئ ليحضر بعض المهمات التي لا تلزمني على الاطلاق ، فقط أريد ان أتخلص منه ولا أراه امام ناظري .

أرتمي على الفراش . رأسي يكاد ينفجر . احد جنود الاشارة يجلس في الركن ويطالع كتابا سميكا مهترئ الصفحات .

ـ هات الكتاب ! كفى قراءة هنا !

آخذ الكتاب منه . كتاب « ايام الشدة في سيباستوبول » ، الجزء الثالث . خال من صفحات البداية والنهاية . لا بد انها استخدمت في لف التبغ . أفتح الكتاب اعتباطا فأقرأ : « كانت الخسائر في الافواج فادحة ، اما الامدادات فكانت ضئيلة ، هذا اذا وجدت ، حتى ان اسماء الوحدات كالفوج ، والكتيبة ، والسرية ، فقدت معناها المعروف .

ففي فوج مثل فوج فولينسكي مثلا ، لم يبق اكثر من ألف مقاتل بدلا من اربعة آلاف . وفي جميع افواج الفرقة الحادية عشرة : فوج كامتشاتسكي ، واوخوتسكي ، وسيلينجينسكي ، وياكوتسكي ، وكذلك من افواج الفرقة السادسة عشرة : فوج فلاديميرسكي ، وسوزدالسكي ، واوجليتسكي ، وقازانسكي ، لم يبق اكثر من ألف وخمسمائة جندي في كل فوج ... » .

ألف وخمسمائة . ألف . وماذا لدينا نحن ؟ اذا كان لديّ في الكتيبة ثمانون شخصا ، وفي الفوج ثلاث كتائب ، يعني مائتان واربعون شخصا في الفوج كله . اضف الى ذلك جنود المدفعية والكيميائيين والاشارة والاستطلاع ، حوالي مائة ، فيصبح المجموع

حوالي ثلاثمائة وخمسين . لنقل اربعمائة . حسنا ، فليكن خمسمائة . ولقد قال قائد الفرقة ان الافواج الاخرى اقل منا . وكم جنديا من هؤلاء يحارب ؟ الثلث لا اكثر . فماذا لو ملّ الالمان من ضربهم لمصنع « اكتوبر الاحمر » وتحولوا الينا ؟ ماذا لو دفعوا بدباباتهم نحو فاربر . صحيح ان متراس السكة الحديدية سيعوقهم ، ولكنهم يستطيعون المرور بسهولة تحت الجسر حيث يوجد لديهم رشاش ومدفع . عندئذ ماذا أفعل ؟ ليس لديّ هناك سوى ستة عشر جنديا يرابطون في الحفرات ، ولا توجد أية الغام . بورودين يقول انها ستكون بعد ثلاثة ايام ، اذ يجري حاليا تفريغها في مكان ما ... ولنفرض ان هذا صحيح . سنحتاج الى ليلتين وربما ثلاث لنزرعها . وعليك خلال هذه الايام الخمسة ان تنتظر وتضرع الى الله لكي يظل الالمان وادعين .

أقلب الصفحات واقرأ بعد ذلك :

« اما اصحاب المطاعم فكانوا أحسن الجميع حالا ، فقد نصبوا خيامهم الكبيرة في صف واحد . وبعد المعركة اصبح يزورها الضباط القادمون من حصن

المدينة ليلهوا قليلا ... فكانوا يشربون ويأكلون ويتبادلون القفشات ويضجون بالضحك في هذه الخيام المضيافة التي كانت تضم بوفيها به مختلف انواع الخمور والفودكا والمزة ، ودستة موائد للزبائن ، بل ومطبخ يقع خلف البوفيه ... » .

مطبخ يقع خلف البوفيه . دستة موائد للزبائن ...

أضع الكتاب جانبا ، وأشد المعطف حتى يغطي أذني وأحاول ان أنام .

جندي الاشارة يتحرك ويتنفس بصوت عال في الركن . وساعة الحائط الصغيرة الزرقاء ، ذات العقارب المصنوعة يدويا من صفيح علبة محفوظات ، تدق بلا انتظام . لقد حصل عليها فاليجا من مكان ما .

بودي لو آكل الآن كستليته من لحم الخنزير المحمر بالبقسماط ، ومعها بطاطس محمرة على شكل شرائح رقيقة جافة . أظن ان آخر مرة أكلت فيها كستليته من لحم الخنزير كانت ... لم أعد أذكر متى كان ذلك . في كييف ؟ ام تراني أكلته بعد التحاقي بالجيش . كلا لم يكن ذلك كستليته ، بل لحما آخر محمرا .

أنقلب على جنبي الآخر ، المصباح يرسل دخانا يؤلم عينيّ .

في الساعة العاشرة والنصف ستحلق طائرة « او — ٢ » ، وعليّ في الحادية عشرة ان ابدأ الهجوم ، وفي بداية الواحدة سيظهر القمر . اذن سيكون امامي ساعة وربع ، عليّ خلالها ان أهبط الى الوادي وأصعد من الجانب المقابل وأطرد الالمان من خنادقهم وأتمركز هناك . وماذا لو تأخرت « او — ٢ » ؟ ام تراها ليست طائرة واحدة بل اثنتان او ثلاث ؟ أذكر جيدا ان قائد الفرقة قال « طائرات » لا « طائرة » . يا لي من أحمق ، لم اسأل عن عددها بالضبط . فبعد ان تنتهي الطائرة الاولى من القصف سأهاجم ، فماذا لو جاءت الثانية وقصفتني ؟ المفروض ان أهاجم حالما تنتهي الاولى من القصف وقبل ان يفيق الالمان من المفاجأة . يجب أن أتصل بالرائد ليعرف من قائد الفرقة العدد بالضبط .

يا لها من عيون سوداء ، نافذة النظرة ، عيون قائد الفرقة ! من الصعب ان تنظر فيها طويلا .

يقال انه اثناء الصيف خرج بفرقته من التطويق قرب كاستورنايا وكان يحمل بندقية ويتقدم الصفوف .

يا له من شيطان جسور !

وكيف كان يسير في الخطوط الامامية ... كأن الرصاص وقذائف الهاون لا وجود لها ولا تعنيه . أهو تظاهر منه لكي يتعظ الشباب ؟ يقال ان نابليون ايضا لم يكن يخشى شيئا . لا جسر اركول ، ولا عنابر المرضى بالطاعون ... وعندما دفنوه وجدوا على جسده آثار جروح لم يكن احد يعرف بوجودها ابدا . أظن انني قرأت هذا في كتاب تارلي .

وعموما ، ما هي الشجاعة ؟ انني لا أصدق اولئك الذين يقولون انهم لا يخافون القصف الجوي ، فهم يخافون ، لكنهم يجيدون اخفاء خوفهم ، بينما لا يستطيع الآخرون ذلك . أذكر ان مكسيموف قال ذات مرة : « لا يوجد اناس لا يخشون شيئا . الكل يخاف ، بيد ان البعض يفقدون صوابهم من شدة الخوف ، والآخرون على العكس ، تتجمع كل طاقاتهم في هذه اللحظة ويعمل تفكيرهم بتوقد ودقة ، وهؤلاء هم الشجعان » .

وكان مكسيموف من هذا النوع بالذات . كان ... فمن المحتمل انه لم يعد بين الأحياء . كان الانسان

لا يشعر معه بالخوف في اكثر اللحظات رهبة . فقط يشحب وجهه قليلا ، ويطبق شفتيه ، ويتحدث ببطء كأنه يزن كل كلمة .

حتى اثناء القصف الجوي — عرفنا معنى هذه الكلمة لاول مرة قرب مدينة خاركوف اثناء هجومنا الفاشل في شهر مايو — استطاع ان يحافظ في مقر اركانه على جو من الهدوء ، بل وحتى المرح . فكان يمزح ويضحك ، ويؤلف بعض الاشعار ، ويقص علينا الحوادث الطريفة . لقد كان رجلا طيبا . ولم يعد له وجود . ولا للكثيرين ايضا .

أين ايجور ؟ وشيريايف ؟ وسيديخ ؟ ربما لم يعودوا هم ايضا بين الاحياء ...

لقد عاشوا ، ودرسوا ، وحلموا باشياء ما وفجأة : تراخ ... طلقة ... ويضيع كل شيء : المنزل والأسرة والمعهد ، ومقاومة المواد وتاريخ العمارة ، ومبنى البارثينون .

البارثينون ... على ما أذكر الآن بني في اعوام ٤٥٤ — ٤٣٨ قبل الميلاد ، وهو بناء تحيط به العمدان من كل جانب ، ٨ أعمدة في الواجهة و ١٧ في الجوانب. اما معبد تيزيون فله ٦ أعمدة في الواجهة و١٣ في

الجوانب ... ثم اساليب المعمار الدوريكي والايوني والكورنثي . انني افضل الاسلوب الدوريكي ، فهو اكثرها صرامة واقلها زخرفة .

والعامود يتكون من الستيلوبات وبدن العامود ، والانتبليمنت . اما بدن العامود فيتكون من الفوست والاشين والاباك . كلا لم انس اذن هذه المصطلحات . ثم الانتبليمنت ، والارشيتراف ، والافريز ، والكارنيز ، ام ترى الترتيب بالعكس : الكارنيز اولا ، ثم الافريز ثانيا . حسنا وما اسم تلك الاشياء التي توجد في الاركان ؟ اكرو ... اكرو ... يا للشيطان ! لقد نسيتها اذن ... كلا ، تذكرت ... اكروتير . نعم * .

ومن بنى كنيسة القديس بطرس في روما ؟ اول من بناها برامانتي ، ومن بعده سانجالو او روفائيل على

* الستيلوبات هو قاعدة العامود ، والانتبليمنت هو الجزء العلوى المحمول فوق البدن ، والفوست هو البدن الاساسي بين القاعدة والقمة ، والاشين هو جزء من القمة على شكل وسادة مستديرة ، والاباك هو بلاطة مربعة في نهاية القمة ، والارشيتراف هو العامود الافقى الذي يرتكز على بدن الاعمدة . اما الاكروتير فهي تماثيل او قطع الزينة التي تنتصب فوق اركان البناء . المترجم .

ما أظن ، ومن بعدهم آخرون وآخرون ، ثم مايكل انجلو . لقد بنى القبة . ومن بنى الاعمدة ؟ برنيني يا ترى ؟

ما هذا الهراء الذي يرد الى ذهني . من الآن بحاجة اليه . ينبغي عليّ ان أستهلي على التبة ، بينما أفكر في قبة . ماذا يبقى من القبة اذا سقطت عليها قنبلة زنة طن — لا شيء ...

ماذا أفعل بفاربر اذا فرضنا واستوليت على التبة ؟ ستنقطع الصلة بيننا . وستكون السرية الرابعة في المقدمة ، والخامسة تبرز الى الخلف . ربما يأمروننا باحتلال الجسر ، وربما أمروا بذلك الكتيبة الثالثة ؟ تستولى على الجسر وتتصل بنا فوق التبة . لو حدث هذا لكان شيئا رائعا .

يا للغرابة ... منذ امد قريب جلست انا ولوسي على هذا التل ، واخذت أتطلع الى الفولجا ، والى قطار البضائع في اسفل التل . وتحدثنا وقتها عن الرشاشات . ربما من ذلك المكان بالذات يطلق علينا الرشاش رصاصه الآن .

سألتني لوسي آنذاك ان كنت أحب الشاعر بلوك . يا لها من فتاة مضحكة ، كان من الواجب ان

تسألني بصيغة الماضي هل احببت الشاعر بلوك . نعم كنت أحبه . اما الآن فأحب السكون . أحبه اكثر من اي شيء آخر . أحب ألا يستدعيني احد عندما أريد ان أنام ، وألا يأمرني احد ...

يشدني احدهم من المعطف :

ـ ايها الرفيق الملازم ... ايها الرفيق الملازم ... هناك من يسأل عنك من القسم السياسي ...

أنظر من تحت المعطف الذي أتغطى به . أرى شخصين يرتديان سترات ثقيلة ومعهما حافظتان مملؤتان اوراقا . يبدو انهما مفتشان او ممثلا الاركان جاءا ليشهدا الهجوم الليلي .

يجب ان أنهض .

ساعة الحائط تشير الى الثانية . ما زال امامي تسع ساعات .

٩

يقبل جنود الاستطلاع قبل حلول الظلام . مرتدين قمصانهم ومعاطفهم البحرية ، وعلى اهبة الاستعداد . على ظهورهم بنادق آلية المانية تطل منها مخازن الرصاص.

يؤدي تشوماك التحية العسكرية معلنا انه تحت تصرفي . عيناه تلمعان من تحت خصلة شعره المهدلة . لم أره منذ شجارنا ذاك ، فقد استدعى الى الشاطئ .

حديثنا رسمي للغاية . أحدد له المهمة والوقت ونقطة الانطلاق . ويعرف هو نفسه كل هذا قبل ان أخبره ، ولا نتحدث عنه إلا لأنه ينبغي الحديث عن ذلك . وعموما فليس لدينا ما نتحدث عنه غير هذا . وهو لا يحاول ابدا ان يخفي هذا الأمر . ونبرة صوته باردة ، جافة ، لامبالية . عندما تلتقي عيناه بعيني يطل منهما السأم وقليل من السخرية . جنوده ، وهم ثلاثة ، خصلاتهم مهدلة مثله ، ومعاطفهم مفكوكة الازرار وايديهم في جيوبهم ، يقفون جانبا ويتطلعون الينا ، وبين شفاههم اعقاب لفائف .

ـ هل ستأخذون معاطف التمويه ؟

ـ كلا .

ـ ولماذا ؟ عندي بالمناسبة اربعة منها .

ـ لا داعي .

ـ أتريدون فودكا ؟

ـ اننا نشرب فودكانا ، لا نحب شراب الغير :

ـ حسنا ، كما تشاؤون .
ـ يمكنك ان تشربها نخب صحتنا .
ـ شكرا .
ـ العفو .
وينصرفون ذاهبين الى كارنأوخوف . وعندما أذهب اليه أجدهم قد رحلوا .
القبو الذي يحتله كارنأوخوف ضيق ، لا يمكن ان تتحرك فيه . هناك مندوبان من القسم السياسي ، وشخص من اركان حرب الفرقة . ورئيس الاشارة في الفوج . كلهم مراقبون . وأدرك ضرورة وجودهم ومع ذلك يستفزونني بحضورهم . وكلهم يدخنون بلا انقطاع تقريبا . وهذا شيء يحدث دائما قبل القيام بعمل هام . مندوب اركان حرب الفرقة برتبة نقيب يدون شيئا ما في مفكرته وهو يبلل القلم بلعابه .
ـ هل أعددت جيدا سير العملية ؟ ـ يسأ لني ويرفع اليّ عينيه الباهتتين . اسنانه طويلة ، بارزة الى الامام فوق شفته السفلى .
ـ نعم اعددته .
ـ القيادة توليها اهتماما كبيرا . هل تعرف ذلك ؟

ـ أعرف .
ـ وكيف الحال بالنسبة للجناحين ؟
ـ أي جناحين ؟
ـ عندما تتقدم الى الامام ، بم ستغطي الجناحين ؟
ـ بلا شيء . ستساندني الكتيبتان المجاورتان. ليس لديّ عدد كاف من الجنود . اننا نقوم بمغامرة .
ـ هذا أمر سيئ .
ـ طبعا سيئ .
ويدون شيئا ما في مفكرته .
ـ وما هي الموارد البشرية التي تملكها ؟
ـ انني لا املك موارد بشرية ، بل حفنة من الناس . سيقوم بالهجوم اربعة عشر رجلا .
ـ اربعة عشر ؟
ـ نعم . اربعة عشر . ومثلهم سيبقى في مواقعه . المجموع ثمانية وعشرون .
ـ لو كنت مكانك لما تصرفت بهذه الطريقة ...
ويتطلع في مفكرته .
لا أحول عيني عن اسنانه . ترى هل تختفي اسنانه احيانا ، ام انها بارزة هكذا طوال الوقت ؟

أخرج من جيبي علبة السجائر ببطء .

ـ عندما تصبح في مكاني تصرف بالطريقة التي تروقك ، اما الآن فلتسمح لي بالتصرف كما يرتأي لي .

ويضم شفتيه الى الحد الذي تسمح به اسنانه . اما مندوبا القسم السياسي فيدونان شيئا ما بعناية في دفاترهم الميدانية وقد انكبوا عليها برؤوسهم . يا لهما من شابين رائعين ، يدركان ان الاسئلة الآن غير مناسبة ، ولذلك يمارسان عملهما في صمت .

لا يعود احد يقول شيئا .

الوقت يزحف ببطء . ويتصلون بنا من الاركان كل لحظة يسألون عما اذا كان جنود الاستطلاع قد عادوا ام لا . يتحول النقيب باسئلته الى كارنأوخوف . ويجيب هذا على جميع الاسئلة بهدوء ، مبتسما احيانا ، ويبادلني النظرات ، ويخبره بالتفصيل عن تسليح الجنود ، وعدد القنابل اليدوية لدى كل منهم وعدد الطلقات . انه صبور كالجمل ، كارنأوخوف هذا . اما النقيب فيدون في مفكرته بلا كلل .

يبدو اني سأضطر الآن ان اطلب منهم ان ينصرفوا

جميعا من هنا . بوسعهم ان يجلسوا في مركز قيادة الكتيبة لو شاؤوا . وعلى العموم فليس لديهم هنا ما يشتغلون به . لقد عرفوا ما ارادوا ان يعرفوه ، وفتشوا ، ويمكنهم ان يتابعوا سير المعركة من هناك .

الساعة تشير الى التاسعة والربع . اعصابي بدأت تضطرب . من المفروض ان يكون جنود الاستطلاع قد عادوا الآن . اخبرنا الجندي القادم من الخطوط الامامية انهم عبروها منذ مدة طويلة ، ولا يسمع الآن هناك شيء . ويطلق الالمان صواريخ الاضاءة والرصاص كالعادة . لا يبدو انهم اسروهم او لاحظوهم .

أخرج الى الفناء .

الليلة شديدة الظلام . شيء ما يشتعل في مكان خلف مصنع « اكتوبر الأحمر » . وتلوح هياكل الابراج السوداء المحطمة كأنها مرسومة بالحبر الصيني . وعلى الشاطئ الآخر يدوي مدفع وحيد ، يضرب ويصمت ، ثم يضرب ويعود يصمت كأنه يصغي . والرشاشات تطلق رصاصها ، وصواريخ الاضاءة ترتفع ، وهي اليوم صفراء لست أدري لماذا ، ربما تكون الصواريخ البيضاء قد انتهت لدى الالمان . في الجو رائحة خشب محترق

وكيروسين . على بعد خطوتين منا يوجد قطار يحمل وقودا ، ويرى اثناء النهار بوضوح من هذا المكان . وطوال الوقت يتسرب منه الكيروسين خلال ثقوب الرصاص في جوانب عرباته . ويتسلل اليه الجنود ليلا ليملأوا مصابيحهم .

أبحث عن برج النجوم المعروف لي ، كما كنت أفعل في طفولتي . انها كوكبة الجبّار ، اربع نجوم ساطعة وحولها حزام من ثلاث نجوم اقل حجما ، ثم نجم آخر ، صغير للغاية ، لا يكاد يُرى . لم أعد أذكر أي نجم منها اسمه « بيتيلجيزيه » . وكذلك فقد نسيت موقع نجم « الديبيران » .

أحس بيد تحط على كتفي فأنتفض .

ـ فيم سرحت يا قائد الكتيبة ؟

أميز بصعوبة في الظلام هيئة كارنأوخوف الضخمة .

ـ ابدا ... في لا شيء . أتطلع الى النجوم .

ولا ينطق بشيء ، فنقف نتطلع الى وميض النجوم . وتطفو الى السطح تلك الافكار المختبئة عادة في سراديب الوعي ، عن الخلود والكون ، والعوالم الاخرى التي

كانت موجودة ثم انقرضت ، ولكنها ما زالت حتى الآن تومض لنا من الفضاء اللانهائي الاسود . النجوم تنطفئ وتضيء ، ولا ندري عنها شيئا . ولن يدري احد ابدا انه في هذه الليلة المظلمة من شهر اكتوبر ماتت نجمة عاشت ملايين السنين ، او ولدت اخرى جديدة سيعلمون بوجودها ايضا بعد ملايين السنين .

ويقول كارنأوخوف :

ـ لقد بدأ الثلج يسقط في سيبيريا الآن .

واجيبه :

ـ أعتقد ذلك .

ـ وحل الصقيع .

ـ ويبيعون اللبن هناك قطعا متجمدة . أليس صحيحا ؟

ـ اما في فلاديفستوك فلا زالوا يستحمون .

ـ يقال ان البحر هناك بارد .

ـ بارد ، ومع ذلك يستحمون .

وراء الفولجا بمسافة بعيدة جدا ، تتردد طقطقة « او ـ ٢ » ضعيفة لا تكاد تسمع . أهي طائرتنا ؟ وجنود الاستطلاع لم يعودوا بعد . نصغي الى صوت الطائرة

الذي يزداد اقترابا . انها تطير الى اليمين قليلا ، ثم تبتعد . ليست طائرتنا . نسمع صوت انفجارات مكتومة بعيدا ، عند مصنع الجرارات . وتجول الكشافات الالمانية في السماء بقلق ، وتتسع دوائر ضوئها ، وتضيق ، وتنطفئ ثم تعود تشتعل .

بينما نقف ونتطلع الى الكشافات والى سلاسل القذائف المضادة للطائرات الالمانية وهي تتلوى في الجو حمراء وصفراء وخضراء ، والى صواريخ الاضاءة التي تنطفئ ببطء في الوادي . لقد تعودنا على هذا المنظر ، لدرجة انه لو اختفى فجأة لشعرنا بنوع من الضيق ، ولاحسسنا بأن شيئا ما ينقصنا .

ـ ما رأيك ، هل سنستولى على التبة يا قائد الكتيبة ؟ ـ يسألني كارنأوخوف بصوت خافت جدا .

واجيبه :

ـ سنستولى عليها .

ـ وانا ايضا أعتقد اننا سنستولى عليها ـ ويضغط بيده على كتفي برفق .

واسأله :

ـ ما اسمك ؟

ـ نيقولاي .

ـ وانا اسمي يوري .

ـ يوري . لي اخ اسمه يوري . بحار .

ـ أهو حيّ ؟

ـ لا أدري . كان في مدينة سيباستوبول . يعمل في غواصة .

ولست أدري لماذا أقول له :

ـ من المحتمل انه ما زال حيا .

ويرد كارنأوخوف بعد برهة :

ـ محتمل .

وبعدها نصمت .

نجم يهوي عاليا في السماء . كانوا في الزمن الغابر يقولون في هذه الحالة ان روحا رحلت الى العالم الآخر . نهبط الى أسفل . لا تستطيع ان تميز الوجوه خلال سحب دخان التبغ . مندوبا القسم السياسي جالسان القرفصاء يتناولان طعاما محفوظا . قائد الاشارة نائم مرتكزا على الحائط ورأسه مائل جانبا . النقيب يقرأ جريدة قرب المصباح . وعندما يرانا يرفع رأسه ويقول :

ـ الساعة الآن العاشرة الا ربعا .

ـ العاشرة الا ربعا ...

ـ ولم يعد جنود الاستطلاع ؟

ـ لم يعودوا .

ـ هذا سيئ .

ـ ربما .

أنظف فتيل المصباح بدبوس ، وهو لا يكاد يضيء ، اذ ان الهواء لا يكفي .

ـ أرجو كل من لا يشترك في العملية بصورة مباشرة ان ينتقلوا الى مركز قيادة الكتيبة .

عينا النقيب تستديران ، وينحي الجريدة جانبا .

ـ لماذا ؟

ـ هكذا ...

ـ أرجو الا تنسى انك تخاطب من هو اعلى منك رتبة .

ـ انا لا أنسى شيئا . انني اطلب منك ان تنصرف من هنا . وهذا كل ما في الأمر .

ـ وهل أعطلك ؟

ـ نعم تعطلني .

ـ وكيف ؟

ـ بوجودك هنا . بدخانك . ألا ترى الجو حولك ؟ لا يستطيع الانسان ان يتنفس .

أشعر انني بدأت أتفوه بكلام فارغ .

ـ ان مكاني هو نقطة مراقبة الكتيبة . ويجب ان أراقب عملك .

ـ اذن فانت تنوي ان تظل بجواري طوال الوقت ؟

ـ نعم أنوي ذلك .

ـ وستهاجم التبة معي ؟

يظل يحدق فيّ بحدة لعدة ثوان دون ان يطرف . ثم ينهض بحركة استعراضية ، ويطوي الجريدة بعناية ويدسها في محفظته ، ويستدير نحوي ، ويقول وهو يلفظ كل كلمة بعناية وبطء :

ـ حسنا . سنتحدث في مكان آخر .

ويخرج الى الخندق الضيق المكشوف . اثناء خروجه تشتبك حقيبته بمسمار ، ولا يستطيع ان يخلصها لمدة طويلة . مندوبا القسم السياسي يضحكان . وينتهيان من تناول طعامهما . ليس عندي اعتراض على وجودهما ، ولكني لم أكن أستطيع طرد النقيب وحده .

ويضحكان وهما مدركان الوضع ، ويتمنيان لي التوفيق ثم ينصرفان .

وعلى الفور اصبح القبو اكثر اتساعا . يمكنني على الأقل ان أمد قدمي بدلا من الجلوس القرفصاء طوال الوقت .

لست أدري لماذا قلت للنقيب انني ذاهب لاحتلال التبة ، اذ لم يكن في نيتي الاشتراك في الهجوم . ففي الصباح دار بيني وبين الرائد حديث بهذا الصدد . وقد اطلعني على افتتاحية جريدة « النجم الاحمر » بعنوان : « مكان القائد في المعركة » . وكانت المقالة تدين القادة الذين يقودون وحداتهم بانفسهم اثناء الهجوم . اذ على القائد ان يرى كل ما يجري ويديره . اما في الصفوف الاولى فلن يرى شيئا . أظن ان هذا صحيح .

ولكن هذه العبارة عن التبة خرجت من تلقاء نفسها اثناء حديثي مع النقيب ، وعلى العموم ، من يدري كيف يمكن ادارة المعركة على البعد اثناء الليل ، فالاتصال قد ينقطع في اية لحظة ، وعندئذ تجلس كحيوان الخلد في جحره ، بلا عيون ولا آذان .

عقربا الساعة يلتصقان ويقفان جامدين عند العاشرة .

يتصلون مرة ثانية من الاركان ويسألون هل عاد جنود الاستطلاع ام لا . مناوب غرفة العمليات ومساعد الشؤون الادارية كوروبكوف هو الذي يسأل . عندما يكون مناوبا لا نذوق للراحة طعما : « بلغني عن الموقف . هل تكفي بذور اللب . ألا تريدون خيارا ؟ » — وبذور اللب تعني الطلقات (البذور السوداء هي طلقات البنادق ، والبيضاء هي طلقات البنادق الآلية) ، اما الخيار فهو قذائف الهاون ...

وتطل رأس تشوماك من الخندق في نفس اللحظة التي أعيد فيها السماعة لجندي الاشارة . ثم يظهر خلف تشوماك بقية جنود الاستطلاع ، متسخي الملابس ، متقطعي الانفاس ، وجوههم مبللة بالعرق . ويمتلئ المكان على الفور .

لا أوجه اية اسئلة . أنتظر .

ويقترب تشوماك من الطاولة متبخترا ويجلس على الصندوق . ويعب جرعات كبيرة من الوعاء . يمسح شفتيه دون عجلة ، ثم جبينه ، فرقبته . ويخرج من

جيبه بضع علب سجائر المانية خضراء ، ويلقى بها على الطاولة :

ـ دخنوا .

ويضع سيجارة ذات حلقة ذهبية في مبسم من البلاستيك الشفاف كالزجاج .

ـ يمكنكم ان تبدأوا . الطريق مفتوح . ـ ويومئ برأسه لجنوده قائلا : ـ انتهينا من العمل . انتم احرار حتى الصباح .

واسأله :

ـ هل هناك ألغام ؟

ـ في موضع واحد فقط . مقابل المدفع ذي الماسورة المحطمة ، الى أعلى قليلا .

ـ كثيرة ؟

ـ لم أحصها . نزعنا حوالي خمسة منها ، من النوع ذي الشوارب ، مضادة للمشاة على ما أظن ، محشوة بالرش .

ويلمع في يده جهاز تفجير الغام نحاسي الماني ، ذو ثلاثة اسلاك منتصبة الى أعلى ، ويسميها جنود سلاح المهندسين شوارب . اللغم نفسه يدفن تحت الارض

ولا يبقى فوقها الا هذه الشوارب . فاذا دست عليها يضغط الزناد على الكبسولة ، فتشعل الكبسولة البارود ، فيفجر الشحنة الدافعة ، ويقفز اللغم فوق الارض وينفجر في الجو ناشرا كرات الرش في جميع الجهات . انه لغم حقير .

ـ لا تسيروا يسار المدفع ، اما عن يمينه بحوالي مائتي متر فلا يوجد شيء .

ـ وهل عدد الالمان كبير ؟

ـ الشيطان وحده يعلم ... يبدو انهم ليسوا كثيرين ... يجلسون في الخنادق المسقوفة ويديرون الحاكي . يستمعون الى اغنيتنا « كاتيوشا » ...

ويبحث تشوماك عن شيء ما في جيوبه .

ـ ألا تكتب اشعارا ؟

وتحدق فيّ بسخرية عينه السوداء التي تحيط بانسانها دائرة ذهبية ، من تحت خصلة شعره .

وأجيب :

ـ كلا . وما الأمر ؟

ـ أردت ان أهديك قلما اتوماتيكيا . قلم جيد . ومعه دواية حبر خاص .

ـ كلا ، لا أكتب اشعارا .

ـ أمر مؤسف . لقد كنت أعتقد انك تكتب ، فمنظرك يبدو شاعريا .

ويدير بين اصابعه قلما جميلا تكسوه حلية من معدن المَلَخيت ، ثم يدسه في جيبه .

ـ خلّصنا على احد الالمان . كان في الحراسة .

أتصل بالاركان وأبلغهم ان جنود الاستطلاع قد عادوا . ويقدم فاليجا لنا فودكا . لا أشعر برغبة ، ولكني أشرب مع ذلك حوالي مائة جرام . ويبتسم تشوماك بسخرية ويقول :

ـ ألكي يشعر الجنود بالمرح ؟

لا أرد عليه . وأبحث عن البندقية الآلية . كارنأوخوف ايضا يستعد . تشوماك يقضقض المبسم باسنانه ، ويقول :

ـ هل ستذهب بعيدا ؟

ـ كلا ، ليس بعيدا جدا .

ـ لا أنصحك بالذهاب الى التبة . المكان هنا اكثر راحة .

أوقظ رئيس الاشارة . لم يكن قد انصرف مع

الذين انصرفوا . ويطرف بعينين لا تفقهان شيئا مما يدور وما زال النوم يشد اجفانهما .

ـ تولّ القيادة هنا بدلا مني ، فانني ذاهب .

ـ الى أين ؟

ـ الى هناك .

ـ أها ...

أنظر الى عينيه فأدرك انه لا يفهم شيئا .

ـ راقب مع رئيس اركاني خارلاموف . اذا رأيتم ان الامور ساءت افتحوا النار .

ينهض ويفرك عينيه بقبضتيه :

ـ حسنا ... حسنا ...

انا لا أعرفه تقريبا ، لم أره سوى مرة واحدة في اجتماع لدى بورودين . وهو يقول انه فتى ذكي . رتبته ملازم أول ، وقد انهى فصولا ما في الاكاديمية .

فاليجا يريد ان يأتي معي ، ولكني أعتقد انه لا داعي لذهابه .

لقد التوت قدمه ، ويعرج منذ ثلاثة ايام .

ـ كيف هذا ... ـ ينظر اليّ مدهوشا بعينين صغيرتين غير راضيتين ، تطلان من تحت جبين مستدير بارز .

أضع مخزن طلقات في البندقية الآلية .

ـ ألا تريد ان تتناول شيئا قبل ان ترحل ؟ لدينا طعام محفوظ . لحم مدخّن . انك لم تتغد كما يجب . سأفتح العلبة .

كلا . لا أشعر برغبة في الطعام . سآكل عندما نعود . ومع ذلك يدس في جيبي كسرة من الخبز وقطعة من الشحم ملفوفة في ورقة جريدة . عندما كنت أذهب الى المدرسة كانت امي ايضا تدس لي افطاري وانا منصرف . لكنه كان آنذاك كعكة او « سميطة » مشقوقة نصفين ومدهونة بالزبد .

١٠

طائرة « او ـ ٢ » تتأخر عن موعدها حوالي عشر دقائق ، فتبدو لي دهرا . ممنوع التدخين في الخندق المكشوف ، فلا تعرف بم تشغل نفسك . والخندق صغير وضيق ، يدب الخدر في قدمي بسبب الجلسة غير المريحة . بجواري جندي ، متقدم في السن ، سيبيري الأصل ، يقضقض خبزا جافا . فبدلا من الخبز العادي سلمونا اليوم خبزا مجففا مرة اخرى . ألمح على

ضوء صواريخ الانارة كرتين صغيرتين تتحركان على خديه الغائرين غير الحليقين .

كارنأوخوف في الجناح الأيمن . اما هنا فيقود الموقع سنديتسكي قائد الفصيلة ، وهو شاب لا يتمتع بذكاء كبير ولكنه شجاع . كان يصد الهجمات الالمانية بشكل جيد عندما كنا في مصنع المنتجات المعدنية . بل لقد جرح ، صحيح انه جرح بسيط ، ولكنه لم يذهب الى مستشفى الكتيبة .

جاري يكف عن القضقضة ويقول :

ـ أتسمع ؟

ـ ماذا ؟

ـ أليس هذه « او ـ ٢ » ؟

نسمع من ناحية الفولجا طقطقة ، ما زالت بعيدة جدا . ونحاول ان نكتم انفاسنا . الصوت يقترب . نعم . انها طائرتنا . تطير نحونا مباشرة . أرجو ألا تخطئ وتقصفنا نحن ، فالمسافة بيننا وبين الالمان حوالي سبعين مترا ، لا اكثر . من المحتمل ان تقصفنا . يقال ان الطيارين في هذه الطائرات يلقون القنابل بأيديهم ، وهي ليست قنابل بل قذائف هاون عادية .

الصوت يقترب . صوت ملحاح ، فيه نوع من الألفة ، وليس حربيا على الاطلاق ... هذه « او — ٢ » الـ « كوكوروزنيك » كما نسميها نحن ، او الـ « روس — فانير » كما يسميها الالمان . يسمونها في الصحف قاذفة ليلية خفيفة . وتبدو كأنها صرصار كبير يطن . هناك نوع من الصراصير الليلية ذات الطنين الرتيب ، تظل تطن وتطن ولا يمكنك ان تراها ابدا .

« او — ٢ » اصبحت فوق رؤوسنا تماما ، تقوم بدورة ، يبدو انها تحدد الموقع . بدأ الالمان يضربون من وراء التل . لا يشعلون الكشافات لانها لن تصطادها فهي على ارتفاع منخفض جدا .

ستلقى الآن قنابلها ...

— هيا !

كأنها تختبر مدى صبرنا .

لقد اتصل بي الرائد واخبرني ان القصف ستقوم به طائرة واحدة ، على دفعتين ، تدور بعدها في الجو حوالي عشر دقائق لتمكنا من الاقتراب .

« او — ٢ » تقوم بالدورة الثانية ، يخيل اليّ ان الجندي الذي يجلس الى جواري يسمع دقات قلبي .

أريد ان أدخن بشكل فظيع . ولو كنت بمفردي لجلست القرفصاء ودخّنت .

« او — ٢ » تلقي قنابلها ، فتفرقع كأكياس الورق المنتفخة عندما تضربها بيدك . تسقط بعيدا عن الخنادق الالمانية الى حد ما ، وعلى العموم ، يبدو ان الرشاشات في ذلك المكان .

دورة اخرى ... والصفارة التي أطبق عليها تشد فكيّ نحوها وتستدر لعابي ، بمثل هذه الصفارة التي تشبه المزمار ، يسجل حكام كرة القدم الاهداف .

الطائرة تقصف مرة ثانية . في هذه المرة تصيب الخنادق تماما . نخفي رؤوسنا . تطير بعض الشظايا فوق خندقنا بصفيرها المعهود . وتظل احداها تدور فترة طويلة فوق رؤوسنا كأنها زنبور ، ثم تقع بالقرب مني تماما على حاجز الخندق ، بيني وبين الجندي ، ساخنة جدا حتى ليصعب ان تمسها باصابعك . شظية صغيرة مشرشرة . لست أدري لماذا تسري القشعريرة في ظهري .

« او — ٢ » تطلق دفعات قصيرة ، سريعة من رشاشها ، كأنها تبصق .

حان الوقت ...

أعطي الاشارة كاتما بيدي الصفارة قليلا ، وأصغي . أسمع الى يميني صوت انهيار قطع من الطين الصلب .

ترى سنستولى عليها ام لا ؟ لا يمكن الا ان نستولى عليها . أذكر نظرة قائد الفرقة عندما قال : « اذن فستستولون عليها » .

أخلع البندقية الآلية عن رقبتي ، وأزحف هابطا . حقل الالغام اصبح خلفي . ها هو المدفع . انه على بعد حوالي عشرين مترا ، الى جانبي . والى يساري ثلاثة جنود ، وهم يعلمون ان السير هناك ممنوع فقد حذرتهم . لا أراهم بل أسمع فقط صوت زحفهم .

ما زالت الطائرة تحوّم . الالمان لا يطلقون صواريخ الاضاءة ، يخشون كشف مواقعهم . وهذا حسن بالنسبة لنا .

ترى هل ستقصف الطائرة مرة اخرى ؟ ربما يكون احدهم قد اساء الفهم ، وبدلا من القصف مرتين ستقصف ثلاثا ... سوء الفهم هذا يحدث احيانا . او ربما ينسى الطيار نفسه ، او يعن له ان يقذف بعض القنابل ليرعب العدو ...

أقطع قاع الوادي زحفا . وأتشبث بالشجيرات الصغيرة ، ثم أصعد على جانب الوادي المقابل . آمل الا أصطدم بالالمان فجأة ... ولكن تشوماك قال ان خنادقهم تبدأ بعد الشجيرات . الى يميني تطقطق الاغصان ، فالشجيرات جافة . ليسوا حذرين على الاطلاق.

أزحف صاعدا الى أعلى فأعلى . أحاول ألا أتنفس ، ولا أدري لماذا . كأن احدا يستطيع ان يسمع صوت انفاسي . امامي نجمة ، نجمة كبيرة ، ساطعة ، ضوءها لا يرتعش . أزحف نحوها مباشرة .

وفجأة يدوي فوق اذني تماما صوت : طراخ — طاخ — طاخ — طاخ ، فألتصق بالارض . يخيل لي انني احس بالهواء المندفع على اثر الرصاص . من أين ظهر هذا الرشاش ؟

أرفع رأسي قليلا . لا أميز شيئا على الاطلاق ... شبح ما يلوح مظلما ... الهدوء مطبق ، لا طقطقة ، ولا حفيف . طائرتنا اصبحت الآن خلفي . سيبدأ الالمان اضاءة الجهة الامامية حالا .

أريد ان أعطس ، فاضغط على أنفي بكل قواي ، وأحك ارنبته . أواصل الزحف . الشجيرات الصغيرة

اصبحت خلفي . الآن ستبدأ خنادق الالمان . قطعت خمسة امتار ، قطعت عشرة . لا شيء على الاطلاق . أزحف بحذر ، وأتحسس الارض امامي بيدي ، فالالمان يحبون زرع الغام مبعثرة هنا وهناك . ويصل الى سمعي من مكان ما تحت الارض صوت انغام الفوكستروت ، يعزفها ساكسوفون ، وبيانو وآلة اخرى لا أعرفها .

طراخ – طاخ – طاخ – طاخ ...

ذلك الرشاش مرة اخرى . لكنه اصبح الآن خلفي . يا للشيطان ، ما هذا ؟ أ أكون قد نجحت في الزحف ؟ أسمع صراخا مكتوما . طلقة . ثم الرشاش من جديد . لقد بدأت المعمعة .

ألقى قنبلة أمامي كيفما اتفق ، باتجاه شيء أسود . وأقفز مندفعا . أحس بكل عضلة في جسمي ، وكل عصب فيه . تمرق في الظلام اشباح كأنها طيور منزعجة . تترامى صرخات متفرقة ، وضربات مكتومة ، وطلقات ، وسباب قبيح خلال اسنان مزمومة . انا الآن في الخنادق . الارض تنهار تحت الاقدام . وشرائط الرشاشات تلتف على الارجل . ادوس على شيء طري ، دافئ ، لزج ... واشياء تنتصب فجأة امامي ، ثم تختفي ...

انها المعركة الليلية ، اعقد انواع المعارك . معركة افراد متفرقين . الجندي فيها هو كل شيء . وسلطانه لا حدود له . والذي يحسم نتيجتها هو الشجاعة والغريزة والحدس ، وحضور البديهة . لا مكان فيها لذلك الحماس الجماهيري المتفاني الذي تراه في المعركة النهارية ، ولا تشعر هنا بساعد الرفيق الى جوارك ، وليس فيها صيحة « هورا ! »، هذه الصيحة التي تخفف عنك وتخفي مشاعرك وتحمسك . ولا ترى هنا المعاطف الالمانية الخضراء ، ولا الخوذات او العمرات ذات الشارات الصغيرة فوق الجبهة والتي تصوب نحوها البندقية . لا ترى شيئا حولك . وليس ثمة طريق للوراء . فانك لا تعرف أين الامام وأين الوراء .

كما انك لا ترى نهاية المعركة ، بل تحس بها . وبعد انتهائها يصعب عليك ان تتذكر تفاصيلها . ومن المستحيل وصف المعركة الليلية او الحديث عنها . في الصباح تجد على جسدك كدمات وبقعا زرقاء ودما . ولكن اثناء المعركة لم تكن تحس بكل ذلك . بل تحس بالخنادق ... ثم انعطاف ... شخص ما ... ضربة ...

طلقة ... الزناد تحت اصبعك ، وكعب البندقية ... خطوة الى الوراء ، ثم ضربة . ثم هدوء شامل .

من هذا ؟ من رجالنا ... وأين رجالنا ؟ هيا بنا . قف !.. لماذا تصرخ ، انه من رجالنا ...

أحقا استولينا على التبة ؟ لا يمكن . أين الالمان ، في اي جانب هم ؟ أين اختفوا ؟ لقد زحفنا من ذلك الجانب . أين كارنأوخوف ؟

ـ كارنأوخوف ! كارنأوخوف !

ـ انه هناك . امامنا .

ـ أين ؟

ـ عند الرشاش .

في مكان بعيد امامنا يهدر الرشاش الذي اصبح ملكنا .

١١

فَقَدَ كارنأوخوف عمرته ، والآن يبحث عنها في الظلام تحت أرجلنا .

ـ عمرة طيبة ، من اللبد . طوال الحرب وهي معي . يا للأسف .

ـ ستجدها في الصباح . لن يأخذها أحد . ويضحك .

ـ إيه ايها الرفيق القائد ؟ استولينا على التبة ؟

ـ نعم يا كارنأوخوف ، استولينا عليها !

وأضحك أنا أيضا وأريد أن أعانقه واشبعه تقبيلا . الجهة الشرقية أصبحت صفراء . عما قريب سيعم الضياء .

ـ أرسل شخصا إلى مركز القيادة ليمدوا أسلاك التليفون .

ـ أرسلت بالفعل . بعد نصف ساعة سوف نتحدث الى الرائد .

ـ ألم تحص الرجال ؟

ـ أحصيتهم . الموجودون عشرة ، والغائبون أربعة . جنود الرشاشات كلهم حاضرون . لقد وزعت جنود الرشاشات اليدوية . أما الرشاشات الثقيلة ، فأعتقد أنه لا بأس من وضع واحد هنا ، أما الآخر ... أقول له :

ـ الآخر هناك ... الى اليمين قليلا . أترى ؟

ـ هلا ذهبنا الى هناك لنرَ ؟

ـ هيا بنا .

نسير بحذاء الخنادق ، نحنى ظهورنا ونبحث ، فلربما توجد أوكار رشاشات أخرى . تدل الشواهد على أن خطوط الدفاع الألمانية دائرية . ولكننا لا نرى أو نسمع الألمان أنفسهم . صوت رصاص إلى يميننا ويسارنا ، في قطاع الكتيبتين الأولى والثالثة . تعودت أعيننا على الظلمة ، وأصبح بامكاننا تمييز بعض الأشياء . نصطدم مرتين بجثث الألمان . ما زال شيء ما يشتعل خلف مصنع « اكتوبر الاحمر » .

ـ وأين سينديتسكي ؟

ـ أنا هنا ـ فجأة يتردد صوته في الظلام ، وبعد ذلك تلوح هيئته .

ـ اسرع إلى مركز القيادة ، قل لخارلاموف أن يجعل الجنود يتركون خنادقهم السابقة ، ويتصلون مع جناحنا الأيمن . واعرف بالضبط حدود جناحه أثناء ذهابك . اعتقد انه ينتهي عند ذلك الدغل . أليس كذلك يا كارنأوخوف ؟

ـ نعم ، لا يوجد أحد بعد ذلك .

ـ مفهوم يا سينديتسكي ؟ أسرع ، رِجْل هنا والأخرى هناك .

ويختفي سينديتسكي . نعثر على مكان للرشاش ثم نعود . نصطدم بشخص ما في الظلام .

ـ أ أنت القائد ؟

ـ نعم . ماذا تريد؟

ـ لقد عثرت على خندق مسقوف رائع . هيا أدلك عليه . لم تر مثله أبداً .

انه صوت تشوماك .

ـ وماذا تفعل هنا ؟

ـ ما تفعله أنت .

ـ ولكنك كنت تريد أن ترتاح .

ـ غيرت رأيي ...

ويتقف تشوماك فجأة فأصطدم به .

ـ لماذا توقفت ؟

ـ اسمع أيها القائد ... لقد اتضح لي أنك ...

ـ ماذا ؟

ـ كنت أظنك شاعراً ، تكتب بعض الأبيات .. ولكن ظهر أنك ...

ـ حسنا ، هيا ، دلنا على الطريق .

لا يقول شيئا ، ونتابع سيرنا . يهب نسيم خفيف ، فيحرك شعرنا بلطف ويتسرب الى أجسادنا عبر الياقات . رؤوسنا تدور قليلاً ، بينما تشعر بخفة عجيبة في بدنك . مثل هذا تحسه في الربيع ، في وقت مبكر من الربيع ، بعد أول نزهة تقوم بها خارج المدينة . الهواء يسكرك ، وساقاك تؤلمانك لأنك لم تتعود بعد على السير ، وبدنك كله يؤلمك قليلاً ، ومع ذلك لا تستطيع التوقف ، بل تسير ، وتسير ، وتسير الى مدى البصر ، وقد فتحت أزرارك ، ونزعت قبعتك ، وتعب ملء صدرك نسيما دافئاً ، عطراً الى درجة مذهلة .

لقد استولينا مع ذلك على التبة . وليس بمثل تلك الصعوبة التي كنا نتصورها . يبدو أن عدد الألمان كان قليلاً . تركوا هنا مجرد حاجز ، بينما ركزوا قواهم على « اكتوبر الأحمر » . ولكنهم لن يتركوا الأمر يمر هكذا ، فأنا أعرفهم جيداً . فاذا لم يحاولوا الآن استرداد التبة ، فسيفعلون ذلك في الصباح حتما . لو يسعفنا الوقت لنقل المدافع عيار ٤٥ مم الى هنا ومحاصرة الوادي . ولكن خارلاموف سيرتبك كعادته ، وينشغل

في البحث والترتيب والاستعداد . ولكن رئيس جنود الاتصال معه ، وبوسعهما الانتهاء من ذلك معا ، فليس أمراً معقدا الى هذه الدرجة . ما زالت معي المجاريف التي أخذتها من سينيتسين ، وسيستطيع الجنود الانتهاء من حفر الخنادق قبل حلول الصباح ، وغداً ليلاً سأبدأ في زرع الألغام .

نجمة بيت لحم أصبحت الآن فوق رأسي تماماً . خضراء لا ترتعش كعين القط . قادتني الى هنا ثم توقفت لا تبرح مكانها .

وبزغ القمر ببطء ، وتعلق فوق خط الأفق تماماً ، أصفر ، لا يضيئ بعد . المكان هادئ كأنه حقل . أحقا كانت هنا معركة ؟

° ° °

ثم نجلس في الخندق المسقوف . خندق عميق ، مسقوف بأربع طبقات من الجذوع ، وفوقها طبقة من التربة سمكها نصف متر . الجدران مكسوة بألواح خشبية مغلفة بورق يشبه المشمع . وعلى الحائط ، فوق طاولة للعب الورق مكسوة بلبد أخضر وأرجلها مقوسة ،

علقت بطاقات بريد ، رسم عليها غصن شجرة عيد الميلاد وبجواره شمعة محترقة ، وجرو ذو عينين مستديرتين قد سكب دواة الحبر ، وقزم ذو « طرطور » أحمر ، وملاك يسبح في السماء . والى الأعلى قليلاً صورة الفوهرر في حالة من الزهو والعظمة وقد أطبق شفتيه ، ويرتدي معطفا من المشمع اللامع .

على الطاولة مصباح ذو أباجورة خضراء ، وخمس زجاجات وسردين معلب ، وقفاز من جلد الماعز الرقيق ملقى على السرير .

تشوماك يشعر بنفسه كصاحب الدار ، ويصب لنا الكونياك في كؤوس ذات سيقان رقيقة وعليها حروف أولى من اسم ما .

ـ لقد اعتنى الفوهرر بطعامنا .. شكرا له .

الكونياك طيب ، قوي ، يبهر الأنفاس .

كارنأوخوف يشرب كأسه ثم يخرج على الفور. أما تشوماك فيتفحص باهتمام غصون الكرم المتشابكة المرسومة على بطاقات القوارير .

ـ ما أثقل يدك أيها الملازم . لم أكن أظن أنها هكذا أبداً .

ـ أي يد ؟

وتبتسم عيناه الذهبيتان .

ـ هذه اليد التي تمسك بها السيجارة .

لا أفهم شيئا .

ـ حتى الآن ما زلت أحس بكتفي الأيسر وكأنه غريب عني .

ـ أي كتف أيسر ؟

ـ ألا تذكر ؟ ـ ويقهقه بمرح مطوحاً برأسه الى الوراء ـ ألا تذكر كيف ضربتني بكعب البندقية ؟ ضربتني بكل قوتك ، على كتفي الأيسر .

ـ مهلاً ... مهلاً ... متى حدث ذلك ؟

ـ متى ؟ منذ نصف ساعة فقط . في الخندق ، ظننتني أحد الألمان ، فضربت بكل عنف ... حتى لقد انطلق الشرر من عيني . وأردت أن أرد على الضربة من غيظي ، ولكني وجدت ألمانيا أمامي ، فناولته ...

... نعم ، أذكر أنني ضربت شخصا بالبندقية ، ولكني لم أميزه في الظلام .

ـ تستحق ساعة على هذه الضربة ـ يقول تشوماك وهو يبحث في جيبه ـ انها ساعة طيبة ، ذات أحجار كريمة .

ونضحك معاً .

يقتحم الخندق جنديا الاشارة ومعهما صناديقهما وبكرات السلك . يتنفسان كأنهما قاطرتان بخاريتان .

— وصلنا بصعوبة . كدنا نقع في ضيافة الفاشيست.

— كيف ذلك ؟

أحد جنديي الاشارة ، وهو شاب أبيض مائي العينين يخلع من رقبته جهاز التليفون وهو يتأفف . ويقول :

— انهم هناك في الوادي يزحفون كالصراصير .

— في أي وادٍ ؟

— في ذلك الوادي إياه .. الذي كانت فيه خطوطنا الأمامية .

عينا تشوماك تصبحان فجأة حادتين ، ضيقتين .

وأسأله :

— أأنت وحدك أم مع زملائك ؟

— لا داعي للزملاء .. سأرى الأمر بنفسي ...

ويلتقط بندقيته الآلية ويختفي خلف الباب وقد نسي حتى أن يرتدي معطفه البحاري .

أنكون قد حوصرنا فعلا ؟

يسحب جنديا الاشارة السلك خلال الباب .

— هل أنتما متأكدان أن الألمان في الوادي ؟

ويرد الجندي الأبيض :

— ليس هناك اكثر من هذا تأكد . اصطدمنا بهم وجها لوجه ، كانوا خمسة ، وأطلقنا عليهم النار .

— ربما كانوا جنودنا . . يحتلون المواقع الجديدة ؟

— أي جنودنا ! .. جنودنا لم يكونوا قد غادروا الخنادق بعد عندما ذهبنا . وقابلنا في الطريق قائد الفصيلة ، ذلك الذي يلف رقبته . كان يبحث عن رئيس الأركان .

— اذن هيا أوصلني بالكتيبة .

ويعلق الجندي الأبيض سماعة على أذنه :

— آلو ... جوبيتر ... جوبيتر ... آلو ...

أعرف من نظرة عينيه الباهتتين ذات الرموش البيضاء أن أحداً لا يرد .

— جوبيتر ... جوبيتر ... أنا المريخ .

فترة صمت .

— خلاص . قطعوا الخط ، الأوغاد ! اذهب يا ليشكا وتحرّ الأمر ...

ليشكا فتى أحمر الأنف ، عريض الأذنين ،

يرتدي عمرة واسعة بطريقة غير معقولة . يدمدم بكلام ما ، ولكنه يذهب .

ـ قطعوا الخط ، واضح ... ـ يقول الجندي الأبيض بهدوء ، ويلتقط من خلف أذنه لفافة تبغ يبدو أنه لفها سلفا عندما كان لا يزال في مكانه السابق .

أخرج من الخندق . يتناهى الى سمعي طلقات بنادق آلية من جهة الوادي ، وطلقات أخرى متفرقة .

ثم يظهر تشوماك .

ـ بالضبط يا قائد الكتيبة . وقعنا في حلقة .

ـ وقعنا اذن ؟

ـ وقعنا . الألمان مرابطون في الخنادق على هذا المنحدر .

ـ كثيرون ؟

ـ هل بوسعك أن تميز شيئا . يطلقون النار من جميع الجهات .

ـ وأين كارنأوخوف ؟

ـ يغير موضع الرشاش . سيأتي حالا .

ويخرج تشوماك علبة سجائر خضراء من جيبه .

ـ دخـن . انها غنيمة .

وندخـن .

ـ نعم يا تشوماك وقعنا ، وما في ذلك شك !

ـ وقعنا ـ ويضحك تشوماك ـ ولكن لا تحزن أيها القائد ، سنجد مخرجاً . جنودي هنا . ومعنا رشاشات ، والذخيرة على قفا من يشيل ، فقد ترك الألمان كل شيء وهربوا . بل لدينا عشاء ساخن في الترموسات ، فماذا ينقصنا ؟

يأتي كارنأوخوف . لقد تمركز في خطوط دفاع دائرية . ووجد رشاشين ألمانيين ، وكثيرا من القنابل اليدوية ، حوالي عشرة صناديق لم تُفتح ، الى جانب ما يوجد منها في أوكار الرشاشات وفي الحفرات .

ـ السيئ في الأمر أن خنادقهم ليست على مرمى نيراننا ، فالمنحدر شديد الانحدار .

ـ وما مجموع ما لدينا من الرجال ؟

ـ اثنا عشر من المشاة ، فلم أعثر على اثنين حتى الآن ، وطاقمان لرشاشين ثقيلين ، وجنديان لرشاشين يدويين ، وآخران لرشاشين ألمانيين . يعني ستة .

ويضيف تشوماك :

— وجنودي ثلاثة ، ثم نحن هنا ثلاثة ، واثنان من جنود الاتصال . بوسعنا أن نعيش .

أقول :

— اذن المجموع ستة وعشرون .

ويحصي كارنأوخوف في ذهنه :

— كلا ، اثنان وعشرون . لا تحسب جنود الرشاشات اليدوية ، فهم ضمن أولئك الاثني عشر .

لا ينقطع دوي الرصاص من جهة الوادي ، فتارة يشتد ، وتارة يخفت . يبدو أنهم جنودنا يفتحون النار من الجانب الآخر والألمان يردون عليهم . الرصاص المضيئ ينتقل من أحد جوانب الوادي الى الجانب الآخر وكأنه خيوط نسيج رفيعة . من الصعب على الألمان أن يطلقوا علينا الرصاص من الوادي . ان مركزهم أيضا ليس طيبا ، فهم محاصرون من الجانبين .

ثم يتحول اطلاق الرصاص الى يسارنا . الألمان يجمعون أنفسهم ليحكموا علينا الحصار . لكنهم لا يطلقون الصواريخ المضيئة ، ولذلك يصعب أن تحدد الآن مقدمة خطوطهم .

نذهب للتفتيش على نقط النار .

١٢

حدث كل شيء بطريقة غبية . لم يكن هناك داع لاشتراكي في الهجوم ، فقائد الكتيبة عليه أن يدير المعركة ، لا أن يشترك في الهجوم . وها قد ساقني عنادي الى هذا الوضع . اعتمدت على الكتيبة الأولى . ولكني اتفقت مع سينيتسين وأكدت عليه : اذا أطلقتُ صاروخا أحمر ، فعليه أن يفتح النار من جميع أنواع الأسلحة ويقوم بمظاهرة صغيرة ، لكي يتمكن بقية جنودي من احتلال المواقع الجديدة . وعلى العموم ، يبدو أنهم فتحوا النار ، ولكن الذنب على خارلاموف ورئيس جنود الاشارة ، فقد تباطآ . أما ذلك النقيب ذو الأسنان البارزة فكأنه كان يشعر بما سيحدث ، فسألني عن الأجنحة . تراه الآن ثائر ، أم تراه يتشفى . اعتقد أنه ينتمي الى الطراز الثاني من الناس . ولا بد انه يتصل بجميع التليفونات ويقول : « لقد قلت له وحذرته ... ولكن حتى لم يشأ أن يصغي الي . وطردني . وها هو ما وصل اليه ... »

بالطبع يمكننا الآن أن نكسر الطوق ونعود الى وحداتنا ، ولكن ما هي النتيجة ؟ سنفقد التبة ، ولن نستطيع

احتلالها بعد ذلك ولو جحظت عيوننا . واذا جلسنا هنا نرد على نيران الألمان ، فهذه أيضا حماقة . ولكني لا أظن أن رجالنا سيظلون مرابطين هناك ، في الجانب الآخر من الوادي ، دون أن يفعلوا شيئا . وهذه اللحظة مناسبة تماما لكي تتحرك الكتيبة الثالثة وتعزل الجسر ثم تتصل بنا .

ستكفينا الذخيرة لمدة يومين تقريبا ، حتى ولو ظللنا طوال الوقت نصد الهجمات . طوال نهار أمس ظلت رشاشاتنا صامتة عن عمد ، كنا نقتصد في الذخيرة . ولدينا قنابل يدوية أيضا . ولكن الجنود هم القليلون وكلهم على رقعة أرض . لن نجد مهربا من قذائف الهاون الألمانية .

في بداية الساعة الخامسة يبدأ الالمان هجومهم . يحاولون التقدم بطريقة غير ملحوظة ، وبالرغم من أن رشاشاتنا لم تتخذ بعد أفضل الأوضاع ، الا أننا نصد أول هجمة بسهولة كبيرة . ولم يتمكن الألمان من الوصول حتى الى الخنادق .

خنادقنا متصلة مع الألمان في موضعين . فهناك خندقان للاتصال متعرجان يمتدان ناحية أبراج المياه .

عميقان يغطيان القامة تقريبا . لم نكن نراهما من جانبنا . وآمر بردمهما في عدة أماكن .

واكتشف خطأ جديداً . لم نأخذ معنا مجاريف الحفر ، ولم نجد سوى ثلاث مجاريف ألمانية فقط ، ولكنها صلبة ، من الحديد ، ذات مقابض ناعمة .

وما أن نبدأ الردم حتى يقصفنا الألمان بالهاونات . في البداية تعمل بطارية ، ثم اثنتان ، وقبيل المساء تبلغ ثلاثاً . قذائف الهاون تنفجر بلا انقطاع ، الواحدة تلو الأخرى ، يقصفوننا بالطريقة المنهجية الألمانية المعهودة . نجلس في الخنادق المسقوفة تاركين في الخارج بعض المراقبين فقط .

يصاب جنديان . أحدهما جرحت رجله ، والآخر فقد إحدى عينيه . نضمد جرحيهما برباط الاسعاف الشخصي ، فليس لدينا غيره .

بعد منتصف النهار تبدأ هجمات جديدة . ثلاث هجمات متتابعة . تشترك فيها سريتان على الأقل . ولكنها لا تزعجني ما دام لدينا رشاشات ، فبالرشاشات الأربعة التي معنا يمكننا أن نصد ولو فوجا كاملاً . ولكن الوضع سيصبح سيئا لو ظهرت الدبابات . فالمكان

مستوٍ من جهة الخزانات كسطح الطاولة . وليس لدينا غير بندقيتين مضادتين للدبابات من طراز سيمونوف . ربما فطن زملاؤنا الى وضع مدافع عيار ٤٥ مم على الجانب الآخر من الوادي .

في حوالي الساعة الثالثة تبدأ مدفعيتنا الثقيلة القصف من على الشاطئ الآخر ، وتستمر حوالي ساعة . وتصوب بدقة كبيرة . ونتمكن خلال هذه الفترة من تناول غدائنا . قذائف مدفعيتنا تنفجر على مسافة قريبة منا ، على بعد حوالي مائة متر من خطوطنا الأمامية . وينفجر قسم منها قريبا جداً منا ، حتى أن شظاياها تطير فوق رؤوسنا . لا يزعجنا الألمان لمدة ساعتين تقريبا .

وبعد ذلك ، وقبل المساء بالضبط ، يشنون هجمتين ، ثم قصف بالمدفعية ، ويكفون ويعم السكون ، وتظهر الدفعة الاولى من الصواريخ المضيئة .

١٣

يستلقي تشوماك على السرير الخشبي ويحكي لنا عن امرأة تدعى موسا ، تعمل في مستشفى .

أنا وكارنأوخوف ننظف مسدسينا .

المصباح ذو الأباجورة الخضراء ينشر ضوءاً هادئاً الى درجة مدهشة .

ويقول تشوماك :

— هل تعرف صرامة النظام هناك ؟ في مستشفى كويبيشيف . البوابة تغلق بالقفل . ويقف أمامها حارس تماما كما في السجن ، ولا يسمح لك بالنزهة الا في الفناء الضيق . والجدران تحيط بك من جميع الجهات ، وفي وسطها هذا الفناء الاسفلتي وبه بعض المقاعد ، ويباع فيه « الجيلاتي » . ولك اذن أن تتجول في هذا الفناء وتنتقد جمال الممرضات . وبالمناسبة فالممرضات لا بأس بهن ، جريئات ، وان كن يخفن من رؤسائهن . يجلسن بجانبك على المقعد أو على السرير ، لا مانع ، ولكنهن لا يسمحن لك أن تصنع معهن شيئا .. يقلن لك : ممنوع ... وكفي ... وعندما كنت طريح الفراش ، لم أجد ميلاً اليهن ، حتى أنني بدأت أتشكك في نفسي ، ولكن ما أن بدأت أمشي على قدمي حتى شعرت أنني أنشط وأخذ دمي يفور .. ولكن بلا فائدة ، اذ تقول لك الممرضة : « ممنوع أيها الرفيق المريض .. يجب أن ترتاح .. وتشفى .. » ويالها من راحة ! ما بين النوم

على السرير والذهاب مساءاً الى السينما . والافلام كلها قديمة مثل : « الكساندر نيفسكي » و « بوجارسكي » و « فتاة ذات شخصية » . واثناء العرض تنقطع كأنها خرق بالية . ورائحة الجبس خانقة .. أف !

ويبتسم كارنأوخوف بزاوية فمه ويقول :

ـ ادخل في الموضوع مباشرة .. كنت بدأت تحكي عمن تدعى موسا .

ـ لا تقاطعني ، سأحدثك أيضا عن موسا . واذا كان حديثي لا يعجبك فلا تصغ . اذهب وتفقد رشاشاتك . سأحكي للملازم ، فهو لم يرقد في المستشفى ولا مرة . يجب أن أعلّمه .

ويمد يده فيأخذ سيجارة ثانية :

ـ سجائر خفيفة ، حقيرة ! لا تشبع منها ... ـ ويتحول نحوي بطريقة استعراضية ويواصل حديثه ـ يدي اذن كانت في الجبس ، فقد تهشمت عظمة الكعبرة اليسرى . وعند النوم لا يمكنك أبداً أن تضعها في وضع مريح ، إذ تظل دائما ممتدة . ولحظي الحسن ان الكسر جاء أسفل المرفق ، أما أولئك الذين كسرت أيديهم أعلى المرفق ، او تحطمت عظمة

الترقوة فحالهم أسوأ . اذ وضعت حول صدورهم أقفاص من الجبس مثل صدفة السلحفاة ، بينما أيديهم محمولة على رباط . وكانوا يسمونهم في المستشفى « الطائرات » . فهم يسيرون بينما تمتد أيديهم أمامهم مسافة نصف متر . أما جرحي الثاني فكان في إليتي ، وما زالت الشظية فيها حتى الآن . وان كنت لا أحس بها ، أما حينذاك فلم اكن أستطيع الجلوس حتى على القصرية للتبرز الا بعد « مولد » ... وكنت أخجل من موسا .. يا لها من امرأة ! ضفيرتاها غليظتان .. ورداؤها مشدود على جسدها . طبعا أنت فاهم . كانت تجلس الى جانبي ، وانا بعد طريح الفراش وتطعمني بالملعقة « عجة » من مسحوق البيض ، بينما جسدي كله ينتفض رغبة فيها ... وبعد ذلك تعلمنا القفز من النوافذ .. خصوصا من نوافذ الحمام .. فالارتفاع لا يزيد عن مترين . تضع قدميك على مواسير التدفئة وقاعدة الشباك تصبح على مستوى ذقنك . وكان هناك نقيب يرقد معي . مهندس مثلك . شاب مهذب ، مثقف ، كان يعمل قبل الحرب كبيرا للمهندسين في أحد المصانع ، فكنا نقفز معاً ، وليس علينا الا سراويل المستشفى وقمصان

النوم المطبوع عليها خاتم المستشفى . وخلف الزاوية كان لنا معارف في أحد المنازل ، فكنا نبدل ثيابنا ثم ننطلق الى المدينة . وكان النقيب جريحا في بطنه ، ولكنه تماثل الى الشفاء وقتها . وكان يتسلل أولا ثم يشدني من ذراعي الموضوعة في الجبس وهكذا كنا نتسلل . ولكن رئيسة القسم اكتشفت الأمر فأغلقوا النافذة ، عند ذاك تعلمنا تسلق مواسير المياه . وأبدعنا في ذلك ! .. وكان معنا جندي بلا ساقين . فكان يثبت العكازين في احدى يديه ، وينزلق كأنه قرد ، فلا ترى الا طلاء الحائط يسقط في اثره . الناس تتأقلم مع كل شيء ، ولو دفنتهم تحت الأرض فسيجدون مخرجا .

ويضحك كارنأوخوف ، ويقول :

ـ عندما كنت في باكو كان المرضى يهربون أثناء العرض السينمائي ، فلا تسمع خلف النافذة الا أصوات سقوطهم على الأرض . الواحد تلو الآخر ، وعندما ينتهي العرض لا تجد في القاعة الا المرضى الراقدين على الأسرّة ..

ويقاطعه تشوماك دون أن يلتفت نحوه :

ـ وماذا تكون السينما الى جانب ما كنا نصنعه ! لقد جدلنا ، نحن نزلاء العنبر السادس ، سلماً من الحبال . لا يقل عن السلم الحقيقي في شيء ، وصنعنا له عوارض .. وظللنا نستخدمه طوال اسبوعين . ولم يرنا أحد ، اذ كان تحت نافذتنا شجرة كبيرة جداً . وذات مرة جاؤا لتنظيف النوافذ ، فقد كانوا يتوقعون زيارة من المسؤولين للمستشفى ، فاكتشفوا سلمنا ، فاستدعى نزلاء العنبر كله لمقابلة رئيسة القسم . ولكن بلا نتيجة ، ففي اليوم التالي تحول التسلل الى العنبر السابع ...

الفئران تخشخش بين عوارض سقف الخندق . ومن مكان ما بعيد ، فوق ظهر الأرض تنفجر قذائف هاون ليلية متفرقة .

القزم ذو اللحية الصفراء يجلس فوق نبات الفطر ويدخن غليونا طويلا معوجا ذا غطاء . أما الملاك فيطير في سماء سوداء كثيفة . والجرو ينظر بدهشة الى دواة الحبر المقلوبة . وقد صنع شخص ما لهتلر لحية وشاربا رائعا كشارب موباسان ، فأصبح يشبه الآن اعلانا على واجهة صالون حلاقة .

الجرحى في الخندق المجاور ، ويطلبون ماءً

طول الوقت ، بينما الماء لا يكاد يكفي ، فلم يبق الا ترموسان ألمانيان لعشرين شخصا .

صددنا اليوم سبع هجمات ، وفقدنا أربعة جنود قتلى ، وأربعة جرحى ورشاشاً واحداً .

أدهن المسدس بالزيت وأضعه في القراب ، وأتمدد على السرير .

ويسأ لني تشوماك :

ـ أتنوي النوم أيها الملازم ؟

ـ كلا ، سأتمدد فقط .

ـ هل مللت سماع حديثي ؟

ـ أبداً .. أبداً . واصل ، انني اسمعك .

ويواصل حديثه . وأرقد على جنبي استمع الى هذه القصة الخالدة عن ممرضة المستشفى التي استحوذ عليها ، وانظر الى جسده الممدد على السرير باسترخاء وعليه قميص البحارة ، والى أصابع كارنأوخوف الضخمة اللامعة بقطرات الزيت والتي تعبث في المسدس ، والى خصلة الشعر التي تتدلى على وجهه ، بينما يعيدها الى الخلف كل لحظة بيد مقوسة حتى لا يلوث وجهه بالزيت . ولا أستطيع أن أصدق أننا منذ ساعة أو ساعتين

كنا نصد الهجمات ، ونجر الجرحى عبر الخنادق الضيقة المزعجة ، وأننا الآن نجلس على رقعة من الأرض معزولين عن بقية زملائنا .

وأسأل تشوماك :

ـ وهل الحال في المستشفى حسن يا تشوماك ؟

ـ نعم .

ـ أحسن من هنا ؟

ـ وهل هناك شك . هناك ترقد مثل ذكر الخنزير ، لا تفكر في شيء . ليس عليك الا أن تأكل ، وتنام ، وتتعالج .

ـ ألم تشعر بالشوق الى ذويك ؟

ـ من هم ذويَّ ؟

ـ زملاؤك في الفوج ، جنودك .

ـ طبعا كنت اشتاق اليهم ، ولذلك خرجت قبل الموعد بشهر ، حتى قبل أن يزول أثر الجرح .

ويضحك كارنأوخوف قائلا :

ـ وكيف تقول ان الحال هناك حسن .. ليس عليك الا أن تأكل وتنام ...

ـ لم تسخر ؟ كأنك لم ترقد في المستشفى وتجرب

بنفسك . في المكان الذي لا تكون فيه يبدو لك أن الحال حسن . فاذا جلست هنا ، شعرت بالحنين الى المستشفى ، لكي تلهو هناك قليلا ، وتنعم بالملاءات النظيفة . فاذا كنت هناك ركبك القلق ، وشعرت بالحنين الى الخطوط الأمامية ، الى الرفاق ...

ويجمع كارنأوخوف مسدسه ، وهو مسدس كبير ، ذو مقبض مريح ، ماركة « فالتير » ، أخذه غنيمة من الألمان ، ثم يدسه في القراب .

ـ كم مرة رقدت في المستشفى يا تشوماك ؟

ـ ثلاث مرات . وأنت ؟

ـ مرتين .

ـ أما أنا فثلاث . مرتين في مستشفيات الجبهة ، والثالثة في المؤخرة .

ويضحك كارنأوخوف قائلاً :

ـ عندما تعود الى الجبهة بعد المستشفى يراودك احساس غريب . أليس كذلك ؟ تجد نفسك مضطراً الى التعود على الجبهة من جديد .

ـ عندما تعود من مستشفيات الجبهة فلا بأس ... فالمرء عادة لا يبقى في تلك المستشفيات طويلاً .

أما بالنسبة لمستشفيات المؤخرة ... عندما عدت من مستشفى مدينة كويبيشيف راودني شعور بالخجل .. فما أن تنفجر قذيفة هاون حتى تجد نفسك منبطحاً ...

ويضحكان معاً .. تشوماك وكارنأوخوف .

ويقول كارنأوخوف وهو يمسح يديه الملوثتين بالزيت في سراويله الثقيلة :

ـ أمر غريب حقا أيها الرفيق الملازم ... عندما تكون مرابطا في الخندق المكشوف ، يخيل اليك أنه لا يوجد مكان أحسن وأهدأ من خندقك المسقوف . بل ويبدو لك مركز قيادة الكتيبة وكأنه في المؤخرة .. اما مركز قيادة الفوج أو الفرقة ... الجنود يطلقون على كل من يرابط على شاطئ الفولجا اسم « جنود المؤخرة » .

ويقاطعه تشوماك ، فهو عموما لا يستطيع أن يجلس صامتا :

ـ أو لم تر أولئك الذين يرابطون على بعد مائة كيلومتر من الخطوط الأمامية ويخبطون على صدورهم مفاخرين بأنهم في الجبهة ؟ كان لدينا في المستشفى واحد منهم ...

وفجأة يتوقف عن الكلام ، وتتسمر نظرته على الباب ، ويقول :

— من أين جئت ؟

وينظر كارنأوخوف أيضا الى الباب .

انه فاليجا ... فاليجا بلحمه ودمه ، برأسه الكبير ، وجبهته المستديرة ، وحذائه الواسع جداً المقوس الطرفين الى أعلى ، يقف بالباب في معطف يصل الى كعبيه ، يبدو أنه معطفي ، يقف خجلا ، متردداً .

— من أين ظهرت يا فاليجا ؟

— من هناك ... من مواقعنا ...

ويؤدي التحية العسكرية بخجل ، وهو دائما يؤديها بطريقة سيئة . وينزع عن ظهره كيساً ...

— لقد جئتك بلحم مدخّن ، وبمعطفك ...

— هل جننت ؟

— ولماذا أجن ؟ لم أجن على الاطلاق . خذ ، هذه مذكرة صغيرة لك .

— من أرسلها ؟

— أعطاها لي خارلاموف ، رئيس الأركان .

— وهل هو الذي أرسلك الى هنا ؟

— ليس هو على الاطلاق . أنا الذي جئت بنفسي ... — ويخرج فاليجا من الكيس علب اللحم المحفوظ ورغيفين من الخبز . — كنت أرتب الأشياء في الكيس ، بينما كان يتحدث حول أمر ما مع ذلك الذي جاء من رئاسة الأركان ، وقالا أنه من الضروري الاتصال بك ، فقلت لهما أنني ذاهب اليك ، فأخذ يبحث عن شيء ما ، ثم أعطاني هذه المذكرة .

ويخرج ورقة بلوك نوت مطوية أربع مرات من جيب سترته المحشو بالأوراق والرسائل كجيب أي جندي . ويمدها لي . وأقرأ الكلمات التالية المكتوبة بخط خارلاموف المنمق :

« ٥ — ١٠ — ٤٢ — ١٢ — ١٥ م ق * الإعصار .

الرفيق الملازم . أبلغكم حسب الأمر الذي وصلنا من رقم ٣١ ، أننا سنقوم اليوم في الساعة الرابعة تماما بهجوم للاتصال بكم من الجناح الأيمن وبغرض عزل تجمع العدو المتمركز في الوادي وتدميره . وأخبركم أنني تلقيت مدداً في الرجال مقداره ٧ (سبعة) جنود .

---

* م ق : اختصار لكلمتي مركز قيادة .

كذلك اتصلوا بنا من « العاصفة » وأخبرونا أن قائداً جديداً جاء ليحل محلك في قيادة تشكيلنا ، ولكنا لم نره بعد . كيف أحوالك أيها الرفيق الملازم . جاءنا في وقت مبكر من صباح اليوم النقيب أبروسيموف ومعه عدة أشخاص من التشكيل الأعلى . اصمد أيها الرفيق الملازم . سنخف لنجدتك .

م . خارلاموف (خارلاموف) »

وتوقيعه مثل توقيع الوزراء ، منبسط ، مائل ، مثل الأسلوب الباروكي الرائع في المعمار ، ومجموعة هائلة من المنحنيات والأقواس والنقط ، كأنها طيور تحوم حول الحرف الأول من اسمه .

أمزق المذكرة وأحرق قصاصات الورق . آه منك يا خارلاموف . أمثل هذه المذكرات ترسل عبر الخطوط الأمامية ! خارلاموف ، في جوهره ، شاب لا بأس به ، بل وحتى مجدٌّ ، ولكنه شديد الـ ...

يزفر فاليجا بصعوبة ، ولا يستطيع فتح علبة الطعام المحفوظ بفتّاحة ألمانية الصنع ذات عجلة صغيرة في طرفها . ولا يسألني حتى ان كنت أريد ان آكل أم لا . أما أنا فلا أوجه اليه أية أسئلة ، خشية

أن تخونني مشاعري وتفضحني نبرة صوتي . الأسئلة يوجهها الآخرون : كارنأوخوف ، وتشوماك ... وفاليجا يرد بلا رغبة :

ـ لم يعرقلني الا المعطف ، فهو طويل . أما فيما عدا ذلك فلا بأس . كنت قد لمحت أثناء النهار ثغرة بين الخنادق لديهم .. الى اليسار قليلاً . وفي الليل ... أتريد أن أسخّن لك الطعام أيها الرفيق الملازم ؟

ـ كلا ، لا داعي . ثم انه ليس لدينا ما نسخّن به .

ويضحك تشوماك قائلاً :

ـ أتراك نسيت أن تحضر موقد الكيروسين معك ؟

وبدلاً من الاجابة يخرج فاليجا من جيب المعطف موقد كحول ألمانياً متنقلاً ، وحفنة من أقراص الكحول الجاف البيضاء والتي تشبه قطع السكر . ويضعها على المائدة دون أن يلوح على وجهه حتى ظل ابتسامة .

ـ لا داعي يا فاليجا ، سنلتهمها كما هي .

وننقض نحن الأربعة على العلبة بشهية فنفرغها من محتوياتها ، يا له من شيء رائع ، هذا اللحم المدخّن!

١٤

الساعة تشير الى الثالثة والنصف صباحا . الرابعة الا ربعا . الرابعة . نحن ننتظر . الرابعة والنصف .. الخامسة ... الهدوء شامل ... السادسة ، السابعة ... الضوء ينتشر . نكف عن الانتظار .

سنبقى يوما آخر اذن .

خلال نصف النهار الأول كله يصب علينا الألمان سيلاً من قذائف الهاون المتوسطة ، بل والثقيلة . وفي حوالي الساعة الثالثة يبقى منا اثنا عشر رجلاً بعد أن كنا ستة عشر . ويموت أربعة من جرحى الأمس . اعتقد أنهم ماتوا بسبب تسمم الدم . أصيب واحد منهم بمرض التيتنوس . ويا له من مرض مرعب . لقد مات أمام عيني ، ولم يكن شاباً ، بل في حوالي الأربعين . كان قد أصيب في ذراعه الأيمن برصاصة متفجرة أسفل مرفقه بقليل . وكان يخشى أن يضطر الأطباء لبتر ذراعه ، فقد كان قبل الحرب خراط معادن .

— كيف يمكنني العيش بدون يد ؟ — يقول بلهجة أوكرانية ويضع على ركبته بحذر يده المربوطة الى

خشبة من صندوق الذخائر — في عملنا هذا لا يمكن أن يعيش المرء دون يده . ومن الأفضل ، اذا تحتم ، أن يفقد رجله .

وكان ينظر بتساؤل تارة اليَّ ، وتارة الى كارنأوخوف ، كما لو كان لرأينا أهمية خاصة . فأخذنا نواسيه ، قائلين إن العظم سيلتئم بسرعة ، واللحم أيضا سينمو ، وأن العصب سليم ما دام بوسعه أن يحرك أصابعه . وقد جعله كلامنا يهدأ ، حتى لقد أخذ يقص علينا قصة تطوير أدخله على ماكينة الخراطة التي كان يعمل عليها قبل الحرب . ثم بدأ وجهه يتقلص ، وفغر فاه في ابتسامة رهيبة قلقة . وسرت في بدنه كله رعشة ، وتقوس جسده وأصبح مرتكزا على الأرض بكعبيه وقفاه . وصار يصرخ ، ولم نستطع أن نجعل جسده مستقيماً .

وقال كارنأوخوف :

— انه التيتنوس . عندما كنت في مستشفى الكتيبة ، مات أحدهم بهذا المرض .

وبعد ساعتين مات الجريح .

اسمه فيسينكو . عرفت ذلك من بطاقة الجندية . أين سمعت هذا الاسم ؟ أتذكر فيما بعد . انه أحد

الجنديين اللذين كانا يحفران الخنادق ليلاً عندما كنت عائداً من حقل الألغام . ولم يستطيعا آنذاك أن يدلا جندي الاتصال على قائد الكتيبة .

تصيب قذيفة هاون عيار ١٢٠ مم خندقنا . من الناحية النظرية يجب أن يتحمل خندقنا الضربة فهو مسقوف بأربع طبقات من القوائم الخشبية التي يبلغ سمك الواحدة منها خمسة وعشرين سنتيمتراً ، بالاضافة الى طبقة من التربة فوقه . ولكنه من الناحية العملية يصاب بالعطب ، صحيح أن سقفه تحمل الضربة ، ولكن الانفجار أطار بكساء الجدران الخشبي ، فامتلأ الخندق بالتراب .

ننتقل الى الخندق المجاور الذي يرقد فيه الجرحى . عددهم أربعة . أحدهم يهذي . وهو مصاب في رأسه . يهذي بأحواض غسيل من الزنك ، ثم ينادي شخصاً ما ، ويعود يتحدث عن أحواض الغسيل مرة أخرى . وجهه أبيض كالشمع ، وعيناه مغلقتان دائماً . يبدو أنه سيموت هو الآخر .

لا ندفن الموتى ، فقذائف الهاون تئز وتنفجر حولنا بلا انقطاع . وخلال دقيقة واحدة أحصيت ستة

انفجارات . هناك فترات راحة ، ولكنها لا تتجاوز خمس أو سبع دقائق . وخلال هذه الدقائق السبع نتمكن فقط من استرداد أنفاسنا والتأكد من أن الجنود المراقبين في الخارج ما زالوا أحياء .

ندخن ثلاثتنا — أنا وكارنأوخوف وتشوماك — آخر لفافة جمعنا تبغها من جيوبنا كلها ، نصفها تبغ ، والنصف الآخر فتات خبز . هذا آخر ما تبقى لدينا من التبغ . وقد أتينا أيضا على كل ما تبقى من أعقاب .

الماء على وشك النفاد ، فقد أصيب واحد من الترموسين بشظية ، ولم نلاحظ ذلك الا بعد أن تسرب الماء كله تقريبا ، فقد انحنيت لأرفع القلم ، واذا بيدي تغوص في بركة ماء صغيرة . أما الترموس الثاني ففيه عشرة لترات لا أكثر . بينما المرضى لا يكفون عن طلب الماء . ونحن لا ندري هل من الصحيح تقديم الماء لهم أم لا . أحدهم مصاب في بطنه ، وهذا ممنوع منعاً باتا من الشرب . ولكنه لا يكف عن الرجاء : « ولو قطرة واحدة أيها الرفيق الملازم ، قطرة واحدة ، حلقي جَفّ ... » وينظر الىّ بعيون تجعلني أتمنى لو انشقت

الأرض تحتي وابتلعتني . والرشاشات أيضا تطلب ماءً* .

بعد الساعة الثالثة يبدأ الألمان هجماتهم . ويمتد هذا الأمر حتى المساء . بالتناوب . هجمة ، ثم قصف بالمدفعية ، ثم هجمة ، فقصف من جديد .

نصد الهجمة الأخيرة وقد خارت قوانا تماماً . والرشاشات تطشطش كغلاية الشاي .

من أين نحصل على الماء ؟ اذا لم نحصل عليه فستصمت الرشاشات غداً .. وهذا يعني ...

في المساء نحصي النتائج .

الرجال أحد عشر . أنا وتشوماك وكارنأوخوف وفاليجا ، وجنديا اشارة ، وأربعة جنود رشاشات : اثنان على كل رشاش ، وجندي عادي ، ذلك الجندي السيبيري العجوز الذي كنت أجلس معه في الخندق . لقد اصيب اصبعه الخنصر في يده اليمنى ، ولكن روحه المعنوية ظلّت عالية . وبالاضافة الى ذلك لدينا ثلاثة من الجرحى ، فقد توفى في المساء الجندي الذي

* يقصد ان الرشاشات بحاجة الى الماء لتبريد الماسورة . المترجم .

كان يهذي . ونسحبه الى الخندق المكشوف ، فهناك نضع قتلانا .

ولدينا أربعة رشاشات ، تعطل منهما اثنان . الذخائر متوفرة بالنسبة للرشاشات التي غنمناها من الألمان اما رشاشاتنا فتكفيها الذخائر نصف نهار بالكاد .

ولكن الماء هو أهم شيء . فبدونه لا تساوي الذخيرة كلها شيئا . أمن المعقول أن زملاءنا لن يحاولوا الليلة الاتصال بنا ؟ لا يمكن ألا يفعلوا ذلك . فهم يدركون أننا لا نستطيع الصمود هنا الى الأبد ، ولو قضى الالمان علينا فسيفقد الفوج هذه التبة .

رؤوسنا تدور من شدة الرغبة في التدخين . ويجد فاليجا لدى أحد القتلى الألمان سيجارة مبللة ومجعدة ، فندخنها بالدور ونحن نجذب أنفاساً عميقة ونغمض عيوننا ، وتلسعنا نارها . وبعد ساعتين نعود الى التفكير في الماء . لم يعد في الترموس اكثر من لترين ، هما الاحتياطي المحرَّم للرشاشات* .

* يقصد بالاحتياطي المحرم عموما تملك الكمية من الأغذية والماء والادوية وخلافه ، التي توجد في حقيبة كل جوال ، ولا تمس الا في حالات الضرورة القصوى . المترجم .

جنديا الاشارة يستخرجان من مكان ما في قلب الخندق كمية من السمك المملح السمين ، ملفوفة في ورق الزبدة ، وتبعث الشهية . وأبلع لعابي لاراديا . سمكات فضية ناعمة ، ظهورها طرية ، وبالقرب من رؤوسها قطرات صغيرة من الدهن تشبه قطرات الندى . أود لو أطبقت فيها أنيابي ، ولكنني آخذها وأخرج الى الخندق المكشوف ، وأطوح بها الى أبعد ما يمكن ناحية الألمان . ثم أعود .

سكن الجرحى ، ولا يسمع غير تردد أنفاسهم الثقيلة . وهم ينامون على الأرض ، بعد أن فرشنا لهم عليها المعاطف . هذا الخندق أقل راحة بكثير من الخندق الأول . يضم شيئا ما مصنوعا من الألواح الخشبية على هيئة طاولة ، تغطيها جريدة .. وهذا كل ما هناك . ويبدو مصباحنا ذو الأباجورة الخضراء بلا معنى على خلفية رطبة لجدار متساقط . لقد أخذناه معنا عندما انتقلنا ، ومن العسير حتى أن تفهم لماذا ظل هذا المصباح سليما .

كارنأوخوف يرسم بقطعة من قلم أزهاراً ما على هوامش جريدة . لقد أصبح وجهه نحيلاً مرهقاً ،

وظهرت دائرتان سوداوان كبيرتان تحت عينيه . أما تشوماك فقد خلع قميصه وأخذ يتفحص ثنيات الخياطة .

— يجب أن أذهب مستقبلاً الى الحمّام — يقول بضعف ويحك جسمه — عندما نتصل بوحدتنا سأدبر حمّاما . سنحضر ماء من الفولجا ونستحم . جسدي كله يحكني .

ويرد عليه كارنأوخوف مواسيا :

— لن ينظف جسدك تماماً ما لم تنتهي الحرب ، فالملابس لا تُغلى في الماء ، بل تشطف بسرعة في الفولجا ، وانتهينا ... فهل هذا يسمى غسيلا ؟

وأراقب عضلات ذراعي تشوماك التي تتقلص كالكرات تحت جلده المشدود . انه يصلح نموذجاً طيبا لدراسة علم التشريح .

ويقول تشوماك دون ان يرفع رأسه عن عمله :

— عندما تنتهي الحرب سنضع هتلر في برميل مليء بالقمل ونقيد يديه حتى لا يستطيع أن يحك جسده .

ويضحك جندي الاشارة الأبيض الجالس في الركن بسرور . يبدو أن طريقة العقاب هذه تعجبه كما تعجبني ايضا ، فالقمل بصراحة هو أكثر ما يعذب الجندي في الجبهة ، على ما اعتقد .

ويسحب تشوماك القميص على جسده ، وينهض .

ـ آه ، لو سيجارة ...

ـ فعلاً ، ولو من ماركة « موتور » . سيجارة بـ ٣٥ كوبيك ، واحدة لنا نحن الثلاثة .

ـ دع عنك « موتور » .. اذا حلمت فاحلم بشيء أعظم ..

ـ ماذا كنت تدخن قبل الحرب أيها الرفيق الملازم ؟

ـ « بيلومور » و« ترود » . والأخيرة كانت تباع في كييف ، وثمنها أيضا روبلان .

ـ وأنا أيضا كنت أدخن « بيلومور » .. سجائر غليظة ، طيبة .. وخاصة المصنوعة في لينينجراد .

ـ وتدعيان أنكما تفهمان في السجائر ! ـ يقول تشوماك ـ يحلمان بـ « بيلومور » ! السجائر الحقيقية هي « كازبيك » . لقد كنت أدخن علبتين منها في اليوم . يالها من أيام !

تشوماك يروح ويجيء في الخندق . خطوتان الى الأمام ، ثم يستدير ، وخطوتان عائداً . ويتمطى ، وقد عقد ذراعيه خلف رأسه .

ـ كنت ارتدي سروالاً على طراز « شارلي » بعرض ثلاثين سنتيمتراً ، وادفع الكاب حتى يغطى حاجبيّ ، واعلّق امرأة في ذراعي ، ثم انطلق الى كورنيش البحر .

ـ ماذا كنت تعمل قبل الحرب ؟

ـ أنا ؟ كنت سائقاً على سيارة من طراز « زيس » . وبعد ذلك خدمت في الأسطول على السفينة « تشيرفونايا أوكرايينا » . وكم تجولت على كورنيش البحر في سيباستبول ، في سراويل بيضاء ، وشرائط تتدلى من القبعة حتى وسطى . كنت ألمع لوحة الحزام بالطباشير وأكوي ياقة السترة النظيفة ، وهكذا أرتدي « البدلة على المضبوط » بسراويلها البيضاء التي لا يرتديها الا بحارة أسطول البحر الأسود ، وأنزل المدينة مختالاً .

ـ هل كنت قبل الحرب تفكر في شيء غير النساء يا تشوماك ؟ هه ؟

ويتوقف تشوماك . بل ويبدو أنه يستغرق في التفكير :

ـ في الفودكا أيضا . ففيم عساى أفكر أيضا ؟ كان معي نقود بلا حساب .. ولم أكن أنوي أن أصبح باحثا علميا .. ـ ثم بعد وقفة ـ أما الآن ...

ـ أتراك قد فترت ؟ ..

لا يرد تشوماك على الفور . يدس يديه في جيوبه ويباعد بين قدميه ، ويحاول انتقاء الكلمات المناسبة :

ـ ليس الموضوع في الفتور ... وانما أثناء الحرب .. ـ ثم وقفة أخرى ـ أتدري .. لقد كنت قبل الحرب سيد أمري . وكان عندي عصبة ، نشرب معاً ، ومعاً نحطم سحن أمثال هؤلاء .. ـ ويبتسم ابتسامة خفيفة ويغمز لي بعينه العادية الخبيثة ـ أمثال هؤلاء المثقفين . ولكن القضية ليست في ذلك على العموم .

ويجلس على طرف المائدة ويهز قدمه . من العسير عليه أن يصوغ أفكاره ، فهو يدور ويدور ولا يستطيع أن يصيب الهدف .

ـ وقع لي مثلا في سيباستبول هذا الحادث . وكان ذلك في بداية الحصار * ، لا أذكر ان كان في ديسمبر ، أم في نهاية نوفمبر . كان عندي رفيق ، بل ليس رفيقاً ، وانما فقط خدمنا معاً على « تشيرفونايا

---

* حاصر الالمان مدينة سيباستبول فترة طويلة . ولكنها صمدت للحصار ، وحازت على لقب « المدينة البطلة » . المترجم .

أوكرانينا » . كان اسمه تيرينتيف ، أيضا بحار . ثم حاربنا معاً على الشاطئ ، في الخنادق . بالقرب من المقابر الفرنسية . وكنا نعيش معاً قبل الحرب كما يعيش القط مع الكلب . وكان يحاول أن ينتزع مني امرأة . وهو بالمناسبة شاب قوي ، لا بأس به . وكانت قبضتاي تتحرقان شوقاً الى كسر بعض أسنانه ...

بدأ أحد الجرحى يتحرك في الركن ، يطلب ماء . ونعطيه خرقة مبللة ليمصها ، فهذا كل ما نستطيع أن نفعله له الآن . ويشد المعطف حتى يغطى وجهه ، ثم يخلد الى الهدوء . وأحاول ألا انظر الى تلك الناحية التي يوجد فيها ترموس المياه . ويضع تشوماك الخرقة المبللة على الترموس ، ويعود الى الجلوس على طرف المائدة .

ـ وباختصار . لم أكن أحبه .. وهو أيضا كان يبادلني الشعور نفسه ...

كارنأوخوف يجلس مسنداً رأسه على يديه ، ولا يحول عينيه الرماديتين عن تشوماك . ويهز تشوماك رجله :

ـ وأخيراً حطمت له بعض أسنانه ، أما هو فكسر لي ضلوعي ، وظلمت أسبوعين ، وحتى ثلاثة

لا أستطيع أن أتنفس ملء رئتي . ولكن المسألة ليست في ذلك ... وباختصار مزق لي الألمان ظهري برصاصة متفجرة ، على بعد خمس عشرة خطوة من خنادقهم . وظننت أن نهايتي قد دنت ، وكدت ألفظ أنفاسي ، والله أعلم ، ربما غصت الى سابع قرار ... الا أنني استيقظت في الصباح فوجدت نفسي في خنادقنا . ثم اتضح أن تيرينتيف هذا هو الذي حملني على ظهره .

نجلس صامتين عدة ثوان . تشوماك يعبث بظفره في طرف المائدة ، أما كارنأوخوف فيظل جالساً كما كان معتمداً برأسه على ذراعيه . ولسان اللهيب يتراقص في المصباح ، أحد طرفيه طويل نحيف ، يلعق الزجاج بتيار دخان أسود .

— ثم مات بعد ذلك تيرينتيف هذا . أصيب بشظية بترت ساقيه . وقد علمت بذلك عندما كنت نزيلا بمستشفى جاجرا ، اذ سلموني صورته ، وقد طلب قبل الوفاة ... على العموم لم يعد تيرينتيف حياً ، فلا حاجة للكلام ...

ويقفز من على المائدة ويعود يروح ويجيء في الخندق . ويتابعه كارنأوخوف بعينيه ، دون أن يحوّل رأسه .

— أتدري.. لقد كان الأصحاب بالنسبة لي قبل الحرب بمثابة .. كيف أشرح لك.. بمثابة « شلّة »..
لأن الشرب بمفردك أمر ممل . أما الآن ... خذ مثلاً ، لديّ جندي استطلاع . انت تعرفه أيها القائد ، ذلك الذي بسببه كدنا نتشاجر . انني مستعد أن أمزق بأسناني رقبة أي انسان يمسه . أو جيلمان مثلاً ، يذهب الى أي مكان ترسله اليه ويقوم باللازم . وقد ذبح الفاشيست جميع أفراد عائلته ...

ودون أن ينهى كلامه يدور بحدة ، ويخرج من الخندق . ونسمع صرير درجات السلم تحت أقدامه . كارنأوخوف يعود الى الرسم من جديد .

ويسأل لي بلباقة دون أن يرفع رأسه :

— هل كانت العلاقات بينك وبين تشوماك على غير ما يرام أيها الرفيق الملازم ؟

وأجيب :

— نعم .. شيء من هذا القبيل .

ويبتسم كارنأوخوف :

— لقد أخبرني تشوماك بذلك . بسبب أحد القتلى ، أليس كذلك ؟

ـ نعم . بدأت المشكلة بجندي ألماني قتيل .

ـ يقول انك لم ترق له يومها .

ـ وما العمل .. انك لن ترضى الجميع .

ـ وكيف الحال الآن .. هل صفيتما الأمر ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ هل اصطلحتما ؟

ـ وهل نحن تشاجرنا ؟ انه فقط ذو طبع عنيد ، لا يحب الأوامر . وأنا أحب مثل هؤلاء الأشخاص . لا أقصد الذين لا ينفذون الأوامر ، بل المشاغبين ، أمثال تشوماك .

ـ نعم ، لا بد أن نعترف له بذلك .

ـ ليس بذلك فقط .

ـ كنت اعتقد أنك تعجب بنوع آخر من الرجال .

ـ نوع آخر ؟ أي نوع ؟

ـ كيف اشرح لك .. أنت وتشوماك ، لستما من طينة واحدة كما يقال .

ـ ولكن ربما ...

وينقطع حديثنا بدخول تشوماك .

ـ أين الخزان الفارغ ؟ الذي كان به ماء .

ـ أي خزان ؟

ـ الترموس أو الخزان ، أليس الأمر سيان . لقد كان موجودا بجوار الباب .

ـ أليس هناك الآن ؟

ـ كلا

ـ فأين اختفى اذن ؟

ـ ها أنذا أسأ لكما !

يقول كارنأوخوف :

ـ عندما خرجت كان موجوداً ، حتى أن قدمي تعثرت به .

ـ ولكنه ليس هناك الآن . لقد فتشت في كل مكان .

ـ ربما أخذه فاليجا ليسد الثقب الذي أحدثته الشظية .

ـ وأين فاليجا ؟

ـ كان هنا . منذ هنيهة . كان ينظف البندقية الآلية . ولماذا تريده ؟

ـ يجب أن نجد مخرجاً لمشكلة الماء . فالعطش استبد بنا .. ثم هذه الرشاشات اللعينة ...

وأسأله وأنا لا أدري قصده :

ـ وماذا تريد أن تفعل ؟

ـ أي شيء ... لقد قال لي الجندي العجوز انه سمع ما يشبه الخرير . انه يقف على الطرف الشمالي من الوادي ، ويقول انه سمع خريراً ما . ربما كان نبعاً .

ـ أي نبع هناك . انه الكيروسين يتسرب من عربات القطار .. ألا تدري كيف تدوي الأصوات ليلاً ؟ خاصة والمسافة حتى الخط الحديدي لا تزيد على مائتي متر .

ـ ولماذا لا نجرّب ؟

ـ جرّب ما دمت ترغب في ذلك .

نفرغ ما تبقى من الماء في أوعية الطعام ، فلا يملأ حتى وعائين . ويحمل تشوماك الترموس على ظهره ويخرج . بعد خمس دقائق يظهر فاليجا . يجلس في الركن ويأخذ في تنظيف البندقية الآلية ، كأنه لم ينصرف أبداً .

ـ أين كنت مختفيا ؟

ـ لم أختفِ ـ يرد وهو يستخرج الأوساخ من البندقية بعود من الخشب .

ـ هل أخذت الخزان ؟ الترموس ؟

ـ أخذته .

ـ أي شيطان دفعك الى هذا ! ونحن هنا هلكنا من البحث .

وينظر فاليجا الي بعتاب :

ـ ألم تقل بلسانك أنه ليس لدينا ماء ؟

ـ حسنا ؟

ـ فرحت أبحث عنه .

ـ عن الماء ؟

ـ نعم ، عن الماء .

ـ أتراك ذهبت الى الفولجا ؟

ـ كلا ، لم أصل الى هناك .

ـ ألا تتكلم بوضوح ؟ هل أحضرت ماء ؟

ـ لم أحضر ماءً ، بل خمراً . ـ ويعود الى الانكباب على بندقيته الآلية .

ثم تتضح الصورة بالتدريج . كان قد رسم لنفسه خط السير أثناء النهار ، عبر درب ما ، الى يمين الجسر ، تجاه الكتيبة الثالثة .

ـ ولماذا لم تخبرنا بذلك ؟

ـ لو قلت لك لما سمحت لي .

وباختصار ، لم يصل الى الكتيبة الثالثة ، فقد وجد في طريقه مطبخاً ألمانيا متنقلاً .

ـ وجدته هناك ، بالقرب من متراس الخط الحديدي . يبدو أنه يأتي الى هناك أثناء الليل تجره الخيول .. خيول شغل ، قوية ... واقتربت منه زحفا ، وهناك وجدت بالقرب منه قناة صغيرة ، يصبون فيها بقايا الطعام . وبالقرب منها يجلس ألمانيان يدخنان . ولم أر في الظلام سوى جمرة السجائر . ويهمسان بكلمات ما ألمانية : « خاو ـ خاو ـ خاو » . ثم أشعل أحدهما الولاعة ، فرأيت بجوار المطبخ ترموسات ، تشبه هذا الترموس . على بعد حوالي خمس خطوات . وقلت لنفسي : ربما كان بها شاي أو قهوة . والجنديان لا يكفان عن الثرثرة . ثم انصرف أحدهما وبقي الآخر جالساً يدخن . وأنا انتظر . وبقيت منتظراً حوالي عشر دقائق . وتبلل بطني كله ببقايا الطعام . ثم ذهب الجندي لقضاء حاجته ، وغاب خلف المطبخ . وهنا أخذت ترموساً ، وتركت ترموسنا الفارغ مكانه . سوف يسبون كثيراً ...

ويبتسم فاليجا ابتسامة خفيفة ، بزاوية فمه . وهو نادراً ما يفعل هذا .

ـ خمر سيئ .. حامض .. لا ينفع الا لتبريد الرشاشات .

ويشرب كل منا نصف كوب منه . نحتسيه رشفات صغيرة لنطيل فترة الاستمتاع ، ونمضمض به فمنا . ثم نخلد الى النوم .

أرى في المنام البحر الأسود . وأقفز من فوق صخرة في مياه رقراقة ترتعش من وخز ابر الشمس . وحولي تسبح قناديل البحر * ، الكبيرة منها والصغيرة ، كأنها مظلات .

١٥

يفشل هجوم رفاقنا . بينما نقف نحن في الخنادق ونتابع تبادل النار . الألمان يطلقون سيلاً من الرصاص لا ينقطع . وتتصادم دفعات الرصاص المنهمر من

* قنديل البحر ـ حيوان بحري هلامي صغير يسبح عالقاً في الماء وهو ينطوي وينفتح كالمظلة . المترجم .

الرشاشات ويقطع بعضها بعضا ، وتطير عاليا في السماء . وفي الجانب الآخر من الوادي تتناثر انفجارات قذائف الهاون هنا وهناك . ثم يهدأ كل شيء . ولكن الهاونات تظل تطلق قذائفها حوالي عشر دقائق ، ثم تهدأ هي الأخرى . لا يبقى سوى الرشاشات المناوبة . نعود الى الخندق المسقوف .

نظل ساهرين حتى الصباح ، حديثنا متقطع لا يتلئم شمله ، وغياب التبغ يجعلنا عصبيين . والجرحى يطلبون ماءً طوال الوقت . وفي الصباح يموت أحدهم .

في السابعة صباحاً تحلق فوقنا طائرة « الاطار » وهي تئز بلا انقطاع ، وتتقلب في السماء فيبرق زجاج نوافذها ، ثم يتقدم الألمان للهجوم دون أي تمهيد .

ونطلق عليهم النار من أربعة رشاشات . جنود الرشاشات يرابطون خلف اثنين منها ، وتشوماك وكارنأوخوف خلف الثالث ، وأنا وفاليجا خلف الرابع . أما جنديا الاتصال والجندي العجوز فيتوليان حماية الجناحين .

الشمس تسطع خلف ظهورنا ، فيساعدنا هذا على دقة التصويب .

ثم يبدأ الألمان في قصفنا . فننزع الرشاشات من أماكنها ونجلس في الخندق على أطراف أقدامنا . الشظايا تصفّر فوق رؤوسنا . الآن فقط ألاحظ الى أي مدى أصبح فاليجا هزيلاً . لقد غار خداه تماماً وامتلآ بالبقع الغريبة . أما عيناه فكبيرتان ، جادتان . تكاد ركبتاه تلمسان أذنيه وهو جالس .

تنفجر قذيفة هاون في الممر ، على بعد عدة خطوات منا .

فيقول فاليجا :

ـ يا للأوغاد !

وأقول أنا مضيفا :

ـ يا للأوغاد !

يستمر القصف حوالي عشرين دقيقة . ونرهق تماماً . ثم نقف على أقدامنا وننصب الرشاشات في أماكنها ، وننتظر .

يلوح تشوماك بيده . أنا لا أرى غير رأسه ويده . ويصرخ :

ـ قتل جنديا الرشاش .

أصبح لدينا ثلاثة رشاشات .

نصد هجمة أخرى . يتعطل رشاشي . وهو رشاش ألماني ولذلك لا أعرف كيف أعالجه جيدا . أصرخ مناديا تشوماك .

يركض عبر الخندق وهو يعرج ، لقد جرحت شظية لحم جسده . عمرته البحارية بها ثقب رصاصة فوق أذنه اليمنى .

ويقول وهو يخرج ترباس الرشاش :

ـ لقد قتل الجنديان ، لم يبق منهما الا الخرق .

لا أرد . تشوماك يمسك الترباس ويعبث به بصورة خاطفة لا تلحظ ، ثم يضعه في مكانه ويطلق دفعة رصاص . كل شيء على ما يرام .

ـ هل الذخيرة كافية أيها القائد ؟

ـ حتى الآن كافية .

ـ يوجد لدينا في الخندق صندوق ذخيرة آخر... يبدو أنه الأخير ...

ـ لقد أصابته قذيفة هاون .

يحدّق في عيني مباشرة ، فأرى في حدقتيه انعكاس وجهي .

ـ لن ننسحب أيها الملازم ؟ ـ يقول دون أن تتحرك شفتاه تقريبا . وهما بيضاوان تماماً وجافتان .

فأقول :

ـ كلا !

يمد لي يده فأشد عليها . بكل قواي أشد عليها .

ثم يُقتل الجندي السيبيري العجوز .

نطلق النار من جديد . والرشاش يرتعد كأنه مصاب بحمى . وأشعر بحبال العرق الرفيعة تتحدر على صدري وظهري وتحت ابطيّ ...

أمام ناظري أرض رمادية كريهة ، وليس فيها غير شجيرة خشنة مليئة بالعقد ، كأنها يد مصابة بداء النقرس . ثم تختفي هي أيضا ، فقد حصدها الرشاش .

لم أعد أذكر كم مرة ظهر الألمان ، مرة ، اثنتان ، عشر ، عشرين . رأسي يملؤه الطنين ، ولكن ربما كان ذلك طنين الطائرات فوق رؤوسنا ؟ تشوماك يصرخ ولكني لا أميز ما يقوله . فاليجا يضع في الرشاش الشريط تلو الشريط . وما أسرع ما تفرغ . الطلقات الفارغة تملأ المكان حولنا ، حتى لا تجد موضعاً لقدمك .

هات يا فاليجا .. هات ! .. هات ! .. ويسحب صندوق ذخائر ، وعجيزته تقفز الى اليمين ، والى اليسار بشكل مضحك . العرق يملأ عيني ... عرق دافئ ، لزج .

هيا يا فاليجا ... هيا ! ..

ثم أرى وجها ما ، أحمر ، لامعاً ، لا تعلوه عمرة ، يقول صاحبه :

ـ اسمح لي ايها الرفيق الملازم .

ـ ابتعد ...

ـ ولكنك جريح ...

ـ ابتعد ...

ويختفي الوجه . وأرى مكانه شيئا ما أبيض ، أو أصفر ، أو أحمر . يتراكم أحدها فوق الآخر . في الأفلام السينمائية تجد ما يشبه هذا ، اذ تظهر دوائر متلاشية ، وفوقها كتابة . وتتسع الدوائر وتشحب ويبهت لونها . وترتعش . وفجأة تملأ خياشيمي رائحة النشادر . وتختفي الدوائر . ويظهر بدلاً منها وجه : خصلة شعر ذهبية ، وياقة مفتوحة ، وعينان ... عينان زرقاوان باسمتان . عينا شيريايف . وخصلة الشعر هي خصلة

شيريايف . والمصباح ذو الأباجورة الخضراء ، ورائحة النشادر تملأ الجو لدرجة تبعث على البكاء .

ـ هل عرفتني أيها المهندس ؟

والصوت صوت شيريايف . وشخص ما يهزني ويعانقني ، وياقة ما تندس في فمي ، ياقة خشنة ، شائكة .

الله ، طبعا هذا خندقنا ! وهذا فاليجا . وهذا خارلاموف . وشيريايف . شيريايف حقيقة ، بلحمه ودمه ، شيريايف ذو الخصلة الذهبية .

ـ أ لا تعرفني ؟

ـ يا الهي ، يا ربي .. طبعا أنت !

ـ الحمد لله اذن .

ـ الحمد لله .

ويهز أحدنا يد الآخر ، ونضحك ، ولا ندري ماذا نقول بعد ذلك . والجميع حولنا يضحكون ولا أعرف لماذا :

ـ حاسب أيها الرفيق الملازم أول ، فهو جريح ، انك تكاد تخلع ذراعه .

طبعا فاليجا هو الذي يقول ذلك . ولكن شيريايف يشيح بيده متململا :

ـ وهل هذا جرح . هذا مجرد خدش في الجلد . غداً يلتئم .

أشعر بضعف في جسدي ، ورأسي يدور ، خاصة عندما أستدير .

ـ أتريد شرابا ؟

وقبل أن أتمكن من الرد أجد بين أسناني علبة من الصفيح ذات مذاق لاذع ، وينساب في جوفي شيء بارد لطيف .

ـ من أين ظهرت يا شيريايف ؟

ـ هبطت من القمر .

ـ كلا ، انني جاد .

ـ ماذا تقصد بـ « من أين » ؟ صدر أمر بتعييني قائداً لكتيبتك وانتهينا . هل أنت مستاء لذلك ؟

لم يتغير فيه شيء بل حتى لم يصبه هزال . ظل كما كان ... قويا ، عريض المنكبين ، مشدود القامة ، عمرته مائلة على أحد حاجبيه .

ـ ولكنك هزلت قليلا .. ـ يقول شيريايف والابتسامة التي تكشف عن أسنان بيضاء لا تفارق شفتيه ـ يبدو أنكم لا تنعمون بالراحة .

ـ نعم ، الراحة قليلة ... ولكن مهلاً ، مهلاً ، من أين جئتم الآن ؟

ـ أليس الأمر سيان . جئنا وخلاص !

ـ والألمان ؟

ـ الألمان دعهم وشأنهم . لقد هربوا من الوادي . بل تركوا لنا أسيرين .

ـ وهل عددكم كبير ؟

ـ المسألة نسبية . كتيبتان . كتيبتك والكتيبة الثالثة . حوالي خمسين شخصا .

ـ خمسين ؟

ـ خمسين .

ـ كذاب .

ويضحك من جديد ، ويضحك معه الواقفون .

ـ ولماذا أكذب عليك . هل هذا في رأيك كثير ؟

ـ وفي رأيك أنت ؟

ـ المسألة نسبية ...

ـ مهلاً ... والجسر ؟ ماذا عن الجسر ؟

يقول خارلاموف :

ـ ما زال هناك حوالي خمسة ألمان .. ولكن لن يطول بقاؤهم .

ـ عظيم . عظيم جداً . وكيف حال تشوماك ، وكارنأوخوف .

ـ أحياء ، أحياء ...

ـ الحمد لله . اعطني قليلاً من الماء .

وأشرب كوبا ونصف . شيريايف ينهض .

ـ اعتن بنفسك ، أما أنا فسأذهب لأرى ماذا يدور هناك . وفي المساء سنجلس لنسترجع ذكرياتنا على شاطئ أوسكول ، وفي بتروبافلوفكا . أتذكر عندما كنا نجلس على الشاطئ معا؟ ـ ويمد لي يده ـ أتذكر فيلاتوف ؟ جندي الرشاش . ذلك العجوز المتذمر .

ـ أذكره .

ـ سحقته دبابة ألمانية . لم يترك الرشاش من يده ، حتى سحقته الدبابة مع الرشاش .

ـ يا للعجوز ! كم آسف عليه !

ـ نعم ، كان عجوزاً عظيماً .

ـ حقا .

نظل صامتين بضع ثوان .

ـ حسنا ، اني ذاهب .

ـ اذهب . سنلتقي في المساء اذن .

وينصرف وقد أمال العمرة على حاجبه الأيسر .

ويخرج فاليجا من جيبه تبغاً ملفوفا في ورقة ويناولني اياه .

* * *

نجلس في المساء أنا وشيريايف في مركز قيادة الكتيبة ، أي في تلك الماسورة تحت متراس الخط الحديدي .

الجرح الذي أصبت به تافه ، فقد مست الرصاصة جلد جبيني وصنعت مفرقا في شعر رأسي . وبوسعي حتى أن أشرب ، ولكن بكمية قليلة . ونشرب مشروبا كريه الرائحة لا اعرف ان كان كحولا أم فودكا منزلية . والمزة سمك مملح .. ذلك السمك الذي طوحت به من الخندق ، ولم يستطع فاليجا بالطبع أن يتحمل ذلك فالتقطه ثانية :

ـ وهل هذا شيء يُلقى . ألم تقل أنت بنفسك عندما كنا نشرب في المرة السابقة : «آه يا فاليجا ،

لو كان لدينا سمك مملح ! .. » — ويصف السمك وقد قطعه قطعاً صغيرة خالية من الشوك على ورقة صحيفة سرقها من أرشيف خارلاموف . ولهذا السبب دائما ما تنشب بينهما الخلافات .

نشرب ، ونتذكر يونيو ويوليو ، وأول أيام الانسحاب ، والحظائر التي افترقنا عندها . وبعدها مباشرة فقد شيريايف كتيبته كلها تقريبا ، فقد طوقهم الألمان بالقرب من كانتميروفكا . وكاد شيريايف نفسه يقع أسيراً ، ولكنه اتجه مع أربعة جنود ، هم كل من بقي من الكتيبة ، نحو فيشينسكايا . وهناك كادوا يقعون في أيدي الألمان من جديد ، ولكنهم نجوا من المأزق ، وعبروا نهر الدون ، ثم التحقوا هناك بفرقة شكلت من بقايا الوحدات التي قضى عليها الألمان . وحارب بالقرب من مدينة كالاتش ، وأصيب بجرح طفيف ، ثم وصل الى ستالينجراد ضمن احتياطي الجبهة ، حيث ظل شهراً بلا عمل ، وأخيراً عيّن في فوجنا قائداً للكتيبة .

أتطلع الى شيريايف وأنا راقد على سرير خشبي صنع من عدة ألواح . أحاول أن أجد فيه أي علامة

تدل على أنه تغيّر ، فلا أجد ، لقد ظل كما كان ، حتى مثلث الفانلة الأزرق ما زال ظاهراً من ياقته المفتوحة كما كان من قبل .

وأسأله :

— ألم تسمع شيئا عن مكسيموف ؟

— كلا . أخبرني شخص لم أعد أذكره الآن ، أنه رآه في مكان ما على هذا الشاطئ لنهر الدون . ولكن هذا احتمال بعيد ، فقد قطعت هذا الشاطئ طولا وعرضا ، ولم أصادفه أبداً .

— ومع من تقابلت من رجالنا ؟

— من رجالنا ؟ — ويقطب شيريايف أنفه — من رجالنا ... قابلت بعض قادة السرايا .. وجوجليدزي رئيس جنود الاستطلاع . كان راكبا سيارة فلوح لي بيده. ومن أيضا؟ فتيات مستشفى الكتيبة ... وبيستريتسكي سكريتر المنظمة الحزبية ... نعم ! — ويدق بيده على المنضدة — طبعا ! قابلت صديقك .. ذلك الكيميائي .. ما اسمه ؟

وأنهض قليلا :

— ايجور ؟ أين ؟

ـ على هذا الشاطئ .. منذ خمسة أيام .

ـ كذاب .

ـ عدنا الى هذا الاتهام . انه في « اكتوبر الأحمر » . في الفرقة التاسعة والثلاثين .

ـ التاسعة والثلاثين ؟

ـ وليس كيميائيا ، بل مهندس مثلك . يعمل بحقول الألغام وما شابه ذلك من اشياء اخرى .

ـ وماذا كنت تفعل في الفرقة التاسعة والثلاثين ؟

ـ أبداً ، لا شيء . محض مصادفة . كنت أبحث عن هيئة أركان الجيش . وقال لي أحد الحمقى أنها في وادي « باني » ، فتوجهت الى هناك . ألا تدري ماذا يحدث هناك ؟ لا ترى شيئا على بعد ثلاث خطوات ... الدخان ، والغبار ... الشيطان يعلم ماذا يحدث . وفي تلك اللحظة هجم « المغنيون » فارتميت في خندق ما ... بل ليس في خندق ، وانما في شيء لا أعرف ما هو . ثم نظرت فاذا بي أرى بابا خشبيا فدخلت ، اذ ربما يحميني من الشظايا على الأقل . وعندما انتهت الغارة أردت أن أخرج ، فاذا بأحدهم يمسك بيدي . وتطلعت اليه فاذا به صديقك ايجور .

حتى أنني لم أتعرف عليه للوهلة الأولى . فقد حلق شاربه ، وكان أسود ، يكسوه الهباب . عرفته من عينيه فقط .

ـ اذن فهو حي ، معافي ؟

ـ حي معافي . بالطبع سألت عنك ، فماذا كان بوسعي أن أقول له ؟ لا أعرف .. وفقط . وأخذنا نأسف على ما حدث ... ثم قال لي أنك في الفرقة ١٨٤ على ما يبدو ، وان كان يخشى أن يكون قد أخطأ في الرقم . ولكني سجلت الرقم مع ذلك ، وقررت أن آتي اليك من كل بد . فالأماكن الشاغرة في الفرقة لا حصر لها . وهكذا طلبت منهم في رئاسة أركان الجيش أن يرسلوني الى الفرقة ١٨٤ ، فقوبل طلبي بالترحيب الحار . وفي الفرقة عرفت الكتيبة التي أنت فيها .

ـ جدع .. أي والله جدع !

ـ هذه هي قصتي ...

ـ ألم تر سيديخ ؟

ـ لا ، لم أره ، ونسيت أن أسأل ايجور عنه ، فلم يدم حديثنا أكثر من عشر دقائق .

ـ ما زلت احتفظ بعلبة سجائره . لقد أهداني اياها عند الوداع .

وأخرج من جيبي علبة السجائر المصنوعة من السلولويد . ويقول شيريايف .

ـ علبة جميلة .

ـ جميلة . من صنع أيدينا . عندما كنا مرابطين في مصنع الجرارات .. أتدري ، لم يكن هناك ما هو اكثر من هذا السلولويد .

ـ علبة رائعة الصنع . أحقا صنعتموها بأنفسكم ؟

ـ نعم .

ـ ومن الذي حفر هذه الحروف على غطائها ؟

ـ أنا . الحروف الأولى من اسمي . حفرتها بالسكين .

ـ رائع . أليس لديك علبة أخرى ؟

ـ كلا . لقد أهديت العلبة التي صنعتها . أما هذه فقد أهداها لي سيديخ ... للذكرى . كان فتى رائعا .

ـ فعلاً .

ـ لكنه لم يستطع أبداً أن يصدق أن الأرض تدور حول الشمس لا العكس .

ويصب لي شيريايف مزيداً من الشراب ، فأقول :

ـ لا تصب لي بعد . رأسي أخذ يدور .

ثم يحضر أبروسيموف ، رئيس أركان الفوج . يبدو شاحباً ، ساخطا . يقول ان قائد الفرقة كاد يعزله لأنه لم يقم بالهجوم الليلة الماضية ، ولكن ماذا كان بوسعه أن يفعل ، اذ كان من المقرر اعادة توزيع الفوج ، ثم ألغى ذلك في اللحظة الأخيرة .

ويخرج هو وشيريايف لتفقد الخطوط الأمامية ، ونبقى أنا وخارلاموف لاعداد أوراق تسليم قيادة الكتيبة .

يعود شيريايف في حوالي الثانية عشرة ، فأسلم له الكتيبة ، ومع مطلع القمر أتوجه مع فاليجا الى الشاطئ . لقد ظل كارنأوخوف وتشوماك في الخطوط الأمامية . وهكذا لم أودعهما .

يمد لي خارلاموف يده مودعا :

ـ اذا شعرت بالملل على الشاطئ فطُل علينا ـ وينظر الي بعيون تشع طيبة .

اشعر بشيء من الحزن ، فقد اعتدت على الكتيبة . الجندي الواقف على الباب ، اسمه طويل ومعقد ولا يمكن أن تحفظه أبداً ، يرفع يده بالتحية بعد أن ينقل البندقية من يده اليمنى الى اليسرى ، ويقول :

ـ أتتركنا أيها الرفيق القائد ؟

ـ نعم .

ويسعل قليلاً ويرفع يده بالتحية مرة أخرى ... مودعاً هذه المرة .

ـ لا تنسنا .. زرنا .

ـ ضروري .. ضروري ـ أقول واعتمد على كتف فاليجا صاعداً من الخندق ، ويدفعني الجندي ذو الاسم المعقد في مؤخرتي بلباقة ليساعدني على الصعود .

١٦

أمضي ثلاثة أيام بلا عمل . آكل وأنام وأقرأ ، ولا شيء أكثر . والخندق الذي حفره ليساجور أعجوبة فنية تحت الارض . فهو عبارة عن خندق محفور في جدار الشاطئ المنحدر ، طوله سبعة أمتار . وفي طرفه الايمن غرفة . غرفة بكل معنى الكلمة ، فقط بلا نوافذ ، مكسوة كلها بعناية بالالواح الخشبية الرقيقة ، الملتصقة جيدا ، حتى لا تستطيع أن تحشر بينها حد السكين . ولها أرضية وسقف ، وفيها سريران

بينهما طاولة صغيرة . وفوق الطاولة مرآة بيضاوية فخمة مرسوم عليها اله الحب كيوبيد بخديه المنتفخين . وفي الزاوية موقد كيروسين ومدفأة متنقلة ، ومراتب ووسائد وبطاطين ، فماذا ينقصها بعد ؟ في مقابلة الغرفة ، وعبر الطرقة ، ما زال جنود سلاح المهندسين يحفرون .. لكنهم يحفرون لانفسهم هذه المرة .

ويقول ليساجور :

ـ سنعيش هنا كآلهة . سنبني أسرّة من طابقين ، وصندوقا لحفظ السلاح والأدوات ، وطاولة وأريكة ، ومطبخا . وسنجعل في الطرقة مخزن المتفجرات . أتدري كم سمك الأرض فوقنا ؟ أربعة عشر مترا ! من الطين المتجمد كصخر الجرانيت . وباختصار ، هذا مقر لمدة طويلة .

ويروق لي كل هذا . فالمكان الآمن الجيد في الجبهة ان لم يكن يضمن نصف النجاح ، فربعه على أي حال . وها أنذا أتمتع بهذا الربع طيلة ثلاثة ايام .

في الصباح يقدم لي فاليجا حساء من المكرونة دسما ، غليظا ، لا تستطيع أن تحرك فيه الملعقة ،

ثم يعطيني الشاي من السماوار الخاص به ، الذي يصدر عنه فحيح مريح من ركن الغرفة . أما أنا فأضع وسادة خلف ظهري وأنهمك في حل مسابقة الكلمات المتقاطعة في عدد قديم من مجلة « كراسنو أرمييتسي » ، أو استمتع بقراءة الصحف الموسكوفية .

العالم يلفه الهدوء .

في نيوزيلاندا أعلن عن استدعاء مجندين جدد للجيش . وعلى الجبهة المصرية ازداد نشاط الدوريات الانجليزية . أعيدت العلاقات الديبلوماسية بيننا وبين كل من كوبا ولكسمبورج . قامت طائرات الحلفاء بغارات بسيطة على لايى وسالاماوا وبوا في غينيا الجديدة وجزيرة تيمور . زادت حدة القتال قليلا مع اليابانيين في منطقة أوين ستانلي .

وصلت القوات الأميركية الى مونروفيا عاصمة ليبريا .

وتحركت القوات الانجليزية في جزيرة مدغشقر ، واحتلت مواقع ما ، وتحارب ضد قوات ما ، من الصعب أن تفهم ضد أي قوات ، بل وأسرت بعض الجنود .

مسرح « البلشوي » يقدم أوبرا « دوبروفسكي » ، ومسرح « مالي » يقدم مسرحية « الجبهة » من تأليف كورنيتشوك ، أما مسرح « نيميروفيتش — دانتشينكو » فيعرض « هيلينا الرائعة » ...

اما هنا ، على عمق أربعة عشر مترا تحت الأرض ، وعلى بعد كيلومتر ونصف من الخطوط الأمامية التي يتحدث عنها العالم كله الآن ، أحس بنفسي في غاية الراحة والهدوء ، وكأني في المؤخرة . أيوجد حقا مكان أهدأ من هذا ؟ هل توجد حقا شوارع مضاءة ، تسير فيها عربات الترام والترولي باس ، وصنابير ، اذا أدرتها سال منها الماء ؟ يا للغرابة ...

اما أنا فأستلقي محدقا في السقف ، وأفكر في قضايا فلسفية عميقة ، وفي أن كل شيء في عالمنا نسبي ، وأن غاية ما أصبو اليه الآن هو هذا الخندق وهذا الوعاء المملوء حساء ، بشرط أن يكون ساخنا . أما قبل الحرب فكنت أسعي ليكون لدي بدل ما ، وأربطة عنق مخططة ، وكنت أرفع عقيرتي بالسباب اذا اعطوني في المخبز خبز الكعك غير ناضج تماما ..

فهل من المعقول اننا سنعود بعد الحرب ، بعد كل هذه الغارات الى مواصلة ساكنا فيه ... بنفس الحال ...

ثم أملُّ النظر الى السقف والتفكير في المستقبل ، فأخرج .

الطائرات تطير فوق « اكتوبر الأحمر » كسابق عهدها ، وقذائف الهاون تنفجر فوق الفولجا كسابق عهدها ، تارة على هذا الشاطئ ، وتارة على الشاطئ الآخر ، والقوارب تناور فوق صفحة النهر والألمان يطلقون عليها النار ، ولم يعد أحد يهتم بذلك الا نفر قليل . ولا يساور أحد القلق حتى عندما تطلق طائرتان او ثلاث من طراز « ميسرشميت » النار على شاطئنا ، وتلقي طائرات « يونكرس » قنابلها لا على « اكتوبر الاحمر » بل علينا سعيا وراء التجديد . كل ما يفعله الجنود هو انهم يختبئون تحت جذوع الأخشاب او في الخنادق المكشوفة الضيقة ويطلون بروٍ وسهم من هناك. وبعد ذلك يخرجون ، واذا قتل أحد ما دفنوه على الشاطئ نفسه في حفرة صنعتها قنبلة ، أما الجرحى فينقلون الى مستشفى الكتيبة . كل هذا بهدوء مع فترات راحة للتدخين ، واطلاق النكات .

أجلس على ماسورة ضخمة لا أدري لها كنها ، تمتد بحذاء الشاطئ ، وأهز ساقي ، وأدخن توليفة من التبغ المذهل الفاخر ، واستمتع بآخر أشعة الشمس الدافئة ، بالسماء الزرقاء ، بالكنيسة الصغيرة على ذلك الشاطئ ، وأفكر ... كلا ، لا أفكر في شيء على الاطلاق . فقط أدخن وأهز ساقي .

يقترب مني جاركوشا ، نائب قائد الفصيلة ذو الشوارب ، فأعرض عليه ساعتي التي صارت تتوقف . فيفحصها ، ويهزها ، ويقول ان اسطوانتها تالفة . ثم يشرع على الفور في اصلاحها أمامي ، وقد وضعها فوق لوح من الخشب على ركبتيه . حركاته دقيقة بشكل مذهل ، وان كان يخيل اليك ان الساعة لابد ستتهشم فورا لمجرد لمسة من يديه الضخمتين الخشنتين .

لم أستطع أن أعرف بالضبط مهنته قبل الحرب . عمره ستة وعشرون عاما ، لكنه استطاع أن يكون ساعاتيا ، وباني مدافئ ، وغواصا ، بل ولاعب أكروبات في السيرك ، وتزوج ثلاث مرات ، وما زال يراسل نساءه الثلاث بانتظام ، بالرغم من أن اثنتين منهن تزوجتا غيره .

يبدو في حديثه متحفظا ، ولكنه يجيب على الأسئلة عن طيب خاطر ، وأنا أطرحها بكثرة ، فليس لدي ما أفعله غير هذا ، فيجيب اجابة وافية وكأنه يملأ استمارة . لا يرفع رأسه عن الساعة لحظة واحدة ، الا حينما يذهب الى الخندق ليفتش على جنوده .

ثم يأتي أستافييف ، مساعد رئيس الأركان لشؤون العمليات ، أو كما نسميه نحن « م ر أ — ١ » اختصارا . وهو شاب أنيق ، له فودان كفودي يفجيني أونيجين * ، ونظرة معدنية باردة ، ويلثغ قليلا عند نطق الراء كالفرنسيين ، ويبدو أنه يعتقد ان هذه اللثغة تناسبه . لم أتعرف به الا منذ يومين فقط ، ولكنه أصبح يعتبرني صديقه ويدعوني جورج . أما هو فاسمه ايبوليت ، وفي رأيي انه اسم مناسب له تماما ، ففيه شيء غامض يذكرك ببطل تولستوي ايبوليت كوراجين ** ، فهو مثله ضيق الأفق ومعتمد على نفسه .

---

* يفجيني اونيجين — بطل رواية بوشكين الشعرية التي تحمل نفس الاسم . المترجم .

** ايبوليت كوراجين — أحد شخصيات رواية تولستوي « الحرب والسلام » وبه بعض البله . المترجم .

وكان يعمل استاذا مساعدا للتاريخ في جامعة سفيردلوفسك . عندما يدخن يمد اصبعه الخنصر ، ويطلق الدخان من خلال شفتين مضمومتين كأنبوبة .

للمهنة أحكام ، وها هو ذا يجمع المعلومات للتاريخ في المستقبل .

— أتدري كم هذا ممتع يا جورج ؟ — يقول وهو يتكئ على الماسورة بتأنق بعد أن نفخ من عليها التراب — لا يجب علينا ان ننسي ذلك الآن ، ونحن في غمار المعركة . لا يجب علينا نحن بالذات ، الذين نشارك في هذه الحوادث ، نحن المثقفين المهذبين . ستمر السنون ، وبعدها سيدفعون الآلاف مقابل بطاقة قائد فصيلتكم المهترئة ، ويقضون الساعات في تأملها تحت العدسات المكبِّرة . أليس كذلك ؟

ويمسك زرار معطفي ويلفه قليلا بين اصبعه الابهام والسبابة .

— وسوف تساعدني يا جورج ، أليس كذلك ؟ ليس بامكاني ان اعتمد على أبروسيموف او أمثاله ، أنت تدرك ذلك ، فليس هناك ما يحركهم سوى تنفيذ الاوامر ، أو احتلال تبّة ما .

ويبتسم ابتسامة خفيفة ، وتبدو عليه سيماء الشخص الذي لا يشك لحظة واحدة في أنك توافقه على رأيه .

ربما كان على حق ، لا أدري . ولكن هذا الامر لا يهمني الآن . وعلى العموم فهو يثير أعصابي ، بفوديه ، بـ « جورج » هذه ، وبأظافره الوردية التي يهذبها طوال الوقت بموس صغيرة .

يظهر فوق الوادي طابور من طائرات « يونكرس » الصفراء الاجنحة . وينظر أستافييف اليها بطرف عينه ويأتي بحركة رشيقة :

ـ حسنا . اني ذاهب . لقد أهلكتني هذه البيانات . يبدو انهم قد أصيبوا بالجنون في اركان الفرقة فهم يطلبون عشرين بيانا في اليوم . تفضل بزيارتي يا جورج ـ ويختفي في مخبئه .

تصطف « اليونكرسات » في طابور ثم تنقض على « اكتوبر الاحمر » .

جاركوشا يدس بعناية ترسا ما في ساعتي بالملقاط وقد تدلى لسانه .

صوت السكاكين يتردد في مطبخ الضباط والقادة .. يبدو انهم سيقدمون لنا اليوم في الغداء « كستليتة » .

في نهاية اليوم الثالث استدعيت الى رئاسة الأركان . لقد وصلت مهمات هندسية . واستلم ألف لغم ، خمسمائة منها مضادة للدبابات ، طراز « يام ٥ » عبارة عن صناديق كبيرة يزن الواحد منها ستة كيلوجرامات مصنوعة من خشب خشن ، ونفس الكمية من الالغام الصغيرة المضادة للمشاة طراز « ب م د ـ ٧ » التي بها أقراص من مادة ت . ن . ت . يزن الواحد منها خمسة وسبعين جراما . كما استلم أربعين لفة أسلاك اميركية ، ومائتي جاروف ، وثلاثين معولا ، وهذه وتلك سيئة للغاية ، خاصة المجاريف. فهي مصنوعة من الحديد المطاوع ، لذا تنثنى ، ومقابضها ليست ناعمة .

وتتكوم كل هذه الثروة على الشاطئ بالقرب من باب خندقنا . ونضع عليها حارسا مناوبا ، اذ لا يمكننا ان نأمل في نزاهة جيراننا .

في الصباح نحصي المعدات فنجدها قد نقصت عشرين جاروفا وعشرة معاول . ويطرف الحارس توجييف ذو الوجه المستدير والجسم الفحل بعينيه مندهشا . أصابعه المشدودة بحذاء ساقيه ترتعش من شدة التوتر .

ـ انني لم أنصرف الا لقضاء حاجة أيها الرفيق الملازم .. وفيما عدا ذلك لم أتركها لحظة واحدة ...

ـ انصرفت لقضاء حاجة ، أم لغير قضاء حاجة هذا لا يهمنا ـ يقول ليساجور بصوت ونظرة متوعدين لدرجة أن أصابع توجييف ترتعش أكثر ـ اعطيك مهلة حتى المساء ، بحيث يعود كل شيء الى محله ...

وعندما نحصي المعدات في المساء نجد المجاريف قد أصبحت مائتين وعشرة ، والمعاول خمسة وثلاثين . ويبتسم توجييف .

ـ هكذا التربية ! ـ يقول ليساجور بمرح ثم يجمع الجنود على الشاطئ ويقرأ لهم موعظة طويلة ، مفادها أن الجاروف مثله مثل البندقية ، وانه لو حدث ـ لا قدر الله ـ وفقد احدهم جاروفه أو معوله ، أو حتى مقص الاسلاك الشائكة فسوف يقدمه لمحكمة عسكرية فورا . ويستمع الجنود اليه بانتباه وهم يحفرون أسماءهم على المقابض ، وعندما يستلقون للنوم يضعون المجاريف تحت رؤوسهم .

وفي هذا الوقت أرسم خرائط . خريطة كبيرة لمواقعنا واستحكاماتنا على ورق الكلك وألونها بالاقلام الملونة ، ثم اتوجه الى مهندس الفرقة .

وهو يقطن على بعد حوالي أربعمائة متر منا ، على الشاطئ أيضا ، في كتيبة سلاح المهندسين . اسمه اوستينوف ، برتبة نقيب ، تقدم به العمر ، اذ يبلغ حوالي الخمسين . يرتدي نظارة . مؤدب ، يدل كل شيء على أنه في الجبهة لاول مرة . اثناء كلامه يقلب بين أصابعه قلما أصفر ، مسنونا بطريقة فاخرة . يسجل كل فكرة جاهزة على الورق بخط دقيق للغاية مدوّر الحروف : اولا ، وثانيا وثالثا .

وعلى طاولته كوم من الكتب : كتاب « الاستحكامات » لاوشاكوف ، و « تحصين الموقع » لجيربانوفسكي ، ووصايا وكتب أدلة ، وقوانين ولوائح ، وكتب أصدرتها اكاديمية الهندسة العسكرية بأغلفة ملونة ، بل وحتى كتاب « Hütte » ذو الغلاف الازرق .

خطط اوستينوف لتحصين الخطوط الامامية جبارة من حيث مقاييسها ، وتنوع الوسائل المستخدمة فيها ، ودقة اعداد كل هذه الوسائل المتنوعة .

ويخرج خريطة مرصعة بالاقواس الملونة والمنحنيات والصلبان والمعيّنات والخطوط المتعرجة ... بل ليست هذه خريطة ، وانما هي شيء كالبساط . ويبسطها بعناية على الطاولة .

ـ لن أشرح لك مدى أهمية ذلك ، فاني اعتقد انك تدرك بنفسك . فكلانا يعرف جيدا من تاريخ الحرب ، انه في ظروف حرب الخنادق ، ونحن نسعى الآن الى مثل هذه الحرب بالذات ، تلعب كمية ونوعية ودقة الانشاءات الهندسية دورا بارزا ، بل يمكنني ان أقول : دورا على أعلى درجة من الاهمية .

ويبلع ريقه وهو ينظر اليَّ من فوق نظارته بعينين صغيرتين ، يتهدل عليهما جلد الجفنين .

ـ لقد صمدت مدينة سيباستبول منذ سبعة وثمانين عاما لهذا السبب بالذات ، وهو ان رفاقنا المهندسين ومعهم توتلبين المعروف استطاعوا أن يقيموا نطاقا من الاستحكامات والتحصينات الهندسية لا يمكن اختراقه تقريبا . واهتم الفرنسيون والانجليز ، وحتى أهالي سردينيا بهذه المسألة أيضا اهتماما عظيما . ونحن نعرف مثلا أنه أمام تل ملاخوف ....

ويحدثني بالتفصيل ، موردا كمية ضخمة من الارقام، عن تحصينات سيباستبول ثم يقفز الى الحرب الروسية اليابانية ، ثم الى معركة فيردين ، ثم الى حواجز الاسلاك الشائكة عند كاخوفكا .

ويضع خرائط استحكامات سيباستبول بعناية في حافظة كتب عليها « أمثلة تاريخية » ويقول :

ـ أمامنا ، كما ترى ، عمل لا أول له ولا آخر ... كلما انتهينا منه بسرعة ، كلما كان ذلك أفضل .

ويخط على الورقة أمامه رقم « ١ » ويضع حوله دائرة .

ـ هذا أولا . وثانيا سأرجوك رجاء حارا أن ترسل الي كل يوم في السابعة تماما بلاغا عن الاعمال التي تمت خلال الليل : أ ـ ما قام به جنودكم من سلاح المهندسين ، ب ـ ما قام به جنود الفرقة ، جـ ـ ما قام به جنود الجيش اذا وجدوا ، وآمل أن يوجدوا ، د ـ ما قامت به فصائل المشاة . وبالاضافة الي ذلك ...

وتمتلئ الورقة أمامه بالارقام المختلفة اللاتينية والافرنجية ، منها ما هو داخل دوائر صغيرة ، وما هو بين أقواس ، أو داخل مربعات ، أو بدون كل هذا ..

ويمد لي عند الوداع راحة ضيقة منتفخة المفاصل من جراء مرض النقرس .

ـ وأرجوك بصفة خاصة ألا تنسي أن ترسل لي في

الرابع عشر والتاسع والعشرين من كل شهر النماذج رقم ١ ، ١ (ب) ، ١٣ ، ١٤ ، وكذلك التقرير الشهري في يوم ٣٠ من كل شهر ، بل من الافضل آن ترسله أيضا في التاسع والعشرين . وبلاغا أسبوعيا به رسم بياني عن الاعمال التي تم انجازها . فهذا مهم للغاية ...

وعندما نجلس في الليل لنتناول علبة من السمك المحفوظ ، يقهقه ليساجور بمرح :

ـ ايه ، لقد ضعت أيها الملازم تماما . عليك أن تفتح مكتبا كاملا للرسم الهندسي . لن تكفيك ثلاثة أيام لتقرأ فقط كل ما كتبه هذا المهندس . وبمثل هذه المجاريف والستة عشر جنديا لن تنجز ما يطلبه ولو بعد ثلاث سنوات . ألم تسأ له ان كان قد جاء من أكاديمية فرونزي الهندسية ؟

١٨

وتمضي الايام .

المدافع تطلق نيرانها . مدافع صغيرة ، قصيرة — مدافع الفوج تطلق نيرانها مباشرة في جبين العدو ، من

الخطوط الأمامية . أما المدافع الاكبر قليلا ، مدافع الفرقة ، فتطلق النار من فوق الشاطئ المنحدر ، وقد اندست حيثما اتفق ، بين جدران افران واسرة محطمة . والمدافع الكبيرة ، ذات المواسير المشرئبّة من خلف الشباك كأنها خراطيم الفيلة تطلق نارها من الشاطئ الآخر للفولجا . وهدرت المدفعية الثقيلة أيضا ، عيار ٢٠٣ مليمتر . هذه المدافع ينقلونها على الجرارات ... الماسورة والمؤخرة كل منهما على حدة . ويأتي رئيس الشئون المالية من الشاطئ الآخر ليصرف لنا رواتبنا . وهو رجل وسيم نشيط ، يهتم بكل شيء ، وينادي جميع من في فوجنا بـ « لازار » ، فيخبرنا أنه لم يعد في الشاطئ الآخر مكان لتبصق فيه ، فتحت كل شجرة مدفع .

أما الالمان فما زالوا مغرمين بالهاونات . يقصفون من مدافع « الجحش » منطقة المعدية ، فتظل صفحة الفولجا تلمع لمدة طويلة بأجسام الاسماك النافقة الفضية .

وتئز الطائرات الالمانية طوال النهار ، وطائراتنا « او ـ ٢ » طوال الليل . صحيح أن الالمان أصبح

لديهم طائرات ليلية أيضا . ولذلك لا نستطيع خلال الليل ان نميز أين طائراتنا وأين طائراتهم . ونحفر الخنادق ، ونزرع الالغام ، ونصوغ بلاغات مطولة : « أتممنا خلال الليل بناء كذا خندق مشاة وكذا خندق مسقوف ، وكذا موقع هاون ومخبأ ، وكذا حقل ألغام وبلغت الخسائر كذا ، وخلال هذه المدة دُمّر كذا وكذا .. »

نفتتح ورشا على الشاطئ . وجنديان مريضان من جنود سلاح المهدسين يديران اسطوانة خشبية لصنع « زنبركات برونو » من السلك الشائك وهي شيء وسط بين منفاخ موسيقي اليد وبين اسطوانة المرتدلّة ، ثم يقوم جنود سلاح المهندسين التابعين للفرقة بمدها في الخطوط الامامية أمام الخنادق . تأتي كل مساء فصيلة من السرية الثانية في كتيبة سلاح المهندسين أما جنودي فيزرعون الالغام ، ويشرفون على خطوط الدفاع الثانية ، التي يعمل فيها من يسمون « بالعاطلين » وهم الخياطون ، والحارقون ، وجنود جمع الغنائم ، وجنود قاذفات اللهب الذين لم يتسلموا بعد سلاحهم هذا . أما زرع الالغام فيختص به بالطبع جاركوشا ، وقائد المفرزة

الثانية أجنيفتسيف ، وهو شاب نشيط ، منفّذ جيد ولكنه غير محبوب وسط الجنود لخشونته .

ليساجور ما زال نشيطا وكثير السباب كسابق عهده . ولديه دائما مهمة عاجلة كلفه بها قائد الفوج : تارة بناء مخزن للمهمات والمؤن ، وتارة ورشة لاصلاح الاسلحة ، وتارة شيء ما آخر . تفوح منه رائحة الفودكا كأنها تفوح من برميل . ولكن سلوكه حسن بشكل عام .

نهارا نستريح ، ونؤثث الخنادق المسقوفة ونسد ثقوب القوارب . ومع ظهور أول نجمة نجمع مجارفنا ومعاولنا ونتوجه الى الخطوط الامامية. الحرائق أصبحت قليلة ، لكن طريقنا تضيئه الصواريخ .

وبعد العمل أجلس مع شيريايف وكارنأوخوف ندخن « الماخوركا » في خندق ضيق حار من شدة التدفئة في الكتيبة الثانية التي أزورها اكثر من زيارتي للكتائب الاخرى . ندخن ونحن نسب حياة الجندية ونحسد مَن في المؤخرة . أحيانا نلعب الشطرنج ويغلبني كارنأوخوف دائما ، فأنا لاعب رديء .

وما أن يبدو أول ضوء للصباح حتى نتوجه الى ديارنا . أصبحت أوقات الصباح باردة ، ولا يذوب

الجليد حتى الساعة العاشرة . وفي الخندق نجد في انتظارنا الشاي وعلب الطعام المحفوظ التي تبقت من المساء ، والمدفأة التي تطقطق في الركن .

وكل ما نزاوله الآن يسمى بلغة البلاغات العسكرية : « تراشقت قواتنا مع العدو بالنار ودعمت مواقعها » . ومنذ عشرة أيام لم تعد تجد في البلاغات العسكرية كلمتي « ضارية » و« حامية » ، بالرغم من أن الألمان ما زالوا يقصفوننا بالقنابل من الصباح حتى المساء ، ويطلقون النار ، ويهاجمون تارة هنا ، وتارة هناك . ولكنهم فقدوا حماسهم وثقتهم السابقين ، وقلّت شيئا فشيئاً سحب المنشورات التي كانوا يمطروننا بها يدعوننا فيها الى الاستسلام وترك الأمل في وصول جوكوف من الشمال .

يبدأ شهر نوفمبر باشتداد الصقيع يوما بعد يوم ، وبتوزيع الملابس الشتوية علينا ، وهي أغطية الرأس والأذنين ، والسترات الثقيلة والسراويل السميكة والجوارب المصنوعة من اللباد ، والقفازات الكثة المصنوعة من فراء الارانب . ويقال أننا سنتسلم قريبا أحذية عالية من اللباد ، وصديريات من الفراء . وننزع النجوم من العمرات ونثبتها على أغطية الرأس والأذنين الرمادية ،

وننتقل الى النظام الشتوي ، فلا نعود نذهب الى الفولجا للغسيل ، ونأخذ نعد الايام الباقية على حلول الربيع .

يرهقني أوستينوف بسيل من الاوراق . أوراق صغيرة ، مطوية بعناية ومصمغة ، ولا بد من « سري للغاية » و« الى كيرجينتسيف شخصيا » في الجانب الأيمن العلوي ، تطالبني بالحاح وبتعبيرات مختلفة تارة بارسال نموذج لم أبعث به ، وتارة بتقرير تأخر عن موعده ، وتارة أخرى بضرورة تجهيز حقول الألغام لظروف الشتاء كأن نضع زيتا في جهاز التفجير أو نطلي باللون الابيض الألغام التي موّهت بطريقة سيئة .

ويحمل هذه الاوراق الي جندي من سلاح المهندسين ، مرح ، وجهه ملىء بالنمش ، وانفه أفطس الى درجة فظيعة ، وهو جندي مراسلة أوستينوف . وقبل أن يدخل من الباب يصيح بصوت رنان شاب :

— افتح أيها الرفيق الملازم ! بريد الصباح .

وبينه وبين فاليجا علاقات مودة . واذ يجلسان على أطرافهما عند المدخل يدخنان السيجارة الضرورية ، يبدآن في انتقاد رؤسائهما وغير رؤسائهما من القادة الآخرين .

واسمع خلال الباب صوت جندي المراسلة يقول :

ـ رئيسي دائما يكتب ، ويكتب . ما أن يستيقظ حتى يجلس الى المكتب . حتى أنه على ما أظن لا يذهب الى المرحاض . ويخاف جداً من قذائف الهاون . وأمرني أن أصنع درعا من الجذوع يحجب المدخل ، وأن أغطي المرحاض بقضبان حديدية .

ويدوي صوت فاليجا الخفيض النبرة :

ـ أما رئيسي فلا يحب الكتابة ، دائما يسب رئيسك لأنه يرسل له أوراقاً كثيرة . ولكنه مغرم بالكتب ، فقط ناوله ، وسوف يقرأ كل شيء ، حتى عندما يتناول الحساء ينظر باحدى عينيه في كتاب أو جريدة . انه متعلم جدا .

ويغضب جندي المراسلة فيقول :

ـ طبعا ليس أكثر من رئيسي . ألم تر عدد الكتب المرصوصة على طاولتنا ؟ أحدها به خمسمائة صفحة ، وقد رأيت ذلك بعيني ، مكتوبة بخط دقيق ، لا يقرأ بدون نظارة .

وفجأة يسأله فاليجا :

ـ وهل يتفقد رئيسك الخطوط الأمامية ؟

ـ ما له وهذا . انه عجوز ، ولا يرى شيئا أثناء الليل .

يصمت فاليجا دليل انتصاره ، ثم ينصرف جندي المراسلة حاملا معه بلاغاتي .

تشوماك يزورنا أحيانا ، فهو قريب منا ، على بعد عشر خطوات . ويحمل معه اوراق الكوتشينة ، فننهمك في لعبة « النقطة » . وأحيانا أذهب أنا وليساجور اليه لنستمع الى الحاكي .

بين الفينة والفينة يأتي لازار رئيس الشئون المالية قادما من الشاطئ الآخر فيقطن لدينا . يفرش له فاليجا معطفا بين الاسرة ، أما هو فينام بجوار المدفأة . ويحكي لنا لازار عن أنباء الضفة اليسرى ، فيزعم اننا سنستدعى لاعادة التشكيل وارسالنا الى لينينسك ، بل وربما حتى الى سيبيريا . ومع أننا نعرف ان هذا كلام فارغ ، وأننا لن نُسحب الى مكان آخر ، لكننا نتظاهر بالتصديق ، فأن تصدق أبهج للنفس بكثير من الا تصدق ، ونأخذ في بناء مشاريع حياة وادعة في مدينة كراسنوأوفيمسك ، او مدينة تومسك .

ذات مرة تسقط طائرة « ميسرشميت » في قطاع

فوجنا . لا ندري من أسقطها ، ولكن البلاغات المسائية من الكتائب الثلاث جميعا تذكر انه « أسقطت وحدات كتيبتنا طائرة للعدو بنيران الاسلحة الخفيفة والرشاشات ». وتسقط الطائرة على مقربة من مصنع اللحوم . وبالرغم من النيران وصراخ القادة تبدأ عملية حج اليها ، بكل معنى الكلمة . وبعد نصف ساعة من سقوطها يأتي الينا تشوماك حاملا ساعة صغيرة خلابة ذات عقارب مضيئة ، وقطعة كبيرة من الزجاج العاجي . وبعدها بأسبوع نتباهي كلنا بمباسم ضخمة شفافة من صنع جاركوشا ، الذي ينهال عليه الزبائن . بل حتى الرائد ، الذي يمتلك ثلاثة غلايين ، ولا يدخن السجائر أبدا ، يطلب منه أن يصنع له مبسما خاصا ، به حلقة معدنية .

١٩

في مساء اليوم السادس يتصل بي كارنأوخوف تليفونيا :

ـ الألمان لا يهاجمون ، وأشعر بالملل . عندي اليوم « كستليتة » ، وغدا عيد . تعال .

لا أكلفه عناء انتظاري ، ونأتي اليه . أنا وشيريايف ، ثم يلحق بنا فاربر .

ويقول شيريايف :

ـ أتذكر عندما شربنا أنا وأنت سويا قرب كوبيانسك ؟ في الليلة الأخيرة .. في القبو عندي . وكانت المزة بطاطس محمرة . لقد كان جندي مراسلتي فيليب استاذا في تحمير البطاطس ... أتذكر فيليب ؟ لقد فقدته ، بالقرب من كانتميروفكا .. كان فتى طيبا ...

ويدير الكوب بين أصابعه .

ـ فيم كنت تفكر ساعتها يا يورا ؟ هه ؟ عندما كنا جالسين على شاطئ النهر ؟ انسحب الفوج ، بينما جلسنا نحن نتطلع الى صواريخ الانارة . فيم كنت تفكر ساعتها ؟

ـ ماذا أقول لك ...

ـ بوسعك ألا تقول . اني أعرف . كان أمرا مغيظا ، مغيظا للغاية . أليس كذلك ؟ ثم قدم لنا أحد الشيوخ ماء في قرية ما .. أتذكر ؟ وقال لنا : « انكم لا تريدون أن تقاتلوا .. أقوياء البدن ، ولكنكم لا تريدون » . لم نعرف بم نرد عليه . آه لو استطعت أن

آتى به الآن الى هنا ليرى .. هذا العجوز ذو السن الواحدة !

ويتوقف عن الكلام فجأة ، وتضيق عيناه وتصبح نظرتهما حادة . هكذا كانت عيناه عندما علم أن اثنين من الجنود قد هربا .

— قل لي أيها المهندس ... هل راودك مثل هذا الشعور أثناء انسحابنا ؟ شعور بأن كل شيء قد انتهى .. بأننا تبعثرنا .. ولم يعد هناك شيء .. هل راودك ؟ رواداني مرة واحدة . عندما كنا نعبر الدون . أتدري ما الذي كان يحدث هناك ؟ كانوا يسيرون فوق رؤوس الناس وأجسادهم . أخذت أعيد النظام أنا وضابط برتبة نقيب ، من سلاح المهندسين أيضا ، وكانت كتيبته تقيم جسر العبور . جسر عائم متهالك ، ملىء بالثقوب المسدودة بعد اصابات القنابل . وكانت السيارات تعبره سيارة سيارة ، تخوض في الماء حتى بطنها . واستطعنا ان ننظم الأمور بعض الشيء وصففنا الناس في طوابير وفجأة يأتي رائد في سيارة « فيلليس » ، يرتدي خوذة جنود الدبابات . جاء راكبا سيارته حتى الجسر ، ثم انتصب بكل قامته وأخذ يصيح فيّ : « أي شيطان

جعلك تمنع المرور ؟ الدبابات الألمانية على بعد ثلاثة كيلومترات ، وأنت هنا تنظم وتأمر ! » أتدري ، لقد تسمرت في مكاني ، بينما هو يلوح بالمسدس في يده ، وسحنته حمراء محتقنة ، وعيناه جاحظتان .. وقلت لنفسي : ما دام هذا الكلام يصدر عن رائد ، فالأحوال اذن سيئة . وبدأت السيارات تتدافع وتزاحم الواحدة الأخرى . ونظرت فاذا بصاحبي النقيب قد طرح أرضا ، ولست أدري لماذا شعرت بعيني تغيمان ، فقفزت الى السيارة وناولته ضربة ، وثانية ، وثالثة ، في سحنته الكريهة . وانتزعت منه المسدس وأفرغت الرصاصات الثمان فيه ... ثم اتضح أنه لا أثر هناك للدبابات الألمانية . والسائق أيضا اختفى في مكان ما . ربما كانوا من المخربين ؟ هه ؟

فأقول :

— ربما ..

ويصمت شيريايف ، ويحدق في نقطة ثابتة أمامه . وتصل الى اسماعنا أصوات سباب في سماعة التليفون .

— يا لها من قوة ارادة لديه ... — يقول شيريا يف دون أن يرفع عينيه — أي والله ...

أسأ له وأنا لا أفهم قصده :

— لدى من ؟

— لدى ستالين طبعا . ان يوقف مثل هذين الانسحابين اللذين حدثا .. هل فكرت في ذلك ! انسحابنا سنة ٤١ ، وانسحابنا الآن . وأن يطرد الألمان من على أبواب موسكو . ثم الصمود هنا . كم من الوقت مر ونحن صامدون هنا ؟ أليس هذا هو الشهر الثالث ؟ بينما لا يستطيع الألمان عمل أي شيء بكل ما لديهم من « يونكرس » و « هينكل » . وكل هذا بعد اختراقهم جبهتنا .. ويا له من اختراق ! ... بعد أيام يوليو تلك ... ترى كم عانى وقتها ؟ ما رأيك أنت ؟ أليست هذه هي السنة الثانية ونحن نكد ونكدح ؟ بينما عليه هو أن يفكر في مصير الجميع . انظر ، نحن هنا ندافع عن خمسمائة أو ستمائة متر تافهة ، ومع ذلك نسب ونلعن ... مرة لأن الحال هنا ليس على ما يرام ، ومرة لأنه هناك سيئ ، ومرة اخرى لأن الرشاش قد تعطل . أما هو فمسؤول عن الجبهة كلها .. حتى

الجرائد ، ربما لا يسعفه الوقت لقراءتها . كيف تظن يا كيرجينتسيف ، هل يسعفه الوقت لقراءتها أم لا ؟

— لست أدري . أظن مع ذلك أن الوقت يسعفه .

— أتظن ذلك ؟ أوه ، أنا لا أظن . نحن هنا مرتاحون . تجلس في خندقك ، تدخن الماخوركا فاذا لم يعجبك الحال خرجت ، فتسب وتعنف ... وأحيانا تهدد بالمسدس ... كما أنك تعرف الجميع فردا فردا .. وكل ربوة وكل مرتفع زحفت فوقه على بطنك . أما هو .. ماذا لديه ؟ خريطة ؟ خريطة مغروس فيها أعلام صغيرة . فلتحاول اذن أن تميز شيئا ! بينما عليه أن يحتفظ في ذاكرته بكل شيء .. أن يعرف أين نهاجم ، وأين نقف صامدين ، وأين ننسحب. كلا ، انني لا أحسده على ذلك . لا أحسده أبدا ... — وينهض شيريايف قائلا : اعزف لنا شيئا يا كارنأوخوف .

وينزع كارنأوخوف جيتارا كان معلقا على الحائط ، وجده بالامس جنود استطلاع الكتيبة في أحد المنازل المهدمة .

— اعزف لنا شيئا .. أتدري ... شيئا يهز القلوب...

ويتخذ شيريايف وضعا مريحا على السرير ، ويمد ساقيه اللتين يلفهما الحذاء الجلدي العالي جيدا .

— كيف الأحوال في الخطوط الأمامية يا لوشكا ؟ هادئة ؟

— كل شيء هادىء أيها الرفيق الملازم أول — يرد لوشكا بنشاط مفتعل حتى لا يظن أحد أنه قد نام — أحضرنا طعام العشاء للسرية الخامسة ، فأخذوا يلعنون لانه غير دسم .

— سأريه نجوم الظهر ... هذا العريف . اذا جاء ليلا أيقظني . حسنا ، هيا يا كارنأوخوف .

ويضرب كارنأوخوف الأوتار دفعة واحدة . ويتضح أن صوته لطيف جدا ، يدوي من صدره ، وهو وسط بين الباريتون والتينور ، وله أذن موسيقية رائعة . يغني بصوت خافت ، ولكن بعاطفة مشبوبة ، بل ويغمض أحيانا عينيه . كل الاغاني التي يغنيها روسية ، لها طابع تأمل ، وكثير منها أسمعه لأول مرة . غناؤه حسن ، ووجهه أيضا حسن ، وجه مشرق ، وجه حقيقي . حاجباه كثّان ، وعيناه زرقاوان ، فيهما ذكاء ، هادئتان . وهما هكذا دائما ، تلوح فيهما بسمة عميقة

لا تفارقهما . حتى عندما كنا فوق التبّة ، كانتا تبتسمان .

فاربر يجلس وقد غطى عينيه براحتيه ، ومن خلال أصابعه تطل شعرات رأسه الحمراء المجعدة . فيم يفكر الآن ؟ لا أستطيع أن أتصور ولو بصورة تقريبية . أتراه يفكر في زوجته ، أم في أولاده ، أم في التكاملات والمقادير المتناهية الصغر ؟ أم تراه لا يعبأ بشيء في هذا العالم ؟ يبدو لي أحيانا أنه لا يخاف حتى من الموت ، اذ يجلس أثناء القصف الجوي ليدخن وقد ارتسمت على وجهه ملامح اللامبالاة والملل الشديدين .

تعب كارنأوخوف ، أو ربما يكون قد مل الغناء ، فيعلق الجيتار على المسمار . ونجلس بعض الوقت صامتين ، وينهض شيريايف قليلا متكئا على مرفقه :

— فاربر ... هل كنت هكذا قبل الحرب أيضا ؟

ويرفع فاربر رأسه مستفهما :

— كيف « هكذا » ؟

— مثلما تبدو الآن .

— وكيف أبدو الآن ؟

— الشيطان وحده يعلم كيف تبدو ... انني لا أفهمك . فأنت لا تحب الشراب ، ولا تحب السباب ،

ولا تحب النساء ... انظر مثلا الى مهندسنا ، انه أيضا حصل على تعليم عال .

ويبتسم فاربر ابتسامة خفيفة :

ـ انني لا أفهم تماما العلاقة بين الشراب والنساء والتعليم العالي .

فيجلس شيريايف في السرير ويباعد بين قدميه :

ـ المسألة ليست مسألة علاقة ... كارنأوخوف مثلا ، شاب هادئ ، متواضع ـ لا تنصت يا كارنأوخوف ! ـ ومع ذلك يعمل كل عَمْلَة وعَمْلَة !

ويجيب فاربر :

ـ نعم ... أنا لست فارسا في هذا الميدان .

فيضحك شيريايف قائلا :

ـ لا تظن أني أريد افسادك ، أو تعليمك الألفاظ البذيئة .. حاشا لله .. انما ببساطة لا أستطيع أن أفهم كيف أصبحت انت هكذا ... وهل تجيد السباحة ؟

ـ السباحة ؟ كلا ، لا أجيدها .

ـ وركوب الدراجات ؟

ـ ولا ركوب الدراجات .

ـ حسنا ، وهل ضربت أحدا في حياتك ؟

ويتدخل كارنأوخوف قائلا :

ـ دع عنك الفتى ولا تزعجه . يمكنك أن تتحدث في هذا الموضوع مع تشوماك ، فهو الذي يستطيع أن يسمعك ما تشاء .

ويقول فاربر وهو ينهض :

ـ نعم ضربت .

ـ ضربت ؟ من ؟

ـ انني ذاهب .. ـ يقول دون أن يجيب على سؤال شيريايف ، ويزرر المعطف .

ـ انتظر ... ضربت من ؟

ـ ليست حكاية طريفة ... بعد اذنك .

وينصرف .

يقول شيريايف وهو ينهض :

ـ شاب غريب ...

ويبتسم كارنأوخوف ، وتلوح في خده غمّازتان كما في وجوه الأطفال .

ـ بالأمس توجهت لزيارته ، وكنت عائدا في طريقي من الشاطئ ، فوجدته جالسا يكتب ... ربما

رسالة . كتب أربع صفحات بخط دقيق جدا وتملكتني رغبة شديدة في قراءة ما كتبه .

ويغمز لي شيريايف بعينه غمزة لا تلحظ .

ـ ربما لم تكن رسالة ؟

ـ اذن ما ذا تكون ؟

ـ ربما أشعار .

وجه كارنأوخوف يتضرج حمرة .

ـ لماذا يحمر وجهك ؟

ـ وجهي لا يحمر ـ يجيب كارنأوخوف ويزداد وجهه حمرة .

ويصمت شيريايف وهو يكتم ابتسامة ، ولا يرفع عينيه عن كارنأوخوف ، ثم يسأله :

ـ وأنت ، كيف الأحوال لديك ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أشعارك طبعا .

ـ أية أشعار ؟

ـ أتظننا لا نعرف ؟ تلك المكتوبة في الدفتر . الدفتر المشمع . ألم تحفظ منها شيئا يا كيرجينتسيف ؟ لقد أصبح كارنأوخوف محصورا في زاوية .

ـ انها مجرد تسلية ... بسبب الفراغ .

ـ بسبب الفراغ ... كلكم تقولون ذلك ... ربما يكون بوشكين أيضا نظم أشعاره بسبب الفراغ .

بعد نصف ساعة ننصرف أنا وكارنأوخوف . ونفترق عند السيمافور ... أتجه الى اليسار ، وهو الى اليمين .

وأقول له مودعا :

ـ ومع ذلك لابد أن تقرأ لنا أشعارك .

ـ في وقت ما ... ـ يجيب بطريقة غامضة ثم يختفي في الظلام .

٢٠

الليل مظلم ، والنجوم لا ترى ، الا في بعض أماكن ، حيث تبدو بقعا غائمة كليلة الضوء . الهدوء يلف المكان ، ولا يسمع الا بعض طلقات على الربوة أحيانا .

قدماي تتعثران بالحطام المبعثر ، وكدت أسقط ذات مرة ، عندما التف على قدمي سلك ما .

شخص ما يجلس قرب الجسر المهدَّم ، وتشع جمرة سيجارته .

ـ أيّ شيطان هناك يدخن ؟

فيرد من الظلام صوت أجش :

ـ لا يرونني من هنا على أي حال .

انه صوت فاربر .

ـ ماذا تفعل هنا ؟

ـ لا شيء .. اشم الهواء .

اقترب منه .

ـ تشم الهواء ؟

ـ نعم ، أشم الهواء .

لا أدري لماذا أجد نفسي قد جلست الى جانبه . ويلوذ فاربر بالصمت . فقط يدخن . فأشعل أنا أيضا سيجارة . نجلس صامتين . لا أدري عمّ أستطيع أن أتحدث معه .

وفجأة يقول :

ـ ستبدأ الآن الحفلة .

ـ لا أظن ، « فجحوشهم » صامتة منذ يومين لسبب ما .

ـ لا ، انني لا أقصد القصف ، بل أتحدث عن حفلة حقيقية . لقد نصبوا ميكرفونا ضخما على الشاطئ

الآخر ، سيذيعون منه نشرة الأخبار ، ثم حفلة . بالامس أذاعوا حفلة في مثل هذه الساعة .

ـ اذاعة من موسكو ؟

ـ اعتقد أنها من موسكو .

يمر بجوارنا جنود ، حوالي عشرة ، يسيرون في طابور ، وهم يحملون الألغام والذخيرة . ونسمع صوت شظايا الأحجار الصغيرة وهي تخشخش تحت أقدامهم ، وسبابهم وهم يتعثرون . سوف يعودون بعد حوالي عشرين دقيقة . وبعد نصف ساعة سيسيرون مرة أخرى وهم يتعثرون ويلعنون الظلام وقطع الحديد المبعثرة وهتلر والعريف الذي أجبرهم على حمل أربعة ألغام دفعة واحدة . سوف يقومون في الليلة بستة أو ثمانية مشاوير ، ثم تستهلك كل هذه الذخيرة خلال النهار ، وما أن تغيب الشمس حتى يتوجهون الى الشاطئ ، ومنه الى الخطوط الأمامية ، ثم الى الشاطئ مرة ثانية .

وأسأل فاربر :

ـ كيف الحال عندك في السرية ؟

فيجيب :

ـ لا بأس ... لا تغير يذكر .

ـ كم جنديا لديك الآن ؟

ـ نفس العدد السابق ، لا يمكننا أن نزيد عن ثمانية عشر أو عشرين رجلا . لم يبق تقريبا أحد من الجنود المجربين الذين هبطوا على الشاطئ .

ـ والامدادات ؟

ـ أية امدادات ...

ـ أهم عيال صغار رضّع ؟

ـ يرون البندقية لأول مرة . بالأمس قتل أحدهم ، انفجرت في يده قنبلة يدوية .

اقول :

ـ نعم ... ليست الحرب مما يسر ...

ولا يعلق فاربر بشيء ، بل يخرج علبة التبغ من جيبه ويلف لفافة ويشعلها من عقب لفافته السابقة ، فيضيء وجهه النحيل للحظة ، ويبدو خداه الغائران وأنفه المعروق ، والتجاعيد حول شفتيه .

ـ ألم يَدُر بذهنك أبدا أن الحياة سخافة ؟ ـ يسألني فاربر بينما يحاول دون فائدة أن يشعل سيجارته ، فالعقب صغير يتفتت بين أصابعه .

فأسأله بدوري :

ـ الحياة أم الحرب ؟

ـ الحياة بالذات .

ـ سؤال صعب . بالطبع فيها الكثير من السخافة . ولكن بأية مناسبة أنت ...

ـ بدون أية مناسبة . أتفلسف . استخلص بعض النتائج .

ـ ألا تظن أن الوقت مبكر لذلك ؟

ـ مبكر بعض الشيء طبعا . ومع ذلك يمكن استخلاص بعض النتائج .

يضغط بقدمه على عقب السيجارة ببطء ليدفنه في الأرض ، وتظل الجمرة مشتعلة فترة طويلة قرب قدميه .

ـ ألم تجلس مرة لتفكر في حياتك الماضية ؟

ـ حسنا ؟

ـ ألم يخطر لك أننا كنا نعيش الى حد ما كالنعام ؟

ـ كالنعام ؟

ـ لو عقدنا مقارنة ، فسوف يكون هذا الوصف أنسب شيء ، فنحن لم نكن نخرج رؤوسنا من الرمال تقريبا .

ـ أفصح .

ـ انني أتحدث عن الحرب . عنا وعن الحرب . وعندما أقول « عنا » ، أعني نفسي ، وأعنيك ، أعني كل من لم تكن له علاقة مباشرة بالحرب في زمن السلم . وباختصار ، هل كنت تعرف ان الحرب ستقوم ؟

ـ اعتقد أنني كنت أعرف .

ـ بل كنت تعرف عن يقين . والأكثر من ذلك ، أنك كنت تعرف انك ستساهم فيها بنفسك .

ويجذب عدة أنفاس عميقة ، ثم ينفث الدخان في صخب .

ـ قبل الحرب كنت أنت ضابط احتياط ، أليس كذلك ؟ درجة « ا . ع . خ . ج » استعداد عال خارج الجيش ... أو شيئا ما من هذا القبيل .

ـ نعم ... كنت « ا . ع . خ . ج . » ... قائدا لفصيلة احتياط .

لم أسمع فاربر مرة واحدة يتحدث طويلا كما يتحدث الآن .

ـ كان لديكم يوم تدريب في الأسبوع . وكنتم جميعا لا تحضرونه بانتظام . وفي الصيف كانوا يرسلونكم الى معسكرات التدريب : لليمين دُرْ !

للشمال در ! للخلف دُر ! الى الامام معتادا مارش ! كان القادة يتطلبون دورات وخطوات منتظمة وأغاني مرحة . أما أثناء التدريب التكتيكي فكنتم تختفون بين الأشجار لتناموا ، أو تدخنوا ، ثم تتطلعون الى الساعات لتعرفوا كم بقي من الوقت حتى الغداء . اعتقد أنني لم أخطئ كثيرا .

ـ اذا أردت الصراحة ... لم تخطئ كثيرا .

ـ هنا مربط الفرس ... لقد كنا انا وأنت نعتمد على غيرنا . كنا نقف على الرصيف أثناء الاستعراضات العسكرية في أعياد مايو ، واضعين أيدينا في جيوبنا ، ونتطلع الى الدبابات المارة ، الى الطائرات وطوابير الجنود السائرة ... ونقول : يا للروعة ! يا للقوة ! وهذا كل ما كنا نفكر فيه ساعتها . أليس كذلك ؟ هل فكرنا بأنه سيأتي يوم نسير فيه نحن ، لا على الأسفلت ، بل على الطرق والدروب المتربة ، بالعدة على اكتافنا ، وأننا سنصبح مسؤولين عن حياة العشرات ولن نقول المئات من الناس .. هل فكرنا في ذلك ساعتها ؟

فاربر يتحدث ببطء ، بل بتراخ ، ويتوقف أحيانا ، ويجذب نفسا من لفافته بعد كل جملة .

مظهره الخارجي يبدو هادئا ، ولكني أحس من كثرة الأنفاس التي يجذبها ، ووقفاته المضطربة وحاجبيه المعقودين عندما يلوحان في ضوء اللفافة ، أنه كان يريد أن يتحدث عن ذلك منذ وقت طويل ، ولكنه لم يفعل . ربما لأنه لم يجد من يحدثه ، وربما لم تسنح الفرصة ، أو لم يسعفه الوقت ، أو لسبب آخر لا أعلمه . ويبدو لي واضحا أنه مضطرب ، ولكن اضطرابه هذا لا ينعكس على مظهره الخارجي تقريبا بل يجعله اكثر صرامة ، مثله مثل الكثيرين من هذا الطراز من الرجال الصامتين المنغلقين على أنفسهم .

أصمت . أنصت اليه . أدخن . وفاربر يواصل كلامه :

— رابع أيام الحرب صفوا أمامي ثلاثين شابا في طابورين — وكانوا خليطا من النجارين والسباكين والحدادين وسائقي الجرارات — وقالوا لي : تولَّ القيادة ... علمهم . وكان ذلك في كتيبة الاحتياط .

— في سلاح المهندسين ؟

— في سلاح المهندسين .

— وهل أنت من سلاح المهندسين ؟

— نعم ، أو با لأحرى كنت من سلاح المهندسين .

— وما الذي جعلك تتحول الى المشاة ؟

— لقد كنت قبل ذلك جندي مدفعية هاون . ولكن بعد انسحابنا من مدينة خاركوف اضطررت الى التحول الى المشاة .

— لم أكن أعرف . نحن زملاء اذن .

— زملاء — يبتسم فاربر ثم يواصل حديثه — قالوا لي : تولَّ القيادة ، علمهم . أما الجدول فكان مقسما كالتالي : أعمال التفجير : ٤ ساعات ، التحصين والاستحكامات : ٤ ساعات ، بناء الجسور والطرق : ٤ ساعات . كل ذلك وهم وقوف ، تارة على هذه الساق ، وتارة على تلك ، ينظرون الى جربنادياتهم الملقاة تحت الشجرة ، وينتظرون ما سوف أقوله لهم . وما الذي أستطيع أن اقوله لهم ؟ أنا لا أعرف الا أن الا ت . ن . ت . يشبه الصابون ، أما الديناميت فيشبه « الجيلي » ، وأن الخنادق نوعان : بطول القامة ، أو بنصف القامة ، ولو سألوني عن عدد القطع التي تتألف منها البندقية ، لظللت أحك قفاي طويلا ، ثم أتفوَّه بأول رقم يخطر على ذهني ...

ويتوقف هنيهة ، ويبحث عن علبة التبغ في جيبه . لم الأحظ من قبل أنه يدخن بهذه الكثرة ، سيجارة تلو سيجارة .

ـ من المذنب في كل هذا ؟ من ؟ أهو عمّي كما يقول عريف عندي في السرية ؟ كلا ، ليس عمي ... أنا نفسي المذنب . فقبل الحرب لم أكن أعير التدريب العسكري التفاتا. وكنت أنظر الى معسكرات التدريب نظرتي الى شيء ضروري لا حيلة لي قبله ، ولكنه كريه لا يطاق .. فكنت أظن بغطرسة أن ذلك ليس دوري في الحياة، وانما عملي هو الرياضيات وما الى ذلك ... اي العلم ...

ويفتش فاربر في جيوبه ، ثم يقول :

ـ بم سنشعل اللفائف ؟ الكبريت نفد .

ـ وهل انطفأ العقب ؟

ـ نعم .

ـ لننتظر اذن مرور الجنود .

ـ لننتظر .

وننتظر . فاربر يصمت برهة ، ثم يتابع بنفس الصوت المتعب :

ـ ظللت أعلمهم أربعة أشهر . هل تتصور أي نوع من التعليم كان ذلك ؟ وماذا كان بوسعي أن أعلمهم ؟ كان لدينا للكتيبة كلها نشرة تعليمات واحدة فقط بشأن أعمال التفجير . ولا شيء سواها . ولا أي كتاب آخر . فكنت اقرأها أثناء الليل ، وفي الصباح أشرح للجنود تركيب جهاز التفجير دون أن أمسكه مرة واحدة في حياتي . برررر ... كلما أتذكر ذلك تنتابني رعشة .

ويمر بجوارنا الجنود ، فنطلب منهم نارا . يجلس أحد الجنود على طرفي قدميه ويقدح زناده على الحجر ، ونشعل أنا وفاربر لفافتينا بالتناوب من فتيل زناده ثم ينصرف الجنود ، وتختفي هيآتهم المتشحة بالمعاطف الطويلة فوق السترات الثقيلة .

ويدير فاربر رأسه نحوي ويسألني بصوت خفيض للغاية :

ـ كثير الشكوى ؟ أليس كذلك ؟

حتى الآن كان يتحدث دون أن يلتفت اليّ ، وانما ينظر في الفضاء الممتد أمامه . ولكني أشعر

الآن في الظلام بنظرته المصوبة اليّ من عينيه القصيرتي النظر .

وأسأل :

ـ من هو كثير الشكوى ؟

ـ أنا طبعا . ربما تظن الآن أنني كذلك . وتقول بينك وبين نفسك : ما له يتذمر ويتشكى . أليس كذلك ؟

لا أجد ما أرد به على الفور ، فهو محق في كثير مما قاله .

ولكن ، أهناك جدوى من الحديث عما فات. ان تحليل الماضي ، أو بألاحرى الجوانب السيئة لهذا الماضي ، يصبح ذا معنى فقط لو استطعنا على أساس هذا التحليل أن نصلح الحاضر ، او نعد للمستقبل .

ـ في اعتقادي أنه من الصعب على الانسان أن يحيا اذا ظل يفكر دائما في أخطائه السابقة ، ويلعن نفسه على ذلك . فالسب واللعن لن يفيدا شيئا . ثم ها أنت الآن على ما أظن تعرف البندقية ، وتستطيع أن تعلم الجنود كيف يستخدمونها .

ويضحك فاربر :

ـ اعتقد أنك على صواب ـ ثم يصمت هنيهة ـ ولكن ، أتدري ... لو أنني قبل الحرب قابلت ... شيريايف مثلا ... لما صدقت أنني سأحسده في يوم من الأيام .

ـ وهل أنت تحسده ؟

ـ أحسده ـ ثم فترة صمت أخرى ـ انني اعرف مسائل الرياضة العليا بصورة لا بأس بها ، فقد درستها ، ولله الحمد ، ثماني سنوات . ولكن مسألة تافهة مثل فضح العريف الذي يسرق طعام الجنود تعتبر بالنسبة لي عائقا لا يمكن تخطيه تقريبا .

وأقول له :

ـ لديك ميل لنقد ذاتك .

ـ ربما . واعتقد أنك أنت أيضا تفعل نفس الشيء ، وان كنت لا تتحدث جهرا .

ـ ولكن ، لماذا تحسد شيريايف ؟

ـ لماذا ؟

ينهض ، ويخطو بضع خطوات ، ثم يجلس ثانية . الهدوء شامل لدرجة مدهشة . لا يعكره الا صوت رشاش يأتي احيانا من مكان بعيد جدا ، خلف

مصنع « اكتوبر الأحمر » ، مزمجرا دون أدنى رغبة .

ـ لأنني كلما نظرت اليه أحسست احساسا حادا بمدى عجزي . قد يبدو لك هذا أمرا مضحكا . ولكنه واقع . انه انسان بسيط ، مخلص لا يكلفه شيء أن يسألني مثلا ان كنت أجيد السباحة أو ركوب الدراجات ، ولا يشعر مطلقا أنه بهذه الاسئلة يصيب مني مقتلا . لقد كنت كاذبا عندما قلت أنني ضربت شخصا ما . انني لم أضرب أحدا على الاطلاق . لم أكن أحب العراك ، ولا التمارين البدنية . أما الآن ...

يصمت فجأة وينفخ بأنفه . وهذا على ما يبدو نوع من العصبية . لقد بدأت أفهمه شيئا ، بدأت أفهم هذا التحفظ والانغلاق والصمت .

ـ لا تبتئس ـ أقول له محاولا أن أجد كلمات أعزيه بها . وأتذكر كيف صرخت فيه ، عندما كنت قائدا للكتيبة ـ كلنا نشعر بالشقاء في هذه الحرب .

ـ يا الهي ! هل فهمتني حقا على هذه الصورة ؟ ـ صوته يختلج ويتموج من شدة الانفعال ـ لقد اقترحوا عليَّ منصبا لا بأس به في هيئة أركان الجبهة . اقترحوا عليَّ ان أعمل مترجما للاسرى ، فأنا أعرف

لغات أجنبية ، وأنت تقول لي : كلنا نشعر بالشقاء في هذه الحرب .

وأشعر أنني قلت عبارة غير موفقة بالفعل .

وأسأله :

ـ ألديك زوجة ؟

ـ نعم ، وماذا هناك ؟

ـ لا شيء ، مجرد سؤال .

ـ نعم ، عندي زوجة .

ـ وأطفال ؟

ـ لا . ليس لدي أطفال .

ـ وكم سنك ؟

ـ ثمانية وعشرون .

ـ ثمانية وعشرون . أنا أيضا في الثامنة والعشرين . وهل كان لديك أصدقاء ؟

ـ نعم كان ، ولكن ... ـ ويصمت .

ـ يمكنك ألا ترد اذا لم تكن راغبا في الاجابة . فليست هذه استمارة . انما مجرد ... اعتقد أنك شخص وحيد ، جدا .

ـ آه ، تقصد ذلك ...

ـ نعم ، أقصد ذلك . عما قريب سيكون قد مر شهر ونصف على تعارفنا ، ولم نتحدث طوال ذلك الوقت حديثا صريحا الا اليوم .

ـ نعم ، اليوم ...

ـ يخيل اليّ أنك تتحاشى الناس ، وتنأى عنهم .

ـ ربما ... ـ ويصمت من جديد ثم يقول ـ من الصعب عليّ بشكل عام أن أندمج مع الناس أو بالأحرى ، من الصعب على الناس أن يندمجوا معي . أنا في الواقع شخصية ليس فيها ما يستهوي الناس . لا أشرب الفودكا ، ولا أجيد الغناء ، وعلى العموم قائد فاشل .

ـ عبثا تقول هذا عن نفسك .

ـ أسأل شيريايف .

ـ شيريايف لا ينظر اليك نظرة سيئة على الاطلاق .

ـ ليست المسألة مسألة نظرة ... وعلى العموم كل هذا ليس ممتعا .

ـ بل اعتقد أنه ممتع . دعني أصارحك . أتذكر يوم رأيتك أول مرة على الشاطئ ، أثناء الليل ، بعد هبوطنا الى الشاطئ ؟

ويستوقفني فاربر بحركة من يده :

ـ مهلا ـ ويلمس ركبتي بيده ـ أتسمع ؟

وأصغي . من الشاطئ الآخر للفولجا تصل الى أسماعنا أصوات ناي وكمان مبحوحة ، تقترب تارة ، وتبتعد تارة أخرى ، عندما تقاطعها الرياح . وتسبح فوق النهر ، وفوق المدينة المهدمة الصامتة في هذه اللحظة ، فوقنا ، فوق الألمان ، متخطية الخنادق ، والخطوط الامامية ، وتل ماماي .

ـ هل تعرف هذا اللحن ؟

ـ ليس غريبا عليّ .. ليس غريباً بالمرة ، ولكن ... أليس تشايكوفسكي ؟

ـ تشايكوفسكي ، "Andante cantabile" من السيمفونية الخامسة ، القسم الثاني .

نجلس في صمت ونصغي . يبدأ رشاش خلفنا يطلق ناره باصرار مضجر ، كأنه ماكينة خياطة . ثم يكف .

ـ انتبه الى هذا الموضع ... ـ يقول فاربر ويعود يلمس ركبتي ـ كأنه صرخة ، أليس كذلك ؟ الخاتمة لا تشبه ذلك . نفس اللحن ولكنه لا يشبه هذا . هل تحب السيمفونية الخامسة ؟

ـ أحبها .

ـ وأنا أيضا ... أحبها أكثر من السادسة .. وان كانت السادسة تعتبر اعظم ما ... سيبدأ الآن لحن الفالس .. هيا نصمت .

ونصمت . نصمت حتى نهاية السيمفونية . وأتذكر من جديد كييف ، وحديقة القيصر ، وأشجار القسطل ، والزيزفون ، ولوسي ، والزهور الحمراء اليانعة ، وقائد الأوركسترا والشيء الأبيض الذي كان في عروة سترته ...

ثم تحلق قاذفة قنابل ليلية ثقيلة ، ذات ثلاثة محركات ، ولست أدري لماذا يطلق عليها الجنود اسم « السلّ » .

ويقول فاربر وهو ينهض :

ـ شيء غريب ، أليس كذلك ؟

ـ ما هو الغريب ؟

ـ هذا كله ... تشايكوفسكي ، وهذا المعطف ، و« السل » .

ننهض ونسير نحو خندق فاربر . القاذفة تحوم في مكان واحد ، ومن خلف تل ماماي تمتد أصابع الكشافات .

أعدل عن الذهاب الى الشاطئ ، وأقضي الليلة عند فاربر .

٢١

في مساء السابع من نوفمبر تصلنا الصحف المنشور فيها تقرير ستالين ، كنا ننتظره منذ فترة طويلة . ولم نستطع أن نسمعه في الراديو لشدة الضوضاء والشوشرة . لم نفهم الا عبارة : « سيأتي العيد الى شارعنا أيضا » .

وتدور المناقشات حول هذه العبارة في جميع الخنادق .

ويعلن ليساجور بثقة (وهو دائما يبدي رأيه بثقة كبيرة) :

ـ اذن سيبدأ الهجوم .. سترى . ليس من قبيل الصدفة ان قال لازار في المرة السابقة أن هناك فرقا ما تتحرك أثناء الليل ، فهل تراها ؟ كلا، لا تراها . ولا أنا . افهم اذن معنى ذلك ...

لقد تحدث ستالين في السادس من نوفمبر .

وفي السابع منه أنزل الحلفاء قواتهم في الجزائر ووهران ، وفي العاشر دخلوا تونس والدار البيضاء .

في الحادي عشر من نوفمبر ، وفي الساعة السابعة صباحا تتوقف العمليات الحربية في شمال أفريقيا ، وتوقع اتفاقية بين دارلان وأيزنهاور . وفي نفس اليوم والساعة تعبر القوات الألمانية بأمر من هتلر الخط الفاصل في منطقة « شالون سور ساون » متجهة نحو مدينة ليون ، وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تدخل القوات الايطالية مدينة نيس . في الثاني عشر من نوفمبر يحتل الألمان مدينة مارسيليا ثم تنزل قواتهم في تونس .

أما في الثالث عشر من نوفمبر فقد أغار ألالمان على ستالينجراد لآخر مرة . تقوم اثنتان واربعون قاذفة من طراز « يونكرس — ٨٧ » بثلاث طلعات تقصف أثناءها مواقع مدفعيتنا الثقيلة في منطقة كراسنايا سلوبودا على الشاطئ الأيسر للفولجا . ثم تطير عائدة ، ويسيطر على الجو هدوء غير مفهوم ولا مألوف ، هدوء عجيب للغاية .

فبعد اثنين وثمانين يوما من الدوي المستمر والدخان ، وبعد القصف المتواصل من السابعة صباحا الى السابعة مساء ، يحل فجأة شيء غير مفهوم . وتختفي السحابة من فوق مصنع « اكتوبر الأحمر » .

لم تعد مضطرا الى رفع رأسك الى أعلى كل لحظة لتبحث في السماء الصافية عن تلك المثلثات اللعينة . لم يبق غير طائرة « الاطار » تحلق بنفس الدقة السابقة صباحا ، وقبل الغروب ، وكذلك فد تمرق فوق رؤوسنا أحيانا طائرات « مسرشميت » ، ثم تختفي بنفس السرعة .

واضح ... لقد خارت قوى الألمان . وتدور في الخنادق مناقشات حامية : لماذا ، وما السبب ، وهل يمكن اعتبار الأحداث الأفريقية جبهة ثانية . القادة السياسيون عليهم اقبال شديد . والموجه السياسي لفوجنا ، ويدعى سينيتشكا لوزوفوي ، وهو رجل مرح نشيط ، منفعل دائما ، يكاد يسقط من الاعياء . لا نراه على الشاطئ الا نادرا ، عندما يأتي ركضا ليسمع الراديو في هيئة الاركان ، ثم يسارع بالعودة الى الخطوط الأمامية . وهناك لا تسمع الا : « سينيتشكا ، تعال هنا ! » و« الينا يا سينيتشكا ! » . وكلهم يدعونه « سينيتشكا » * ، سواء الجنود أم القادة . حتى أن القوميسير أخذ يوبخه ذات مرة :

* هو اسم التدليل المشتق من الاسم الكامل : سيميون . المترجم .

ـ ما معنى هذا يا لوزوفوي ؟ انك ملازم ، بينما الكل يدعونك « سينيشكا » ... هذا لا يجوز .

ولكنه يقف مبتسما في خجل ويقول :

ـ وماذا بوسعي أن أفعل . لقد تعودوا على هذا الاسم . وكم نبهتهم ، ولا فائدة .. فهم ينسون دائما ... وأنا أيضا أنسى ..

وهكذا ظلوا يدعونه سينيتشكا . وأشاح القوميسير بيده في يأس :

ـ انه يعمل كشيطان ... فكيف بالله أغضب منه ؟

سينيتشكا يعمل فعلا كشيطان ... ولديه من روح المبادرة والابتكار ما يجعلك تدهش ، كيف يمكن أن يجتمع كل ذلك في مثل هذا الجسد الصغير النحيل . فذات مرة أخذ يعالج انبوباً فصنع له جنودي من سلاح المهندسين بوقاً ضخماً من الصفيح ، فصار يقضي اياماً طويلة هو والمترجم محاولا بث الدعاية بين الألمان بواسطة هذا البوق . فكان الألمان يتميزون غيظاً ويطلقون عليهما النار ، فيضع البوق تحت ابطه ويقفز مع المترجم الى مكان آخر . ثم استهوته بعد ذلك المنشورات والرسوم الكاريكاتيرية التي تسخر

من هتلر . وكانت رسومه لا بأس بها أبدا . وفي هذا الوقت بالذات تسلم فوجنا دفعة من قذائف الدعاية ، وعندما نفدت ، أخذ يفكر مدة طويلة في كيفية استغلال المعلبات الفارغة ، فصنع من المطاط جهازا خاصا للاطلاق ، ولكن هذه الحيلة لم تنجح ، اذ لم تبلغ المعلبات التي كان يطلقها مواقع الألمان . عندئذ انهمك في صنع « خيال المقاتة » ، وانتشرت بعده في جميع الفرق الأخرى وأثارت المرح بين الجنود . فقد صنع سينيتشكا من الخرق والملابس العسكرية الألمانية دمية تشبه هتلر ، وجعل له شوارب وخصلة على جبينه من حبال الكتان المصبوغة ، وعلق عليه لوحة مكتوب عليها : « اطلق النار علّي » ووضعها هو وجنود الاستطلاع ذات ليلة في المنطقة « المحايدة » ، بيننا وبين الألمان . وجن جنون هؤلاء ، وأخذوا يطلقون نيران الرشاشات على زعيمهم طوال النهار ، وفي الليل سرقوا « خيال المقاتة » ، ولكنهم خسروا مقابل ذلك ثلاثة أفراد . وأمسك الجنود ببطونهم من شدة الضحك وهم يصيحون « يا سلام يا سينيتشكا ! » . لقد كانوا يحبونه جدا .

ولكنه ، للأسف ، استدعى من فرقتنا . فقد اختير

كأحسن موجّه سياسي في الفرقة ليدرس في موسكو . وانتظر الجنود طويلا رسالة منه ، وعندما وصلتهم أخيراً ، جلسوا طول النهار في مركز قيادة الكتيبة الأولى التي كان يزورها اكثر من غيرها ، يسطرون له الرد . ولم يزد عن صفحتين ، معظمهما أسئلة ، (وعن أنفسهم كتبوا : « أحوالنا كما هي ، نحارب قليلا ») أما التواقيع فلم يكفها بالكاد الا اربع صفحات .. حوالي مائة توقيع .

وظل الجنود يذكرونه بالخير مدة طويلة .

— ومتى اذن ينتهي من دراسته هذه ؟ — كانوا يسألون بينما يراودهم أمل بأن يعود سينيتشكا الى فوجهم من جديد . ولكنه لم يعد ، بل أرسلوه الى الجبهة الشمالية على ما أظن .

٢٢

التاسع عشر من نوفمبر يوم له ذكرى في حياتي ، ففيه ولدت . في طفولتي كان يحتفي بهذا اليوم بالكعك والهدايا ، وبعد ذلك بالحفلات الساهرة ، ولكن على أي حال كان يحتفي به دائما . حتى

في العام الماضي ، عندما كنت في فوج الاحتياط شربت أنا والاصدقاء بهذه المناسبة فودكا منزلية ولبنا حامضا من طست ضخم .

وفي هذه المرة يدبر فاليجا وليساجور أمراً ما . ويلح عليّ فاليجا حتى أذهب للحمّام ، وهو كوخ متهالك ، بلا سقف ، مقام على الشاطئ . ويقدم لي ملابس داخلية نظيفة ، بل ومكوية ، ويختفي طوال اليوم ولا يظهر امامي الا للحظة ، فيبدو مهموماً ، وتحت ابطه لفائف مبهمة ، يبحث عن شخص ما . ويبتسم ليساجور ابتسامات غامضة ، أما أنا فلا أتدخل .

في المساء أذهب الى أوستينوف ، فهو يستدعيني منذ ثلاثة أيام . في اليوم الأول « يقترح » عليّ أن اتي اليه ، وبعد ذلك « يأمرني » ، وأخيراً « يأمرني للمرة الأخيرة تلافيا لما قد يحدث من عواقب سيئة » . وأعرف مقدما عمّ سيدور الحديث ، فانني لم أرسل في الموعد المحدد خطة الأعمال الهندسية بشأن تدعيم خطوط الدفاع ، ولا قائمة بالأدوات الهندسية الموجودة حاليا مع ذكر الخسائر والامدادات خلال الأسبوع

الأخير ، ولا خرائط بمواقع نقط المراقبة المقترحة . سأستمع هناك الى موعظة طويلة مملة ، حافلة بالأمثلة التاريخية وأسماء المدن المحصنة والمهندسين والعلماء العسكريين البارزين وما الى ذلك . وسيستغرق ذلك زمنا لن يقل عن ساعة بأي حال . اني أعرف ذلك جيدا .

يقابلني أوستينوف بمهابة غير عادية . وهو يحب الرسميات والطقوس . وعموما فالناس الذين كانوا يمارسون عملا ذهنيا ثم جاءوا الى الجبهة ينقسمون أساساً الى فريقين : فريق منهم ترهقه وتعذبه الحياة العسكرية ، ويبدو كل شيء عليهم غير مهندم : فالسترة العسكرية غير محبوكة على الجسد ، ولوحة الحزام المعدنية مائلة ، ومقاس الحذاء أكبر من اللازم بثلاث نمر ، والمعطف يتكور على الكتفين ولسانهم ثقيل يغمغم بالكلمات غمغمة . أما الفريق الآخر فهو على العكس تماما ، يعجبه جدا المظهر الخارجي للحياة العسكرية ، فتراهم يرفعون أيديهم بالتحية العسكرية بلذة ، بل بشهية ، ويحشرون في حديثهم كل لحظة كلمات « أيها الرفيق الملازم » و « أيها الرفيق النقيب » و يتيهون فخراً بمعرفتهم القواعد واللوائح

وأنواع طائرات الألمان وطائراتنا . ويصغون الى صوت قذيفة الهاون المنطلقة ويقولون حتما : « هذه قذيفة مدفعية الفوج » أو « بدأوا الضرب بعيار ١٥٢ » ، ولا يقولون عن أنفسهم الا « نحن جنود الجبهة . . . عندنا في الجبهة » .

وينتمي أوستينوف الى الفريق الثاني . فتشعر أنه يعتز بدقته واتباعه لجميع بنود اللوائح حرفياً ، ولا يبدو هذا مشينا له ، بالرغم من كبر سنه ، بالرغم من نظارته وحبه للكتابة . وعندما يصافح شخصا ، أيا كان ، لا بد ينهض ، واذا تكلم مع ضابط أعلى منه رتبة وقف انتباه .

وهو الآن يستقبلني بمهابة من نوع خاص . وكل ما فيه يدل على التحفظ . . التعبير الجامد على وجهه ، وحاجباه المقطبان عمداً ، والاشارة التمثيلية الناعمة التي دعاني بها للجلوس على المقعد . . كل هذا يدل على ان الحديث اليوم لن يقتصر على جداول المعلومات والخطط .

أجلس على المقعد المقابل . ونظل صامتين بعض الوقت ، ثم يرفع بصره وينظر اليَّ من فوق نظارته :

ـ أنت على علم بالأحداث الأخيرة أيها الرفيق الملازم ، أليس كذلك ؟

ـ أية أحداث ؟

ـ ماذا ؟ الا تعرف شيئا ؟ ـ ويرتفع حاجباه دلالة الحيرة . ـ ألم يقل لك ق ف م شيئا ؟ ـ « ق ف م » تعني في لغة البلاغات المحببة اليه : « قائد فوج المشاة » ، وفي حالتنا هذه تعني الرائد بورودين .

ـ كلا ، لم يقل لي شيئا .

ويهبط حاجباه ببطء كأنهما يترددان ، ويعودان الى وضعهما السابق . وتقلب أصابعه قلماً طويلا ، مبرّياً بعناية في طرفه تلبيسة .

ـ سننتقل اليوم الى الهجوم في الساعة السادسة تماما .

ويرسم بقلمه على الورق دائرة صغيرة ، ثم يضع في وسطها نقطة ، مؤكداً أهمية العبارة التي قالها .

ـ أي هجوم ؟

ـ هجوم شامل على امتداد الجبهة ـ يقول ببطء ، متلذذاً بكل كلمة ـ وسنشترك نحن أيضا فيه . هل تفهم معنى هذا ؟

حتى الآن لا أفهم الا شيئا واحداً : لقد بقي على بدء الهجوم عشر ساعات ، وضاعت الراحة التي وعدت بها جنودي هذه الليلة ، أول راحة لهم خلال الاسبوعين الأخيرين .

ـ المهمة الملقاة على عاتق فرقتنا محدودة ، ولكنها خطيرة ـ يواصل أوستينوف كلامه ـ علينا أن نحتل الصهاريج . هل تدري مدى المسؤولية التي نتحملها الآن ؟ في الرابعة والنصف سيبدأ قصف المدفعية التمهيدي . ستهدر مدفعية الجبهة كلها ، والشاطئ الأيسر كله . أمامك فسحة محدودة جداً ـ الساعة الآن الثامنة وسبع دقائق ـ اي حوالي عشر ساعات . لقد أعطوا لفوجكم سرية من كتيبة سلاح المهندسين ، وعليك أن تسلم لكل كتيبة مشاة فصيلة من هذه السرية لأغراض الاستطلاع الهندسي ونزع الألغام من حقول العدو . أما جنود سلاح المهندسين التابعين للفوج فضعهم على الممرات في حقولنا نحن .

وتمتلىء الورقة التي أمامه تدريجياً بسطور منتظمة ، مرتّبة .

ـ لا تنس لحظة واحدة عملية الاحصاء ، يجب

أن تحصى كل لغم يرفع ، وتسجل كل حقل يكتشف وتحدده بعلامة مميزة ، ولا بد أن تكون هذه العلامة من العلامات الثابتة — هل تفهمني ؟ — علامة ثابتة ، وليس مجرد برميل ما ، أو مدفع محطم . ويجب أن تبلغني بما تم عمله كل ثلاث ساعات مع رسول خاص .

ويظل يتكلم مدة طويلة وباهتمام ، دون أن يترك تفصيلا واحداً ، يكاد يقسم وقتي بالساعة والدقيقة . وأسجل صامتا ما يقول . جنود سلاح المهندسين في الفرقة يستعدون الآن للمهمة ، ينظفون الأدوات ، ويحضرون القذائف ، ويصنعون بأيديهم قنابل حارقة .

أصغي وأسجل واتطلع الى ساعتي . ثم انصرف في التاسعة . واتفق مع قائد السرية الثانية الموضوعة تحت امرتي — وهي نفس السرية التي أعمل معها باستمرار — على أن يأتي اليَّ بالجنود في الساعة الثانية صباحاً .

يقابلني ليساجور غاضباً مشعثاً ، تبرق عيناه الصغيرتان :

— ما رأيك في كل هذا أيها الملازم ؟ هه ؟

ويغص حلقه بالكلمات من شدة الانفعال ، ولا

يطيق الجلوس في مكان واحد ، فيقفز ويسير رائحا غاديا في الخندق المسقوف .

— حفرنا الخنادق ، وزرعنا ألغاما لا أول لها ولا آخر لو سار عليها الشيطان نفسه لانكسرت ساقه . . ثم ماذا ؟ لا . . . هذا قليل ! هيا اصنعوا ممرات في حقول الألغام ، وارفعوا زنبركات برونو . . كل ما تعبنا في صنعه يضيع الآن هدراً . لماذا لا نجلس في خنادقنا ونكتفي باطلاق النار ، ما دام الألمان لا يهاجمون . . ماذا نبغى أكثر من ذلك ؟

بَدَأَتْ كلمات ليساجور تثيرني :

— دع عنك هذا الحديث الاحمق . لا تحارب اذا لم يكن الأمر يعجبك . . . أنت وشأنك .

ولكن ليساجور لا يهدأ ، وقد أخذت تظهر في صوته نغمة شكوى :

— انني مغتاظ ، يا إلهي ، كم يغيظني هذا ! انظر الى هذه المائدة . . لقد اعتزمنا مرة في العمر أن نحتفل بعيد ميلاد ، واذا بكل ذلك يذهب الى الشيطان !

المائدة فعلا فخمة ، في وسطها أربع زجاجات فودكا مفتوحة وشرائح رقيقة بيضاوية الشكل من لحم

« المرتدلّة » ، وعلبة من البسكويت ماركة « بوشكين » ، وقطعة من الشيكولاتة في غلاف بني مذهب ، وسمك مملح . . . أما المفاجأة الكبرى فطبق من اللحم يتصاعد منه البخار ، ورائحته الشهية تملأ الخندق .

— أتدري أنه أرنب . . أرنب حقيقي ، جاء به فاليجا ، عبر النهر الى الشاطئ الآخر خصيصا ليحضره . وكان من المفروض أن يحضر الحفل تشوماك . وها هو اللبن المركز الذي تحبه . . فماذا نفعل الآن ؟ أنؤجل ذلك الى حفلة رأس السنة ؟ هه ؟

وبالفعل ، ما أطيب أن تجلس هنا ، تمضغ بين اسنانك هذا الأرنب ، وتبلّعه بالخمر ، من أن تزحف في الخطوط الأمامية تحت وابل النار . ولكن ما باليد حيلة . . . سنترك الأرنب مؤقتا ، فلقد انتظرنا طويلا هذا الهجوم ، حوالي عام ونصف ، انتظرناه ستة عشر شهرا . . . وها هو ، أخيرا ، قد جاء ، هذا اليوم المنتظر . . .

نملأ أكوابنا الى منتصفها ، ونشرب دون أن نقرعها ببعضها ، ثم نمز بالأرنب . لحمه قاس قليلا ، ولكن هذا لا يهم على أي حال . المهم أنه لحم أرنب .

32-2038

مزاجنا يتحسن قليلا ، حتى أن ليساجور يغمز لي بعينه ويقول :

— أسرع أيها الملازم قبل أن يستدعوك . لقد بعثوا في طلبك مرتين .

بعد دقيقة يدخل جندي اتصال الاركان . أرسله أبروسيموف في طلبي .

الرائد وابروسيموف جالسان الى الخريطة ، والخندق لا موضع فيه لقدم . . . غاص بقادة الكتائب وضباط الاركان وقادة الوحدات الخاصة . وتشوماك هناك بعمرته الخالدة ، مفكوك الازرار ، يلمع قميصه البحاري المخطط .

— قد ضاع ترتيبنا أيها المهندس ، أليس كذلك ؟

— نعم ، ضاع . . .

— لا بأس . ضع الوليمة في البوفيه ، وعندما نرجع سنساعدك — ثم يقهقه بمرح بينما تلمع عيناه .

وننحشر في الزحام حول الطاولة . الحال لا يدعو الى الطمأنينة أبدا . فقبل الهجوم علينا أن نبني مركز قيادة جديد لقائد الفوج ، فالمركز السابق لا يصلح ، اذ لا يمكن رؤية الصهاريج منه . كنت

أتوقع هذا . وبالاضافة الى ذلك علينا طبعا أن نرفع الالغام ونشق الممرات عبر حقول الألغام ، ونؤمن تحركات المشاة .

يقول بورودين وهو ينفث دخان الغليون :

ـ لا تخذلنا ايها المهندس لقد زرعتم في الخطوط الأمامية بطاطسكم * بكثرة ، ولن يستطيع أحد غيركم أن يميز هناك شيئا . فاحذر أن تنفجر في رجالنا . . . أنت نفسك تدري أن كل رجل بحساب . .

يبدو واضحا أنه قلق ، ولكنه يحاول اخفاء قلقه . وينطفئ غليونه كل لحظة ، بينما لا يريد الكبريت أن يشتعل ، فالعلبة سيئة للغاية .

ـ غط سقف نقطة المراقبة بالقضبان الحديدية ، ولا تنس عمل مدفأة ، فقد عاد الروماتيزم يتعبني . سأكون هناك في الخامسة بالضبط ، فاذا وجدتك لم تنه العمل ، كسرت ساقيك . مفهوم ؟ هيا ، ابذل جهدك .

وأنصرفُ .

---

* يقصد بذلك الألغام . المترجم .

اجد ليساجور جالسا يبدل جوربه . فيسالني :

ـ هه ؟

ـ خذ مجموعة وافرغوا من بناء نقطة مراقبة جديدة في الخامسة تماما .

ـ جديدة ؟ في الخامسة ؟ هل جنّوا . . .

ـ جنوا او لم يجنوا . . ليس أمامك الا سبع ساعات .

ويحشر ليساجور قدمه في الحذاء العالي بغضب فتنقطع اذن الحذاء .

ـ اطعم الكلاب قبل أن تذهب الى الصيد . ألم أقل أن الصهاريج لن ترى من نقطة المراقبة تلك . . . لكنهم قالوا : لا بأس . . . الصهاريج لن تدخل في منطقتنا بل ستتبع الفوج الخامس والأربعين ، أما نحن فسنكون الى اليسار قليلا . . تفضل ها نحن قد أصبحنا « على اليسار » !

ـ حسنا ، أجل الشكوى الى غد ، أما الآن فأسرع . استخدم نقطة مراقبة جنود الاستطلاع ، وهؤلاء دعهم يجلسون مع جنود المدفعية . . . قل لهم : بورودين أمر بذلك ، مفهوم ؟

— كل شيء مفهوم ، ماذا هناك لا يفهم . . .
طبعا أمر بوضع قضبان حديد في السقف ؟ اليس كذلك ؟
— بوضع قضبان ، وبناء ، مدفأة ، ولكن اجعل مدخنتها في اتجاه مواقعنا . . ضيّق المزغل ، أما المزغل الأيسر فيمكنك أن تسده تماما .
— أو لم يأمر أيضا بكساء الجدران بألواح من الخشب المصنفر المصقول ؟
— أنت وشأنك . . . يمكنك أن تضع هناك كنبة لو شئت . خذ معك نوفوخاتكو ومجموعته .
— انه مصاب بالعمى الليلي .
— ولكنه يصلح لتشييد نقطة المراقبة . جاركوشا سيذهب مع أجنيفتسيف لعمل ممرات في حقول الألغام .
— فليبق نوفوخاتكو في مكانه اذن ليحرس المجاريف .
— تصرف كما ترى . . . بشرط أن تكون نقطة المراقبة جاهزة في الخامسة بالضبط .
ويرتدي ليساجور فردة الحذاء الاخرى وهو يزفر .

— دلوني على ذلك الذي اخترع الحرب . . .
كان زماني الآن جالسا فوق الفرن أقزقز اللب . . . آه من حياة الجندية . . .
ويدس في فمه نصف كمية المرتدلّة الموضوعة على المائدة ، وينصرف .
أما أنا فأبقى في انتظار جنود سلاح المهندسين التابعين للفرقة .

٢٣

في حوالي الساعة الرابعة أتوجه إلى الخطوط الأمامية . الألمان لا يكفون عن إطلاق نار رشاشاتهم وصواريخ الاضاءة على الجهة الأمامية وكأنهم قد أحسوا أن شيئا ما يدبر .
أتفقد الكتائب . انتهى أجنيفتسيف وجاركوشا من عمل الممرات ، وجلسا في الخندق يستدفئان ويدخنان . أتوجه الى نقطة المراقبة . أسمع على البعد همس ليساجور . ثم أراه جالسا فوق الخندق يضع بمساعدة توجييف قضبان السقف ، وكلاهما يزفر ويسب . وتصفر الرصاصات الألمانية فوق رأسيهما تقريبا ،

فهناك رشاش ألماني على بعد خمسين مترا منهما ، ولذلك يطير الرصاص فوقهما ثم يرتطم بالأرض في مكان بعيد خلفهما .

أدخل الخندق المسقوف ، فأجد هناك جنود الاشارة وجندي مراسلة قائد الفوج . وعلى المزغل شدت بطانية كيلا يرى الضوء من الخارج . وعلى الأرض مباشرة وضع مصباح زيتي مصنوع من طلقة مدفع فارغة . أحد جنود الاشارة يلقي في المدفأة ببارود من قذائف الهاون المساعدة ، ويبدو أن يتلذذ من منظر البارود وهو يومض في المدفأة ، فيظل يلقي فيها باستمرار حفنة بعد حفنة .

بعد حوالي عشر دقائق يندفع ليساجور الى الخندق ، وجهه مغطى بحبات العرق ، ويداه حمراوان من الصدأ والطين .

ـ تطلع الى ساعتك أيها المهندس .

ـ الرابعة وعشرون دقيقة .

ـ أترى مدى السرعة ؟ لقد انهينا العمل على بداية القصف التمهيدي بالضبط . هل معك تبغ ؟

أعطيه لفافة ، ويمسح وجهه بكمه فيصبح مخططا كمرتبة السرير .

ـ يا له من دب توجييف هذا ! يرفع على كتفه نصف قضيب وكأنه يرفع قشة . أتعرف من أين سحبنا هذه القضبان ؟ من مصنع اللحوم تقريبا ، وقسمناها الى أجزاء بواسطة الـ ت . ن . ت ، ثم حملناها على أكتافنا . . . هناك ، تحسس كتفي . . أصبح كالوسادة . لم نبن خندقا ، بل استراحة من أحسن نوع . . . لا مثيل لها في سوتشي أو ماتسيستا * . . .

ـ كم طبقة دعائم وضعتم في السقف ؟

ـ طبقتان من القضبان ، بالاضافة الى طبقة الخشب السابقة .

ـ وهل أصبح منظره كالمرتفع ؟

ـ وليكن . . . المرتفعات هنا ما أكثرها . . . في كل خطوة خندق أو مرتفع .

ـ هل يوجد جرحى ؟

---

* سوتشي وماتسيستا ، مدينتان على ساحل البحر الأسود ، ومركزان من مراكز الراحة والعلاج في الاتحاد السوفييتي . المترجم .

— معطف توجييف . أصيب بثلاثة ثقوب .
أما توجييف نفسه فشاب رائع . لا بد من مكافأته .
كان يعمل ، وكأنه يزرع حديقة منزله . مهلا . . .
هل بدأ الضرب ؟

نرهف السمع . فعلا . تصل الى أسماعنا أولى الطلقات من وراء الفولجا . اتطلع الى ساعتي . الرابعة والنصف .

ويصرخ ليساجور :

— الزم الخنادق ! القذائف تسقط على رؤوسنا . اصرخ أيها الجندي لكي يأتي جنود سلاح المهندسين الى هنا .

وينحشر جنود سلاح المهندسين في الخندق ، وهم يدخنون ، وتتشابك بنادق ومجاريف بعضهم بالبعض .

— وأين توجييف ؟

— ما زال هناك ، فوق .

— أرأيتم ؟ يرش الرمل فوق الخندق ، لبضعي عليه جمالا . شده الى هنا يا سيديلنيكوف ، والا اطاحت قذيفة برأسه .

يشتد هدير المدافع . ونسمع خلال الباب غير المحكم حمحمة القذائف فوق الخندق . ويطغي دوي الانفجارات على صوت الرصاص . الخندق يهتز ، ويتساقط التراب من السقف .

ويلكزني ليساجور في جنبي قائلا :

— ما رأيك ؟ هل نأمر الجنود بالعودة قبل ان يفوت الاوان ؟ اذا جاء ابروسيموف وهم هنا ، انتهى الأمر ، حتما سيقذف بهم في الهجوم .

فعلا ، يجب أن نعيد الجنود طالما أن القصف التمهيدي مستمر والألمان صامتون . وهكذا نفعل .

وما أن ينصرفوا حتى يأتي الرائد وابروسيموف وقائد جنود الاستطلاع . الرائد يتنفس بصعوبة ، فقلبه يدق على غير ما يرام .

ويسألني وقد تجمعت التجاعيد حول فمه ببشاشة :

— ألن نُقْتَل هنا أيها المهندس ؟

ويدس يده في جيبه ليخرج غليونه .

— لا أعتقد أيها الرفيق الرائد .

— مرة أخرى تقول « اعتقد » . . . سوف أعاقبك بغرامة خمس روبلات جزاء على كل « أعتقد » . هل وضعت في السقف قضبانا ؟

ـ نعم . طبقتان .

يقترب أبروسيموف . شفتاه مطبقتان وعيناه مزرورتان . يسأل :

ـ أين تابعك ليساجور ؟

ـ ذهب مع الجنود للراحة .

ـ للراحة ؟ كان يجب أن تبقيهم هنا . . . أهذا وقت الراحة؟ !

لا أقول شيئا ، حسنا فعلت اذ أرسلتهم في الوقت المناسب الى الشاطئ .

ـ وأين الباقون ؟

ـ في الكتائب .

ـ ماذا يفعلون ؟

ـ ممرات عبور .

ـ هل تحققت بنفسك ؟

ـ نعم .

ـ وماذا يفعل جنود سلاح المهندسين التابعون للفرقة ؟

ـ ذهبوا للاستطلاع .

ـ ولماذا لم يفعلوا ذلك بالامس ؟

ـ لانهم تلقوا الامر اليوم .

ويعض أبروسيموف على شفتيه ، وتنظر اليّ عيناه الباردتان الحادتان بنفور . أما زاوية فمه اليسرى فترتعش قليلا ، ويقول :

ـ احذر ايها المهندس . . . لو انفجرت فيهم الالغام فسيكون مصيرك سيئا .

نبرته لا تعجبني . أجيبه بأن الممرات قد حددت بأوتاد واخبرنا بذلك قادة الكتائب . ولا يوجه اليّ أبروسيموف أسئلة اخري . يتصل تليفونيا بالكتيبة الأولى .

يشتد قصف المدافع ، وتتحد أصوات الرصاص والانفجارات في دوي متصل لا ينقطع لحظة واحدة ، ويقرقع الباب على الدوام ، فنربطه بسلك .

يقول الرائد :

ـ انهم يعملون جيدا .

تنفجر قذيفة بالقرب من خندقنا تماما ، فيتساقط التراب من السقف ، ويكاد المصباح ان ينطفئ .

ـ فعلا ، يعملون جيدا . . . ـ يبتسم قائد جنود الاستطلاع متحاملا ـ بالأمس كادت قذيفة عيار ١٢٢ ان تصيب خندق بوجارسكي قائد المدفعية .

يبتسم الرائد ، وانا ايضا ابتسم . ولكنّ ما نشعر به عموما ليس مما يسر في شيء ، اذ لا يفصلنا عن الألمان سوى خمسين مترا ، وهي مسافة لا تعني شيئا بالنسبة لمدى انحراف قذائف المدفعية البعيدة المدى .

نجلس وندخن . من الصعب الاّ يدخن المرء في لحظة كهذه .

ثم يأتي جندي استطلاع من سلاح المهندسين التابع للفرقة . لقد اكتشفوا ثمانية عشر لغما ، نزعوا جهاز التفجير منها ثم تركوها مكانها . ينصرف الجندي .

أبروسيموف لا يترك سماعة التليفون .

أمن المعقول أن يصمد الالمان بعد قصف كهذا ؟

يصبح الجر في الخندق حارا . جانبا المدفأة برتقاليان يميلان الى الحمرة . أفك أزرار معطفي .

ـ كفاك إشعالا للنار ـ يقول الرائد لجندي الاشارة ـ الفجر طلع ، وسوف يطلقون النار علينا لو شاهدوا دخانا .

ويعود الجندي زاحفا الى ركنه .

عندما توشك الساعة أن تبلغ السادسة يهدأ دوي

المدافع . نتطلع الى ساعاتنا كل لحظة . السادسة إلا ربعا . إلا عشر دقائق . إلا خمس .

أبروسيموف يتسمر الى السماعة .

ـ استعد !

تدوي آخر الطلقات المتناثرة . ثم يعم السكون . سكون مرعب غير عادي . لقد انتهت مدفعيتنا من القصف ، بينما لم يبدأ الالمان بعد .

ـ تقدم ! ـ يصرخ أبروسيموف في السماعة .

أتسمر الى المزغل . أرى على صفحة سماء الفجر الرمادية أشباح صهاريج المياه ، وبعض المداخن وخنادق الالمان ودبابة محطمة . والى اليمين قليلا قسما من خنادقنا ، وطائرا يحلق ، خافقا بجناحيه ببطء . يقال ان الطيور لا تخشي الحرب .

ـ تقدم ، يلعن أبوك ! ـ يصرخ أبروسيموف في سماعة التليفون . يبدو شاحبا ، وزاوية فمه ترتعش باستمرار .

الرائد الى يساري ينظر أيضا خلال المزغل ويمص غليونه . لست أدري لماذا احس برعشة في يدي

وقشعريرة تسري في بدني . ربما من القلق فافظع شيء أن تبقى بلا عمل .

تظهر أشباح تركض فوق خنادقنا . تصيح : هورا ــ ا ــ ا متجهة مباشرة الى الصهاريج . . . آ ــ آ ــ آ . . .

ولا ألحظ متى بدأ الرشاش الالماني يطلق نيرانه ، لم ار إلا أشباح الجنود وهي تسقط ، والسحب الصغيرة لانفجارات الهاون . هناك رشاش آخر ، إلى يسارنا .

الانفجارات تزداد ، ويغطى الأرض دخان أبيض كالقطن . ثم يتلاشى تدريجيا ، ويلوح الجنود على الأرض الجرداء الرمادية . جنود كثيرون ، بعضهم يزحف وبعضهم راقد ، لم يعد هناك من يركض .

الرائد يمص غليونه ، ويسعل .

ــ لم تُسكت نيراننا أي شيء . . يا للعنة !

ويتصل أبروسيموف بالكتيبة الثانية ، ثم الثالثة . نفس الصورة هناك . انبطح الجنود ، وجعلتهم الرشاشات والهاونات لا يستطيعون حتى رفع رؤوسهم .

يبتعد الرائد عن المزغل ، يبدو وجهه منتفخا ، مرهقا .

ــ ضربناهم ساعة ونصف . . وبعد ذلك لا نستطيع الاستيلاء عليها . . هؤلاء الابالسة عمرهم طويل .

أما أبروسيموف فيظل على وقفته . . السماعة على أذنه ، ورجله على الصندوق ، واصابعه الجافة تلعب بسلك التليفون في عصبية .

ــ تطلع أيها المهندس في المزغل ، هل القتلى كثيرون ؟ ام تراهم اختبأوا في الحفر ؟

أتطلع . أرى اثنى عشر شخصا راقدين ، في الغالب قتلى ، اذ انبسطت ايديهم وارجلهم . ولكني لا أرى الباقي . الرشاش يحصد حافة الخنادق تماما فيثور الغبار . الحالة زفت .

ويقول الرائد بصوت خافت تماما :

ــ يا كيرجينتسيف .

ــ نعم !

ــ لا داعي لبقائك هنا . اذهب الى كتيبتك السابقة ، وساعد شيريايف . . . ــ ويمص الغليون قليلا ــ لقد حفر الألمان هناك خنادق اتصال ، ووضع شيريايف خطة للاستيلاء عليها . ضعوا هناك الرشاشات واضربوا على الجناحين .

وأستدير لأنصرف .

ـ ماذا ، هل ترسله الى شيريايف ؟ ـ يسأل أبروسيموف وهو لا يبتعد عن التليفون .

ـ فليذهب . لا داعي لبقائه هنا . مهما كان فلن نستولى على الصهاريج بهجوم مباشر .

ـ بل سنستولى عليها ! ـ يصرخ أبروسيموف بطريقة غير طبيعية ويرمي بالسماعة ، ويلتقطها جندي الاشارة بمهارة قبل ان تصل الى الأرض ويضعها على إذنه ـ سنستولى عليها بالهجوم المباشر اذا لم نختبئ في الحفر . هيا يا كيرجينتسيف ، اذهب الى الكتيبة الثانية ونظم الهجوم ، والا فانهم هناك يفكرون ويخمنون ولا فائدة ترجى منهم . يدعون أن النيران كثيفة لا تسمح لهم بالنهوض .

عيناه ، اللتان تبدوان عادة هادئتين باردتين أصبحتا الآن مستديرتين حمراوين ، وشفته لا تكف عن الارتعاش .

ـ أنهضهم ، أنهضهم ، فقد استمرأوا الرقاد !

ـ دع عنك الغضب يا ابروسيموف ـ يقول الرائد بهدوء ويشيح لي بيده أنْ اذْهَبْ .

وانصرف ، انطلق راكضا الى مركز قيادة شيريايف ،راوغا بين الانفجارات . فاض الغيظ بالألمان فأخذوا يطلقون النار دون تمييز ، ولا يهمهم الا أن تكون نارا كثيفة . لا أجد شيريايف ، فهو في الخطوط الامامية . أسرع الى هناك فاصطدم به وجها لوجه عند مدخل الخندق . . . نفس الخندق الذي كنا نجلس فيه محاصرين .

ـ كيف الحال ؟

يشيح شيريايف بيده :

ـ تسأل عن الحال . . . قضى على نصف الكتيبة .

ـ هل قتلوا ؟

ـ الشيطان وحده يعلم . انهم راقدون . أيمكن للانسان ان يحارب تحت قيادة شخص كأبروسيموف !

ـ وماذا هناك ؟

تنتفخ الشرايين في رقبة شيريايف :

ـ الرائد يقول شيئا ، وابروسيموف شيئا آخر . . . كنت قد اتفقت مع الرائد وشرحت له كل شيء

بصراحة ، وقلت له ان لكتيبتنا خنادق اتصال مشتركة مع العدو . . .

ـ أعرف ذلك ، ثم ؟

ـ ثم أعددنا الامر ليلا ، وضعت المتفجرات لفتح الممرات . . . التي ردمتها أنت ، وعينت جنود سلاح المهندسين . وفجأة يتصل بي أبروسيموف : دع عنك الممرات وقُدْ الجنود الى الهجوم ، فشرحت له ان هناك رشاشات . . . « هراء ، ستسكتها المدفعية والألمان يخشون البنادق المشرعة » .

ـ وكم عدد الجنود لديك ؟

ـ من المشاة ما يزيد قليلا على الستين . ثلاثون تقدموا للهجوم وثلاثون ابقيتهم . سوف يغضب ابروسيموف لذلك . فهو يقول : وجِّه ضربة مركزة . . لا تبق إلا جنود الرشاشات والهاونات ، أما جنود سلاح المهندسين فادفع بهم أيضا إلى القتال .

ـ وهل الرائد على علم بالأمر ؟

ـ لست أدري .

ويرتمي شيريايف على المقعد فيصر هذا ويكاد يتحطم .

ـ ما العمل الآن ؟ نصف الجنود هلك ، والنصف الآخر سيظل راقدا حتى المساء ، فلن يسمح لهم العدو بالنهوض ، بينما سيعود أبروسيموف هذا يقول في التليفون . . .

وأفضى الى شيريايف بما قاله لي الرائد فتلمع عيناه ويقفز واقفا ويمسك بكتفي ويهزني :

ـ رائع . ابق أنت هنا ، وسأذهب أنا وكارنأوخوف وفاربر . . . آه ، لو نستطيع اخراج الجنود من تلك الحفر .

ثم يلتقط عمرته :

ـ إذا دق التليفون لا ترد ، دع جندي الاشارة يتكلم . قل لهم يا لوشكا اننا في الخطوط الامامية . مفهوم ؟ هذا اذا كان ابروسيموف هو المتحدث .

ويهز لوشكا رأسه دلالة الفهم .

وما أن يصفق شيريايف الباب وراءه حتى يتصل أبروسيموف ويغمز لي لوشكا بمكر :

ـ لقد انصرفوا أيها الرفيق النقيب . انصرفوا لتوهم . نعم ، نعم الاثنان معا . جاءا ثم انصرفا .

ويغطي السماعة بيده ، ويضحك .

ـ انه يسب . . لأننا لم نتصل به عندما جئت .

ينهي شيريايف جميع الاستعدادات بعد نصف ساعة . خنادقنا متصلة بالعدو في ثلاثة مواضع اثنان منها على التبّة وواحد في الوادي ، وهذه المواضع مُلَغَّمة ، فأوصل اليها شيريايف وجنود سلاح المهندسين التابعين له أسلاك التفجير ليلا . والخنادق التي تصلنا بالألمان قد تم الكشف عليها ونزع منها حوالي عشرة ألغام .

كل شيء على ما يرام ، ويضرب شيريايف ركبته بيده قائلا :

ـ عاد ثلاثة عشر فتى زاحفين . . عظيم ! فليستريحوا الآن ، وليبقوا هنا للحراسة ، أما الباقون فسندفع بهم كل عشرة في خندق . . . عدد لا بأس به أليس كذلك ؟

عيناه تلمعان ، وعمرته المصنوعة من الفراء الأبيض الكث منزلقة على احدى أذنيه ، بينما التصق شعره بجبينه .

ـ سأدفع بكارنأوخوف وفاربر الى التبة ، أما أنا فسأذهب من ناحية الوادي .

ـ ومن الذي سيدير العملية ؟

ـ أنت .

ـ دع عنك هذا ! لستُ الآن قائدا للكتيبة ، بل مهندس ، وأمثل هنا هيئة الأركان .

ـ وماذا فيها أذا كنت ممثلا ؟ هيا اذن تولَّ القيادة .

ـ ادفع بسينديتسكي الى الوادي ، فهو فتى شجاع ، لا غبار عليه .

ـ سينديتسكي ؟ انه لا يزال صغيرا . وعلى العموم . . .

نقف عند مدخل الخندق المسقوف . فجأة تضيق عينا شيريايف ويتجعد أنفه ، ويقبض على يدي بشدة .

ـ يا للعنة . . ها هو قادم .

ـ من ؟

على صفحة الوادي المنحدرة يتسلق أبروسيموف بصعوبة وهو يتشبث بأغصان الشجيرات ، ومن خلفه يسير جندي اتصاله .

ـ ضاع الآن كل شيء . . .

ويبصق شيريايف ويدفع عمرته فوق حاجبه .

يصرخ فيّ أبروسيموف وهو لا يزال بعيدا :

ـ لماذا أرسلتك الى هنا بحق الشيطان ؟ للثرثرة والكلام الفارغ ؟

يصل لاهثا ، مفكوك الأزرار ، في زاويتي فمه زبد ، وعيناه مستديرتان تكاد تقفزان من محجريهما .

ـ اتصلت واتصلت . . ولا أحد يرد . هل تنوي أن تحارب أم لا ؟

ويقف لاهثا ، يلعق بلسانه شفتيه الجافتين .

ـ انني اسألك : هل تنوي أن تحارب أم لا ؟

يلعن (. . .) أمك .

يجيب شيريايف بهدوء :

ـ ننوي .

ـ اذن حارب ، ولتذهب الى الشيطان . . وأنت ، لماذا تتسكع هنا ؟ يظن نفسه مهندسا ، بينما أركض أنا كالصبي . . .

ـ اسمح لي بتوضيح الأمر ـ يقول شيريايف بنفس الهدوء وضبط النفس السابقين ، بينما ترتعش فتحتا أنفه .

ـ أنا الذي سأوضح لك . . .

ويضع يده على قرابه .

ـ تقدم إلى الهجوم . . الى الأمام سر !

أشعر بشيء يغلي في أعماقي . شيريايف يزفر بقوة ، بينما رأسه مائل وقبضتاه مضمومتان .

ـ تقدم الى الهجوم ! هل سمعت ؟ لن أكرر الأمر أكثر من ذلك !

يمسك مسدسه في يده ، وأصابعه بيضاء تماما ، دون قطرة دم واحدة .

ـ لن أتقدم الى أي هجوم ما لم تسمعني .

ـ يقول شيريايف ضاغطا على أسنانه ، متفوها بكل كلمة في بطء رهيب .

يحدق كل منهما في عيني الآخر عدة ثوان . سيشتبكان الآن . لم أر أبروسيموف على هذه الحال من قبل .

ـ لقد أمرني الرائد أن أستولى على تلك الخنادق . وقد اتفقت معه على . . .

ويقاطعه ابروسيموف :

ـ ليس في الجيش اتفاقيات بل تنفيذ أوامر . . . بم أمرتك أنا اليوم صباحا ؟

— لقد أكد لي كيرجينتسيف لتوه . . .

— بم أمرتك اليوم صباحا ؟

— بالهجوم .

— وأين هجومك ؟

— فشل ، لأنه . . .

— لا أسألك عن السبب . . . — وفجأة يستبد به الجنون فيلوح بمسدسه في الهواء — تقدّم الى الهجوم ! سأعدمكم كجبناء ! أتعصون الأوامر ! . .

يخيل اليّ أنه سينهار الآن ويغيب في نوبة عصبية .

— كل القادة الى الأمام ! وأنتما أيضا الى الأمام ! سأريكم كيف تحافظون على حياتكم . . . تجلسون هنا وتفكرون في خنادق ما وكلام فارغ . . والأمر قد صدر منذ ثلاث ساعات . . .

لا أستطيع أن أسمع اكثر من ذلك ، فأستدير منصرفا .

٢٤

الرشاشات تطرحنا أرضا في الحال . ويسقط الجندي الراكض الى جواري منكفئا على وجهه فجأة ،

مادا يديه أمامه لآخرهما . أما أنا فأقفز في حفرة حديثة ما زالت تفوح منها رائحة البارود . ويقفز شخص ما فوقي مهيلا عليّ التراب . ويسقط هو الآخر ، ثم يعمل بقدميه بسرعة زاحفا الى الجانب . الرصاص يصفر فوق الأرض مباشرة ويصطدم بالرمل وهو يعوي . وبالقرب مني تماما تنفجر قذائف الهاون .

أرقد على جنبي متكورا ، ضاما ساقيّ حتى ذقني . في يدي اليمنى مسدس مملوء بالرمل . كان فاليجا قد دهنه بالزيت مساء أمس ، ونسيت في الصباح أن أمسحه .

لم يعد أحد يصيح « هورا » .

أين شيريايف ؟ لقد قفزت معه من الخندق في وقت واحد تقريبا ، ولكني تعثرت فقبضت بيدي اليسرى على شيء حديدي منتصب في الأرض . ثم رأيت بعد ذلك معطفه يلوح في الأمام الى اليمين قليلا ، فمن السهل التعرف عليه من تلك البقعة الصفراء الكبيرة التي تبدو واضحة فيه .

الرشاشات الألمانية لا تصمت ثانية واحدة . ومن الممكن أن ترى بوضوح جندي الرشاش وهو يديره

كالمروحة من اليمين الى اليسار ، ثم من اليسار الى اليمين .

التصق بالأرض بكل قواي . الحفرة ليست صغيرة ، ولكن كتفي الأيسر ، على ما يبدو ، يظهر فوق حافتها مع ذلك . أحفر بيدي الارض الطرية من أثر الانفجار ، فتستجيب لي بسهولة كبيرة . ولكن هذا ليس الا الطبقة العليا من التربة ، وبعدها تأتي الطبقة الطينية الصلبة . أنبش الأرض محموما كما ينبش الكلب .

طراخ ! تدوي قذيفة هاون ، وينهار فوقي التراب .

طراخ ! قذيفة ثانية ، ثم ثالثة ، فرابعة . أغمض عيني وأكف عن الحفر . يبدو أنهم رأوني وأنا القي بالتربة المتخلفة عن الحفر .

أستلقي كاتما انفاسي . بالقرب مني شخص يئن : آ ـ آ ـ ه . . لا شيء غير هذه الآ ـ آ ـ ه . . تصدر عنه منتظمة ، بنغمة واحدة ، ودون أي تعبير . لست أدري كم مرَّ عليَّ وأنا راقد ، أخشى أن أتحرك . فمي مليء بالتراب الذي يصر تحت أسناني ، ويحيط بي من جميع الجهات . لا أرى شيئا غيره . فوقي تراب رمادي ناعم كالمسحوق ،

وتحتي طين ، رمادي مائل إلى الحمرة ، متشقق ، ومبعثر اكواما صغيرة . وليس هناك حشيشة واحدة أو عود ، لا شيء غير الغبار والطين . لو تخرج من الارض ولو دودة ! اذا حوَّلت رأسي رأيت السماء . وهي أيضا تبدو ملساء رمادية ليس فيها بشاشة . يبدو أن ثلجا أو مطرا سيسقط . في الغالب ثلج لأن أصابع قدمي بردت .

أصبح الرشاش يطلق نيرانه دفعات ، وان ظلَّت نيرانه منخفضة ، فوق الارض مباشرة . لا أستطيع أن أفهم على الاطلاق لماذا ظللت سليما معافى ولم أجرح أو أُقْتَل . فأن تركض نحو رشاش من على بعد خمسين مترا هلاك محتم . كان اول من انطلق شيريايف وكارنأوخوف وسينديتسكي وأنا ، وجندي آخر قائد فصيلة ، من الجنود الجدد . ولم أذكر إلا أن خصلة من الشعر الأشيب تماما كانت تتدلى من تحت عمرته . ولست أدري لماذا لم أرَ فاربر .

يبدو أنني لم أقطع إلا مسافة قصيرة ثم استلقيت ، ولا أستطيع بأي حال أن أتذكر ما الذي جعلني أستلقي . لقد شعرت بالفراغ من حولي فجأة . كان حولي

كثيرون ، وفجأة لم يعد هناك أحد . يبدو أنها الغريزة دفعتني الى الارتماء ، فقد شعرت بالخوف اذ أصبحت وحيدا . وعلى العموم فانني لا أذكر ان كنت أحسست بالخوف أم لا ، بل انني حتى لا أذكر كيف ولماذا أصبحت في هذه الحفرة .

أُصاب بتقلص في عضلات ساقي اليمنى بسبب رقدتي غير المريحة . بدأ التقلص في سمانة ساقي أولا ، ثم انتقل الى القدم ، ثم الى وتر العضلة الممتد من خلف الركبة حتى أعلى الفخذ . أتحول الى جنبي الآخر ، وأحاول مدّ ساقي ، ولكني لا أجد لها مكانا ، وأخشى أن يظهر مني شيء خارج الحفرة . ادلكها براحتي وأحرك أصابع القدم ، ولكن عضلة السمانة لا تنفرج ، يعوقها عن ذلك الحذاء العالي .

ما زال الجريح يئن بلا انقطاع ، ولكن بصوت أخفت قليلا .

الألمان يحولون نيرانهم الى عمق خطوطنا الدفاعية ، فأسمع الانفجارات في مكان بعيد خلفي . والرصاص يطير أعلى من السابق بكثير . لقد قرروا أن يتركونا هنا في حالنا . ارفع عمرتي قليلا فوق حافة الحفرة .

لا أحد يطلق عليها النار . ارفعها أكثر . لا أحد يطلق النار . أعتمد على يدي وأطل من الحفرة بعين واحدة . بيني وبين الألمان خطوات . إذا قذفت بحجر فسيصل الى المتاريس المقامة أمام خنادقهم . الرشاش في وجهي مباشرة . أرى فتحة المزغل السوداء .

أشيد من التربة حاجزا صغيرا يحجبني عن الألمان . الآن يمكنني أن أجيل النظر حولي والي الخلف ، فلن يروني .

المسافة الى خنادقنا أبعد منها الى خنادق العدو . حوالي ثلاثين مترا أو أكثر . أرى شخصا ما يركض في خنادقنا منحنيا ، فلا يظهر إلا طرفا العمرة وهما يهتزان فوق رأسه . ثم يختفي . الجندي الذي كان يركض الى جواري ما زال راقدا ، مادا يديه . وجهه الى ناحيتي . عيناه مفتوحتان . يبدو وكأنه قد ألصق أذنه بالأرض مصغيا الى شيء ما . وعلى بعد عدة خطوات منه يستلقي آخر ، لا يبدو منه الا ساقاه ، ملفوفتين بشرائط سميكة من اللباد ، في حذاء أصفر .

أحصيت أربع عشرة جثة . بعضها ، من المحتمل ، تبقي من هجمة الصباح . لا أرى بينها

لا شيريايف ولا كارنأوخوف ، وإلا لعرفتهما على الفور . المكان حولي مليء بالحفر الكبيرة والصغيرة . أرى شبحا أسود يتحرك في إحداها ، ثم يختفي .

الجريح لا يكف عن الأنين . وهو راقد على بعد خطوات من حفرتي ، منكفئ على وجهه ، ورأسه الى ناحيتي . عمرته مطروحة بجواره . شعره أسود ، مجعد . . . شعر ليس غريبا عليّ أبدا . ذراعاه مقوستان وملتصقتان بجسده . انه يزحف . يزحف ببطء شديد ، دون أن يرفع رأسه . يزحف على مرفقيه فقط ، بينما يجرجر خلفه ساقيه المرتخيتين ويئن طوال الوقت ، ولكن بصوت أصبح الآن خافتا للغاية .

لا أحول بصري عنه ، ولا أعرف كيف أساعده ، فليس معي حتى حافظة الاسعاف الخاصة * .

لقد أصبح قريبا مني جدا ، على مرمى ذراع .

أمد له يدي وأنا أهمس :

* كان يسلم لكل جندي « حافظة اسعاف خاصة » وبها شريط وقطن طبي ومطهر ليسعف نفسه في حالة الاصابات البسيطة حتى يتسنى نقله الى مركز الاسعاف . المترجم .

— تعال ، تعال الى هنا .

رأسه يرتفع قليلا . عينان كبيرتان سوداوان تغلفهما غلالة الموت . انه خارلاموف رئيس أركاني السابق . . . يحدق فيّ ولا يتعرف عليّ . لا تبدو على وجهه أية معاناة ، بل يرتسم عليه نوع من التبلد . جبهته وخداه وأسنانه ملوثة بالتراب . فمه نصف مفتوح ، وشفتاه بيضاوان .

— تعال ، تعال الى هنا .

يغرز مرفقيه في الأرض ويزحف إلى أن يصل الى الحفرة ، ثم ينكفئ بوجهه على الأرض . أدس ذراعي تحت إبطيه وأجره الى الحفرة . بدنه كله طري ، وكأنه بلا عظام ، ورأسه ينكفئ إلى الأمام . أما ساقاه فقد فارقتهما الحياة .

أمدده بصعوبة . الحفرة لا تتسع لنا معاً ، فأضطر على وضع ساقيه على ساقيّ . يرقد طارحا رأسه الى الوراء متطلعا الى السماء . يتنفس بصعوبة وعلى فترات متقطعة . سترته والجزء الأعلى من سرواله ملطخة بالدماء . أفك حزامه ، وأرفع القميص ، فأرى ثقبين صغيرين منمقين في الناحية اليمنى من بطنه . وأفهم أنه سيموت .

يدير رأسه الى ناحيتي ، وتتحرك شفتاه بكلمات ما . لا أميز منها إلا : « أيها الرفيق الملازم . . أيها الرفيق الملازم . . . » . يخيل إليّ أنه قد عرفني . ثم يلقي برأسه ولا يعود يرفعها . ويلفظ أنفاسه بمنتهى الهدوء . . فقط يكف عن التنفس .

أُغلق عينيه وأغطى بالعمرة وجهه الصارم الذي استطال على الفور .

بدأ الثلج يسقط . دقيقا في البداية ، فلا تعرف ان كان ثلجا أم حبات بَرَد ، وبعد ذلك يهطل ندفا كبيرة كثة . ويكتسي كل شيء فجأة بالبياض : الأرض ، والناس الراقدون عليها ، وحواجز الخنادق . بدأت أطرافي تتجمد ، وأذناي أيضا . أرفع ياقة المعطف .

الألمان يطلقون النار ، ورجالنا يردون بالمثل ، وبين الفينة والفينة يصفر الرصاص فوق رأسي .

وهكذا أرقد أنا وخارلاموف الذي أصبح الآن باردا ، مشدودا ، لا يذوب الثلج على يديه . ساعتي توقفت ، فلا أستطيع أن أعرف كم مرّ من الزمن ونحن هنا راقدان . يداي وقدماي تخدرت ، وأصاب

بتقلص العضلات من جديد . إلى متى يمكنني أن أظل راقدا هكذا ؟ وماذا لو قفزت من الحفرة وعدت راكضا . المسافة ثلاثون مترا ، خمس ثوان لا أكثر ، قبل أن يفيق جندي الرشاش أكون قد وصلت . ألم يعد ثلاثة عشر جنديا صباح اليوم ؟

شخص ما يتحرك في الحفرة المجاورة . على صفحة الثلج الأبيض الذي بدأ يذوب تلوح عمرته كبقعة رمادية ، ثم تظهر رأسه لثانية واحدة وتختفي . ثم تظهر من جديد. وفجأة يقفز شخص من الحفرة ويولى راكضا بسرعة ، وقد ضم ذراعيه إلى جنبيه واحنى قامته ، بينما ساقاه ترتفعان عاليا في الهواء .

يقطع ثلاثة أرباع المسافة ، ولا يبقى للوصول حتى خنادقنا إلا حوالي ثمانية او عشرة أمتار ، ثم يحصده الرشاش ، ويخطو بضع خطوات قبل أن يسقط الى الأمام على رأسه . ويظل راقدا بلا حراك على بعد ثلاث خطوات من خنادقنا . ويبدو معطفه غامقا بعض الوقت ، ثم يصبح بعد ذلك ابيض . الثلج ما زال يهبط بلا توقف . . .

ثم يركض بعد ذلك ثلاثة أشخاص . ينطلقون في وقت واحد تقريبا . أحدهم في قميص قصير ، يبدو أنه ترك المعطف لكي يسهل عليه الركض . يرديه الرصاص فوق حاجز خندقنا تماما ، والآخر يخر على بعد خطوات منه ، أما الثالث فينجح في الوصول الى الخندق . ويظل الرشاش الألماني لمدة طويلة يزرع الرصاصة تلو الرصاصة في ذلك المكان الذي اختفى فيه الجندي .

أحفر بكعبي تجويفا في الحفرة ، فيصبح بوسعي الآن أن أمد ساقي ، ثم أحفر تجويفا آخر لساقي خارلاموف اللتين تخشبتا ولم تعودا تنثنيان عند الركبة . ومع ذلك أتمكن من دفعهما على صورة ما في التجويف . والآن يرقد أحدنا الى جوار الآخر بطول القامة . أنا على جنبي ، وهو على ظهره ، يبدو كأنه نائم وقد غطى وجهه بعمرته اتقاء للثلج .

أشعر ببعض الدفء بعدما بذلته من مجهود ، واستدير على جنبي الأيسر حتى لا أرى خارلاموف . وأحفر الأرض تحت فخذي قليلا حتى أستريح في رقدتي . الآن أشعر بالراحة ، آمل فقط ألا تفتح

مدفعيتنا الثقيلة نيرانها على خطوط الألمان الأمامية . وآه لو سيجارة . . لو ثلاثة أنفاس فقط . . لقد نسيت التبغ في الخندق لدى شيريايف وليس في جيبي غير الكبريت يخشخش .

النوم يداعب جفني ، والثلج يذوب تحتي ، فيتحول التراب الرمادي إلى وحل . تبللت ركبتاي ، ورأسي قرصه البرد . أنزع العمرة عن وجه خارلاموف وأغطيه بمنديل . أنظف المسدس حتى أشغل نفسي بشيء فلا أنام . لا أجد فيه الا اربع رصاصات ، أما الخزانة الاضافية فغير موجودة .

ترى كم الساعة الآن ؟ ربما تزيد عن الثانية عشرة ظهرا ، بينما الظلام لا يهبط قبل السادسة . اذن عليَّ أن أظل راقدا ست ساعات . ست ساعات . . دهر بأكمله .

أغطى أذني بطرفي العمرة وأغمض عيني . ليكن ما يكون !

لا أستطيع أن أغفو . يخيل لي دائما أن خارلاموف يتحرك خلف ظهري . وأتذكر أنه يجب

على أن آخذ أوراقه وهويته * ، ويتضح أن هذا ليس بتلك البساطة ، فهي في جيب سرواله الخلفي ، لأنني أذكر أنه أخرج بطاقة الترشيح لعضوية الحزب من جيبه الخلفي عندما كان يسدد الاشتراك . واستغرق مدة طويلة في هذه العملية ، لأن خارلاموف أصبح ثقيلا وكأنه التصق بالأرض . وأخيرا استخرجها . بطاقة الترشيح لعضوية الحزب ، ورسالتان ، وشهادة ما متهرئة تماما وقد ساح الحبر فيها ، وعدة صور ، وكل ذلك ملفوف بعناية في قطعة من المشمع ومثبت بدبوس إبرة . الصور ملفوفة على انفراد . لم أتصور أبدا أن خارلاموف على هذه الدرجة من الدقة والعناية . فعندما كان يعمل عندي في رئاسة الأركان ، كان دائما يفقد شيئا ما أو ينساه .

أتفحص الصور . في واحدة منها يبدو خارلاموف مع امرأة ما ، ذات شعر طويل متموج وعينين متباعدتين كثيرا . لا بد أنها زوجته . تحمل على ذراعها طفلا

* تقليد عسكري متبع ، حتى لا تقع هذه الاوراق في أيدي العدو فيستغلها أو يعرف تشكيلات الوحدات التي تواجهه . المترجم .

صغيرا ، عيناه سوداوان كعيني أبيه . في الصورة الثانية نفس المرأة ، وحدها ، وترتدي « بيريه » ، وفي الصورة الثالثة مجموعة على شاطئ نهر ، وكلهم يبتسمون . بينهم شاب معه جيتار . خارلاموف في سروال قصير ، يرقد على بطنه ، وفي عمق الصورة يبدو حقل تتناثر فيه أكوام الدريسة . على ظهر الصورة خطت عبارة : « بلدة تشيركيزوفو ، يونيو ١٩٣٩ ، مورا هي الثانية من اليسار » .

أعيد لف الصور والبطاقة في قطعة المشمع وأثبتها بالدبوس ، ثم أضعها في جيبي .

كرة صغيرة من الطين تصيبني في أذني ، فأنتفض . ثم تسقط بجوار ركبتي كرة أخرى . شخص ما يرميني بها . أرفع رأسي قليلا ، فأرى وجها عريض الخدين ، غير حليق يطل من الحفرة المجاورة .

— هل معك كبريت يا أخي ؟

— معي .

— طوِّح به إليَّ يرحمك الله . .

— اترك لي « نَفَسين » .

— وهو كذلك .

اطوح بعلبة الكبريت فتسقط قبل حفرته بخطوتين ، يا للشيطان ! يمد يده ، لكنها لا تصل إليها . كلانا لا يحول نظره عن العلبة . هذه العلبة الصغيرة السوداء ترقد على الثلج وكأنها تسخر منا . ثم تظهر بندقية ، تطل من الحفرة ببطء وحذر ، وتتحرك فوق الثلج وتداعب العلبة . وتستغرق هذه العملية دهرا بأكمله . وتنزلق العلبة وتبتعد ، ولا تريد بأي حال من الأحوال أن تشتبك بذبّانة البندقية . ويفغر صاحب البندقية فمه من شدة التوتر ، وأخيرا يوفق في اقتناص العلبة ، فتختفي الرأس والبندقية ، ويظهر فوق الحفرة دخان خفيف .

ـ حاسب . . . ـ اهمس له ، ولكنه لا يسمعني على ما أظن .

يدخن نصف ساعة كامل على الأقل ، حتى أن رأسي يدور من شدة الرغبة والحسد . ثم تعود إلي العلبة وبداخلها عقب ضئيل مبلل باللعاب ، فأمصه وأمصه بكل ما في من قوة ، وألسع شفتي .

وأسأل الجندي همسا :

ـ هل معك ساعة ؟

ويأتيني الرد من الحفرة :

ـ الثانية عشرة إلا ربعا .

لا أصدق أذني ، لقد ظننتها الآن الثانية ، أو الثالثة ، واذا بها لا تبلغ حتى الثانية عشرة . والأدهى والأمر أن القصف بدأ . لا أدري ان كان من جانبنا أم من جانب الألمان . القذائف تنفجر بالقرب منا تماما . ويستمر حوالي عشر أو خمس عشرة دقيقة ، ثم فترة راحة ، ثم يعود من جديد .

لا بد أن أركض . هل من المعقول أن انتظر ست ساعات ! لن تتحمل أعصابي . واذا ما قتلت . . ليكن . لست معصوما من الموت .

أسمع الصوت الأبح من الحفرة المجاورة :

ـ اسمع يا أخي . . اسمع . . .

ـ ماذا تريد ؟

ـ هيا نجري .

هو أيضا لم تتحمل اعصابه . أجيبه :

ـ هيا .

نخترع حيلة صغيرة . لقد قتل أولئك الثلاثة عند حاجز الخندق تقريبا . اذن يجب أن نرتمي على

الأرض قبل أن نصل إلى الخندق . وعندما ينطلق الرشاش نكون منبطحين . ثم بقفزة واحدة نصل إلى الخندق . ربما يحالفنا التوفيق . أتحول تجاه خنادقنا . آمل ألا تتقلص عضلة ساقي . المكان في الأمام مستوٍ ، ليس فيه غير حفرة واحدة صغيرة بجوارها قتيل .

— هل أنت مستعد ؟

— مستعد .

ارتكز بساقي اليسرى ، وأثنى اليمنى عند الركبة . ألقى على خارلاموف نظرة أخيرة . إنه يرقد في هدوء ، ضاما ركبتيه ، ويداه على بطنه . لم يعد في حاجة الى شيء .

— هيا !

— هيا .

ثلج . . . حفرة . . . قتيل . . . ثلج مرة أخرى . . .

ارتمي على الأرض وأسمع على الفور : طا — طا — — طا . أكتم أنفاسي . طا — طا — طا . . أظل راقدا . طا — طا — طا . . .

— أنت سليم ؟

— سليم .

وجهي مغروز في الثلج . يداي ممدودتان . ساقي اليسرى تحت بطني ، لكي يسهل عليّ القفز . بيني وبين الخندق خمس أو ست خطوات . التهم بطرف عيني هذه الرقعة من الأرض .

يجب أن أنتظر دقيقتين أو ثلاث حتى يهدأ جندي الرشاش . لا يستطيع الآن أن يصيبنا فموقعنا هذا منخفض .

أسمع خطوات وكلاما في الخندق ولكني لا أميز الكلمات .

— هيا ، حان الوقت .

— استعد — أقول دون أن أرفع رأسي ، وفمي مدفون في الثلج .

— تمام — يجيبني الصوت من اليسار .

بدني كله يتحفز ، وأشعر بدوي في صدغيّ :

— هيا !

ادفع الأرض بقدمي . ثلاث قفزات . . ثم أصبح في الخندق .

وبعدها نجلس طويلا في قاع الخندق فوق الوحل مباشرة ونضحك . شخص ما يعطينا عقب سيجارة .

ويتضح أن الساعة الآن الخامسة ، فساعة الجندي هي الأخرى كانت معطلة . لقد رقدنا في الحفرة من السابعة إلى الخامسة . . . تسع ساعات . الآن فقط أحس بجوع غير طبيعي ، مسعور .

ندفن في الصباح رفاقنا : خارلاموف وسينديتسكي وقائد الفصيلة ذا خصلة الشعر البيضاء . وكان الممرضون قد نقلوا جثثهم من أرض المعركة ليلا . ولم نعثر على كارناوخوف . يقول البعض أنهم رأوه يقتحم الخنادق الألمانية مع أربعة من الجنود . يبدو أنه استشهد هناك .

أما شيريايف فقد زحف بنفسه ، وقد غطته الدماء ، ويده مدلاة إلى جانبه ، وما أن عبر حاجز الخندق حتى فقد وعيه على الفور ، فأرسلناه الى مستشفى الكتيبة . وذهبت إلى هناك ، فوجدتهم قد أرسلوه منذ نصف ساعة الى المستشفى الواقع على الضفة الأخرى .

فقدت الكتيبة ستة وعشرين رجلا بخلاف الجرحى ، أي نصفها تقريبا .

تولى فاربر قيادة الكتيبة ، وكان هو الوحيد الذي لم يشترك في الهجوم من بين جميع قادة السرايا ، فقد أبقاه أبروسيموف إلى جواره .

ندفن رفاقنا في الشاطئ المطل على الفولجا تماما . في توابيت بسيطة من ألواح الصنوبر الخشنة ، والسحب الرصاصية الثقيلة تعدو فوق رؤوسنا ، والريح تعصف بأطراف معاطفنا ، وندف الثلج الذائبة الكريهة تتسلل إلى رقابنا عبر الياقات ، وكتل الجليد تسبح في الفولجا . . جليد خريفي رقيق القشرة .

وثلاث حفرات مظلمة .

كل شيء يحدث ببساطة هنا ، في الجبهة . فبالأمس كان الشخص الى جوارك ، واذا به اليوم قد اختفى ، وغدا ربما تختفي أنت ، وينهال التراب على تابوتك كما ينهال الآن ، وربما لا يكون هناك حتى تابوت ، بل يدفنك الثلج ، ويظل جسدك ممددا ووجهك مدسوس في الأرض ، حتى تنتهي الحرب .

وتبرز فوق ضفة الفولجا ثلاثة نتوءات صغيرة حمراء ، وعليها ثلاث عمرات رمادية ، وثلاثة أوتاد . ثم طلقات مرتعشة جافة من البنادق الأتوماتيكية تعلن تحية الوداع . وعبر الفولجا يتردد صوت المدفعية الثقيلة ، وكأنها رجع الصدى . ثم دقيقة صمت

وبعدها يجمع جنود سلاح المهندسين المجاريف وهم يسوون القبور .

وهذا كل ما هنالك . ثم ننفض .

لم يتجاوز أيهم الرابعة والعشرين ، الا كارنأوخوف فقد كان في الخامسة والعشرين ، ولم نتمكن حتى من دفنه فقد ظل هناك ، لدي الألمان .

وهكذا رحل دون أن يقرأ لي أشعاره ، وهي الآن في جيبي مع رسالة أمي وصورة لوسي . أشعار بسيطة واضحة ، بريئة مثلما كان هو :

عن هذا الخندق أنت بعيدة
وكأنك في دنيا أخرى
لكنك في رؤياي قريبة
فأشد على يدك الممدودة
الريح تهز الأغصان
وتهدهد شجر الغابات
تلفعني ، تجدلني الريح
وكأني في شعرك خصلات

أعلق صورة جاك لندن فوق الطاولة أسفل المرآة . واكتشف بعض الشبه بين جاك لندن وكارنأوخوف .

آخر مرة تحدثت فيها الى كارنأوخوف كانت قبل الهجوم بثلاث دقائق . كان جالسا القرفصاء في الخندق وهو يضع الكبسولات في القنابل اليدوية . وقد سألته عن شيء ما ، ولكني لا أذكره الآن ، فرفع رأسه ، ولأول مرة أرى عينيه وقد فارقتهما تلك الابتسامة الهادئة العميقة المنبعثة من أعماق عينيه . . الابتسامة التي كنت معجبا بها أيما إعجاب . وأجاب على سؤالي بكلمات ما ، ثم انصرفت أنا . ولم أره بعدها .

أظل راقدا مدة طويلة ، دافنا وجهي في الوسادة .

يقبل ليساجور ، فيجلس على سريره ضاما ساقيه . أسمع أنفاسه وهي تتردد بصوت عال . يجلس صامتا لا يسب ، ويدخن وقد اعتمد بذقنه على ركبتيه . ثم يقول مكتئبا :

— يقال أن أبروسيموف سوف يقدم إلى المحاكمة .

— من الذي قال ؟

— هكذا سمع لاضيجين كاتب الأركان .

— إنه كذاب . . .

— نعم ، ولكن ليس على الدوام . فهو مع ذلك قريب الى الرؤساء .

ـ هل كنت في الاركان ؟

ـ نعم

ـ وماذا هناك ؟

ـ لا شيء . كالعادة . أستافييف يجهد في رسم الخرائط . وقد سألني عن عدد رجالنا ، فكذبت عليه قائلا انهم اثنا عشر رجلا . اذ يجب على الانسان أن يكون حذرا معه هو الآخر . يا له من بيروقراطي !

ـ وهل رأيت الرائد ؟

ـ دخل ولم يمكث سوى دقيقة ، وكان مكفهرا ، عابسا . فجاء الى لاضيجين ليأخذ قائمة القتلى .

ـ آه . . أريد أن أشرب الآن . . حتى أفقد وعيي . . .

في المساء التقى بالرائد في مطعم الضباط فيستوقفني قائلا :

ـ استعد للغد أيها المهندس .

فاستفهم منه وكأنني أجهل الأمر :

ـ استعد لماذا ؟

ولكنه يسحب أنفاسا من الغليون ولا يسمعني . لقد أصبح هزيلا شاحبا .

واكرر سؤالي :

ـ استعد لماذا ؟

فيرفع رأسه ببطء :

ـ لتحكي ذلك الـ . . . تلك الواقعة . . . عند التبتّة .

وينصرف متوكئا على عصا ، فلا زال يعرج الى الآن .

ولا أعود الى السؤال مرة أخرى . كل شيء واضح .

ويخبرني كاتب الأركان لاضيجين ، وهو أكبر مروج للقيل والقال في الفوج ، أن الرائد وأبروسيموف قد استدعيا لأركان الفرقة ومكثا هناك ثلاث ساعات . وبعدها حبس أبروسيموف نفسه في خندقه ولم يخرج حتى الآن ، وردّ الجندي الذي حمل له الغداء والعشاء على أعقابه .

ويضيف لاضيجين :

ـ رأيت جندي اتصاله وهو ينقب في مخزن المؤن عن شيء ما ، ثم عاد ركضا إلى خندقه وهو

يضع يديه فوق جيوبه . وكنا قد تلقينا في ذلك الصباح بالذات مؤونة من الفودكا .

ويغمز لي بعينه الخضراء الوقحة .

٢٥

أتأخر على موعد بدء المحاكمة ، وعندما وصلت كان الرائد يتكلم . والخندق الذي تجري فيه المحاكمة — وهو خندق الكتيبة الثانية ، أوسع مكان في قطاعنا — معبأ بالدخان لدرجة أنك لا تكاد تميز وجوه الحاضرين . أبروسيموف جالس بجوار الحائط ، شفتاه مطبقتان ، بيضاوان ، جافتان . وعيناه تحدقان في الجدار .

أستافييف سكرتير الجلسة يقلب الأوراق ويجرب الحبر على طرف ورقة ، وبجواره يجلس اثنان ، أحدهما قائد جنود الاستطلاع والآخر قائد سرية البنادق المضادة للدبابات . الرائد وقف بجوار المنصدة ، وقد شاخ خلال الأربع والعشرين ساعة المنصرمة بمقدار عشر سنوات . وبين الفينة والفينة يرفع كأس الشاي الى فمه ويشرب جرعات بعصبية . انه يتحدث بصوت

خافت للغاية ، حتى أن من يجلس في الطرف الآخر لا يسمعه . أشق طريقي الى المقدمة .

ويقول الرائد :

— لا يمكن أن نحارب دون أن نثق في الناس ، فالشجاعة وحدها لا تكفي ، والمعرفة أيضا لا تكفي ، يجب أن يكون الى جانبهما الايمان .. الايمان بالناس الذين تحارب الى جوارهم .. وبدون ذلك لا يمكن أن تحارب بأي شكل من الأشكال ...

ويفك ياقته ، الحر في الخندق شديد ، ويخيل الي أن اصابعه ترتعش قليلاً وهي تفك مشبك الياقة .

— لقد قطعت أنا وأبروسيموف طريقاً طويلاً ... طريق كفاح طويلاً . مدينة أريول وكاستورنيا وفورونيج... وها نحن هنا معاً منذ مدة طويلة . وكنت دائما أوليه ثقتي . كنت أعرف أنه لا يزال شاباً ، وربما قليل الخبرة ، ولكنه سيتعلم أثناء الحرب . كنت أعرف أنه ربما يخطئ ، فمن منا معصوم من الخطأ . ولكني كنت أوليه ثقتي ، وكيف يمكنني ألا أثق برئيس أركاني .

ويدير رأسه ناحية آبروسيموف ويرمقه بنظرة طويلة قاسية ، ثم يواصل حديثه :

ـ أعرف أنني مخطئ ، فالمسؤول عن الرجال هو أنا ، لا رئيس الأركان . وأنا المسؤول عن هذه العملية أيضا . وعندما كان قائد الفرقة يصرخ في وجه أبروسيموف اليوم ، كنت أعرف أنه يوجه اليّ أيضا صراخه هذا . وهو محق في ذلك . ـ ويمسح الرائد بيده على شعره ويدور بنظراته المرهقة على وجوهنا جميعا ثم يضيف ـ ليس هناك حرب دون ضحايا ، والا لما كانت حرباً . ولكن الذي وقع في الكتيبة الثانية أمس لم يكن حرباً ، بل ابادة . لقد تعدى أبروسيموف حدود صلاحياته ، فألغى أوامري . . ألغاها مرتين : الأولى في الصباح بواسطة التليفون ، والثانية عندما ذهب بنفسه ودفع بالرجال الى الهجوم .

ويقاطعه أبروسيموف بصوت جاف كالخشب ، دون أن يحول بصره عن الحائط :

ـ كانت الأوامر تقضي بمهاجمة الصهاريج . . .

ولكن الجنود لم يتقدموا للهجوم . . .

ويضرب الرائد المائدة بقبضته فترن الملعقة في كوب الشاي :

ـ كذاب !

ولكنه يضبط نفسه على الفور ، ويجرع من الكوب ثم يقول :

ـ بل تقدموا للهجوم ولكن ليس بالصورة التي كنت تريدها . لقد تقدموا بعد أن فكروا في الأمر ودبروا له ، فماذا فعلت أنت ؟ ألم تكن قد رأيت بعينيك ما آل اليه الهجوم الأول ؟ وهي نتيجة طبيعية ، فقد كنا نعتمد على القصف التمهيدي ، وكان علينا أن نهاجم العدو بعد انتهاء القصف فوراً ، قبل أن يفيق . ولكننا لم نوفّق . . فقد اتضح أن العدو أقوى وأخبث مما كنا نظن . ولم نتمكن من اسكات مراكز نيرانه . فأرسلت المهندس الى الكتيبة الثانية التي يقودها شيريايف ، وهو شاب ذكي ، وكان قد أعد العدة منذ الليلة السابقة للاستيلاء على خنادق الألمان . لقد دبّر الأمر بحكمة . . أما أنت يا أبروسيموف . . فماذا فعلت ؟

بدأت شفة أبروسيموف ترتعش .

وجه بورودين الذي يبدو عادة بشوشاً رقيقا يصبح الآن أحمر ، وخداه يرتعشان :

— انني أعرف كيف صرخت هناك في وجوههم . . وكيف لوّحت بمسدسك مهدداً .

ويرتشف جرعة أخرى من الشاي .

— ان الأوامر في الحرب مقدسة ، وعصيانها جريمة . والأمر الأخير يلغي ما قبله ، وهو وحده الذي يُنفَّذ . وقد نفّذه جنودنا . . وها هم الآن يتوسدون التراب بجوار خنادقنا . أما أبروسيموف فيجلس هنا بيننا . لقد خدع قائده ، وتخطى حدود صلاحياته . بينما الجنود قد استشهدوا . هذا هو الأمر . اعتقد أن هذا كاف .

ويتهالك الرائد على المقعد باعياء .

يظل أبروسيموف على جلسته : يداه على ركبتيه ، وعيناه تحدقان في الحائط . أما أستافييف فيخط بالقلم شيئا ما بعناية وسرعة ، وقد مال رأسه جانباً .

ثم يتحدث عدة أشخاص ، وبعد ذلك أتحدث أنا ، ومن بعدي أبروسيموف . يتحدث باختصار . وفي رأيه ان الاستيلاء على الصهاريج لم يكن ممكنا الا عن طريق هجوم مركّز . وهذا كل ما هنالك . لقد طالب بالقيام بهذا الهجوم . وقادة الكتائب —

في رأيه — يحافظون على الجنود ولذلك لا يحبون الهجوم . ولم يكن من الممكن الاستيلاء على الصهاريج الا بهجوم ، وليس الذنب ذنبه في أن الجنود لم ينفذوا ذلك كما ينبغي ، بل جبنوا . . .

وتدوي صيحة من أعماق الخندق :

— جبنوا ؟ . .

ويلتفت الجميع الى مصدر الصوت . انه فاربر ، يشق طريقه الى المنصدة ، مرتبكا ، رأسه يعلو فوق كل الرؤوس ، ويرتدي معطفه القصير المضحك .

— تقول أنهم جبنوا ؟ هل جبن شيريايف ؟ هل جبن كارنأوخوف ؟ أنت تقول عنهم ذلك ؟

وتحتبس أنفاسه ، وتطرف عيناه القصيرتا النظر ، لقد كسر بالأمس نظارته ، لذا يضيّق من عينيه :

— لقد رأيت كل شيء . . بعيني رأيته . . رأيت شيريايف وهو يتقدم . . . وكارنأوخوف . . . كلهم رأيتهم وهم يتقدمون . . . انني لا أجيد الكلام . . . عرفتهم منذ فترة قريبة . . كارنأوخوف والآخرين . . فكيف يجرؤ لسانك على التفوه بمثل ما قلت . ليست الشجاعة أن تضع رأسك أمام الرشاش . . لقد قال

أبروسيموف . . . النقيب أبروسيموف . . . أن الأوامر كانت تقضي بمهاجمة الصهاريج . ولكن الأمر لم يكن يقضي بمهاجمتها ، بل بالاستيلاء عليها . أما فكرة الاستيلاء على الخنادق التي توصل اليها شيريايف فلم تكن جبناً منه ، بل طريقة ، وطريقة سليمة ، تحافظ على الجنود . . تحافظ عليهم لكي يواصلوا القتال ، والآن لم يعد لهم وجود . . . واني أرى . . .

— ويضيع صوته ، فيبحث عن الكوب ، وعندما لا يجده يشيح بيده — اني أرى أن أمثال هؤلاء الناس لا يجب أن يسمح لهم بالقيادة . . .

وتعوزه الكلمات ، فيضطرب ، ويحمرّ ، ويعود يبحث عن الكوب ، ثم ينطلق فجأة :

— الجبان هو أنت ! أنت لم تتقدم مع المهاجمين ! وأبقيتني الى جوارك . لقد رأيت كل شيء . . .

ويشق طريقه عائداً وهو يهز أحد كتفيه وتشتبك مشابك معطفه مع جيرانه .

وأخرج في اثره الى الفناء ، فأجده واقفا وقد اتكأ على المدخنة .

— أحسنت القول يا فاربر .

وينتفض من المباغتة :

— لم أحسن على الاطلاق . لقد اختلط كل شيء في رأسي . وكلما نظرت اليه شعرت بـ . . . ولديه الجرأة ليجلس هادئاً ! والأدهى أنه يتطاول أيضا . . . كلا ، كلا . . . ما هكذا تساس الأمور .

ويتنفس بصعوبة :

— قُتل من سريتي يرماك وبيريفيرزيف . . . آخر من تبقى من الجنود القدماء . الا تتذكرهما ؟ أحدهما كان بحاراً ، والآخر سائق آلة حصاد . وكانا فيما يبدو صديقين حميمين ، يأكلان ويشربان وينامان معاً . نعم ، انك تعرفهما . كان أحدهما حاوياً .

— وذلك الجندي الشاب قائد الفصيلة ذا خصلة الشعر البيضاء . لقد نسيت اسمه . . هل كان من جنودك ؟

— كالابين ؟ انه قائد فصيلة الرشاشات . كان صبيا صغيراً . . لم يمض على وصوله الينا اسبوع ، بعد خروجه من المستشفى . . وكان يقص علينا دائما كيف كانوا يطعمونه العصيدة هناك .

ـ ألم يرسلوا قادة جدداً بعد ؟

ـ أرسلوا الينا قادة للسرايا من الكتيبتين الأولى والثالثة ، وعين الرقباء قادة للفصائل مؤقتاً . ولا يوجد بعد معاون أركان حرب .

وأقول موافقاً :

ـ العمل صعب بدون المعاون .

لست أدري لماذا أشعر الآن بالاطمئنان على فاربر . لقد ظهرت نغمات جديدة قوية في طريقة حديثه وفي مظهره العام ، لم تكن موجودة من قبل .

ـ وكيف حال شيريايف ؟ ألم تتأكدوا بعد ؟

ـ يبدو أن اصابته ليست خطيرة للغاية ، الجمجمة سليمة ، لكني لا أعرف مدى اصابة يده . كان عليها آثار دماء قليلة ، ولكنها كانت متهدلة وكأنها خرقة .

ـ يده اليمنى ؟

ـ كلا ، اليسرى . . .

ـ هذا أفضل مع ذلك . . .

ـ لم يكن يريد أن يترك الكتيبة ، وأخذ يسب قائلاً انه سيعود بالرغم من ذلك . . . شئنا أم أبينا

ولكنه سيعود ، وسوف يقابل أبروسيموف ، ولو في آخر الدنيا . . .

ـ لا أحسد أبروسيموف ، فقبضة شيريايف . . . لا أراك الله . . .

نظل بعض الوقت نتحدث ، ثم يعود فاربر الى خندق المحاكمة ، أما أنا فأتوجه الى خندقنا . لا أريد أن أحضر المحاكمة .

فاليجا يحمر خبزاً في المقلاة ، وفي زاوية الغرفة يغلى السماوار .

وأقذف بالحذاء والسترة ، وأتمدد على السرير .

ويسألني فاليجا :

ـ أتريد شايا أم قهوة ؟

ـ وهل لديك شيء مع القهوة ؟

ـ قهوة باللبن المركز .

ـ اذن هات قهوة .

وينصرف فاليجا لطحن البن . السمن يطشطش في المقلاة . أخرج دفتر أشعار كارناوخوف وأقرأ .

ثم يقبل ليساجور ، ويصفق الباب خلفه ، وينظر الى المقلاة ، ثم يقف الى جواري .

فأسأله :

— ما الحكم ؟

— جدد من رتبته ، وألحق جنديا بوحدة الجزاءات * .

ولا نتحدث عن أبروسيموف بعد ذلك . وفي اليوم التالي يرحل دون أن يودع أحداً ، حاملاً كيسه على ظهره .

ولم أره أو أسمع عنه بعد ذلك أبداً .

٢٦

في الليل تأتينا تعزيزات الدبابات . ست دبابات قديمة بالية مليئة بالثقوب المسدودة برقع حديدية ، من طراز « ت — ٣٤ » . وتظل تزأر مدة طويلة وتقرقع بجنازيرها وهي تحاول أن تختبئ على الشاطئ . وبقدومها ترتفع معنوياتنا على الفور ونصبح أكثر مرحاً .

* وحدات الجزاءات ، هي وحدات خاصة كان يلحق بها الجنود أو الضباط المحكوم عليهم نظير مخالفات ارتكبوها ، وكانت تحارب في اشد قطاعات الجبهة خطورة ، فاذا أبدى افرادها بطولة ردت اليهم رتبهم وأعيدوا الى الوحدات العاملة . المترجم .

لقد كنا ننتظرها منذ مدة طويلة ، وانتشرت الاشاعات منذ حوالي عشرة أيام بأن فرقة دبابات كاملة ستأتي من المؤخرة ، ومن المصانع مباشرة ، ثم خفضتها هذه الاشاعات الى فوج ، فكتيبة . أما في الواقع ، فقد جاءت ست دبابات عجائز أكل عليها الدهر وشرب ، ولم تأت من المؤخرة ، بل من مصنع « اكتوبر الأحمر » ، حيث كانت تحارب ربما منذ اليوم الأول في معركة الدفاع . ولكن هذا كله لا يهم . . . فالدبابات ، مهما كانت ، فهي تكنيك . . . ومنظرها رهيب بما فيه الكفاية . . .

في الصباح ينبغي أن تكون الدبابات في الخطوط الأمامية . ويكلفني الرائد باعداد طريق لها والاشراف عليه . سيكون من الضروري نسف عربتين من عربات القطار بجوار المزلقان حتى يتسنى لها المرور . أرسل الى هناك ليساجور وأجنيفتسيف .

يأتي الى خندقي ثلاثة من رجال الدبابات التماساً للدفء . اثنان منهم ملازمان والثالث رقيب . يعلوهم السواد والأوساخ وملوثون بالشحوم من رأسهم الى القدم .

ويسألني أكبرهم ، وهو ذو وجه مليء بآثار جراح ، اذ يبدو أنه أصيب بحروق :

— أليس لديك طعام ؟ لم نذق شيئا منذ الصباح . . .

ويضع فاليجا على الطاولة بقايا أرنب الحفلة ، فينقض عليه الملازمان بشهية ، ويسألان وهما يمضغان على كلا جانبي الفكين .

— كيف الحال ؟ هل تقاتلون ؟

فأرد :

— لا بأس ، نقاتل الى حد ما .

— ألم تستولوا على الصهاريج بعد ؟

— لم نستول عليها . . ليس من السهل أن تفعل ذلك بيدين خاويتين . . .

ويتبادل رجال الدبابات الضحكات :

— اذن فأنتم تعتمدون علينا ؟

— وعلى مَنْ غيركم نعتمد ؟ تعرفون جيدا أنه بدون التكنيك . . .

ويضحك الملازم ذو اللحية الكثة التي تكاد تصل الى عينيه :

— وهل تدري أين كان هذا التكنيك وفي كم مكان حارب ؟

— واضح من شكل الدبابات أنكم حاربتم بما فيه الكفاية . هل كنتم في الجبهة الجنوبية الغربية ؟

— من الأفضل أن تسأل أين لم نكن .

— وهل كنتم عند مدينة خاركوف ؟

— خاركوف ؟ وهل كنت أنت هناك ؟

— نعم .

— أتعرف « نيبوكريتايا » و « تيرنوفايا » ؟

— تمام المعرفة . كنا هناك نتقدم للهجوم .

— يا له من تقدم . . . بسببكم ، أيها المشاة ، ضاعت منا خاركوف . أما نحن فكنا ساعتها عند مصنع الجرارات . . . ألديكم المزيد من لحم الأرنب ؟

— خلاص . . لم يبق الا جلده .

— شيء مؤسف . . . وإلا ، فلدينا شراب . . .

— سندبر الأمور بصورة ما .

ثم أبعث بفاليجا الى تشوماك :

— قل له أن يأتي ويحضر معه بعض المزّة . . ما كمية الشراب لديكم ؟

ـ لا تقلق ، لدينا ما يكفي .

ينصرف فاليجا والرقيب أيضا .

ويقول الملازم ذو الجروح مشيراً بعينيه الى صورة كيوبيد فوق المرآة :

ـ انكم تعيشون كآلهة . . . كالبشوات . . .

ـ نعم ، لا نستطيع أن نشكو من ضيق المسكن .

ـ وتطالعون الكتب .

ـ أحيانا .

ويقلب صفحات « مارتن إيدن » .

ـ لست أذكر متى قرأتها . . هل كان ذلك في بيرميشل ؟ يوم السبت ، قبل الحرب بيوم . أظنني الآن نسيت حتى القراءة ـ ويضحك قائلا :

ـ سينبغي عليَّ بعد انتهاء الحرب أن أبدأ التعليم من جديد .

ثم يحضر تشوماك وهو يغالب النعاس ، ويحك جلده ، وشعره مليء بالريش .

ـ يا لك من مهندس . . . في منتصف الليل تشرب فودكا . . ما الذي دهاك الى هذا . . . خذ ، امسك . . .

ويخرج من تحت سترته قطعتين مستديرتين من « المرتدلة » ورغيفا من الخبز .

ـ لقد ذهب فاليجا لاستدعاء الرقيب ولاحضار علبتين من اللحم المحفوظ .

ويتطلع الى رجال الدبابات ويقول :

ـ هل تلك العلب التي على الشاطئ لكم ؟

ـ ولمن هي اذن ؟

ـ لو كنت مكانكم لخجلت أن أجلس فيها . . . انها لن تصل الى الخطوط الأمامية . . ستتبعثر قبل أن تصل .

ويقول الملازم ذو اللحية غاضبا :

ـ هذا شأننا نحن .

ـ طبعاً شأنكم . . . أما شأني أنا فهو أن أشرب الفودكا ، وأسب رجال الدبابات لأنهم لا يحسنون القتال .

ـ ومن تكون أنت ؟

ـ أنا ؟ اسأل عني المهندس يجبك .

ـ لا بد أنك من جنود الاستطلاع . . هذا واضح من سحنتك .

ويضم تشوماك قبضتيه متحفزا :

— عن أية سحنة تتحدث ؟

— حاسب يا صغيرى . . . هل تعرف من الذي سيقدم الشراب ؟

— من ؟ أنتم ؟

— نعم نحن .

— اذن اسكت أنا ، واسحب ما قلته عن الدبابات . ستستولون غداً على الصهاريج . . طبعاً ، هل يمكن لمثل هذه الآلات العظيمة ألا تستولى عليها . . .

ويضحك رجال الدبابات ، ويتمطى تشوماك وهو يطقطق أصابعه ، ويتطلع ذو اللحية الى ساعته .

— أين اختفى بريخودكو كل هذه المدة ؟

— ربما يفك خزانات الكحول ، أو يبحث عن اكواب للشرب . هل لديك ماء أيها المهندس ؟ ان شرابنا كحول مركز . . ٩٦ درجة . .

— ليس الماء مشكلة . الفولجا بجوارنا .

ويسأل تشوماك .

— هل ستهاجمون غداً ؟

36-2038

— الله وحده أعلم . أُمِرْنا أن نقف في مواقع الانطلاق ، وبعد ذلك سنرى .

— لا أظن الهجوم غداً . . . لم يقولوا لنا شيئا بعد .

— ما زال أمامهم وقت ليقولوا .

ويقول تشوماك شارداً ، وهو ينقب بطرف السكين في المائدة :

— اذا لم تهاجموا غداً فسيمزقكم الألمان بالضرب المباشر . . .

— يقال انه يوجد هناك منحدر سيحجبنا عنهم .

— يقال ، يقال . . . وماذا تفعل طائراتهم « الميسرشميت » ؟

ويسأل ذو اللحية وقد داخله الحذر :

— وهل لديهم الكثير من المدافع المضادة للدبابات ؟

— لديهم منها ما يكفيكم .

يسقط شيء ما في الطرقة محدثا جلبة شديدة . ونسمع صوتا يسب ، ثم يندفع الى الداخل الرقيب محملاً بالزمزميات .

ـ أي حمار ذلك الذي بعثر المجاريف في الطرقة ؟ كدت أضيع الزمزميات كلها .

ثم يضعها على السرير ، ويتحول الينا متهللاً ، مرحاً .

ـ ماذا تعطونني لقاء هذا الخبر ؟

ـ أي خبر ؟

ـ خبر عظيم . قولوا ماذا تعطونني ، أحكي لكم .

فيقول تشوماك :

ـ مائة جرام كحول زيادة ـ ثم يضيف مقطباً بعد أن ذاق الكحول بطرف لسانه :

ـ يا للشيطان ، ما أقواه . . .

ـ هذا قليل .

ـ اذن لا تقل . . فعلى كل حال سوف يفضفض لسانك بعد أول كأس . هات الأكواب أيها المهندس .

أقدم الكوبين الوحيدين اللذين أملكهما . سنضطر الى الشرب بالدور . ويصب تشوماك الكحول ، ثم يخففه بالماء من الغلاية .

ويسأل الملازم ذو الجروح :

ـ حسنا ، ما هو الخبر ؟

ـ لقد قلت انه عظيم . سمعته لتوي من لا سلكي الدبابة رقم ١٦ .

ـ هل هتلر طلعت روحه ؟

ـ أخطر من ذلك . . .

ـ انتهت الحرب ؟

ـ بالعكس . بدأت لتوها . . . ـ ويصمت برهة ثم يقول : ـ احتلت قواتنا مدينة كالاتش . . . ثم هذه . . ما اسمها . . . كريفايا . . .

ـ كريفايا موزجا ؟

ـ نعم ، نعم . . موزجا . . ومركزاً آخر على حرف الجيم . . .

ـ أتراها أبجانيروفو ؟

ـ بالضبط . . ابجانيروفو . . .

ـ أتقول الحقيقة ؟

ـ ولماذا اكذب ؟ أسرنا ١٣ ألف ألماني وقتلنا ١٤ ألفاً ! . .

ـ يا سلام ! . .

— ومتى كان هذا ؟

— في الأيام الثلاثة الماضية . كالاتش وأبجانيروفو وبلدة أخرى . . بل مجموعة لا حصر لها من أسماء القرى والمدن .

— اذن خلاص . هلك الفاشيست !

ويضربني تشوماك براحته بين كتفي بشدة ، حتى كدت أعض لساني .

— هيا نشرب نخب نهايتهم يا جماعة !

ونشرب جميعا على الفور ، البعض يشرب من الأكواب ، والآخرون من الزمزميات ، ثم نجرع ماء من فم الغلاية مباشرةً .

— يا سلام ! حضراتهم يجرعون الخمر . . .

انه ليساجور واقف بالباب ، فاغراً فمه من الدهشة .

— أنا اعمل هناك في نسف العربات وهم هنا يعبون الفودكا .

أمد له يدي بالكوب ، فيشربه دفعة واحدة مغمضا عينيه ، ثم يزفر ، ويدور بيده باحثا عن قطعة الخبز حتى يجدها ، فيقربها من أنفه ويشمها .

— أنتم هنا تمرحون ، بينما الهجوم في الساعة الخامسة ، هل تعرفون ؟ لقد أرسل الافطار الى الكتائب .

— كذاب . . .

— انظروا اذن ماذا يجري على الشاطئ . . .

وينطلق رجال الدبابات قبل أن ينتهوا من مضغ « المرتدلة » .

— شيريايف متذمر لأننا تأخرنا في اعداد الممرات .

— أي شيريايف ؟

— ماذا تعني ؟ شيريايف رئيس الأركان . . . الملازم أول شيريايف .

— يا الهي . . . ومن أين جاء ، كيف ؟

ويضحك ليساجور قائلاً :

— بهذه الطريقة قد تفوتك الحرب . . . لقد هرب من المستشفى ، وهو الآن على الشاطئ لا يكف عن الصياح .

ألبس الحذاء ، وأبحث عن مسدسي ثم انظر الى الساعة . الثالثة الا ربعاً .

— هل صنعت الممرات ؟

— نعم .

— بكامل اتساعها ؟

— بكامل الاتساع ، ستعبرون بكل سهولة .

بدأ رجال الدبابات يديرون محركات آلاتهم وهم يروحون ويجيئون . والشاطئ أصبح كله أبيض ، فقد هبط الثلج ثانية ، وأسمع على يساري صوت شيريايف وهو يصرخ في شخص ما :

— بعد خمس دقائق تكون هنا لتبلّغني . . . مفهوم ؟ . . انصراف !

ويقبل تشوماك ركضاً وهو يزرر سترته البحرية ويقول :

— رئيس الأركان الجديد قوي الشكيمة . . اصمد أيها المهندس .

شيريايف واقف عند مدخل خندق الأركان ، يده مربوطة بمنديل ، ويلوح جزء من ضمادة تحت طرفي عمرته الهابطين فوق أذنيه . وما أن يراني حتى يلوح بيده السليمة .

— اركض الى الخطوط الأمامية يا يورا ! ساعد رجال الدبابات . . . فلا أحد يعرف مكان ممراتكم . . .

وأسأله :

— وكيف حال يدك ؟

— بعدين . . بعدين . . اذهب الآن . . لم تبق الا ساعتان .

— تمام أيها الرفيق الملازم أول . هل تسمحون بالانصراف ؟

— اذهب . . . وارسل اليّ ليساجور . . .

أؤدي التحية العسكرية واستدير على القدم اليسرى وأدق كعبا بكعب ، ثم أنزل يدي مع أول خطوة . فينادي شيريايف :

— كما كنت ! ساعتان طابور ذنب . . .

ويقذفني من الخلف بكتلة من الثلج القارس تصيبني في قفاي ، ثم تتفتت وتسقط داخل ياقة المعطف وتنفذ الى جسدي .

وأقفز على دبابة المقدمة ، فأجد فاليجا جالساً عليها وهو يشبك الزمزمية في حزامه .

وتسير الدبابات على طول الشاطئ ، الواحدة تلو الأخرى ، وتعبر المزلقان ، ثم العربات التي نسفناها

وأخيرا تصل الى المعبر . سيفتح الألمان عليها النار حالاً .
الدبابات ترسل ضجيجا هائلاً .

ندف الثلج تدور في الهواء ببطء ثم تهبط .

وتل ماماي يلوح في الأفق كتلةً ضخمة بيضاء .

بقي على الهجوم ساعة وأربعون دقيقة .

٢٧

حددت الساعة الخامسة موعداً لبدء الهجوم ، وفي الخامسة الا الثلث يقبل نحوي جاركوشا راكضاً لاهثا :

ـ أيها الرفيق الملازم . . .

ـ ماذا هناك أيضا . . .

يتنفس بصعوبة ويمسح براحته جبينه المبلل بالعرق :

ـ لقد عاد جنود الاستطلاع ؟

ـ ثم ماذا ؟

ـ اصطدموا بألغام .

ـ أية ألغام ؟

ـ ألغام المانية . مقابل الممر الأيسر مباشرة . على بعد خمسين أمتار . . ألغام غريبة لا نعرفها .

ـ يا للشيطان ! وماذا كانوا يفعلون بالأمس اذن ؟

ـ قالوا أنها لم تكن موجودة بالأمس .

ـ لم تكن موجودة ؟ وأين هذا الـ . . . بوخفوستوف ؟

ـ انه هناك في خندق جنود المدافع المضادة للدبابات .

ـ اتصل بالأركان ، يا شيريايف ، واطلب تأجيل اشارة البدء . سأعود حالاً .

بوخفوستوف هو قائد فصيلة استطلاع في كتيبة سلاح المهندسين ، وهو صغير الحجم ، تعلو وجهه آثار الجدري ، يشيح بيديه قائلاً :

ـ يبدو أنهم وضعوها هذه الليلة ، أي والله ، الليلة فقط . فقد تحسست بالأمس هذا المكان بيدىّ ولم أجد شيئا ، أي والله . . .

ـ أي والله ، أي والله ! ولماذا لم تبلغني من قبل ؟ دائما في الدقيقة الأخيرة . . . عددها كبير؟

— حوالي عشرة . . ومن نوع غريب ، لم أره من قبل . . تشبه الغامنا من طراز « بومزا » ولكن ليس تماماً . ابرة التفجير في مكان ما في أحد جوانب اللغم .

— أعد ملابس التمويه يا جاركوشا . . أما أنت . . . فستدلنا على الطريق .

من حسن حظنا أن الليلة غير مقمرة . ونمر أنا وجاركوشا والرقيب ذو الوجه المجدور عبر ممر ضيق تحده الأوتاد . ويلمع أمام عيني كعبا جاركوشا اللذان تغطيهما حدوتان . ونزحف خارج حقول ألغامنا . المكان حولنا متشح بالبياض ، بينما تلوح في الأمام خطوط الخنادق الألمانية السوداء . ويتوقف الرقيب ، ويشير بيده في صمت الى شيء أسود في الثلج . انه لغم « بومزا » . . « بومزا » عادي جداً ، به ابرة تفجير وسلك ، ومثبت من أحد جوانبه بوتد حتى يستقر جيداً . وقد ظن أن الوتد إ برة تفجير . . انه ليس جندي استطلاع ، بل مغفل .

وينزع جاركوشا ابر التفجير الواحدة تلو الاخرى بمهارة ، وهو راقد على بطنه . لقد تجمدت يداي من

البرد فلا أستطيع أن أنزع سوى ابرتين بصعوبة . أسمع زفير الرقيب عاليا .

ثم صوت فحيح . . . صاروخ انارة . . .

نتسمر في أماكننا ، ونشعر فوراً بالجفاف في حلوقنا ، ويدق القلب بجنون . سيرانا هؤلاء الأوغاد !

ثم حفيف . . . صاروخ آخر . . . ألمح بطرف عيني الرقيب وقد زحف مبتعداً عني بحوالي عشرة أمتار . . . يا له من أحمق ! سيراه الألمان حالاً .

دفعة قصيرة من الرشاش .

لقد رأونا .

دفعة أخرى .

شيء ما يضربني في يدي اليسرى ثم في قدمي بقوة رهيبة . فأدفن رأسي في الثلج . الثلج بارد ، منعش يندس في فمي وأنفي وأذني . . . ما ألطفه . . . أحس به يصر تحت أسناني . . كالجيلاتي . . . أما هو فيقول انها ليست « بومزا » . . . بل هي فعلا « بومزا » عادية جداً . . . فقط وضع وتد في جانبها . . . يا له من رقيب غريب . . خلاص . . . لا شيء بعد ذلك . . . فقط الثلج بين أسناني . . .

٢٨

« انت ابن كلب فعلاً يا يورا ، أبعد تلك الورقة التي كتبتها من المستشفى ، لا تبعث اليَّ ولا حتى بكلمتين ؟ هذه نذالة منك . لو كانت الاصابة في يدك اليمنى لأصبح لديك عذر ، ولكنك مصاب في اليسرى . عيب عليك ، أي والله عيب . كل يوم يسألونني هنا عنك ، فأقول لهم انه سمن وترهل من طعام المستشفى ، ويطارح الممرضات الغرام ، فأنيَّ له أن يتذكر رفاقه في الكفاح . بينما هم لا ينسونك ، أيها الغالي . وتشوماك يحتفظ لك بزجاجة كونياك فاخر (بست نجمات !) * ، ولا يسمح لأحد أن يذوقه . وقد حاولت معه أكثر من مرة فلم يتزحزح عن موقفه قيد شعرة .

وعلى العموم فقد مللت . مللت القعود دون عمل . مللت الى درجة لا تطاق . الوحدات الأخرى تهاجم وتتقدم نحو الغرب ، بينما نحن قابعون في هذه الخنادق نفسها . صحيح أن العدو لم يعد كما كان من قبل .

* أي أنه معتق منذ ست سنوات . المترجم .

ومع ذلك فقد أتعبنا قليلاً في الشهر الماضي . وأصبح جميع الرجال عاجزين عن القتال تقريبا . . وليس هناك أمل في الامدادات كما تعرف . . . بعد أن اصطادوك برصاصهم ، قمنا بشن هجوم آخر بالدبابات على الصهاريج ولكنا لم نستولِ عليها ، ثم سحبوا منا الدبابات الى قطاع آخر . وكان الألمان قد أعطبوا واحدة منها فحاربنا الألمان شهراً كاملاً من أجلها ، لأن قائد فرقتنا أمر باقامة مركز نيران تحتها ، ويبدو أن القائد الألماني قرر الشيء نفسه . وهكذا تصارعنا على هذه الدبابة كالمساعير . ولم نستطع أن نهاجم مباشرة ، اذ لم يزد عدد القادرين على القتال في كل كتيبة عن خمسة أو سبعة . فكان علينا أن نحفر سرداباً ، بينما الأرض صلبة كالحجر ، وليس لدينا متفجرات . وظل نهر الفولجا أسبوعين وهو لا يتجمد ، فلم يصلنا الا الخبز الجاف والدقيق المركز . . وكانت تسقطه علينا طائرات « او ـ ٢ » .

وأخيراً تمكنا من الاستيلاء على الدبابة . ثم حفرنا نفقاً طوله عشرون متراً وعبأناه بال (ت . ن . ت .) بحوالي مائة كيلوجرام ، ثم فجرناه . وتقدمنا

للهجوم عبر الحفرة . . أرأيت ما أبرعنا ! وقد رشحتُ توجييف وأجنيفتسيف (وهو الآن نزيل المستشفى فقد جرح) وفاليجا جنديك للانعام عليهم بوسام النجمة الحمراء ، فهم رجال شجعان ، ورشحت الآخرين لميدالية البطولة . والآن يربض فاربر برشاشه تحت الدبابة ويحصد الألمان يمينا وشمالاً . ولكن الصهاريج ما زالت تحت أيديهم ، بينما هم قد غاصوا في بطن الأرض كالجرذان فلا تستطيع الوصول اليهم من أي جانب . ولكن العائق الأول هو قلة الجنود ، ونحارب الآن أساساً بالمدافع ، وقد سحبناها كلها ، ما عدا الثقيلة ، الى الضفة اليمنى للفولجا . وعسكرت بجوار خندقنا بطارية من مدفعية الفرقة فأصبحنا لا نستطيع النوم . وقد نقلت فرقة روديمتسيف والفرقة الثانية والتسعون الى يميننا في منطقة شارع الترام ، أما الفرقة التاسعة والثلاثون فقد أوشكت على تطهير « اكتوبر الأحمر » من الألمان تماماً . . برافو . .

لم يبق في فصيلتنا الا ثلاثة : أنا وجاركوشا وفاليجا . أما توجييف فقد نقل مع الخيل الى الضفة اليسرى ليحل محل كوليشوف الذي ضبط وهو يسرق

العلف فأرسل الى وحدة الجزاءات . أما تشيبورنوى وتيموشكا وذلك الجندي الصغير الذي كان يمضغ طوال الوقت ، نسيت اسمه ، فقد فقدناهم على تل ماماي ، حيث بقينا هناك ندافع لمدة أسبوعين مع رجال الكيمياء والاستطلاع . واستطعنا أن ندفن اثنين منهم ، أما تيموشكا فلم نعثر منه الا على عمرته . كم آسف عليه ، وأصبح أكورديونه ملقىً دون صاحب . وانفجر لغم في أورازوف فأطاح بقدمه ، كما أرسلنا ثلاثة آخرين من الجنود الجدد الى المستشفى ، وأنت لا تعرفهم . أما من رجال الأركان فقد لقي تورين قائد الكيميائيين ، والمترجم مصرعهما . أما « حبيبك » ذو الفودين ، أستافييف ، فقد دس له الألمان في عجيزته شظية (لا أفهم أبداً كيف أصابته ، فهو لا يغادر الخندق) . وهو الآن يرقد على بطنه ويقلب في أرشيفه .

ونقوم الآن ببناء نقط المراقبة ، نبنى كل يوم نقطة جديدة ، وقد شيدنا حوالي خمس ، وكلها لم تعجب الرائد ، فانك تعرفه . أقمنا واحدة في مدخنة المصنع بجوار مصنع الكيمياء حيث تكثر

الصبغة الزرقاء ، وأخرى فوق السقف ، مثل حظيرة الحمام . والروئية منهما جيدة ولكن الرائد يقول ان المكان بارد تلفحه الريح ، وأمرنا أن نشيدها تحت منزل في القرية المجاورة للوادي ، حيث تقف قاطرة من طراز « ف . د . » . بينما عسكرت هناك مدفعية الفوج ٢٧٠ ، مما يجعل المكان عرضة لنار الألمان ، والقذائف تنفجر بالقرب منه تماماً ، فكيف اذن اسحب الرائد الى ذلك المكان !

وعلى العموم عد بسرعة ، وعندئذ سنبحث معاً عن مكان ملائم ، ثم انك ستساعدنا في الحفر (ها .. ها .. !) فان يدي تورمتا لدرجة أنني لا أستطيع أن أمسك بالجاروف . أما صاحبك مهندس الفرقة أوستينوف فقد أزعجني حتى كادت روحي تزهق ، فهو لا يكف عن طلب الخرائط ، وانت تعرف انني اكره هذا الأمر كره العمى . شيريايف يبلغك تحياته ، وقد شفيت يده تماماً .

نعم . . . لقد جاءت ممرضة جديدة الى الكتيبة الثانية بدلاً من بورلوك الذي ذهب للدراسة . وستراها عندما تأتي . أما تشوماك فيدور حولها طوال الوقت ،

ويلمّع لوحة حزامه كل يوم بالطباشير . وعلى العموم تعال بسرعة . نحن في انتظارك .

أخوك أ . ليساجور

ملحوظة : أخيراً عثرت على جهاز التفجير « LZZ » الذي كنت تحلم به . ولكني لن أفكه حتى تأتي . وأصبحت لدينا الآن مجموعة لا بأس بها من الغنائم : ألغام من طراز « S » و « ٤٣ — TMI » ، وخمسة أنواع من أجهزة التفجير الجديدة في علب رائعة (يمكننا أن نصنع منها علب سجائر) وكذلك أنبوبة احتراق ألمانية رائعة .

أ . ل . »

وعلى الجانب الآخر للورقة كلمات مكتوبة بحروف كبيرة مائلة متجهة الى أسفل :

« صباح الخير أو مساء الخير أيها الرفيق الملازم . أخبركم أنني بصحة جيدة وبخير ، وهو ما أرجوه لكم . أيها الرفيق الملازم ، كتبكم كلها في الحفظ والصون ، وقد وضعتها في الحقيبة . وقد حصل الرفيق قائد الفصيلة على بطاريتين ، وأصبح خندقنا الآن مضاء ، ويريد الملازم أول شيريايف أن يستولى عليها لحساب الأركان .

عودوا الينا بسرعة أيها الرفيق الملازم . الجميع هنا يبلغونكم تحياتهم القلبية ، وأنا أيضا .

جندي مراسلتكم أ . فاليجوف » .

ادس الرسالة في الحافظة وأرتدي المعطف وآتوجه الى كبير الأطباء ، فهو شاب طيب يمكنك دائما أن تصل معه الى اتفاق . ثم اذهب الى رئيس المخازن لكي يسلمني سترة جديدة بدلا من القديمة التي تمزق كمها .

في الصباح أرتدي حذاء جديداً ومعطفا جديداً من معاطف الجنود ، وجيوبي محشوة بالرسائل . . وانطلق الى ستالينجراد مودعاً زملائي .

ويرافقونني حتى بوابة المستشفى .

ـ بلغ تحياتنا للجنرال لباولوس ! *

ـ أكيد .

ـ لا تنس ما أوصيتك به ، سامع ؟

ـ سامع ، سامع .

* الفيلدمارشال باولوس كان قائد الجيوش الألمانية التي حاصرت ستالينجراد . ومن المعروف أنه اضطر للاستسلام في هذه المعركة مع من تبقى من ضباطه وجنوده . المترجم .

ـ انه قريب جداً ، في الوادي الذي يلى واديكم ، بالقرب من مدفع « كاتيوشا » محطم .

ـ اذا قابلت ماروسا قل لها انني سأحكي لها شيئا طريفاً عندما ألقاها ، لأنني لا يمكن ان اكتب عن ذلك في الرسالة .

ـ حسنا . . وداعا . . لا تنسوا أن تعيدوا كتاب « قفاة الأثر » الى العنبر رقم ٦ ، وبلغوا تحياتي لمدرّسة الرياضة .

ـ تمام يا افندم !

ـ حسنا ، وداعاً .

ـ اكتب لنا . . ولا تنسنا . . .

ويلوح السائق بيده في ضيق :

ـ كفاك توديعا أيها الملازم .

فأصافح الأيدي الممدودة وأهرول الى السيارة .

٢٩

نصل الى قرية بوركوفسكي مع المساء ، حيث توجد مؤخرة الفرقة ، ولازار المراقب المالي . أقضي

الليل عنده في منزل صغير يشبه الكوخ ، مكتظ بالعجائز والأطفال وبعض الكتبة .

ويسألونني :

ـ كيف الأحوال في المؤخرة ؟

ـ عادية . . .

ـ أكنت نزيلا بمستشفى لينينسك ؟

ـ نعم في لينينسك : مستشفى صغير بائس ، لا يمكن أن أقارنه بخندقي على ضفة الفولجا .

ويضحك لازار .

ـ خندقك أصبح شيئا فخماً : كهرباء ، وحاكي واسطوانات يبلغ عددها الخمسين ، وجدرانه مغطاة ببطانيات ألمانية . . . آخر جمال !

ـ وهل كنت هناك منذ فترة قريبة ؟

ـ عدت بالأمس فقط . . كنت أسلمهم الرواتب .

ـ أما زال الألمان مرابطين ؟

ـ لا . . كان زمان . . لقد هربوا من تل ماماي ، ورابطوا وراء « الوادي الطويل » . . انهم الآن يلفظون أنفاسهم . ليس لديهم طعام أو ذخيرة ،

وفي خنادقهم عظام خيول ممصوصة ومبعثرة . وعمرما فقد حلّت نهايتهم . . .

لا يراودني النوم فترة طويلة ، وأروح أتقلب من جنب الى جنب .

وفي الصباح الباكر استقل سيارة « جيب » تابعة للأركان وأواصل طريقي .

نصل حتى شاطئ الفولجا مباشرة دون أي تمويه للسيارة . النهر عريض ، أبيض ، جليده ساطع الى درجة تعمى الأبصار ، وعلى الضفة المقابلة يلوح شيء ما أسود . لا بد أنها نقطة مرور . وعلم صغير أحمر يخفق على خلفية بيضاء . يا للشيطان ! ما أسرع ما يمضي الزمن ! فمنذ أمد قصير ، وكأنه بالأمس فقط ، كان الفولجا ... هذا الفولجا نفسه .. أحمر وأسود بفعل الدخان والحرائق ، هائجاً مضطرباً من الانفجارات ، تسبح فيه الألواح الخشبية وشتى المخلفات . أما الآن ، فعلى سطحه المتجمد طريق تحدده العلامات مغروز في الشاطئ المقابل كأنه سهم ، تركض فوقه السيارات رائحة غادية .. سيارات الشحن وسيارات « فيلليس » و « إمكا » المموهة بطلاء مبرقش . وفي بعض الأماكن

تبدو بقع سوداء قليلة متناثرة ، بين الواحدة والأخرى مئات الأمتار ، تركتها انفجارات قذائف الهاون ، انها آثار قديمة . ويقول لي منظم حركة المرور ، وهو جندي ذو شوارب حمراء ، ويمسك في يده بعلم صغير أصفر ، أن الألمان كفوا عن قصف المعدية منذ أسبوعين ، فقد خارت قواهم .

ونصل الى نقطة المرور .

ـ أين الهوية ؟

ـ ألا يمكن أن نمر دون أن تراها ؟

ـ ممنوع أيها الرفيق الملازم . لا بد من المحافظة على النظام .

يا سلام ! ونرى حول مقر أركان تشويكوف سوراً من الأسلاك الشائكة ، وبجوار ابواب السور حراس يقفون انتباه ، والطرقات مفروشة بالرمل ، وفوق كل خندق رقم ، مكتوب بخط أسود واضح على لوحة خاصة .

وفوق عامود مخطط نرى لوحة ذات سهم وقد كتب عليها « الى ممتلكات بورودين ـ ٣٠٠ متر » *

* كلمة « ممتلكات » كانت تكتب على تلك اللوحات كنوع من السرية ، حتى لا يعرف الغرباء ان كان المقصود هنا كتيبة أم فوج أم فرقة ... الخ . المترجم .

ثم اضافة بقلم أحمر : « الدرب الأول على اليسار » . اذن فقد غيروا مكانهم . يبدو أن المقصود بالدرب الأول الوادي ، الذي كان أركان الكتيبة يعسكر فيه .

أشعر بالاضطراب ، أي والله ، أشعر بالاضطراب ، ومثل هذه الحالة تنتابك عندما تعود الى المنزل بعد غيبة . فعندما تأخذ أجازة ، أو تكون عائداً من مكان ما وتقترب من المنزل تجد نفسك لا ارادياً تسارع الخطو ، واثناء سيرك تلاحظ كل صغيرة ، وكل تغيير وكل جديد . فها هو الرصيف قد عُبِّد ، وظهر كشك سجائر جديد في ناصية الشارع ، نقلت محطة الترام فأصبحت قريبة من الصيدلية ، وارتفع المنزل رقم ٢٦ طابقاً آخر . نعم ، كل شيء تراه وتلاحظه .

وهكذا الحال هنا . فقد نزلنا هذا الشاطئ ذات صباح مشهود من شهر سبتمبر . وها هو الطريق الذي سحبوا فيه المدفع ، وها هي محطة ضخ المياه البيضاء . لقد سقطت فوقها قنبلة وقتلت ثلاثين جريحاً كانوا فيها . وأعيد ترميمها الآن وافتتحت فيها ورشة حدادة . وفي هذا المكان كان خندق ضيق ، وكنت وفاليجا نختبئ فيه من الغارات الجوية . ويبدو أنه قد رُدم ،

فليس هناك أثر له . وقد صنع بعضهم درجاً هنا ، ولم تعد هناك حاجة للتسلق فوق المنحدرات . وقد صنع الدرج بعناية وفن ، بل لم ينسوا حتى صنع حاجز للارتكاز عليه .

تعبر السماء فوق رؤوسنا مجموعة من طائراتنا طراز « بيتلاكوف » ، محلقة في هدوء وثقة ، وتنقض الواحدة تلو الأخرى في مهابة ، كما كانت تفعل الطائرات الألمانية « هينكل » في وقت ما ...

— يا للشيطان ! ما أروع هذا !

الوادي خاوٍ .. ليس هناك الا كوم من الألغام الألمانية يعلوه الثلج ، ولفات من الأسلاك ، وآلة محطمة لصنع حلزونات برونو . انها آلتنا ، نعم هي ، تلك التي صنعها جاركوشا . وبجوار المرحاض عشرون جنديا ألمانيا ، قذرين ، ملفوفين بخرق ومناشف ، غير حليقي الذقون .

وعندما يرونني ينهضون .

وتترد صيحة في الأعلى :

— عمن تبحث أيها الرفيق الملازم ؟

ثم ينقض عليَّ شيء كالاعصار ، تلفه سحابة من الثلج ، ويكاد يطيح بي أرضاً .

— انت على قيد الحياة أيها الرفيق الملازم ؟

وأرى أمامي وجها ورديا مرحاً ، وعينين ضاحكتين كعيون الأطفال .

انه سيديخ ! .. فلتخطفني الشياطين ان لم يكن هو ... سيديخ ! ..

— من أين ظهرت أيها الملعون ؟ !

ولكنه لا يجيب ، بل يتهلل كله ، من الرأس حتى القدم . وأنا أيضا أتهلل . وهكذا يقف أحدنا مقابل الآخر ويهز يده . يخيل اليَّ أنني ثمل قليلا .

— اختلطت الأمور هنا أيها الرفيق الملازم . اننا الآن نطارد الألمان .. لذلك يثور الغبار . ومركز قيادتنا هنا في الوادي . وقد ذهب الجميع الى الخطوط الأمامية ، أما أنا فجرحت جرحاً بسيطاً ، فأبقوني هنا لحراسة الأسرى الألمان .

— وايجور ؟

— بكامل الصحة .

— الحمد لله !

ـ تعال عندنا اليوم .. أوه ، كم سيسره ذلك !
وهل أنت قادم من المستشفى ؟ لقد أخبرني الرفاق .

ـ نعم ، نعم ، من المستشفى . قف مكانك ولا تتحرك ، دعني أتملاك .

أقسم أنه لم يتغير أبداً . كلا ، بل اكتملت رجولته . ونبتت في وجهه شعيرات خشنة ، وغار خداه قليلاً ، ولكنه ظل أحمر الخدين ، قويا ، كما كان سابقا ، وعيناه أيضا بقيتا على حالهما ، مرحتين ، شقيتين ، برموش طويلة مقوسة كرموش الفتيات .

ـ مهلاً ، مهلاً .. ما هذا الذي يلمع تحت سترتك ؟

ويقف سيديخ خجلاً ويفرك راحته الخشنة كعادته القديمة .

ـ يا لك من وغد .. ولماذا لم تخبرني ... هات يدك أهنئك .. ما الذي صنعته لقاء هذا الوسام ؟

ولكنه يزداد احمراراً ، وأصابع يدي تطقطق في كفه الضخمة .

ـ تراك الآن لا تخجل من العودة الى الكولخوز ؟

فيقول وهو يفرك راحته أكثر :

ـ ولم الخجل ... وأنت .. ترى ما زلت تحتفظ بها .. بعلبة السجائر .. أم ...

ـ طبعا ، طبعا .. ها هي ذي .. خذ سيجارة .

وأسأله :

ـ هل لديك كبريت ؟

ـ يا هانس ... هات ناراً للملازم .. أسرع !

فاير... فاير... كيف تسمى بلغتكم ...

ويقفز على الفور أسير ألماني نحيل ، يرتدي نظارة ذات اطار سميك ، يبدو أنه ضابط ، ويشعل ولاعة على شكل مسدس صغير ، قائلاً :

ـ بيتي ، كامراد . *

فينتزع منه سيديخ الولاعة :

ـ دعك من « بيتي » هذه .. سنشعلها بدون مساعدتك ـ ثم يقدم لي الولاعة مشتعلة ـ جيوبهم دائما محشوة بمثل هذه الأشياء . وما أن يستسلم الواحد منهم حتى يقدم لك ولاعة . أصبحت أملك حوالي العشرين منها .. أتريد أن أهديك بعضها ؟

---

* تفضل يا رفيق (بالألمانية) . المترجم .

ـ لا داعي ، أمامي متسع من الوقت لذلك .. الأفضل أن تحدثني عن نفسك .. مهما كان ، فنحن لم نلتق منذ أربعة أشهر ...

ـ لا جديد أحدثك عنه أيها الرفيق الملازم ... كلها أمور عادية .

ومع ذلك يقص على قصة أي جندي ... تلك القصة العادية التي نعرفها جميعا منذ وقت بعيد ، والتي يصغى إليها الجميع دائماً بنفس الدرجة من الاهتمام ... ففي يوم ما كنا نزرع الألغام فاستشهد الجميع تقريبا ... وفي يوم ما أخر رقدت في الوادي يوما كاملاً لا أستطيع ان أرفع رأسي من رصاص القناص ، الذي ترك في العمرة ثلاثة ثقوب .. ثم حوصرنا بعد ذلك لمدة أسبوعين في ورشة السبك ، وكان الألمان يقصفوننا بلا هوادة ، ولم يكن لدينا طعام ، والأدهى من ذلك ، لم يكن هناك ماء . . فذهب الى الفولجا أربع مرات لاحضاره ، ثم ... ثم عادوا يزرعون الألغام ، ويرفعونها ، ويقيمون حلزونات برونو ...

ويبتسم ابتسامته المشرقة الرائعة ويقول :

ـ وعموما فأنت نفسك تعرف ...

ـ اذن فلم تخيب ظني .. لقد كنت على يقين من ذلك . هيا ندخن سيجارة أخرى ، ثم أذهب للبحث عن رجالنا ، ألا تعرف مكانهم ؟

ـ الجميع هناك ... في الخطوط الأمامية .. وراء « الوادي الطويل » ، فليس هنا غيري .

ـ ليس هنا أحد غيرك ؟

ـ أظن هنا قائد أركانكم .. جريح ، يرقد في ذلك الخندق .

ـ هل هو أستافييف ؟

ـ لست أدري . انه ملازم أول .

ـ تقول في ذلك الخندق ؟

وأتوجه الى هناك .

ويصيح سيديخ في اثري :

ـ اذن فنحن في انتظارك مساءً أيها الرفيق الملازم . لن أخبر ايجور فلاديميروفتش بشيء . خندقنا الثاني بعد المنعطف ، الى اليسار ، ثلاث درجات ، ثم مقبض أزرق على الباب .

أستافييف راقد على السرير ، تحت بطنه وسادة ، ويدون شيئا ما . وبجواره تليفون على كرسي .

ما أن يراني حتى يبتسم ابتسامة عريضة ويمد لي يده الرقيقة الممتلئة :

ـ جورج ، يا عزيزي ، هل عدت ؟ أنت قوي كالثور ؟

ـ كما تراني .

ـ أما أنا فمسكين ، فوجنا يطارد الألمان بينما أنا جالس كصبي التليفون أسطر البلاغات .

ـ ليس هذا سيئا الى هذه الدرجة . سيمكنك أن تؤرخ في هدوء .

ـ ربما ... لماذا لا تجلس .. ضع التليفون على الأرض ، وحدثني لي عن أخبارك ـ ويحاول أن يستدير ، ولكنه يقطب وجهه ويسب ـ لقد أصيب عصب الجلوس ، ويسبب لي آلاماً جهنمية .

ـ ما العمل ، انها الحرب . وأين رجالنا ؟

ـ انهم في المدينة يا جورج ، في المدينة ، في وسطها . الكتيبة الأولى تشق طريقها نحو محطة السكك الحديدية . أخبرني فاربر تواً بالتليفون أنهم يحاصرون الفندق المجاور للطاحونة . هناك حوالي خمسين من

جنود الـ « إس . إس . » تحصنوا فيها ويرفضون الاستسلام . لماذا لا تجلس .

ـ أشكرك . وأين شيريايف ، وليساجور ؟

ـ هناك . كلهم هناك . لقد بدأنا الهجوم في الصباح . ألا تريد سيجارة ؟ سجائر ألمانية ، غنائم ...

ويمد لي علبة خضراء أنيقة .

ـ انني لا أحبها ، فهي تحرقني في زوري . وما هذا ؟ أهو أيضا غنيمة ؟

على الطاولة اكورديون ضخم لامع .

ـ نعم غنيمة . أهداه تشوماك لشيريايف .. يوجد منه الكثير لديهم ...

ـ حسنا ، انني ذاهب .

ـ هلا جلست قليلاً ... حدثني عن الأحوال هناك في المؤخرة .

ـ سأحاول في مرة أخرى ، أما الآن فانني بحاجة الى شيريايف .

فيبتسم أستافييف قائلاً :

ـ أتخشى أن تفوتك الغنائم ؟

ـ بالضبط .

ويعتدل معتمداً على مرفقه :

ـ عزيزي جورج ... اذا صادفتك آلات تصوير ، فاحجز لي واحدة .

ـ وهو كذلك .

ـ من الأفضل أن تكون ماركة « لايكا » . هل تفهم في الفوتوغرافيا ؟ هذه الآلة تشبه آلة « فيد » التي ننتجها نحن .

ـ وهو كذلك .

ـ وأيضاً ورق تصوير .. وأفلاماً .. يقال انها كثيرة هناك . وساعة أيضا ، اذا استطعت .. حسنا ؟ ومن الأفضل ساعة يد...

٣٠

مع حلول المساء أكون قد ثملت تماماً . من الهواء ، والشمس ، والسير ، والمقابلات ، والكونياك الجيد ! كونياك تشوماك ، ذو النجوم الست .

ويملأ لي تشوماك الكأس تلو الأخرى قائلاً :

ـ اشرب ايها المهندس ، اشرب ! تراك نسيت الشرب خلال هذين الشهرين . كنت هناك تمضغ

العصيدة ، وتشرب المرق . اشرب ولا تبخل .. فاننا نستحق ...

نستلقي في منزل مهدم ـ ولم أعد أذكر كيف جئنا الى هذا المكان ـ أنا وتشوماك وليساجور وطبعاً فاليجا . نستلقي على القش ، وفاليجا جالس في الركن يدخن غليونه ، ويبدو عليه الغضب والعبوس . تصرفاتي لا تعجبه على الاطلاق ... فما معنى هذا الذي فعلته .. كيف أترك في المستشفى معطفي الضباطي ، المضبوط على مقاسي ، ذا الأزرار الذهبية ، واحضر بدلاً منه معطف جنود ، قصيرا حتى الركبة . هذا شيء لا يجوز أبداً ! ثم ما هذا الحذاء المشمع ذي الرقبة الواسعة والنعل المطاطي !

عندما قابلني فحصني من الرأس حتى القدم بعينين غير راضيتين وقال عابساً :

ـ لقد حصلت لك على حذاء من الجلد .. وهو هناك في الخندق .. وان كان قوسه منخفضاً ...

وحاولت أن أبرر له تصرفاتي قدر ما استطعت .. ولكني ، فيما يبدو ، لم أوفق في الحصول على عفوه .

ويصب لي تشوماك المزيد :

ـ اشرب ، اشرب ايها المهندس .. لا تخجل ...

وينتزع منه ليساجور الكأس :

ـ حاسب والا أسكرته . نحن اليوم مدعوون في الفرقة التاسعة والثلاثين . كل يا يورا مزيداً من الزبد ، كل !

وآكل .

عبر الحائط المهدم يلوح تل ماماي ، ومدخنة « اكتوبر الأحمر » ، المدخنة الوحيدة التي ظلت رغم كل هذا باقية . السماء مزدحمة بصواريخ الانارة ... صواريخ حمراء ، وزرقاء ، وصفراء ، وخضراء ... بحر كامل من الصواريخ . والرصاص يدوي . طول النهار يدوي الرصاص ، من المسدسات ، والبنادق الآلية ، والبنادق العادية ، من كل ما تقع عليه أيدي الجنود .. طراخ ـ طاخ ـ طاخ ـ طاخ ...

يا له من يوم ، يا الهي ، يا له من يوم ! أستلقي على ظهري فوق القش ، وأحدق في السماء ، وقد فقدت القدرة على التفكير بأي شيء ، فإنني متخم ، مشبع حتى النهاية . أحصي الصواريخ ، فهذا فقط ما

أستطيعه الآن . صاروخ أحمر ، يتلوه اخضر ، ثم واحد أخضر أيضا ، فأربعة خضر دفعة واحدة .

تشوماك يقول شيئا ما ، ولكني لا أصغي اليه ، وأقول :

ـ اغرب عن وجهي .

ـ لن يكلفك هذا شيئاً ... اننا نرجوك ... لا تكن خنزيراً ..

ـ قلت لك اغرب عن وجهي .

ـ يا أخي اقرأ .. لن يكلفك شيئا .. اقرأ ولو عشرة أسطر ...

ـ أية عشرة أسطر ؟

ـ الكلمة التي ألقاها .. شيء طريف ، أي والله طريف .

ويمد لي أمام عيني مباشرة قطعة قذرة من جريدة ألمانية .

ـ ما هذا السخف ؟

ـ اقرأ وستعرف .

وترقص الحروف أمام عيني ، حروف غوطية غير معتادة . وصورة وجه هتلر المعتوه ، شفتاه مطبقتان ، وجفناه ثقيلان ، ومقدم عمرته ضخم أحمق .

صحيفة « فيلكيشير بيو بختير » . خطاب الفوهرر في ميونيخ ، ٩ نوفمبر عام ١٩٤٢ .

أي منذ حوالي ثلاثة أشهر...

« ستالينجراد أصبحت في يدنا ! ولكن الروس ما زالوا باقين في بعض المنازل . حسنا ، فليبقوا ، هذا شأنهم ، أما نحن فقد صنعنا ما علينا . وأصبحت المدينة التي تحمل اسم ستالين في أيدينا ، وأصيب الفولجا ، الشريان الروسي الأعظم ، بالشلل . وليس هناك قوة في العالم تستطيع أن تزحزحنا عن هذا المكان .

ان من يقول لكم هذا الكلام هو أنا ... الانسان الذي لم يخدعكم أبداً ، الانسان الذي ألقى القدر على كاهله عبء ومسؤولية أعظم حرب في تاريخ البشرية . انني أعلم أنكم تثقون بي ، ويمكنكم أن تطمئنوا ، فها أنذا أكرر ، متحملا كل المسؤولية أمام الله والتاريخ : أننا لن نخرج من ستالينجراد أبداً . ابداً . مهما كان البلاشفة يريدون هذا ... » .

ويهتز بدن تشوماك كله من الضحك :

ـ برافو يا أدولف ! أمّا جدع ! أي والله جدع . سارت الأمور كما قال .

وينقلب على بطنه ثم يرتكز بذقنه على راحتيه ويسأل :

ـ ولكن لماذا أيها المهندس ؟ لماذا ؟ وضح لي .

ـ ماذا تقصد بـ « لماذا » ؟

ـ لماذا سارت الأمور هكذا ؟ هه ؟ أتذكر كيف انهالوا علينا في سبتمبر ؟ ومع ذلك لم يحققوا ما أرادوا ، لماذا ؟ لماذا لم يستطيعوا أن يلقوا بنا في الفولجا ؟

رأسي يدور .. لقد أصبحت ضعيفا فعلاً بعد المستشفى .

ـ وضح له يا ليساجور ، قل له لماذا ، أما أنا فسأتجول قليلاً .

أنهض وأخرج مترنحاً عبر فتحة ، كانت في وقت ما ، على ما يبدو ، باباً .

يا لها من سماء عالية شفافة .. نظيفة تماماً ، خالية من أية سحابة ، أو طائرة . لا شيء الا الصواريخ ، ونجمة وحيدة شاحبة ، تائهة بينها . والفولجا .. عريض ، هادئ ، أملس ، لم تتجمد مياهه في موضع واحد فقط ،

مقابل محطة الضخ . ويقال أنه لا يتجمد في هذا المكان أبداً .

الشريان الروسي الأعظم ... يقول أنه أصيب بالشلل .. هذا الأحمق ! يا له من أحمق ! الروس ما زالو باقين في بعض المنازل ، فليبقوا ، هذا شأنهم ...

ها هي ذي « بعض المنازل » تلك. وها هو ذا تل ماماي المسطح ، القبيح ، وفوقه الصهاريج كأنها البثور على الجلد .. صهريجان كدمّلين ... أوه ، كم عذبتنا هذه الصهاريج ، وحتى الآن أنفر من النظر اليها . أما خلف تلك الاطلال الحمراء التي لم يبق منها الا جدران كالشباك ، فكانت تمتد مواقع فرقة روديمتسيف .. شريطاً ضيقاً لا يزيد عرضه عن مائتي متر . يا سلام ، فقط مائتا متر .. مساحة ضيقة عرضها مائتا متر تافهة ! .. أيعبرون بيلوروسيا وأوكرانيا ، وحوض الدون ، وسهوب كالميك ، ثم لا يستطيعون اجتياز مائتي متر... ها — ها !

وبعد ذلك يتساءل تشوماك عن السبب . تشوماك بالذات وليس أحد غيره . وهذا شيء طريف حقا . ربما سألني أيضا شيريايف وفاربر ؟ أو ذلك الجندي العجوز الذي رابط الى جوار رشاشه ثلاثة أيام ، معزولاً

عن الجميع ، ولم يكف عن اطلاق النار حتى فرغت ذخيرته ؟ ثم بعد ذلك انسحب بالرشاش ، وبعلب الرصاص الفارغة قائلاً : « كيف أترك هذا الخير ، ربما احتجنا اليه » . انني لا أذكر حتى اسمه .. اذكر فقط وجهه .. وجهه ذو لحية وعينين ضيقتين وعمرة بعرض رأسه . ربما سألني هو أيضا عن السبب ؟ أو ذلك الصبي السيبيري الصغير ، الذي كان يمضغ طوال الوقت صمغ الشجر ... لو بقي على قيد الحياة لربما سألني هو أيضا عن السبب ؟ لقد قص علي ليساجور كيف استشهد هذا الصبي . ولم اكن قد رأيته الا عدة مرات ، فقد أرسلوه الينا قبل اصابتي ببضعة أيام . كان فتى مرحاً ، ذكيا ، يطلق النكات . وقد اقتحم دبابة مصابة وألقى في برجها قنبلتين يدويتين ، كان يمسك بهما في كلتا يديه .

ايه يا تشوماك ، يا تشوماك ، يا لك من بحار حقيقي! أية أسئلة حمقاء تطرحها ، ولا تفهم شيئاً ، على الاطلاق . تعال هنا ، تعال .. تعال أعانقك . لقد شربت أنا وأنت قليلاً ، وليست هذه لحظة ضعف عاطفي ، كلا، أبداً . هات معك فاليجا ، هاته .. اشرب يا تابعي الأمين !

اشرب نخب النصر ! أترى ما فعله الألمان بالمدينة ... لم يتركوها الا طللاً ... ولكنا بقينا على قيد الحياة .. أما المدينة ... فسنبني أخرى جديدة ، أليس كذلك يا فاليجا ؟ أما الألمان فحلت نهايتهم . انظر ، ها هم يسيرون ، يسحبون خلفهم جربندياتهم وبطاطينهم ، ويتذكرون الآن برلين ، وزوجاتهم وفتياتهم . أتريد أن تذهب الى برلين يا فاليجا ؟ أنا أريد ، لا تتصور كم أرغب في ذلك . سنذهب سويا اليها ، سوف ترى . حتماً سنذهب . دعنا فقط نزور في طريقنا كييف ، للحظة واحدة ، لألقي نظرة على والديّ . ما أروعهما من أبوين ، أي والله ! .. هيا نشرب نخبهما .. هل بقي لديك خمر يا تشوماك ؟

ونشرب من جديد ، نشرب نخب والديّ ، نخب كييف ، نخب برلين ، ونخب أشياء أخرى ، لم أعد أذكرها . ومن حولنا لا يتوقف اطلاق الرصاص ، بينما السماء أصبحت بنفسجية ، والصواريخ تئز ، وشخص ما قربنا يعزف على البلالايكا لحن « بارينيا » .

ـ أيها الرفيق الملازم ، هل تسمح ؟

ـ ماذا هناك أيضا ؟

ـ رئيس الأركان يستدعيكم .

ـ ومن تكون أنت ؟

ـ جندي اتصال الأركان .

ـ وماذا هناك ؟

ـ صدر أمر باستدعاء الجميع الى مركز القيادة بالوادي في الساعة السادسة تماماً ..

ـ هل جن هذا الرجل ... أي شيطان أوحى اليه ... اليوم عطلة ... عيد .

ـ ليس الأمر بيدي أيها الرفيق الملازم . رئيس الأركان أمر ، وما علي الا البلاغ .

ـ تكلم بوضوح ، ودع عنك هذه الكلمات : أمر .. بلاغ .. هل يستدعينا لحفلة ؟ بمناسبة النصر مثلاً ؟

ويضحك جندي الاتصال :

ـ سمعت أنهم يريدون غداً الاجهاز على مجموعة جيوش الشمال عند « المتاريس » . وسوف يرسلون فرقتنا والفرقة التاسعة والثلاثين الى هناك .

يا سلام ! ..

تشوماك يبحث في الظلام عن سترته وحزامه ،

ويدور بيديه فوق الأرضية ، أما ليساجور فينفض القش عن معطفه .

ـ اجمع حاجياتك يا فاليجا ، واذهب لاستدعاء جاركوشا بسرعة . ستجده في الفناء الثاني ، في القبو.. عجّل ...

ويقفز فاليجا واقفا .

ـ اياك أن ينسى المجاريف .

ثم يقول لي :

ـ حسناً أيها المهندس ، هيا نبني نقطة مراقبة ، أخذوك « على الماشي » ... لكي تخشوشن يداك ...

ـ هل المجاريف تكفي ؟

ـ تكفي . لكل واحد جاروف .. لك ولي ولجاركوشا ولفاليجا . ستتمكن من بنائها خلال الليل . أكيد . وربما استطعنا أن نجد مكانا في نافذة أحد المنازل ... هيا بنا .

في الشارع نسمع صوت تشوماك الجهوري :

ـ أربعات تشكيل ! مع النشيد... على الشمال ، معتاداً .. مارش !

وكل ما لديه في الفصيلة .. ثلاثة جنود !

ويربت ليساجور على كتفي :

ـ لم يتسن لنا أن نزور ايجور صاحبك .. دائما يحدث لي ولك مثل هذا ... لا بأس ، سنذهب اليه غداً ، ان شاء الله وظلمنا على قيد الحياة .

في كبد السماء تئز « او ـ ٢ » ، أو « الحارس الليلي » . وتضاء فوق « المتاريس » « مصابيح الانارة » .. مصابيحنا لا مصابيح الألمان .

لم يعد لدي الألمان من يشعلها .. بل ولا داعي لها عندهم ، فهم يسيرون في طابور طويل أخضر متعرج نحو الفولجا . يسيرون في صمت . وخلفهم رقيب شاب ، أفطس الأنف ، يضع في فمه غليونا طويلا مقوساً تتدلى منه فرشاة صغيرة . ويغمز لنا بعينه أثناء سيره قائلاً :

ـ انني أقود مجموعة من السواح ... يريدون أن يشاهدوا الفولجا .

ويضحك مقهقهاً في مرح .

لم تكن تلك معجزة ...

لم يعرف تاريخ البشرية معركة بلغت من حيث ضخامتها ما بلغته معركة ستالينجراد . فلقد اشترك في هذه المعركة التي امتدت ستة اشهر ونصف ، من يوليو عام ١٩٤٢ الى فبراير ١٩٤٣ ، وفي مرحلتها الاخيرة فقط ، عندما تحولت القوات السوفييتية من الدفاع الى الهجوم ، اكثر من مليوني محارب من الطرفين ، وستة وعشرون ألف مدفع وهاون ، وما يربو على ألفي دبابة وألفا طائرة .

ولو حاول أحد ما — ولست أدري هل هذا ممكن ام لا — ان يحصى عدد القذائف والقنابل والالغام

والرصاص ، وآلاف الاطنان من المعدن الفتاك التي انهالت على ارض ستالينجراد المحروقة الممزقة ، لحصل بلا شك على أرقام خيالية . ومن المعروف مثلا انه قد وجد في اماكن متفرقة من جنبات تل ماماي المطل على المدينة ، والذي كان مركز المعارك الحامية وتبادل الطرفان الاستيلاء عليه اكثر من مرة ، وجد في كل متر مربع في ارضه من ٥٠٠ الى ١٢٥٠ شظية . ولم يبق في المدينة الكبيرة التي كان يقطنها قبل الحرب حوالي نصف مليون انسان منزل واحد سليم ، ودمر ٩٠ ٪ من المباني تدميرا تاما اثناء المعارك .

ولم يكن الغزاة الفاشيست يشكون في النصر . بل لقد اعدوا منشورا خاصا في برلين وأرسلوه الى ستالينجراد ، اعلنوا فيه بكل عظمة : « لقد سقطت ستالينجراد ! واذا كانت موسكو هي رأس الاتحاد السوفييتي ، فان ستالينجراد هي قلبه » . واعتبروا انهم قد وجهوا الى الاتحاد السوفييتي طعنة في قلبه تماما . بيد ان القلب ظل يخفق ... وعجز الجيش الالماني الذي اكتسح اوروبا في مسيرة ظافرة ، وكان يملك عند ستالينجراد تفوقا ملموسا في الرجال والطائرات

والدبابات عن القضاء على حماة المدينة الذين تشبثوا بشريط ضيق من الارض على شاطئ الفولجا ، لم يزد عرضه عن كيلومترين في اكثر الاماكن اتساعا . بل لقد اطل جنود الرايخ على مياه النهر بالفعل في بعض الاماكن الضيقة كالشقوق . لكنهم لم يتمكنوا من تحطيم مقاومة جنودنا المتصاعدة ... لقد صمد الجنود السوفييت حتى آخر قطرة دم .

وانتهت المعركة بصورة لم تخطر للهتلريين حتى في أشد الاحلام قتامة : فقد انتهت بتطويق الجيوش الالمانية ودحرها تماما وأسر جنودها وضباطها الذين حاصروا ستالينجراد ولكنهم عجزوا عن قهرها . اما هذه الجيوش فكان عدد افرادها يزيد على ثلاثمائة ألف جندي وضابط .

ولم تستطع المانيا الهتلرية ان تسترد قواها بعد هذه الهزيمة . لقد كانت تلك بداية النهاية . وبالرغم من انه كان ينبغي قطع مئات الكيلومترات من ستالينجراد الى برلين عبر جبهات القتال ، وبالرغم من انه بقي على تحقيق ذلك اكثر من سنتين من الحرب الدامية المريرة ، الا ان شمس الانتصار العظيم على الفاشية

قد اشرقت في ايام معركة ستالينجراد بالذات ، اشرقت لكيلا تغرب بعدها ابدا ...

وفي معركة ستالينجراد ، التي دار فيها القتال من اجل كل شارع ، وكل منزل ، وكل طلل ، لم تصطدم فقط القدرة الحربية والاقتصادية لدولتين ، بل أيضا نظامهما الاجتماعي واستراتيجيتهما العسكرية واخلاقهما وفلسفتهما . فكان الباعث على الحرب عند احديهما استعباد الشعوب والدول الاخرى والسيطرة على العالم ، اما الاخرى فقد هبت للنضال في سبيل حرية العالم وضد العبودية والبربرية والاضطهاد .

لقد اصبحت هذه المعركة في روسيا اسطورة . بل ليس في روسيا وحدها . فكل من عانى تلك الحرب — سواء كانوا سكان باريس او براغ ، او فلاحي بلغاريا او صيادي النرويج — يعرف ويذكر جيدا مدى ما يدين به لحماة ستالينجراد . وليس من قبيل الصدفة ان تسمى باسم مدينتهم الشوارع والميادين في ايطاليا ، وفرنسا ، ويوغسلافيا ، وبلجيكا ، والجمهورية العربية المتحدة . وقد حكى فيكتور نيكراسوف ذات مرة انه قد احس بقوة في مدينة سان جيمينيانو القديمة بايطاليا

التي لم يمكث فيها سوى ساعات ، ما الذي تعنيه ستالينجراد لأولئك الذين يمقتون الفاشية . فعندما سمع الشخص الجالس الى مائدته في المطعم ، وكان متقدما في العمر ، ان الكاتب السوفييتي قد خاض معركة ستالينجراد ، خاطب الضيوف الحاضرين قائلا :

« انني كاثوليكي ، كاثوليكي عن عقيدة ، وانني أومن بالله ، لكني اريد ان اقول لكم ، انتم الذين لا تؤمنون به ، اننا مدينون لكم . لقد دافعتم عن ستالينجراد . وحاربتم هناك واستشهدتم لا من اجل انفسكم فحسب ، بل من اجلنا ايضا ، نحن ذوي العقيدة الاخرى والبلد الآخر ، البلد الذي كان يحارب وقتها ضدكم . لقد قصمتم في ستالينجراد ظهر الفاشية ، ونحن مدينون لكم بذلك » .

لقد وضع عن معركة ستالينجراد الكثير من المؤلفات العسكرية والتاريخية وكتب المذكرات التي بحثت اسباب انتصار الشعب السوفييتي على الغزاة الفاشيست . بيد انه ينبغي اضافة الاعمال الفنية الى عداد المصادر التي قصت ما حدث في روسيا على شاطئ الفولجا منذ ما يربو على ربع قرن مضى . فهذه الاعمال

39-2038

التي روت الحقيقة عن البطولة ، والواجب ، ونكران الذات ، والعدالة ، وعن حب الوطن والبشرية ، عن اولئك الذين خاضوا غمار حرب مدمرة ، دون ان تتزعزع افئدتهم او تهن عزائمهم ، تلقي الضوء على تلك الحقيقة ، التي نستطيع ان نسميها اهم منابع النصر . لقد رسمت افضل مؤلفات الكتاب السوفييت التي وضعت عن الحرب العالمية الثانية الشخصية السوفييتية وصورتها على حقيقتها ... وبوسعنا ان نقول ان هذه الشخصية هي أحد أهم « اسرار » انتصارنا .

ورواية « في خنادق ستالينجراد » لفيكتور نيكراسوف هي احد تلك الاعمال . وعندما تبدأ قراءتها ، قد يخيل اليك ان الكاتب لا يطمح الى شيء كبير ، فهو يصف ايام القتال العادية في ستالينجراد المحاصرة وصفا دقيقا ، ويعرض في قالب فني لتاريخ الوقائع الحربية لإحدى الكتائب ، ويرسم صورا معبرة ذات نكهة خاصة لرفاق السلاح . وكل ذلك مكتوب بطريقة تجعلك لا تستطيع ان تتوقف عن القراءة ... ولكن ، أيعقل ان يكون ذلك هو كل ما اراد الكاتب ان يقوله ؛ أيعقل انه لم يكن يضع نصب عينيه « مهمة خاصة » ؟

تعالوا نتأمل احد المشاهد الختامية في الرواية ، وسنجد انه يدفعنا الى اعادة النظر فيما قرأناه ، وفهمه على ضوء جديد .

في هذا المشهد تدور الاحداث بعد محاصرة الجيوش الالمانية في ستالينجراد ، تلك الجيوش التي كان يقودها الفيلدمارشال باولوس . وقد عاد الملازم كيرجينتسيف — الذي يقص الكاتب على لسانه — من المستشفى بعد شفائه الى كتيبته التي لم يبق فيها الا عدد قليل . ويحتفل رفاقه بعودته وبالانتصار على الالمان ، يشربون حتى يثملوا . وهنا يجدون قصاصة جريدة المانية بها خطاب لهتلر ألقاه قبل ثلاثة اشهر فقط ، واعلن فيه بعظمة سقوط ستالينجراد .

ويضحك جندي الاستطلاع تشوماك ذلك الفتى الذي كان بحارا فيما مضى ، وذو الشجاعة النادرة ، يضحك من ذلك الخطاب المشبع بالغرور ، ثم يسأل كيرجينتسيف فجأة : « لماذا سارت الامور هكذا ؟ هه ؟ أتذكر كيف انهالوا علينا في سبتمبر ؟ ومع ذلك لم يحققوا ما ارادوا ، لماذا ؟ لماذا لم يستطيعوا ان يلقوا بنا في الفولجا ؟ » اما كيرجينتسيف الذي ادهشه ان

يطرح هذا السؤال تشوماك بالذات ، وهو الذي تصرف في الشهور العصيبة تصرف بطل حقيقي ، فقد تهرب من الاجابة مازحا ... فهناك كلمات لا يمكن لفظها جهرا ، لان ذلك يذهب بقوتها ، ولهذا فقد اخذ يتذكر — بينه وبين نفسه — اولئك الرفاق الذين حارب الى جانبهم في ستالينجراد ، امثال جندي الرشاش العجوز ، الذي صمد ثلاثة ايام مع رشاشه وقد اصبح معزولا عن رفاقه ، واستمر يطلق النار حتى نفدت ذخيرته ، وعندها فقط عاد زاحفا الى وحدته ، ساحبا معه الرشاش وعلب الرصاص الفارغة ، او ذلك الجندي السيبيري المرح ، الذي فجر دبابة للعدو بالقنابل اليدوية ودفع حياته ثمنا لذلك . وكثيرين غيرهما ...

لقد حافظ كل هؤلاء الجنود البسطاء المتواضعين على كرامة الانسان وسط لهيب المعارك ، ولم يفارقهم الايمان العميق بانتصار القضية العظيمة العادلة ، التي يحاربون في سبيلها . وعندما كانوا يدافعون عن الامتار الاخيرة على شاطئ الفولجا الأيمن ، ادركوا ان نجاح الالمان في قذفهم الى الفولجا او فشلهم في ذلك انما يتوقف على كل فرد منهم . وهكذا ، اصبحت المائتا

متر الباقية والتي تفصل العدو عن الفولجا سدا منيعا لا يمكن اجتيازه . وهنا تتجلى الروح الحماسية لرواية نيكراسوف ، فاذا بها رواية عن المنابع الروحية والخلقية التي تفجر منها انتصارنا .

لقد كتبت رواية « في خنادق ستالينجراد » بعد الحرب مباشرة ، ولما تبرد بعد آثارها الحارة ، وكان الكاتب قد خلع زيه العسكري . ومن يومها الى الآن اعيد طبعها عشرات المرات في الاتحاد السوفييتي . اما في الخارج فقد ترجمت الى ثلاث عشرة لغة واعيد طبعها حوالي اربعين مرة .

فما هو يا ترى سر جاذبية رواية نيكراسوف ، وفيم يتجلى طابعها الخاص ؟ لكي نجيب على هذا السؤال ينبغي علينا ان نستطرد قليلا ، لنحكي عن الكاتب نفسه ...

هناك تصور شائع عن الكاتب ، بانه عادة ذلك الشخص الانطوائي الميال الى التأمل ، المتعطش دوما الى الهدوء والعزلة . ولكن هذا التصور لا ينطبق على فيكتور نيكراسوف ، فهو شخصية اجتماعية ، سريع الألفة مع من حوله . ولديه عدد لا يحصى من الاصدقاء

من مختلف الاعمار والمهن . وعندما يكون بين مجموعة كبيرة ، وسط الضجيج وصخب المناقشات ، يشعر بنفسه كالسمكة في الماء ، وهو يقدر الكلمة اللاذعة ، ولا تعوزه شخصيا امثال هذه الكلمات . ونيكراسوف لم يعد الآن شابا (فقد ولد في عام ١٩١١) ، بيد انه بقيت في طبعه ، بل وفي مظهره العام كله مسحة من الصبا لا تنمحى ، فهو متوسط الطول ، ممشوق القوام ، منتصب الهامة ، لمست يد الشيب رأسه لمسة خفيفة ، ذو نظرة حية لم تخب وقدتها ، نظرة انسان من اهل الجنوب . انني اعرفه منذ مدة طويلة ، وزرته في داره بكييف اكثر من مرة (وبالمناسبة ، فقد قضى معظم حياته في هذه المدينة ، وما زال يسكن فيها للآن) ، ومع ذلك لا اكاد أتصوره الا بصعوبة جالسا الى مكتب . ويخيل الي ان كل ما ابدعه انما كتبه بطريقة ما عرضا او « على الماشى » كما يقال ...

وفي صباه زاول اكثر من مهنة . فقد انهى معهد العمارة ، وعمل مهندسا معماريا . واذكر ذات مرة انه اطلعني ، بشيء من الفخر ، على جسر مشيد في احدى حدائق كييف حسب تصميمه . وما زال الى الآن

يهتم جدا بفن العمارة ، بيد انه لم يعمل مهندسا معماريا الا فترة قليلة ، اذ هجر عمله والتحق بمدرسة للمسرح ، ثم عمل بعد تخرجه منها اربع سنوات في مختلف مسارح البلاد : في فلاديفستوك وكيروف وروستوف على نهر الدون ... عمل ممثلا ورساما مسرحيا . وكتب نيكراسوف قبل الحرب عدة قصص قصيرة ، لكنه لم يهتم بذلك اهتماما جديا ، وبالأحرى فقد كان الدافع الى الكتابة هو فيض القوى لديه ورغبته في تجربة كل شيء في العالم . ولقد حافظ الى الآن على طموح الصبا ، وما يميز الشباب من شوق ظامئ الى معرفة العالم والناس .

ان شخصية الفنان تترك بصماتها على اعماله ، وهي التي تحدد في نهاية المطاف طابع موهبته . وقد قال نيكراسوف : « انني لا استطيع ان اكتب الا عن شيء اعرفه جيدا ، اعرفه معرفة دقيقة ، شيء رأيته بعيني وعايشته . انني لا استطيع ان اكتب الا عن شيء وقع لي » .

وكان لدى نيكراسوف ما يقوله عن الحرب ، فقد خاضها ضابطا محاربا في الخطوط الامامية ، وكان مهندسا لفوج ونائبا لقائد كتيبة مهندسين . وهو يعرف

جيدا احاسيس الجندي القابع في الخندق ، بينما تتقدم نحوه دبابات العدو ، او ذلك الذي ينهض للهجوم تحت وابل الرصاص وقذائف الهاون ، فقد قام بنفسه بزرع الالغام المضادة للدبابات ، وشارك ايضا في الهجمات . وهو يعرف كذلك آلام الجروح ، فقد اصيب بجرح . ويعرف ما يعانيه الجندي لا في القتال فحسب ، بل واثناء السير وقطع المسافات ، فقد سار على قدميه مع طوابير الجنود مئات الكيلومترات في البرد وفي القيظ ... وانعم عليه تقديرا لبطولته وبسالته في الجبهة .

وقدر لفيكتور نيكراسوف ان يتواجد في ستالينجراد طوال فترة المعارك ، من اليوم الاول حتى اليوم الاخير . ولذلك فلنا كل الحق في ان نسمي « في خنادق ستالينجراد » رواية عن حياة الكاتب ، رواية ذكريات ، رواية تسجيلية . انها ليست رواية شاهد عيان ، مهما كان هذا الشاهد دقيق الملاحظة ، بل رواية شخص ساهم في الاحداث . وخلف جميع شخصياتها تقريبا يقف اناس حقيقيون ، حارب نيكراسوف الى جانبهم . ولا يخفي الكاتب ان شخصية المهندس كيرجينتسيف هي شخصية المؤلف نفسه .

وقد حكى فيكتور نيكراسوف عما رآه وعايشه في ستالينجراد بطريقة جعلت امانة السرد الواضحة تنصهر مع وجدانية خالصة شفافة وسيكولوجية عميقة . وهذا ما يضفي على الكتاب سحرا خاصا .

وهناك شيء اخير اود ان اذكره في هذه الخاتمة . لقد زار فيكتور نيكراسوف مدينة ستالينجراد بعد الحرب مرتين . الاولى بعد انتهاء الحرب بقليل ، والثانية منذ فترة قريبة ، بعد مرور ثلاثة وعشرين عاما على معركة ستالينجراد . وقد كتب عن انطباعاته بعد زيارته الثانية يقول : « رأيت امامي مدينة ضخمة لا اعرفها ، غريبة عليّ تماما ، ولم يبق من المدينة الاولى أثر ، اللهم الا مخزن عام تائه بين المباني الجديدة . حسنا ... كان لا بد ان يحدث هذا ... فعلى انقاض مدينة ماتت ، قامت اخرى حية ، ذات منازل كبيرة ، وشوارع جديدة ، باسماء جديدة وسكان جدد . ويشد انتباه القادمين نصب تذكاري عملاق اقيم على تل ماماي تخليدا لابطال معركة ستالينجراد » . ومع ذلك فقد كان هناك شيء ما في هذه المدينة الجديدة الضخمة التي اصبحت غريبة على الكاتب ، شيء

جعل قلبه يدق بعنف : « نفس اشجار الحور التي اطاحت بروؤسها قذائف المدافع تقف عند المدخل ، هي نفسها التي كنا نمر بجوارها ركضا ، على عجل ، في ليالي اكتوبر المظلمة في عام اثنين واربعين ، نفس الاشجار التي خيل الينا ساعتها انها قد ماتت ، واذا بها الآن اصبحت اشجار حور طويلة ، جميلة » . هذه الاشجار التي دبت فيها الحياة فترعرعت ونمت ، لم تذكره فحسب بالريح الباردة الرصاصية التي كانت تعربد هنا ، وبشجاعة مَنْ ضحوا بحياتهم في سبيل هذه الارض ، بل ذكرته ايضا بانتصار الحياة الحرة وعنفوانها ... تلك الحياة التي حارب في سبيلها الجنود السوفييت على ارض ستالينجراد .

ل . لازاريف

محتويات

الجزء الاول ٣

الجزء الثاني ٢٦٦

الخاتمة ٦٢٠